يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

(الأنفال ٨/٢٤)

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد العاشر

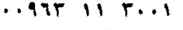
الجزءان ١٩ ـ ٢٠





 دار الفكر - دمشق - البرامكة

٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣


٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد العاشر

الرقم الاصطلاحي: ١٠- ١١٠,١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

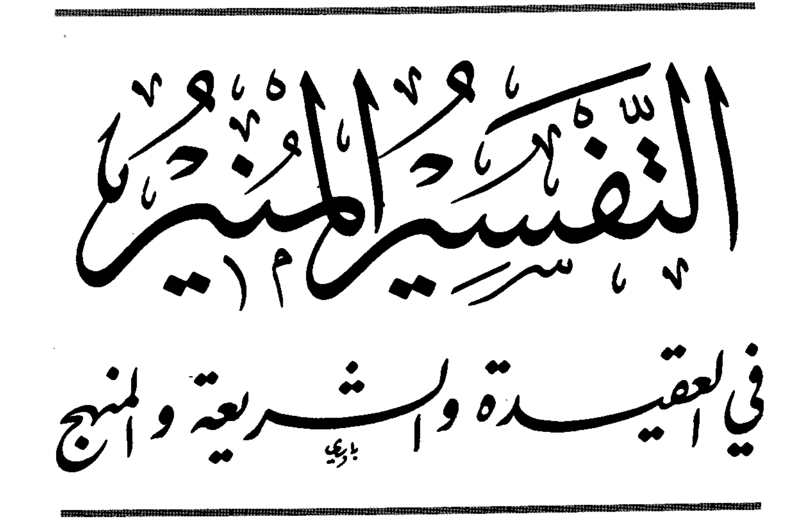
الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٦٣٢ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد العاشر

الجزءان ١٩ ـ ٢٠



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

سورة مكية: إلا الآيات [٦٨، ٦٩، ٧٠ مدنية]

وهي سبع وسبعون آية

تسميتها:

سميت سورة الفرقان؛ لافتتاحها بالثناء على الله عزّ وجلّ الذي نزل الفرقان، هذا الكتاب المجيد على رسوله محمد ﷺ، فهو النعمة العظمى، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وجعله نذيراً للعالمين: الجن والإنس، من بأس الله تعالى.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة سورة الفرقان لسورة النور من وجوه: أهمها: أن سورة النور ختمت بأن الله تعالى مالك جميع ما في السماوات والأرض، وبدئت سورة الفرقان بتعظيم الله الذي له ملك السماوات والأرض من غير ولد ولا شريك في الملك.

وأوجب الله تعالى في أواخر سورة النور إطاعة أمر النبي ﷺ، وأبان مطلع الفرقان وصف دستور الطاعة، وهو هذا القرآن العظيم الذي يرشد العالم لأقوم طريق.

وتضمنت سورة النور القول في الإلهيات، وأبانت ثلاثة أنواع من دلائل التوحيد: أحوال السماء والأرض، والآثار العلوية من إنزال المطر وكيفية تكون الثلج والبرد، وأحوال الحيوانات، وذكر في الفرقان جملة من المخلوقات الدالة على توحيد الله، كمدّ الظل، والليل والنهار، والرياح والماء، والأنعام، والأناسي، ومرج البحرين، وخلق الإنسان والنسب والصهر، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام، والاستواء على العرش، وبروج السماء، والسراج والقمر ونحو ذلك مما هو تفصيل لقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال في النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [٤٣]، وقال في الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ [٤٨] وقال في النور: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [٤٥] وقال في الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [٥٤].

وفي كلتا السورتين وصف أعمال الكافرين والمنافقين يوم القيامة وأنها تكون مهدرة باطلة، فقال في النور: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [٣٩] وقال في الفرقان: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [٢٣].

وشمل آخر سورة النور الكلام على فصل القضاء: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [٦٤] وافتتحت سورة الفرقان بالثناء على الله عزّ وجلّ مالك الملك، وصاحب السلطان المطلق.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كسائر السور المكية اهتمت بأصول العقيدة من التوحيد والنبوة وأحوال القيامة.

فبدأت بإثبات الوحدانية لله عزّ وجلّ، وصدق القرآن، وصحة رسالة النبي ﷺ، ووقوع البعث والجزاء يوم القيامة لا محالة، وفندت أضداد هذه

العقائد، ونعت على المشركين عبادة الأصنام والأوثان ونسبة الولد لله عزّ وجلّ، وتكذيبهم بالبعث والقيامة، وهددتهم بما سيلقون من ألوان العذاب والنكال في نار جهنم، ومفاجأتهم بما في جنان الخلد من أصناف النعيم المقيم.

ثم أبانت شؤم مصير بعض المشركين كعقبة بن أبي مُعَيْط الذي عرف الحق ثم ارتدَّ عنه، فسمّاه القرآن بالظالم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـالِمُ عَلَىٰ يَدَيْـهِ﴾ متأثراً بصديقه الذي سمي بالشيطان وهو أُبي بن خلف.

ثم ذكرت قصص بعض الأنبياء السابقين وتكذيب أقوامهم لهم، وما حلَّ بهم من نكال ودمار وهلاك بسبب تكذيبهم رسل الله، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرّس، وقوم لوط، وأمثالهم من الكافرين الطغاة.

وأوردت السورة أدلة على قدرة الله ووحدانيته، مما في الكون البديع من عجائب صنعه، وما في الأرض من آثار خلقه في الإنسان، والبحر، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وإنزال الأمطار وإرسال الرياح مبشرات بالمطر، وجعل البروج في السماء، وتعاقب الليل والنهار.

ثم ختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن المخلصين الموقنين، وما يتحلون به من أخلاق سامية وآداب رضية، تجعلهم يستحقون بها إكرام الله تعالى وثوابه الجزيل في جنات النعيم.

إنزال القرآن ووحدانية الله تعالى

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَـذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

الإعراب:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِى﴾ الأول، أو مدح مرفوع أو منصوب.

البلاغة:

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ إضافة عبد إلى الله للتشريف والتكريم، دون ذكر اسم النبي.

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي وبشيراً، واكتفى بأحد الوصفين لبيان حال المعاندين ومناسبة الكلام مع الكفار.

﴿يَخْلُقُونَ﴾ و﴿يُخْلَقُونَ﴾ جناس ناقص لتغاير الشكل فقط.

﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾ ﴿مَوْتًا﴾ و﴿حَيَوٰةً﴾ بين كلٍّ منهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿تَبَارَكَ﴾ تعالى وتعاظم وتكاثر خيره، من البركة: وهي كثرة الخير، ففي إنزال القرآن خير كثير من الله لعباده، ودلالة على تعاليه عنه وعلى كل شيء في صفاته وأفعاله. ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ القرآن؛ لأنه فرق بين الحق والباطل، وبين المحق والمبطل بإعجازه، أو لأنه فرّق وفصل بعضه عن بعض في الإنزال كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٦].

﴿عَبْدِهِۦ﴾ أي رسوله محمد ﷺ، ووصف بأنه عبد تشريفاً له بكونه في أكمل مراتب العبودية، وتنبيهاً إلى أن الرسول عبد للمرسل، وهو ردّ على النصارى الذين يدّعون ألوهية عيسى عليه السلام. ﴿لِيَكُونَ﴾ العبد أو الفرقان. ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ للجن والإنس دون الملائكة. ﴿نَذِيرًا﴾ منذراً مخوفاً من عذاب الله تعالى.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كزعم النصارى. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كقول

الثنوية والمشركين .﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي خلق كل مامن شأنه أن يخلق. ويلاحظ أنه تعالى في أول الآية أثبت الملك له مطلقاً، ثم نفى ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه، ثم نبَّه بقوله: ﴿وَخَلَقَ﴾ على ما يدل عليه، والخلق: إحداث مراعى فيه التقدير حسب إرادته، كخلقة الإنسان من مواد مخصوصة وصور أشكال معينة .﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ سواه تسوية، وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير، واستخراج الصنائع المتنوعة، ومزاولة الأعمال المختلفة وغير ذلك.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ بعد أن أثبت التوحيد والنبوة، أخذ في الرّد على المخالفين فيهما ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن عبدتهم ينحتونهم ويصوّرونهم، ومن دونه أي غير الله، وآلهة: هي الأصنام .﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي دفع ضر ولا جلب نفع ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ أي إماتة أحد أو إحياء أحد ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ ولا بعث أحد من الأموات، فالنشور: الإحياء بعد الموت للحساب.

التفسير والبيان:

افتتح الله تعالى سورة الفرقان بالكلام عن إثبات الصانع ووصفه بالجلال والكمال، وتنزهه عن النقصان والمحال، فقال:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ أي إن الله تعالى يحمد نفسه الكريمة على ما نزّله على رسوله ﷺ من القرآن العظيم، لينذر به الثقلين: الجن والإنس ويخوف من بأسه أو عذابه وعقابه. وهذا دليل قاطع على عموم الرسالة الإسلامية للناس قاطبة وللجن أيضاً. ومعنى: ﴿تَبَارَكَ﴾: تعالى وتعاظم وكثر خيره، ولا خير أكثر ولا أفضل من إنزال القرآن المجيد دستور الحياة الإنسانية، المشتمل على التبشير والإنذار، تبشير الطائعين بالجنة، والمخالفين المعاندين المعارضين بالنار. وإنما ذكر الإنذار فقط ولم يذكر

التبشير، مع أن مهمة الرسول تشملهما؛ لمناسبة الكلام مع الكفار المعارضين الذين اتخذوا لله ولداً، وجعلوا معه شريكاً. والعبد: هو محمد رسول الله، و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: القرآن الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وفرّقه في الإنزال منجماً حسب المناسبات.

ونظير الآية قوله تعالى في فاتحة سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١-٢] وتكرار كلمة ﴿عَبْدِهِ﴾ في الآيتين مدح للنبي ﷺ وثناء عليه؛ للإشارة إلى كمال عبوديته في منزلة الخلق والسلطان، كما وصفه بذلك في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١] ووصفه بذلك أيضاً في مقام الدعوة إليه في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ١٩] ووصفه هنا عند إنزال الكتاب عليه وتكليفه بتبليغ الرسالة.

ثم وصف الله تعالى ذاته بأربع صفات من صفات الكبرياء، فقال:

١ - ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن المالك الحقيقي لجميع ما في السماوات والأرض هو الله تعالى، والمالك: له السلطان المطلق في التصرف في ملكه كما يشاء، وله القدرة التامة على ما في ملكه إيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة، وأمراً ونهياً على وفق الحكمة والمصلحة.

وهذا دليل على وجود الله تعالى؛ لأنه لا طريق إلى إثباته إلا ببيان احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه في أصل وجودها، وزمان حدوثها، وأثناء بقائها، وتصرفه تعالى فيها كيف يشاء، والحاجة إلى الموجد المتصرف يوجب وجوده، لذا قدمت هذه الصفة على سائر الصفات.

٢ - ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي لم يكن له ولد إطلاقاً، خلافاً لما زعم اليهود

والنصارى ومشركو العرب من جعل عزير والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله، كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠] ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٤٩-١٥٣] .

٣ - ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي ليس لله في مُلْكه وسلطانه شريك، فهو المتفرد بالألوهية، المستحق وحده للعبادة والعبودية، وإذا عرف العبد ذلك وجَّه رجاءه إلى الله تعالى ولم يخف إلا منه، ولم يشغل قلبه إلا برحمته وإحسانه.

وهذا ردّ على الثنوية القائلين بوجود إلهين اثنين للعالم: وهما النور والظلمة، وعلى عَبَدة النجوم والكواكب من الصابئة، وعلى عبدة الأوثان من مشركي العرب الذين كانوا يقولون في تلبية الحج: «لبَّيك لاشريكَ لك إلا شريكاً هو لك، تملِكُه وما مَلَك».

والصفتان المتقدمتان نزَّه الله تعالى نفسه فيهما عن الولد وعن الشريك.

٤ - ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي أوجد كل شيء مما سواه، وأحدثه إحداثاً راعى فيه التقدير بقدر معين والتسوية بشكل محدد، وهيأه لما يصلح له من الخصائص والأفعال اللائقة به، فالإنسان مثلاً خلقه الله بشكل مقدر مسوّى في أحسن تقويم، وأوجد فيه من الحواس والطاقات والإمكانات للإدراك والفهم، والنظر والتدبير، واستنباط الصنائع، ومزاولة الأعمال المختلفة، وكذلك الحيوان والجماد جاء به على خِلْقة مستوية مقدرة مطابقة لما يراه من الحكمة والمصلحة والتدبير، ولما قدر له غير منافر أو متجاف عنه. والخلاصة: أنه قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد.

وفسّر ابن كثير الجملة الأخيرة بأن كل شيء مخلوق مربوب لله، والله هو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره.

وبعد أن وصف الله تعالى نفسه بصفات الجلال والعزة والعلو، أردف ذلك بتزييف مزاعم عبدة الأوثان فقال:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ والمعنى أن تلك الآلهة المزعومة لا تستحق الألوهية لنقصانها من وجوه أربعة هي:

أ - إنها لا تخلق شيئاً، والإله يجب أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد.

ب - إنها مخلوقة، والمخلوق محتاج، والإله يجب أن يكون غنياً عن غيره. ولما اعتقد المشركون في أصنامهم أنها تضرّ وتنفع عبَّر عنها بقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كما يعبر عن العقلاء.

ج - إنها لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً، أي لا دفع ضرر ولا جلب نفع، فلا تملك ذلك لغيرها، ومن لا يملك لنفسه ولا لغيره النفع ودفع الضرر لا فائدة في عبادته.

د - إنها لا تملك موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، أي لا تقدر على الإماتة والإحياء المبتدأ والمُعَاد في زماني التكليف والجزاء، ومن كان كذلك كيف يسمى إلهاً؟ بل ذلك كله مرجعه إلى الله عزّ وجلّ الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٣١/٢٨].

والخلاصة: إن الله هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وأما عبدة الأصنام والمشركون فقد عبدوا غير

الخالق، الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، ولا يقبل بهذا عاقل متزن، أو عالم متأمل.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

١ً - الله تعالى هو الإله الموجود الواحد الأحد، الخالق المالك لكل شيء.

٢ً - الله تعالى مصدر الخير الكثير الفياض على عباده، ومن أتم فضائله وخيراته ونعمه إنزاله القرآن الكريم على عبده ورسوله محمد ﷺ.

٣ً - إثبات نبوة محمد ﷺ، وتحديد مهمته في الإنذار والتبشير، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.

٤ً - الرسالة الإسلامية رسالة شاملة للثقلين: الجن والإنس، عالمية الهدف، موجهة لكل أبناء البشرية في مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنها التي تمثل الدين الحق، وخاتمة الرسالات الإلهية كما قال ﷺ فيما ورد في الصحيحين والنسائي عن جابر: «بعثت إلى الأحمر والأسود» وقال فيما رواه أحمد عن علي: «أعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد قبلي» وذكر منها: «وكان النبي يُبْعَثُ إلى قومِهِ خاصّةً، وبُعثتُ إلى الناس عامة» فالنبي ﷺ قد كان رسولاً إلى العالمين: الإنس والجن، ونذيراً لهما، وأنه خاتم الأنبياء، ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح عليه السلام، فإنه عم برسالته جميع الإنس بعد الطوفان، بحكم الواقع؛ لأنه بدأ به الْخَلْق.

٥ً - عظم الله تعالى نفسه بأربع صفات من صفات الكبرياء وهي أنه مالك السماوات والأرض؛ ولم يتخذ ولداً، فنزه نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله أي بناته، وعما قالت اليهود: عزيرابن الله، وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله، تعالى الله؛ وأنه لاشريك له في الملك لا كما قال

عبدة الأوثان؛ وخلق كل الأشياء لا كما قال المجوس والثَّنوية: إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء.

٦ً - دلّ قوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ على أنه تعالى خالق لأعمال العباد.

٧ - بالرغم من هذه الادلة على وحدانية الله وقدرته اتخذ المشركون آلهة لا تتصف بأي صفة من صفات الله تعالى، بل إنها أعجز من البشر الذين عبدوها مع الله، فهي مخلوقة غير خالقة، ولا تدفع ضرراً ولا تجلب نفعاً لنفسها ولمن يعبدها؛ لأنها جمادات، ولا تقدر على التصرف في شيء بالإحياء، والإماتة، والنشور: الإحياء بعد الموت، فهل بعد هذا يقبل عاقل اتخاذها آلهة معبودة؟! لقد احتقر الإنسان نفسه إذ يسجد لصنم أو وثن، أو يستوعب مثل هذه الخرافات والأباطيل.

مطاعن المشركين في القرآن

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

الإعراب:

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أساطير: خبر مبتدأ محذوف، أي هذه أساطير الأولين، والأساطير: جمع أُسطورة، أو أسطار: وهو ما سطره المتقدمون.

المفردات اللغوية:

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذب واختلاق .﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه

محمد. ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ جماعة من اليهود، فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم، وهو يعبر عنه بعبارته، وقيل: هم جبر ويسار وعَدَّاس. ﴿ظُلْمًا﴾ الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وهو هنا جعل الكلام المعجز إفكاً مختلفاً متلقفاً من اليهود. ﴿وَزُورًا﴾ الزور: الكذب والقول الباطل البعيد عن الحق، وهو هنا نسبة ما هو بريء منه إليه. والمعنى: جاؤوا بالأمرين: الظلم والزور، أي الكفر والكذب.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أيضاً: هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أكاذيب المتقدمين التي سطروها وهو جمع أُسطورة أو أسطار. ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ انتسخها من ذلك القوم، بأن كتبها بنفسه أو استكتبها وأمر بكتابتها. ﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ تقرأ عليه ليحفظها. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوة وعشية، أو صباحاً ومساء، والمراد: دائماً.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ﴾ رد عليهم. ﴿ٱلسِّرَّ﴾ الغيب، أي أعجزكم جميعاً بفصاحته وتضمنه أخباراً عن مغيبات مستقبلة، وأشياء خفية لا يعلمها إلا عالم الأسرار، فكيف تجعلونه أساطير الأولين؟! ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إنه تعالى كان وما يزال غفوراً للمؤمنين رحيماً بهم، ولا يعجّل أيضاً في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته على العقاب، واستحقاقكم إنزال العذاب.

سبب النزول:

قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث، فهو الذي قال هذا القول. وعنى بقوله تعالى: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ عدَّاس مولى حُوَيْطب ابن عبد العُزَّى، ويسار غلام عامر بن الحضرمي، وجبر مولى عامر أو أبو فُكَيْهة الرومي، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب، وكانوا يقرؤون التوراة ويحدثون أحاديث منها، فلما أسلموا، وكان النبي ﷺ يتعهدهم، قال النضر ما قال. فرد الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾

المناسبة:

بعد أن تكلم سبحانه أولاً في التوحيد، وثانياً في الرد على عبدة الأوثان، تكلم ثالثاً في النبوة، وذكر مطاعن المشركين: طعنهم في القرآن، وطعنهم في نبوة النبي محمد ﷺ الذي نزل عليه القرآن.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات شبهتين من شبهات المشركين الواهية التي تدل على سخافة عقولهم وجهلهم، فقال:

الشبهة الأولى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي وقال هؤلاء الجهلة من الكفار: ما هذا القرآن إلا كذب واختلاق، اختلقه محمد ﷺ، واستعان على جمعه بقوم آخرين من أهل الكتاب الذين أسلموا فيما بعد، كما ذكر في سبب النزول.

فأجابهم تعالى عن هذه الشبهة بقوله:

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه، فكان قولهم كفراً وظلماً بيِّناً في غير موضعه، وكذباً مفترى على ربهم، إذ جعلوا الكلام المعجز وهو هذا القرآن إفكاً مفترى من قبل البشر. وهذه غاية حجة الضعيف، فإنه إذا لم يجد جواباً مقنعاً، بادر إلى الإنكار الذي لا دليل عليه، والتكذيب الذي لا مستند له، فلو صح ما قالوا فلِمَ لم يأتوا بمثله، واستعانوا كما استعان محمد ﷺ بغيره على وفق زعمهم، فإعجاز القرآن دليل كاف وحده للرد عليهم وإبطال مفترياتهم، وهم أهل الفصاحة والبيان.

الشبهة الثانية:

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ أي وقال الكفار المشركون أيضاً: إن هذا القرآن أساطير الأولين أي أكاذيب المتقدمين، وأحاديث السابقين الذين سطروها في كتبهم كأحاديث رستم وأسفنديار، انتسخها محمد ﷺ بوساطة أهل الكتاب يعني عامراً ويساراً، وجبراً أو أبا فُكَيْهة مولى ابن الحضرمي، فهي تقرأ عليه صباح مساء، أي دائماً، وخفية ليحفظها، إذ هو أمي لا يقرأ ولا يكتب. وهذا محض افتراء آخر، وتضليل وبعد عن الحق ومكابرة، فقد عرفوا صدق محمد ﷺ، وأمانته وسلوكه، وبعده عن الكذب، مدة أربعين عاماً قبل البعثة، حتى لقّبوه بالأمين، لما يعلمون من صدقه واستقامته، وكان أمياً لا يعرف شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، فلما أكرمه الله بالرسالة عادوه واتهموه بما هو بريء منه، ووصفوا القرآن المنزل عليه بالأساطير، مع أنه دستور الحكمة والمدنية والحضارة والعلم والتشريع الأمثل للحياة الإنسانية.

ثم أجابهم الله تعالى بقوله:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل لهم يا محمد النبي: أنزل القرآنَ المشتملَ على أخبار الأولين والآخرين بصدق مطابق للواقع الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إن هذا القرآن إنما نزل رحمة بالعباد، فلا يكون سبباً لتعجيل العقاب، لذا لم يعاجلكم بالعقوبة رحمة بكم؛ لأنه تعالى غفور رحيم، يمهل ولا يعجل، لتتوبوا وتقلعوا عن الكفر والشرك. فهذه دعوة لهم إلى التوبة والإنابة والإقبال على ساحة الإسلام والهدى، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، فمن تاب تاب الله عليه، بالرغم مما صدر

منهم من افتراء وكذب، وكفر وعناد، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٧٣-٧٤] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١٠] قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة.

وهذا دليل على أن التوبة الصادقة تسقط الإثم والذنب وتجبُّ ما قبلها من الذنوب، فهي مغفورة كرماً من الله تعالى، وفضلاً ورحمة.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات حكاية شبهتين للمشركين وجوابين عنهما، أما الشبهتان فهما: إن القرآن كذب مختلق اختلقه محمد ﷺ وأعانه عليه قوم من اليهود وإن القرآن أساطير أي أكاذيب وحكايات المتقدمين، فهي تلقى على محمد، وتقرأ في أول النهار وآخره، أي دائماً، حتى تحفظ.

والرد على الشبهة الأولى: إنهم هم الذين افتروا هذا القول الباطل وهم يعلمون بطلانه، لا إن القرآن مفترى. والرد على الشبهة الثانية إن منزل القرآن هو الله الذي يعلم السر والغيب والجهر، فلا يحتاج إلى معلِّم، ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها، وقد جاء بفنون تخرج عنها، فليس مأخوذاً منها، وأيضاً لو كان مأخوذاً من هؤلاء، لتمكّن المشركون منه أيضاً، كما تمكن محمد ﷺ، فهلا عارضوه؟ فبطل اعتراضهم من كل وجه.

وبيان هذا الجواب: إن الله تحداهم بالمعارضة، وظهر عجزهم عنها، ولو كان ﷺ أتى بالقرآن مستعيناً بأحد، لسهل عليهم الاستعانة بآخرين، فيأتون بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا عنه، ثبت أنه وحي الله وكلامه، لهذا قال:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي إن تلك الفصاحة القرآنية لا تتأتى إلا من العالم بكل المعلومات، وإن القرآن مشتمل على الإخبار عن المغيبات، وذلك لا يتأتى إلا من كامل العلم، وإن القرآن مبرأ عن النقص والتعارض، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/٨٢] والقرآن مشتمل على أحكام منسجمة مع مصالح العالم ونظام الناس، وهو لا يكون إلا من العالم الواسع العلم، وكذلك القرآن مشتمل على أنواع العلوم، وهو لا يتأتى إلا من العليم الخبير.

طعن المشركين في النبي المنزل عليه القرآن

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (نأكلُ منها).

﴿مَّسْحُورًا ، ٱنظُرْ﴾:

بكسر التنوين وصلاً، قرأ: حمزة، وأبو عمرو، وابن ذكوان، وعاصم، وقرأ الباقون بضمه.

﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن عامر (ويجعلُ لك).

الإعراب:

﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ﴿فَيَكُونَ﴾ منصوب لأنه جواب التحضيض بالفاء، بتقدير «أن».

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ معطوف على ﴿يُلْقَىٰٓ﴾ وكلاهما داخل في التحضيض، وليس بجواب له.

﴿وَيَجْعَل﴾ معطوف على جواب الشرط وهو «جعل» وموضعه الجزم، وحسن أن يعطف المستقبل على الماضي لفظاً؛ لأنه في معنى المستقبل؛ لأن «إن» الشرطية تنقل الفعل الماضي إلى الاستقبال. وقرئ بالرفع على أنه مستأنف، تقديره: وهو يجعل لك.

البلاغة:

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ استفهام يراد به التهكم والتحقير.

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم ظلم ما قالوه.

المفردات اللغوية:

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ أي ما لهذا يزعم الرسالة؟ وفيه استهانة وتهكم. ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل .﴿وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ لطلب المعاش كما نمشي، والمعنى: إن صح ادعاؤه، فما باله لا يخالف حاله حالنا، وذلك لقصور نظرهم على المحسوسات، فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور

جسمانية، وإنما بالأمور المعنوية، كما أشار تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠] ، و[فصلت: ٤١/ ٦].

﴿لَوْلَآ﴾ هلا .﴿أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ يصدقه، فنعلم صدقه بتصديق الملَك .﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ من السماء ينفقه ويستغني به عن طلب المعاش .﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ بستان، أي إن لم يلق إليه كنز، فلا أقل من أن يكون له بستان، كما للدهاقين والمياسير، فيعيش من ريعه وغلته، وهذا منهم على سبيل التنزل .﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي من أثمارها، فيكتفي بها ويتميز علينا بها. وقرئ (نأكل) أي نحن، وهذا كله تفكير الماديين .﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون .﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون .﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي سُحر فغُلب على عقله واختل تفكيره .﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي قالوا فيك الأقوال العجيبة الشاذة التي جرت مجرى الأمثال، واخترعوا لك الأحوال النادرة، كالمسحور والمحتاج إلى ما ينفقه، وإلى مَلَك يعاونه في الأمر .﴿فَضَلُّوا۟﴾ بذلك عن الهدى وعن الطريق الموصل إلى معرفة خواص النبي ﷺ، والمميز بينه وبين المتنبئ، فخبطوا خبط عشواء وقوله: ضلوا: أي بقوا متحيرين في ضلالهم .﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى الرشد والهدى، أو إلى القَدْح في نبوتك .﴿قُصُورًا﴾ جمع قصر وهو كل بيت مشيد بالحجارة ونحوها، أما ما يتخذ من الصوف أو الشعر فهو البيت في عرف العرب.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه وابن جرير وابن أبي حاتم عن خيثمة قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها، لا ينقصك ذلك عندنا شيئاً في الآخرة، وإن شئت جَمَعْتُهما لك في الآخرة، فقال: لا، بل اجمعْها لي في الآخرة، فنزلت: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾

الآية. أي إن عرض الخزائن من الله. وجاء في السيرة النبوية أن عروض الإغراء بالمال والغنى، والسيادة والجاه، والملك والسلطان كانت من زعماء قريش.

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: إن عتبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البَخْتري بن هشام، والأسود بن المطلب، وزَمْعَة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية، وأُمية بن خَلَف، والعاص بن وائل، ومنبّه بن الحجاج اجتمعوا، فقال بعضهم لبعض:

ابعثوا إلى محمد، وكلموه وخاصموه حتى تَعْذِروا منه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك، قال: فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، إنا بَعَثْنا إليك لنعذر منك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب به الشرف، فنحن نُسوِّدك، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملّكنَاك؟.

فقال رسول الله ﷺ: ما بي مما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فسل لربك، وسل لنفسك أن يبعث معك ملَكاً يصدّقك فيما تقول، ويراجعنا عنك، وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فأنزل الله في ذلك هذه الآية.

المناسبة:

بعد بيان شبهتي المشركين في القرآن، أبان الله تعالى شبهة ثالثة في النبي المنزل عليه القرآن، وهو الرسول محمد ﷺ، ثم أبطل تعالى تلك الشبه، وكشف سخفها وزيفها وعدم صلاحيتها للطعن في النبي ﷺ، فهي في غاية السخافة والسقوط، ولا دليل عليها، وإنما هي تعللات تشير إلى تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة.

التفسير والبيان:

ذكر المشركون خمس صفات للنبي ﷺ تتعارض مع النبوة في زعمهم وهي:

١ - ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ أي قال المشركون: لا ميزة لهذا النبي الذي يدعي الرسالة، فهو يأكل كما نأكل، ويشرب كما نشرب، ويحتاج إلى ذلك كما نحتاج إليه، يعنون أنه كان يجب أن يكون مَلَكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش.

٢ - ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي يتردد فيها وإليها، طلباً للتكسب والتجارة وابتغاء للرزق والمعيشة، فمن أين له الفضل علينا، وهو مثلنا في هذه الأمور؟

وهذا منهم تصور مادي محض، وموازنة ساذجة، فإن الرسل لم يمتازوا بصفات حسية مادية، فهم في هذا كغيرهم من البشر، وإنما امتازوا بقيم معنوية، ومكاسب أدبية، وطهارة نفسية، لذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠].

٣ - ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ أي هلا أنزل إليه مَلَك من عند الله، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه، ويرد على من خالفه، كما قال فرعون عن موسى عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٥٣].

٤ - ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي وهلا ألقي عليه كنز من السماء، فينفق منه، فلا يحتاج إلى التردد في الأسواق لطلب المعاش.

٥ - ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي إن لم يكن له كنز فلا أقل من أن يكون كأحد الدهاقين أو المياسير، له بستان يأكل منه، ويعيش من غلته وثمرته.

قال الزمخشري: إنهم يعنون أنه كان يجب أن يكون مَلَكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه مَلَك، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف، ثم نزلوا أيضاً فقالوا: وإن لم يكن مرفوداً بملَك، فليكن مرفوداً بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتزق[1].

وهذا تصور مادي محض، وقياس على أحوال أصحاب السلطة والنفوذ الدنيوي، وتقدير منهم أن الرسالة أمر آخر فوق البشرية، وما فهموا ولا أدركوا أن الرسول بشر أوحي إليه من عند ربه.

وبعد أن انتقصوا الرسول ﷺ بصفات أهل الدنيا، وعيروه بها، نفوا عنه صفة العقل، وهي شبهة أخرى أو صفة سادسة، فقالوا:

٦ - ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي وقال

---

(١) الكشاف: ٢/ ٤٠٠

الكافرون: ما تتبعون إلا رجلاً سحر فاختل عقله، فهو لا يدرك ما يقول، فكيف يطاع فيما يأمر؟.

فأجاب تعالى عن هذه الشبهة بقوله:

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ أي انظر متعجباً أيها الرسول، كيف قالوا فيك تلك الأقوال، واخترعوا لك تلك الصفات، والأحوال النادرة، وقذفوك وافتروا عليك بقولهم: ساحر مسحور، مجنون، كذاب، شاعر، وكلها أقوال باطلة، وأوصاف مفتراة، لا يصدق بها من له أدنى فهم وعقل، فصاروا متحيرين ضُلالاً عن طريق الهدى والحق، فلا يجدون طريقاً إليه.

وهذا جواب إجمالي، أردفه بجواب خاص عن طلب البستان والكنز، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ أي تكاثر خير ربك، فهو إن شاء وهب لك في الدنيا خيراً مما اقترحوا أو طلبوا، وهو أن يعجل لك مثلما وعدك به في الآخرة من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، والقصور الشامخة النادرة، وأن يؤتيك خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن. ولكن الله تعالى ادخر لك العطاء في دار الآخرة الخالدة، لا في الدنيا الزائلة، حتى لا تشتغل بالدنيا عن الدين وأداء مهمة تبليغ الرسالة، ولأن ما عند الله خير وأبقى.

قال خَيْثمة: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها، ما لم نعطه نبياً قبلك، ولا نعطي أحداً من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله، فقال: «اجمعوها لي في الآخرة» فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - المقارنة البناءة المثمرة بين التفكير المادي الذي يؤثر الدنيا، والتفكير الديني الذي يتخذ الدنيا وسيلة للحياة، وجسراً إلى الآخرة، وأن الدنيا ليست هي كل هدف الإنسان العاقل، فأمامه عالم آخر، عليه الاستعداد له، والإعداد للظفر بخيراته بالإيمان والعمل الصالح.

٢ً - إن دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب العيش، وكان ﷺ يدخلها لحاجته، ولتذكير الناس بأمر الله ودعوته، وعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق.

وقد تاجر الصحابة وبخاصة المهاجرون في الأسواق، كما خرَّج البخاري عن أبي هريرة: «وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْق[1] في الأسواق».

٣ً - من لم يتأثر بعقل مجرد وقلب طاهر بأقوال النبي ﷺ وبرسالته لذاتها، لما فيها من هداية إلى الحق والخير والتوحيد، لم تنفعه إنذارات الملائكة، فما وراء الإنذار إلا العذاب.

٤ً - إن الاتهامات الرخيصة والأوصاف المرذولة زائفة باطلة عند أهل الحكمة والاتزان، والحصافة والعقل. فمن يُصدِّق أن رسول الله ﷺ الذي عرف بالفطنة ورجاحة الرأي والعقل وسداد التفكير ساحر مسحور، وشاعر مأفون، ومجنون مختل العقل؟ إن الواقع خير شاهد على تكذيب تلك المزاعم والافتراءات. ولا تحتاج إلى جواب إلا كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾

٥ً - إن فضل الله وخيره ونعمه كثيرة لا تعد ولا تحصى، وقدرته شاملة لكل شيء، إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لكنه تعالى لا يريد لأنبيائه

(١) الصفق: التبايع.

وأوليائه أن يكونوا أهل غنى وثروة ودنيا، فأهل الغنى والثروة تنتهي سمعتهم بموتهم، ولا يبقى لهم ذكر أو شهرة، وإنما أراد الله تعالى لأنبيائه تخليد آثارهم وذكراهم في الحياة الإنسانية بالقيم الخالدة، والمعاني السامية، وبما قدموه للبشرية من عطاء تذكُره لهم الأجيال، ويحتكم إلى أصالته الحكماء، ويظل أثرهم الخالد مضرب الأمثال، وقدوة لكل إنسان، وأمل الحيارى، وحلم المعذبين في الأرض، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/١٦-١٧].

يروى أن هذه الآية: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ أنزلها رضوان خازن الجنان إلى النبي ﷺ[1]؛ وفي الخبر: إن رضوان لما نزل سلَّم على النبي ﷺ؛ ثم قال: يا محمد، ربُّ العزة يقرئك السلام، وهذا سَفَط[2] - فإذا سفَط من نور يتلألأ - يقول لك ربك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا، مع أنه لا ينقص ما لَك في الآخرة مثل جناح بعوضة؛ فنظر النبي ﷺ إلى جبريل كالمستشير له؛ فضرب جبريل بيده الأرض، يشير أن تواضع؛ فقال: يا رضوان، لا حاجة لي فيها، الفقر أحب إلي، وأن أكون عبداً صابراً شكوراً، فقال رضوان: أصبت، الله لك.

٦ - دل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ على أنه سبحانه يعطي العباد على حسب المصالح، فيرزق بعضهم نعمة المال، وآخر نعمة العلم، وغيرهم نعمة العقل والفهم، وهو فعال لما يريد.

---

(١) كان رضوان في هذا مع جبريل عليهما السلام أمين الوحي بدليل بقية الخبر.

(٢) السفط: المحفظة أو الوعاء المخصص لوضع الطيب ونحوه من أدوات النساء.

إنكار المشركين يوم القيامة وحالهم فيه ومقارنتهم بأهل الجنة

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦)﴾

القراءات:

﴿ضَيِّقًا﴾

وقرأ ابن كثير (ضَيْقاً).

الإعراب

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، تقديره: سمعوا لها صوت تغيظ وزفير. ﴿أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا﴾ ﴿مِنْهَا﴾ حال من ﴿مَكَانًا﴾ لأنه في الأصل صفة له.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ (ذلك) إشارة إلى ما ذكر من السعير، وجاء التفضيل بينهما على حد قولهم: الشقاء أحب إليك أم السعادة. وأفعل التفضيل يقتضي الاشتراك بين الشيئين في الأصل، وإن اختلفا في الوصف، فلا يجوز القول: العسل أحلى من الخلّ، لعدم الاشتراك في أصل الحلاوة، وأجازه الكوفيون.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾ ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿لَّهُمْ﴾ أو

من ضمير ﴿يَشَآءُونَ﴾

البلاغة:

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ استعارة تمثيلية، شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره، لما فيهما من هياج واضطرام، وهو صوت يسمع من جوفه.

المفردات اللغوية:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ القيامة، والمعنى: ليس ما ذكروه من الشبهة في وصف الرسول ﷺ بما زعموا من الأوصاف الخمسة أو الستة يصلح أن يكون شبهة ذات بال أو أهمية، بل الذي حملهم على تقولهم وافترائهم تكذيبهم بالساعة، وبما فيها من ثواب وعقاب؛ لأن من يخاف الآخرة ينظر ويفكر، ولا يتورط بالتكذيب والافتراء ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ هيأنا .﴿سَعِيرًا﴾ ناراً مسعَّرة شديدة الاشتعال .﴿رَأَتْهُم﴾ إذا كانت بمرأى منهم، كقوله ﷺ عن المسلمين والمشركين فيما رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن جرير: «لا تتراءى ناراهما» أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى عن الأخرى، على سبيل المجاز .﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يرى منه .﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي سمعوا لها صوت تغيظ وزفير، والتغيظ: شدة الغضب، والزفير: هو النَّفَس الخارج من الإنسان، ضد الشهيق.

﴿مِنْهَا مَكَانًا﴾ أي في مكان، ومنها: بيان تقدم، فصار حالاً .﴿ضَيِّقًا﴾ بأن يضيق عليهم، ووصف بالضيق لزيادة العذاب، فإن الكرب مع الضيق، والانشراح مع السعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السماوات والأرض ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مصفدين، قد قرنت (جمعت) أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال والسلاسل .﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان .﴿ثُبُورًا﴾ أي هلاكاً، والمعنى: أنهم يتمنون الهلاك ويطلبونه قائلين: يا ثبوراه تعال. فهذا حينك.

﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي اطلبوا أنواعاً من الهلاك؛ لأن عذابكم أنواع كثيرة، كل نوع منها ثبور، لشدته، أو لأنه يتجدد، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٤/ ٥٦] .

﴿أَذَٰلِكَ﴾ المذكور من الوعيد والعذاب وصفة النار. والاستفهام والتفضيل والترديد في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ للتقريع مع التهكم. وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح، أو الدلالة على خلودها، وتمييزها عن جنات الدنيا. ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وعدها المتقون وهم الذين يتقون الكفر والتكذيب.

﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله أو في اللوح المحفوظ. ﴿جَزَآءً﴾ ثواباً على أعمالهم بوعد جازم من الله. ﴿وَمَصِيرًا﴾ مرجعاً ينقلبون إليه. ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ ما يشاؤونه من النعيم، وفيه تنبيه على أن كل المرادات والرغبات لا تحصل إلا في الجنة. ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي كان ذلك موعوداً، حقيقاً بأن يُسْأل ويُطلب، ويسأله الذين وُعدوا به، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٤] أو تسأله الملائكة لهم، كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٤٠/ ٨] .

المناسبة:

بعد بيان الشبهات الثلاث المتقدمة للمشركين وهي: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ الآية، وبعد الجواب عن الشبهة الثالثة بجوابين: أولهما - ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ وثانيهما - ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ بعدما ذكر، أجاب الله تعالى بجواب ثالث عن تلك الشبهة بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي إن تقولهم عليك أيها الرسول مصدره تكذيبهم بالبعث، وعدم تصديقهم بالثواب والعقاب. أو أنه عطف على ما حكي عنهم، ثم قال: بل أتوا بأعجب من ذلك كله، وهو تكذيبهم بالساعة.

التفسير والبيان:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي إن موقف هؤلاء المشركين منك أيها الرسول بالتكذيب والعناد، لا بالتبصر والاسترشاد، والتقول عليك بالأباطيل، ناشئ من تكذيبهم بيوم القيامة، فذلك هو الذي يحملهم على ما يقولونه من تلك الأقوال الساقطة؛ لأن من لا يوقن بالقيامة، ولا بالحساب والجزاء يتورط بسرعة في الاتهام دون تقدير للمسؤولية، ولا تأمل في عواقب الأمور، ولا انتفاع بالأدلة التي ترشده إلى التعقل والتبصر بما يقول، فهذا أعجب من كل ما صدر منهم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي هيأنا وأرصدنا لمن كذب بالقيامة وما فيها من حساب وجزاء، ناراً مستعرة شديدة الالتهاب، وعذاباً أليماً حاراً في نار جهنم. والسعير: مذكر، ولكن جاء هنا مؤنثاً لعود الضمير بالتأنيث في قوله تعالى: ﴿رَأَتْهُم﴾ وقوله ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ وإنما جاء مؤنثاً على معنى النار.

ودلت الآية على أن النار مخلوقة؛ لأن (أعتدنا) أعددنا إخبار عن فعل وقع في الماضي، مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣١] وكذلك الجنة مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣] .

ثم وصف الله تعالى أهوال النار بصفتين فقال:

الصفة الأولى:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي إذا كانت النار بمرأى من الناظر من بعيد، سمعوا صوت غليانها، الذي يشبه صوت المتغيظ، لشدة التهابها، وصوت الزافر الحزين الذي يخرج النَّفَس من جوفه.

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن جرير عن عبيد بن عمير أنه قال: «إن جهنم لَتزفِر زَفْرة، لا يبقى ملَك مقرَّب، ولا نبي مُرْسَل إلا خرّ لوجهه، ترتعد فرائصه، حتى إن إبراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه، ويقول: ربِّ، لا أسألك اليوم إلا نفسي».

الصفة الثانية:

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾﴾ أي بعد أن وصف الله حال الكفار، وهم في بُعْد من جهنم، وصف حالهم عند إلقائهم فيها، فإذا ألقوا فيها في مكان ضيق مكتَّفين، أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال والسلاسل، صاحوا واستغاثوا وقالوا: يا ثبوراه، أي يا هلاكنا احضر، فهذا وقتك، فيقال لهم: لا تنادوا هلاكاً واحداً، ونادوا هلاكاً كثيراً، أي إنكم وقعتم ليس في هلاك واحد، وإنما في ثبور كثير، إما لتنوع ألوان العذاب، فكل نوع منها عذاب لشدته وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بُدِّلوا غيرها. والمقصود تيئيسهم من الخلاص من العذاب بالهلاك، والتنبيه إلى أن عذابهم أبدي لا خلاص منه.

ووصف المكان بالضيق؛ لأن الكرب مع الضيق، كما أن الرّوح مع السعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السماوات والأرض، وجاء في الأحاديث «أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا» ولقد جمع الله على أهل النار أنواع الإرهاق والتضييق، حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصاً، كما ذكر صاحب الكشاف، وكما روي عن ابن عباس وابن عمر أنهما قالا: «إن جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزُّج - الحديدة التي في أسفل الرمح - على الرمح» وسئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «والذي نفسي بيده، إنهم يستكرهون في النار، كما يستكره الوتد في الحائط».

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يُكسى حُلَّةً من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه، ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو ينادي: يا ثبوراه، وينادون: يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار، فيقول: يا ثبوراه، وينادون: يا ثبورهم، فيقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾» أي لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً، وادعوا ويلاً كثيراً. قال ابن كثير: الأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٢] . أي هالكاً.

وبعد أن وصف الله عقاب المكذبين بالساعة قارن بينه وبين ثواب المؤمنين المتقين، بما يؤكد الحسرة والندامة، فقال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين تهكماً بهم وتحسيراً لهم: أهذا العذاب الذي وصفت لكم أفضل أم نعيم جنة الخلد الذي يدوم إلى الأبد، وقد وعدها المتقون الأبرار الذين أطاعوا الله فيما أمر به، وانتهوا عما نهى عنه، وجعلها لهم جزاء طاعتهم في الدنيا، ومآلهم الحسن إليها. وجنة الخلد: هي التي لا ينقطع نعيمها، والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾ للمتقين في جنة الخلد ما يشتهون من الملاذ في الأكل والشرب والملبس والمسكن والمركب والمنظر، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم في النعيم خالدون أبداً دائماً، بلا انقطاع ولا زوال، ولا يبغون عنها حولاً.

وهذا دليل على تحقيق جميع الرغبات، ووعد من الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم، لهذا قال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ أي لا بد أن يقع، وأن يكون وعداً واجباً، وموعوداً به، جديراً بأن يُسأل ويُطلب،

وينجز، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٤] وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠١].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - إن منشأ إنكار المشركين لوحدانية الله، وتكذيبهم برسالة النبي ﷺ، وطعنهم بالقرآن وبالنبوة، هو إنكار يوم القيامة وعدم الإيمان باليوم الآخر؛ لأن من آمن به تبصر وتدبر، ولم يكن متهوراً في سوء الاعتقاد.

٢ً - دل قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ على أن النار مخلوقة الآن وموجودة، كما أن الجنة مخلوقة وموجودة لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣]. والسعير: النار الشديدة الاستعار.

٣ً - وصف الله تعالى النار بصفتين: الأولى - شدة الاستعار والالتهاب، يرى لها تغيظ، ويسمع لها زفير من مكان بعيد. والثانية - إذا ألقي فيها المعذّبون تضيق عليهم، وتشتد في المضايقة؛ لأن جو العذاب مضايق.

٤ً - يتمنى المعذَّبون في جهنم الموت والهلاك، للخلاص من شدة العذاب، ولكن لا يتحقق لهم ذلك، ويبقون فيها معذَّبين، لا أمل لهم في النجاة أو الخلاص مما هم فيه.

٥ً - لا مجال أصلاً للمقارنة بين عذاب النار ونعيم الجنة، فلا خير في النار، وإنما يقال للكفار: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ للتنبيه على التفاوت بين المنزلتين، وللتهكم بهم والتحسير لهم، وتفادي ما يؤدي بهم إلى النار، وهذا رحمة من الله عز وجل بهم، وإنذار مسبق، ولقد أعذر من أنذر.

٦ً - في الجنة تحقيق كل الرغبات والمطالب، ففيها ما لا تتصوره العقول في الدنيا.

٧ً - وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم، ووعده حق وصدق ومنجز لا محالة، فسألوه ذلك الوعد، وقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٤] أو إن الملائكة تسأل لهم الجنة، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٤٠/ ٨] . قال زيد بن أسلم: سألوا الله الجنة في الدنيا، ورغِبوا إليه بالدعاء، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا.

أحوال الكفار مع معبوداتهم يوم القيامة

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

﴿يَحْشُرُهُمْ﴾:

قرئ:

١- (يحشرهم) وهي قراءة ابن كثير، وحفص.

٢- (نحشرهم) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿فَيَقُولُ﴾:

وقرأ ابن عامر (فنقول).

﴿تَسْتَطِيعُونَ﴾ :

قرئ:

١- (تستطيعون) وهي قراءة حفص.

٢- (يستطيعون) وهي قراءة الباقين.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للجزاء، وقرئ: نحشرهم. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي من غير الله، ويشمل كل معبود من الملائكة والجن وعيسى وعزير، والأصنام، واستعمال (ما) لأنه أعم، أو لتغليب الأصنام تحقيراً. والأصنام ينطقها الله، أو تتكلم بلسان الحال، كما قيل في كلام الأيدي والأرجل. ﴿فَيَقُولُ﴾ تعالى للمعبودين، إثباتاً للحجة على العابدين، وقرئ: فنقول: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ : هل أنتم أوقعتموهم في الضلال، بأمركم إياهم بعبادتكم. ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي أم أخطؤوا طريق الحق بأنفسهم؛ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح. وهو استفهام تقريع وتبكيت للعابدين. وضلّ السبيل: فقده وخرج عنه.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك عما لا يليق بك، وكان جوابهم تعجباً مما قيل لهم؛ لأنهم إما ملائكة أو أنبياء معصومون أو جمادات لا تقدر على شيء. ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ ما كان يصح أو يستقيم لنا. ﴿مِن دُونِكَ﴾ غيرك، ومرادهم أنه لا يتصور منا دعوة أحد إلى عبادتنا، للعصمة أو للعجز، فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا أن يتولى أحداً دونك. ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ﴾ من قبلهم بإطالة العمر وسعة الرزق وأنواع النعم، فاستغرقوا في الشهوات. ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن، وغفلوا عن ذكرك أو التذكر

لآلائك ونعمك والتدبر في آياتك، و﴿ٱلذِّكۡرَ﴾: ما ذكّر به الناس بوساطة أنبيائهم، وهو هنا القرآن والشرائع، أو ذكر الله والإيمان به.

﴿بُورًا﴾ هلكى أو هالكين، من البوار، أي الهلاك.

﴿كَذَّبُوكُم﴾ كذب المعبودون العابدين، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب للتنويع في الأسلوب ولفت الأنظار. ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم آلهة. ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي هم، وقرئ بالتاء: أي أنتم. ﴿صَرۡفًا﴾ دفعاً للعذاب عنكم. ﴿وَلَا نَصۡرًاۚ﴾ منعاً لكم منه. ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ يشرك أو يكفر منكم أيها المخاطبون. ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ شديداً في الآخرة، وهو النار، وقوله: ﴿وَمَن يَظۡلِم﴾ شرط، وإن عم كل من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم التوبة من العبد، والعفو من الله تعالى.

المناسبة:

بعد بيان ما أعد الله للكافرين من شدة العذاب يوم القيامة، ومقارنته بنعيم أهل الجنة، ذكر الله تعالى مشهداً من مشاهد القيامة وهو حال العابدين مع المعبودين من غير الله الذين يحشرهم الله تعالى، ويسألهم: أهم الذين أوقعوا عابديهم في الضلال عن طريق الحق، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله كالملائكة وغيرهم فقال:

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول لأولئك المشركين يوم يجمعهم مع معبوديهم من الملائكة والمسيح وعزير والأصنام التي ينطقها الله وغيرهم من الناس كفرعون، الذين عُبدوا من دون الله، فيقال لأولئك

المعبودين على سبيل التقرير والتثبيت: أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال عن طريق الحق، أو هل دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم أو عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١١٦].

واستعمال (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ لأنها موضوعة للعقلاء وغيرهم: على العموم، وفائدة ﴿ءَأَنتُمْ﴾ و﴿هُمْ﴾ لأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده؛ لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه وفاعله، فلا بد من ذكره، ليعلم أنه المسؤول عنه. والسؤال ليس لإخبار الله، فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه، ففائدته أن يجيبوا بما أجابوا به لتقريع عبدتهم بتكذيبهم إياهم، فيبهتوا وينخذلوا وتزيد حسرتهم، ويكون ذلك كشفاً وافتضاحاً لعبدة الأصنام والأوثان وغيرهم، ومسوغاً لإلحاق غضب الله وعذابه، كما أبان الزمخشري.

وظاهر السؤال في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ﴾ من الله تعالى، ويحتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى.

ثم أخبر الله تعالى عما يجيب به المعبودون يوم القيامة فقال:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ أي قال المعبودون بلسان المقال أو الحال على طريق التعجب مما قيل لهم: تنزيهاً لك يا ربّ مما نسبه إليك المشركون، ما كان يصح لنا بحال أن نتخذ أنصاراً من دونك، فنحن الفقراء إليك، وليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، فنحن ما

دعوناهم إلى عبادتنا، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، وإذا كنا لا نرى من دونك أولياء، فكيف ندعو غيرنا إلى ذلك؟ ولكن طال عليهم العمر، وشغلوا بما أنعمت عليهم من صنوف الخيرات، واستغرقوا في اللذات والشهوات، ونسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لاشريك لك، وكانوا قوماً لا خير فيهم، وهلكى في نهاية الأمر.

ونظير الآية: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٠-٤١].

فيقال للعابدين:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي فقد كذّبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء مناصرون، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، فلا يقدرون، أي الآلهة المزعومة، على صرف العذاب عنهم، ولا الانتصار لأنفسهم بأي حال أبداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٥-٦].

ثم أعلن الله تعالى حكم كل ظالم، فقال:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي ومن يشرك بالله أو يكفر أو يفسق نذقه يوم القيامة عذاباً شديداً لا يعرف قدره. والظلم هنا هو الإشراك ونحوه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٣] وقال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١١].

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه صورة مسبقة من الحوار، معروضة في الدنيا، للعظة والعبرة بين

المعبودين الذين اتُّخذوا آلهة من غير رضا منهم، وبين العابدين الذين ضلوا عن الحق، فعبدوا من لا يستحق العبادة، يبيِّن فيها سلفاً مصير الكافرين. وهذا غير مألوف في أحكام الدنيا التي لا تعرف إلا بإعلان القاضي لها.

وكانت نتيجة الجواب والسؤال بيان حصر المسؤولية عن الضلال في العابدين دون المعبودين، وجعل تبرؤ المعبودين عن العابدين سبباً واضحاً في حسرتهم وحيرتهم.

ويقول الله تعالى عند تبري المعبودين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي كذبتكم تلك الآلهة المزعومة في نظركم في قولكم: إنهم آلهة، وحينئذٍ لا يستطيع هؤلاء الكفار لما كذَّبهم المعبودون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصر أنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم.

ونوع العذاب الذي سيوقع عليهم وعلى أمثالهم هو كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي ومن يشرك منكم ثم يموت عليه من غير توبة، نذقه في الآخرة عذاباً كبيراً أي شديداً، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤] أي شديداً.

بشرية الرسل

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

البلاغة:

﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ ﴿بَصِيرٗا﴾ جناس ناقص، لتقديم بعض الحروف، وتأخير بعضها.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَّآ إِنَّهُمۡ﴾ أي إلا رسلاً إنهم، فحذف الموصوف لدلالة ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عليه، وأقيمت الصفة مقامه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٦٤] . ﴿وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ أي فأنت مثلهم في ذلك، وقد قيل لهم مثل ما قيل لك.

﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ أي وجعلنا بعضكم أيها الناس لبعض ابتلاء، ومن ذلك ابتلاء الغني بالفقير، والصحيح بالمريض، والشريف بالوضيع، لمعرفة مدى قيامه بواجبه نحوه أو إيذاء أحدهم لغيره. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ على ما قاله المشركون في حقه، بعد نقضه والرد عليه، وفيه دليل على القضاء والقدر؛ لأنه تعالى هو الذي جعل بعضهم فتنة لبعض.

﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ على ما تسمعون ممن ابتليتم بهم؟ وهو استفهام بمعنى الأمر، بمعنى: اصبروا، كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٩١] أي انتهوا، فهو حث على الصبر على الابتداء وأمر به للنبي ﷺ وغيره، أو علة لقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ﴾ والمعنى: وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، لنعلم أيكم يصبر، كقوله تعالى: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الكهف: ١٨/ ٧] . ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ أي عالماً بمن يصبر وبمن يجزع.

سبب النزول:

أخرج الواحدي وابن جرير عن ابن عباس قال: لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة، وقالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ حزن رسول الله ﷺ، فنزل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾

المناسبة:

هذه الآية إذن جواب عن قول المشركين: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾. فيها أبان الله تعالى أن هذه عادة مستمرة من الله في كل رسله، فلا وجه للطعن.

التفسير والبيان:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي إن جميع الرسل المتقدمين كانوا بشراً يأكلون الطعام، للتغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك منافياً لحالهم ومنصبهم، أو يغضّ من شأنهم، وإنما امتيازهم في اتصافهم بالأخلاق الفاضلة، وقيامهم بالأعمال الكاملة، وتأييدهم بخوارق العادات أو بالمعجزات التي تدل كل عاقل على صدق رسالتهم وما جاؤوا به من عند ربهم، ومحمد ﷺ كغيره من الرسل في هذا.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩/١٢] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨/٢١] .

والمعنى: أن الرسول يكون من جنس المرسل إليهم، وليس الفقر عيباً، وليس العمل منقصاً من قدر الشخص واعتباره، وإنما قيم الرجال بالآداب والأعمال.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي، فالناس طبقات في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والفهم والغباء، والصحة والمرض، وصاحب النعمة مسؤول عمن حرم منها، والله قادر على منح الدنيا رسله الكرام، ولكنه أراد

تساميهم عن الدنيا، وحشد طاقاتهم وأعمالهم للآخرة، ليقتدى بهم، كما أراد سبحانه ابتلاء العباد بهم وابتلاءهم بالعباد، ليعرف المطيع من العاصي، والمسالم من المؤذي.

﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي اصبروا على ما أراده الله لكم، وكان ربك أيها الرسول بصيراً بمن يصبر وبمن يجزع، وبمن يستقيم وبمن يتنكر لطريق الحق، فيجازي كلاً منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب.

روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ويل للعالم من الجاهل، وويل للسلطان من الرعية، وويل للرعية من السلطان، وويل للمالك من المملوك، وويل للشديد من الضعيف، وللضعيف من الشديد، بعضهم لبعض فتنة» وقرأ هذه الآية، أسنده الثعلبي رحمه الله تعالى.

وفي صحيح مسلم عن عِيَاض بن حِمَارٍ عن رسول الله ﷺ قال: «يقولُ الله تعالى: إني مبتليك ومبتلٍ بك» وفي مسند أحمد عن رسول الله ﷺ: «لو شئتُ لأجرى الله معي جبالَ الذهب والفضة».

وفي صحيح البخاري أنه ﷺ خيِّر بين أن يكون نبياً مَلَكاً، أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً.

وقال مقاتل: إن الآية نزلت في أبي جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وغيرهم من أشراف قريش حين رأوا أبا ذر، وعبد الله بن مسعود، وعماراً، وبلالاً، وصهيباً، وسالماً مولى أبي حذيفة، قالوا: أنسْلِمُ فنكون مثل هؤلاء؟! فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء المؤمنين: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؟ أي على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر والجهد والإيذاء، كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين، أي اختباراً لهم. ولما صبر

المسلمون أنزل الله فيهم: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١١][1].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على أن الرسل عليهم السلام كباقي البشر فيما عدا إنزال الوحي عليهم، وتخلقهم بالأخلاق العالية، وقيامهم بالأعمال الطيبة بدرجة تفوق غيرهم، فهم يأكلون ويشربون ويتاجرون في الأسواق.

والآية أصل في وجوب اتخاذ الأسباب، وإباحة طلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك. وقد تكرر هذا المعنى في القرآن في غير موضع.

ودل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ على أن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض الناس امتحاناً واختباراً لبعض على العموم الذي يشمل كل مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني، ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه، فعلى الغني مواساة الفقير وألا يسخر منه، وعلى الفقير ألا يحسد الغني ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق.

والله سبحانه يأمر بالصبر على كل حال، حتى لا يهتز إيمان أحد، ويفوض الأمر في كل شيء إلى الله تعالى.

والله تعالى بصير بكل امرئ وبمن يصبر أو يجزع، ومن يؤمن ومن لا يؤمن، وبمن أدى ماعليه من الحق ومن لا يؤدّي.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ١٨ - ١٩

طلب المشركين إنزال الملائكة عليهم أو رؤية الله والإخبار بإحباط أعمالهم

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

الإعراب:

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ اللام جواب قسم محذوف.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرف، والعامل فيه فعل مقدر، تقديره: اذكر، أي اذكر يوم يرون الملائكة. ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ لأن ما في حيّز النفي لا يعمل فيما قبله. وأجاز الزمخشري نصب ﴿يَوْمَ﴾ بما دل عليه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى أو يعدمونها. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتكرار.

و ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾: إن جعلت ﴿بُشْرَىٰ﴾ مبنية مع ﴿لَا﴾ كان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبراً لها؛ لأنه ظرف زمان، وظروف الزمان تكون أخباراً عن المصادر. و﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ صفة للبشرى. وإن جعلت ﴿بُشْرَىٰ﴾ غير مبنية مع ﴿لَا﴾ أعملت ﴿بُشْرَىٰ﴾ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لأن الظروف يعمل فيها معاني الأفعال، وللمجرمين خبر ﴿لَا﴾.

البلاغة:

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ ﴿لَوْلَآ﴾ هنا بمعنى هلا للترجي.

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا﴾ و﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ جناس الاشتقاق.

﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ﴾ مبالغة بنفي الجنس، والمعنى: لا يبشر يومئذ المجرمون، وعدل عنه إلى ذلك للمبالغة.

﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ تشبيه بليغ، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه، أي كالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه.

المفردات اللغوية:

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي لا يأملون لقاءنا بالخير لكفرهم بالبعث، أو لا يخافون لقاءنا بالشر، أي لا يخافون البعث، على لغة تهامة، أي إن الرجاء في بعض لغات العرب: الخوف، مثل قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ٧١/ ١٣] وأصل اللقاء: الوصول إلى الشيء، ومنه الرؤية، فإنه وصول إلى المرئي، والمراد به: الوصول إلى جزائه، أي لقاء جزائنا.

﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي أرسلوا إلينا، فيخبروننا بصدق محمد ﷺ ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمرنا بتصديقه واتباعه ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي لقد تكبروا في شأن أنفسهم، حتى أرادوا لها أن تكون أنبياء أو ماهو أعظم من ذلك ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ تجاوزوا الحد في الظلم حتى بلغوا أقصى الغاية، بطلبهم رؤية الله تعالى في الدنيا، وكذبوا الرسول الذي جاء بالوحي، ولم يأبهوا بمعجزاته. و﴿وَعَتَوْ﴾ بالواو على أصله، بخلاف «عتي» بالإبدال في سورة مريم في قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [٨].

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ في جملة الخلائق، وهو يوم القيامة، وهو منصوب بفعل مقدر تقديره: اذكر ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين، والمعنى: يمنعون البشرى، بخلاف المؤمنين، فلهم البشرى بالجنة ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي ويقول الكفرة حينئذ هذه الكلمة، وهي كلمة تقال عند حصول

شدة كلقاء عدو أو حدث خطير، يقصد بها العرب: الاستعاذة من وقوع الخطر، والطلب من الله أن يمنع ذلك الحادث منعاً. والحجر لغة: المنع، ومنه الحجر على القاصر أي منعه من التصرف، وسمي العقل حِجْراً؛ لأنه يمنع صاحبه من بعض الأعمال.

﴿وَقَدِمْنَآ﴾ عمدنا وقصدنا إلى ما عملوا في كفرهم في الدنيا من المكارم كقرى الضيف وصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، فأحبطناه لعدم الإيمان ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ هو ما يرى في الهواء أثناء ضوء الشمس الداخل من الكوى أو النوافذ، أي جعلناه كالغبار المفرق في عدم النفع فيه ﴿مُّسْتَقَرًّا﴾ أي مكاناً يستقرون فيه أكثر الوقت للجلوس والمحادثة، والمعنى: أصحاب الجنة يوم القيامة خير مستقراً من الكافرين في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يؤوى إليه للقيلولة والراحة: وهي الاستراحة نصف النهار في الحر تشبيهاً بمكان القيلولة في الدنيا؛ إذ لا نوم في الجنة. وأخذ من ذلك انقضاء الحساب في نصف نهار، كما ورد في الحديث: «أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار».

المناسبة:

هذا هو موضوع الشبهة الرابعة للمشركين منكري نبوة محمد ﷺ ومكذبي القرآن، ومفادها: لِمَ لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمداً محقّ في دعواه، أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا.

والشبهات الثلاث المتقدمة لهم: هي قولهم: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ وما حكي عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ وذكرهم خمس صفات للرسول، زعموا أنها تخل بالرسالة، منها قولهم: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ﴾ إلخ.

التفسير والبيان:

هذا موقف عجيب من مواقف تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم، صوَّره القرآن بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي وقال المشركون الذين ينكرون البعث والثواب والعقاب: هلا أُنزل علينا الملائكة كما تنزل على الأنبياء فنراهم عياناً، فيخبرونا بأن محمداً ﷺ صادق في دعواه النبوة، أو نرى ربنا جهاراً نهاراً، فيخبرنا بأنه أرسله إلينا، ويأمرنا بتصديقه واتباعه، كقولهم في آية أخرى: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٢] والحقيقة أنهم لا يرومون من كلامهم هذا إلا المكابرة والتمادي في الإنكار والعناد، لذا قال تعالى:

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي والله لقد تكبروا وأضمروا الاستكبار عن الحق، وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال سبحانه: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٦] وتجاوزوا الحد في الظلم والكفر تجاوزاً بلغ أقصى الغاية، فهم لم يجسروا على هذا القول الشنيع إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو.

ولن يؤمنوا في الحقيقة والواقع، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١١].

ثم أخبر الله تعالى مهدداً عن حال رؤيتهم الملائكة، فقال:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي هم لا يرون الملائكة في حال خير، وإنما في حال شر وسوء، فإنهم سيرونهم عند الموت أو يوم القيامة قائلين لهم: لا بشرى لهم بخير، ولا مرحباً بهم،

وتبشرهم الملائكة بالنار وغضب الجبار، وتقول لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٣] .

ويقول الكفار: حجراً محجوراً، أي استعاذة وطلباً من الله أن يمنع عنهم الخطر والضرر، والمقصود أنهم يتعوذون من الملائكة. قال ابن كثير: وهذا القول، وإن كان له مأخذ ووجه، ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد، ولا سيما وقد نص الجمهور على خلافه. وإنما هذا من قول الملائكة لهم، يراد به: حرام محرم عليكم البشرى بالمغفرة والجنة، وبما يبشر به المتقون، وحرام محرم عليكم الفلاح اليوم.

وهذا بخلاف حال المؤمنين وقت احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠-٣٢] وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب، إن كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، وربّ غير غضبان».

ثم أخبر الله تعالى عن إحباط أعمال الكفار الخيرية التي كانوا يعتزون بها في الدنيا كالإكرام والصدقة وفك الأسير وإنقاذ الملهوف وحماية المستجير وخدمة البيت الحرام والحجيج، فقال:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أي قصدنا يوم القيامة إلى محاسن أعمال هؤلاء الكفار في الدنيا، حين حساب العباد على ما عملوه من الخير والشر، تلك الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم، كالتي

ذكرتُ، فجعلناها مبددة لا نفع فيها ولا خير كالغبار المتناثر الذي لا جدوى فيه ولا فائدة، لفقد الشرط الشرعي لقبولها وهو إما الإخلاص فيها لله، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً لوجه الله الكريم، وليس على منهج الشريعة المرضية لله، فهو باطل، وأعمال الكفار تفقد أحد الشرطين أو كليهما، فتكون أبعد عن القبول.

ثم قارن الله تعالى حال هؤلاء الكفار بحال المؤمنين فقال:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ أي إن حال أهل الجنة خير مأوى ومنزلاً، وأتم استقراراً، وأفضل راحة من حال المشركين في النار. والمستقر: مكان الاستقرار، والمقيل: زمان القيلولة. وهذا إشارة إلى أنهم من المكان في أحسن مكان، ومن الزمان في أطيب زمان. وبما أنه لا خير في النار، فيكون المراد من قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ هو ما أريد من قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ وهو التقريع والتوبيخ، كما إذا أعطى السيد خادمه مالاً، فتمرد وأبى واستكبر، فيضربه ضرباً وجيعاً، ويقول له موبخاً: هذا أطيب أم ذاك.

وهذا يدل على انتهاء حساب الخلائق في نصف يوم، كما ورد في الحديث: «إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم، فَيقيلُ أهل الجنة في الجنةِ، وأهل النار في النار».

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٥٥-٥٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

أ - إن عدم الخوف من البعث ولقاء الله، أي عدم الإيمان بذلك هو سبب

التمادي في إنكار صدق القرآن والنبي المنزل عليه، والعناد والإصرار على الكفر. ثم إن التستر على الكفر والدفاع عنه يجعل الكفرة يطالبون بما فيه تعجيز وشطط وخروج على المألوف، مثل المطالبة بإنزال الملائكة عليهم لإخبارهم أن محمداً ﷺ صادق، أو رؤية الله عِياناً لإخبارهم برسالته، كما قال تعالى حاكياً مطالبهم في آيات أخرى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٢] .

لذا قال الله تعالى في الآيات المفسرة هنا: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ حيث سألوا الله الشطط؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت، والله تعالى لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، فلا عين تراه. وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين.

٢ - إذا رئيتْ الملائكة عند الموت، فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم، وتقول الملائكة لهم: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال: لا إله إلا الله، وأقام شرائعها، وذلك القول يحصل عند الموت، كما روي عن ابن عباس وغيره. وقيل: إن ذلك يوم القيامة.

٣ - إن جميع أعمال الكفار ولا سيما التي اعتقدوا أنها برٌّ وخير، وظنوا أنها تقربهم إلى الله تعالى تكون يوم القيامة مهدرة باطلة لا جدوى فيها ولا نفع منها بسبب الكفر، ولأن قبولها يفقد الشرط الشرعي لها وهو الإيمان بالله وإخلاص العمل له. وقوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ تنبيه على عظم قدر يوم القيامة، ومعناه كما بينا: قصدنا في ذلك إلى ما كان يعمله المجرمون من عمل بِرّ عند أنفسهم.

٤ - أصحاب الجنة في مكان مستقر ومأوى ثابت، ومنزل حسن مريح

طيب الإقامة، على النقيض من حال أهل النار. فقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ كقوله: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ التقريع والتوبيخ، وإنما قال: ﴿خَيْرٌ﴾ ولا خير في النار والعذاب: بالنظر إلى التفاوت بين منزلتي الجنة والنار، وهما من المنازل. أما من حيث الواقع فإن ﴿خَيْرٌ﴾ هنا ليس للمفاضلة التي تفهم من صيغة أفعل التفضيل، وإنما لتقرير أن الجنة هي الخير المحض والحسن المطلق، ولا خير أصلاً في ضدها وهي النار.

رهبة يوم القيامة وهوله

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

القراءات:

﴿تَشَقَّقُ﴾:

قرئ:

١- (تشَّقَّق) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر.

٢- (تشَقَّق) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

وقرأ ابن كثير (ونُنْزِلُ الملائكةَ).

﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ﴾:

وقرأ أبو عمرو (يا ليتنيَ اتخذت).

الإعراب:

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ الباء في قوله ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ للحال، والتقدير: يوم تشقق السماء، وعليها الغمام، كقولك: خرج زيد بسلاحه، أي وعليه سلاحه.

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾: ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ صفه له، و﴿لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ الخبر، و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: ظرف للملك.

البلاغة:

﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ كناية عن الندم والحسرة، وكذلك كلمة «فلان» كناية عن الصديق الضال المضل.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ﴾ الأصل: تتشقق والمراد يوم القيامة ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ كل سماء ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ هو غيم أبيض، أي مع الغمام، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ [المزمل: ١٨/٧٣] والمعنى أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها، أو عن الغمام ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي تنزل الملائكة من كل سماء، وفي أيديهم صحائف أعمال العباد .﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ أي الملك الثابت يوم القيامة لله تعالى وحده، لا يشركه فيه أحد ﴿وَكَانَ يَوۡمًا﴾ أي وكان اليوم يوماً عسيراً أي شديداً على الكافرين، بخلاف المؤمنين.

﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ كناية عن الندم والتحسر يوم القيامة، والمراد بالظالم: الجنس، أو المشرك عقبة بن أبي مُعَيْط الذي كان نطق

بالشهادتين، ثم رجع إرضاء لأُبَيّ بن خَلَف ﴿ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ محمد ﷺ طريقاً إلى الهدى والنجاة ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ ألفه عوض عن ياء الإضافة، أي ويلتي، ومعناه: هُلْكتي. وقرئ: (ياويلتي) بالياء وهو الأصل؛ لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته، يقول لها: تعالي فهذا أوانك: وإنما قلبت الياء ألفاً كما في صحارى ومدارى.

﴿أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ ذكر الله أو القرآن أو موعظة الرسول ﷺ ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ بأن ردني عن الإيمان به ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يعني الخليل المضل أو إبليس؛ لأنه حمله على مخالفة الرسول ﷺ ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾ الكافر ﴿خَذُولٗا﴾ بأن يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك، ثم يتركه ويتبرأ منه عند البلاء، ولا ينفعه.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان أُبي بن خَلَف يحضر النبي ﷺ، فيزجره عقبة بن أبي مُعَيط، فنزل: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ إلى قوله: ﴿خَذُولٗا﴾.

وفي رواية: كان عقبة بن أبي مُعَيْط يكثر مجالسة النبي ﷺ، فدعاه إلى ضيافته، فأبى أن يأكل طعامه حتى ينطق بالشهادتين، ففعل، وكان أبي بن خلف صديقه، فعاتبه، وقال: صبأتَ؟! فقال: لا، ولكن أبى أن يأكل من طعامي، وهو في بيتي، فاستحييت منه، فشهدت له، فقال: لا أرضى منك إلا أن تأتيه، فتطأ قفاه، وتبزق في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة، ففعل ذلك، فقال ﷺ: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوتُ رأسَك بالسيف» فأسر يوم بدر، فأمر علياً فقتله، وطعن أُبياً بأحد في المبارزة، فرجع إلى مكة ومات يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾.

قال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ، عاد بزاقه في وجهه، فتشعب شعبتين، فأحرق خديه، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت.

المناسبة:

بعد بيان طلب المشركين إنزال الملائكة، أخبر الله تعالى عن هول يوم القيامة وعن نزول الملائكة حينئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، فيعض الظالم على يديه ألماً وحسرة على ما فات، ويتمنى أن لو كان أطاع الرسول فيما أمر ونهى، ولم يكن ممن أطاع الشيطان من الإنس والجن، ثم يفصل الله تعالى القضاء بين الخلائق.

التفسير والبيان:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي اذكر أيها النبي الرسول يوم تتشقق السماء عن الغمام، وتتفتح عنه، ويتبدل نظام العالم، وتنتهي الدنيا، وتصبح الشمس والكواكب أشبه بالغمام، لتفرقها وتحللها وتناثرها في الجو، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/١-٢] وقال سبحانه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٧٨/١٩-٢٠]. وقال عز وجل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/١٥-١٦].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي وتنزل الملائكة وفي أيديهم صحائف أعمال العباد، لتكون حجة وشاهداً عليهم.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢/٢١٠].

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي وكان يوم القيامة على الكافرين يوماً شديداً صعباً؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل (محاكمة) كما في آية أخرى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٩-١٠].

أما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:

١٠٣/٢١] روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يارسول الله: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٧٠/٤] ما أطول هذا اليوم؟! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفّفُ على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة، يصليها في الدنيا».

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم القيامة الذي يعض المشرك وكل ظالم على يديه ندماً وحسرة وأسفاً على ما فرّط في حياته، وعلى إعراضه عن طريق الحق والهدى الذي جاء به الرسول ﷺ، ويقول: ياليتني اتخذت مع الرسول ﷺ طريقاً إلى النجاة والسلامة.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي ياهلاكي احضر فهذا أوانك، ليتني لم أتخذ فلاناً الذي أضلني خليلاً أي صديقاً حميماً، أرداني اتباعه، وصرفني عن الهدى، وعدل بي إلى طريق الضلال، سواء في ذلك أبي بن خلف أو أمية بن خلف أو غيرهما.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ هذا من قول الناس، أي لقد ضللني وحرفني عن ذكر الله والإيمان والقرآن بعد بلوغه إلي.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ هذا من قول الله، لا من قول الظالم أي إن من شأن الشيطان أن يخذل الإنسان عن الحق، ويصرفه عنه، ويدعوه إلى الباطل ويستعمله فيه، ثم يتركه ويتبرأ منه عند المحنة، ولا ينفعه في العاقبة.

والشيطان: إشارة إلى خليله سماه شيطاناً؛ لأنه أضله كما يضل الشيطان، أو أراد إبليس وأنه هو الذي حمله على مصادقة أو مخالّة المضل ومخالفة الرسول ﷺ، ثم خذله، أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والإنس. والمعنى الأخير هو الأولى.

فقه الحياة أو الأحكام:

طلب المشركون إنزال الملائكة، فأبان سبحانه أنه يحصل ذلك في يوم له أربع صفات هي:

١ً - إن في ذلك اليوم تتشقق السماء بالغمام أي عن الغمام؛ لأن الباء وعن يتعاقبان؛ كما تقول: رميت بالقوس وعن القوس، روي أن السماء تتشقق عن سحاب أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم، فتنشق السماء عنه، وهو الذي قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٠] . وقوله: ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ جامع لمعنى الآيتين: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١] وآية ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ المذكورة.

وفي ذلك اليوم تنزل الملائكة من السماوات إلى الأرض لحساب الثقلين. ومعنى ﴿تَنزِيلًا﴾ توكيد للنزول، ودلالة على إسراعهم فيه.

٢ً - يكون المُلْك الثابت الدائم في ذلك اليوم لله الرحمن الرحيم، وهذا دليل الألوهية؛ لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك، فبطلت يومئذ أملاك المالكين وانقطعت دعاويهم، وزال كل مَلِك وملكه، وبقي الملك الحق لله وحده.

٣ً - يكون هذا اليوم شديداً صعباً على الكافرين؛ لما ينالهم من الأهوال، ويلحقهم من الخزي والهوان، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة، كما دل الحديث المتقدم، وهذه الآية؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيراً، فهو على المؤمنين يسير.

٤ً - إنه يوم يعض فيه الظالم الكافر وكل مكذب وطاغٍ على يديه، حسرة وألماً على ما فرط في دنياه، فلم يؤمن بربه وبالرسول محمد ﷺ، فكلمة

﴿ٱلظَّالِمُ﴾ للعموم، يعم جميع الظلمة، ويشمل عقبة بن أبي مُعَيط الذي هم بالإسلام، فمنعه منه صديقه أُمية بن خَلَف الجمحيّ، ويروى: أبي بن خلف أخ أمية. وعضُّه يديه: فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله، وعدم اتخاذه في الدنيا طريقاً إلى الجنة، فيدعو على نفسه بالويل والهلاك على مخالفة الكافر ومتابعته، ويقول: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ عنى أمية، وكنى عنه ولم يصرح باسمه، لئلا يكون هذا الوعد مخصوصاً به، ولا مقصوراً عليه، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما.

فهذه العبارات الثلاث: الظالم، وفلان، والشيطان عامة.

والخليل الصاحب قد يضل صاحبه عن ذكر الله والإيمان به والقرآن وموعظة الرسول ﷺ.

والشيطان يوسوس ويغري بالكفر والشرك والمعصية، ثم يخذل أتباعه، والخذل: الترك من الإعانة، والتبرؤ من فعله. وكل من صَدَّ عن سبيل الله وأطيع في معصية الله، فهو شيطان للإنسان، خذول عند نزول العذاب والبلاء، كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٦] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكِير، فحامل المسك إما أن يُحْذيك[(١)]، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجدَ ريحاً طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرِق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة»[(٢)]. وذكر أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: قيل: يارسول الله، أيُّ جلسائنا خيرٌ؟ قال: «من ذكّركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكّركم بالآخرة عمله».

---

(١) أحذاه: أعطاه.

(٢) وأخرجه أبو داود من حديث أنس.

هجر الكفار القرآن ومطالبتهم بإنزاله جملة واحدة

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

القراءات:

﴿قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، والبزي (قوميَ اتخذوا).

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿نَبِىٍّ﴾:

وقرأ نافع (نبيء).

﴿جِئْنَـٰكَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيناك).

الإعراب:

في لام ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ وجهان: أن تتعلق بفعل مقدر، أي نزلناه لنثبت به فؤادك؛ لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أو أن تكون اللام لام القسم،

وتقدر النون مع الفعل، وتظهر النون إذا فتحت اللام فيقال: «والله لنثبتن». وتسقط إذا كسرت. وكاف ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف دل عليه (نزلناه).

البلاغة:

﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ إسناد مجازي؛ لأن الضلال لا ينسب إلى المكان، ولكن إلى أهله.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ مشتكياً إلى ربه في الدنيا ﴿إِنَّ قَوْمِى﴾ قريشاً ﴿مَهْجُورًا﴾ متروكاً ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جعلنا عدواً من مشركي قومك، جعلنا لكل نبي قبلك عدواً من المشركين، فاصبر كما صبروا، وفيه دليل على أن الله خالق الشر. والعدو: يطلق على الواحد والجمع ﴿هَادِيًا﴾ لك إلى طريق قهرهم ﴿وَنَصِيرًا﴾ ناصراً لك على أعدائك.

﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ دفعة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي أنزلناه كذلك مفرَّقاً لتقوية قلبك بتفريقه على حفظه وفهمه؛ لأنه ﷺ بخلاف حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام كان أمياً، وكانوا يكتبون، فلو ألقي إليه جُمْلة، عانى التعب والإجهاد في حفظه، ولأن نزوله بحسب الوقائع يزيد الأمر تبصراً، وتعمقاً في فهم المعنى. وكلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة مصدر محذوف يشير إلى إنزاله مفرقاً ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أتينا به شيئاً بعد شيء، أو قرأناه عليك شيئاً بعد شيء، بتمهل وتؤدة، لتيسير فهمه وحفظه، في مدى ثلاث وعشرين سنة. وأصله الترتيل في الأسنان: وهو تفليجها.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بحال وصفة غريبة ونوع من الكلام يشبه المثل في

تنميقه وتحسينه ورصف لفظه، بقصد القدح في نبوتك وإبطال أمرك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الدافع له، أو الدامغ له في جوابه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي بما هو أحسن بياناً لهم، وأصح معنى من سؤالهم العجيب الذي كأنه مثل في البطلان.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي يساقون ويسحبون على وجوههم، أي مقلوبين ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هو جهنم ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أبعد عن الحق طريقاً من غيرهم، وهو كفرهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٢):

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: قال المشركون: إن كان محمد ﷺ، كما يزعم نبياً، فلِمَ يعذبُه ربه، ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، فينزل عليه الآية والآيتين، فأنزل الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾.

المناسبة:

بعد بيان اعتراضات المشركين وأقاويلهم الباطلة، وأوجه تعنتهم، كطلب إنزال الملائكة أو رؤية الله، وتكذيب القرآن ووصفه بالأساطير، أوضح الله تعالى أن الرسول ﷺ ضاق صدره واشتكاهم إلى ربه بأن قومه هجروا القرآن.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ أي شكا الرسول إلى ربه سوء أفعال المشركين وأقوالهم الساقطة قائلاً: ياربّ، إن قومي قريشاً تركوا الإصغاء لهذا القرآن، ولم يؤمنوا به، وأعرضوا عن

استماعه واتباعه، فكانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعون، كما حكى تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦/٤١] فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعونه، فهذا من هجرانه، وكذلك ترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو من هجرانه، كما قال ابن كثير[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا إيناس لرسول الله ﷺ على ما يلقى من قومه من الأذى والصدود والإعراض، أي لا تحزن يامحمد، فتلك سنة الله في خلقه، فكما جعلنا لك أعداء من المشركين يتقولون عليك الأباطيل، ويهجرون القرآن، جعلنا لكل نبي من أنبياء الأمم الماضين أعداء من المشركين الظالمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢/٦] فاصبر كما صبروا، وامض في تبليغ رسالتك. قال ابن عباس: كان عدو النبي ﷺ أبا جهل، وعدو موسى قارون، وكان قارون ابن عم موسى.

لكن النصر والغلبة للرسول ﷺ، كما قال تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي وكفى بالله ربك هادياً لك إلى الحق، وهادياً من اتبعك وآمن بكتابك وصدقك إلى مصالح الدين والدنيا، وناصرك على أعدائك في الدنيا والآخرة.

وقد قرن الله تعالى بين الهداية والنصر؛ لأن الأولى سبيل لتحقيق نصر المؤمنين على الكافرين، وكان المشركون يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٣١٧

يهتدي أحد بالرسول ﷺ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن، وللحفاظ على قوة التفوق والغلبة، وإبقاء ميزان القوى راجحاً في صالحهم.

الشبهة الخامسة لمنكري نبوة محمد ﷺ:

بعد بيان شكوى الرسول ﷺ قومه إلى ربه، حكى الله تعالى شبهة أخرى للمشركين أهل مكة فقال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ أي أضاف المشركون أهل مكة لطعنهم السابق في القرآن بأنه إفك مفترى وأنه أساطير الأولين، أضافوا شبهة أخرى هي قولهم: إذا كنت تزعم أنك رسول من عند الله، أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة، كما أنزلت التوراة جملة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود؟

ومعنى الآية: لو كان القرآن من عند الله حقاً، فهلا أنزل على محمد ﷺ جملة واحدة، كما نزلت الكتب الإلهية المتقدمة.

فأجابهم الله تعالى عن ذلك بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ أي أنزلناه كذلك مفرقاً، وأتينا به شيئاً بعد شيء وقرأناه على لسان جبريل في مدى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام.

والحكمة أو الفائدة من ذلك متنوعة وكثيرة أهمها ما يأتي[١]:

أ - تثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين بشريعة الله، والعون على حفظ القرآن وفهمه، وتطبيق أحكامه بنحو دقيق وشامل؛ لأن النبي ﷺ كان أمياً، وكانت

(١) انظر وقارن تفسير الرازي: ٧٩/٢٤

أمته أمية، لا يعرفون القراءة والكتابة، فلو نزل القرآن جملة واحدة، لصعب عليهم ضبطه، وجاز عليهم السهو والغلط. ثم إن مشاهدة النبي ﷺ جبريل وقتاً بعد وقت مما يقوي عزيمته، ويحمله على الصبر في تبليغ الرسالة وتصحيح المسيرة، والصمود في وجه التحديات واحتمال أذى قومه، ومتابعة جهاده.

ب - دفع الحرج عن المكلفين بتكليفهم بأحكام كثيرة مرة واحدة: فلو طولب المؤمنون بتحمل أعباء الشريعة دفعة واحدة، فربما وقعوا في الحرج والمشقة، وصار التنفيذ أمراً صعباً غير سهل ولا يسير.

ج - مراعاة مبدأ التدرج في التشريع: فقد كانت العادات والتقاليد الموروثة، والأعراف العامة مسيطرة في بيئة العرب وغيرهم من الأمم، فلو طولبوا بالإقلاع عما تحكمت فيهم العادات، لنفروا وأعرضوا وقالوا جميعاً: لا نترك هذا الأمر، فكان من الحكمة والمصلحة والنجاح في التربية، وتغيير تلك العادات المستحكمة أو المألوفة أن ينزل القرآن منجَّماً، ويتدرج في الأحكام من مرحلة إلى أخرى، تتهيأ بها النفوس لقبول الحكم النهائي.

د - معالجة الوقائع والطوارئ والأحداث وإجابة الأسئلة بما هو الأنسب والأوفق: فلو كان التشريع دفعة واحدة، سواء فيما يتعلق بحالة السلم أو حالة الحرب، لا نكشفت الخطة، ودبر الأعداء المكايد لتحقيق الغلبة على المسلمين، وهان على أهل الحيلة والمكر التشكيك في مدى صلاحية حكم تشريعي ما.

ثم أبان تعالى تأييد نبيه بالوحي وإبطال حجج المشركين فقال:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي لا يأتيك هؤلاء المشركون المعاندون بحجة أو شبهة، ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق، والتشكيك في نبوتك إلا أجبناهم بما هو الحق الثابت الذي يدحض قولهم، ويبطل حجتهم، ويكون أصدق في الواقع، وأبين وأوضح وأفصح

مما يقولون، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٨] .

وبعد وصف القوم المتعنتين رسول الله ﷺ بأوصاف كاذبة، أورد الله تعالى وصفهم يوم القيامة بما يدل على سوء حالهم في معادهم وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات، فقال:

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)﴾ أي إن أولئك المشركين المفترين على رسول الله ﷺ، الذين يسحبون على وجوههم إلى جهنم إذلالاً وخزياً وهواناً، ويساقون إليها بالسلاسل والأغلال، هم شر مكاناً (وهو جهنم) من أهل الجنة، وأضل سبيلاً وطريقاً عن الحق. والمقصود منه الزجر عن طريقهم، كما في قوله تعالى المتقدم: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ فلا يراد من ذلك المفاضلة، وإنما بيان سوء حال أهل النار، وحسن حال أهل الجنة، ولفت نظر الكفار إلى أن مكانهم شر من مكان المؤمنين، وسبيلهم أضل من سبيل المسلمين.

جاء في صحيح البخاري عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادرٌ على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة».

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفاً مُشاة، وصنفاً رُكباناً، وصنفاً على وجوههم، قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يُمشيَهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حَدَب وشوك».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - تَرَكَ المشركون والكفار القرآن في أوضاع متعددة، إما بعدم الاستماع والإصغاء إليه، وإما بترك تدبره وتفهمه، وإما بترك الإيمان به وعدم تصديقه، وإما بترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وإما بالعدول عنه إلى غيره من أنظمة الجاهلية والكفار أمثالهم.

روى أنس عن النبي ﷺ قال: «من تعلَّم القرآن، وعلَّق مصحفه، لم يتعاهده ولم ينظر فيه، جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب العالمين، إن عبدك هذا اتخذني مهجوراً، فاقض بيني وبينه».

وقال ابن القيم: هجر القرآن أنواع: أحدها - هجر سماعه والإيمان به، والثاني - هجر العمل به وإن قرأه وآمن به، والثالث - هجر تحكيمه والتحاكم إليه، والرابع - هجر تدبره وتفهم معانيه، والخامس - هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب، وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

٢ً - ما من حق إلا ويقابله باطل، وما من مصلح صادق إلا وله أعداء، وكما جعل الله لنبيه محمد عدواً من مشركي قومه كأبي جهل وأمثاله، جعل لكل نبي عدواً من مشركي قومه، فما على المحق والمصلح إلا الصبر كما صبر الأنبياء المتقدمون، والله هادٍ أهل الحق والصلاح، وناصرهم على كل من ناوأهم.

٣ً - استدل أهل السنة بآية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ على أنه تعالى خالق الخير والشر؛ لأن ذلك القول يدل على أن تلك العداوة من جعل الله، وتلك العداوة كفر.

٤ً - طلب كفار قريش أو اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقاً أن ينزل على محمد جملة واحدة، كما أنزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود. والتغاير في طريقة الإنزال له معنى وحكمة.

٥ً - إن نزول القرآن مفرقاً لتقوية قلب النبي ﷺ في تحمله ووعيه؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، والقرآن أنزل على نبي أمي، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، فتفريقه ليكون أوعى للنبي ﷺ، وأيسر على العامل به، فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب. وقد ذكرت تلك الفوائد والحِكَم في أثناء التفسير للآية.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إما من قول المشركين أي كالتوراة والإنجيل، فيوقف على ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ثم يبتدأ بقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ ويجوز الوقف على قوله: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ ثم يبتدأ ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي أنزلناه عليك كذلك متفرقاً لنثبت به فؤادك. قال ابن الأنباري: والوجه الأول أجود وأحسن، والقول الثاني قد جاء به التفسير. وقال النحاس: والأولى أن يكون التمام ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ لأنه إذا وقف على ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور، ولم يتقدم لها ذكر. وهذا موافق لرسم القرآن.

٦ً - نزل القرآن مرتلاً مرسَّلاً، أي شيئاً بعد شيء.

٧ً - إن الله تعالى مؤيد رسوله وهاديه وناصره، فلو نزل عليه القرآن جملة واحدة، ثم سألوه عن أمر، لم يكن عنده ما يجيب به، فإذا كان مفرقاً ثم سألوه أجاب بوحي من عند الله. قال النحاس: وكان ذلك من علامات النبوة؛ لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم. ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى تنبيه الناس إلى ما فيه الخير والحكمة والصواب.

٨ً - أهل النار وهم الكفار يحشرون إليها على وجوههم إما حقيقة كما تقدم، وإما أن القصد الذل والخزي والهوان، وإما الدلالة على الحيرة في طريق الذهاب. وهم في شر مكان؛ لأنهم في جهنم، وأضل ديناً وطريقاً.

قصص بعض الأنبياء وعقوبات مكذبيهم

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَثَمُودَا۟﴾:

قرئ:

١- (وثمودَ) - ممنوعة من الصرف - وهي قراءة حفص، وحمزة، ووقفوا على الدال بالسكون.

٢- (وثموداً) - مصروفة - وهي قراءة الباقين، ووقفوا على الألف المبدلة من التنوين.

الإعراب:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ (قوم) منصوب عطفاً على الهاء والميم في (دمرناهم) أو بتقدير فعل يفسره ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ أي أغرقنا قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم، أو بتقدير فعل «اذكر».

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ منصوبان بالعطف على (قوم نوح) إذا نصب بتقدير «اذكر» أو بالعطف على (دمرناهم). ولا يجوز العطف على ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا﴾ (كلاً) منصوب بفعل تقديره: أنذرنا كلاً؛ لأن ضرب الأمثال في معنى الإنذار، فجاز أن يكون تفسيراً لـ «أنذرنا». ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ (كلاً) منصوب بتبرنا، و﴿تَتْبِيرًا﴾ مصدر مؤكد.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿وَزِيرًا﴾ معيناً يؤازره في الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته، ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة، لتآزرهما في الأمر. والوزير: من يستعان برأيه ويستشار في الأمور، يقال: وزير الملك أو الرئيس لأنه يؤازره ويعينه في أعباء الملك أو الرئاسة ﴿إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هم فرعون وقومه القبط ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أهلكناهم إهلاكاً، وفيه محذوف تقديره: فذهبا إليهم فكذبوهما.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي واذكر ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ أي نوحاً وغيره، أو نوحاً وحده؛ لأن تكذيبه تكذيب لباقي الرسل؛ لاشتراكهم في الدعوة إلى التوحيد ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان وهو جواب لَمَّا ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ﴾ بعدهم أي جعلنا إغراقهم أو قصتهم للناس ﴿ءَايَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أعددنا في الآخرة للكافرين عذاباً مؤلماً، سوى ما يحل بهم في الدنيا. والجملة إما للتعميم، وإما للتخصيص فيكون وضعاً للظاهر موضع الضمير.

﴿وَعَادًا﴾ أي واذكر عاداً قوم هود ﴿وَثَمُودَا۟﴾ أو: وثموداً: قوم صالح، فهو إما ممنوع من الصرف على أنه اسم قبيلة، وإما مصروف على أنه الحي أو اسم الأب الأكبر ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ هم قوم كانوا يعبدون الأصنام ولهم آبار ومواش، فبعث الله إليهم شعيباً، وقيل: غيره، فكذبوه، فبينا هم حول الرَّس: وهي البئر غير المطوية (غير المبنية) قعوداً، انهارت بهم وبمنازلهم، جمع رساس. ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أقواماً بين ذلك المذكور، بين عاد وأصحاب الرس. ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ في إقامة الحجة عليهم، فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أهلكنا إهلاكاً بتكذيبهم أنبياءهم.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ أي مرّ كفار مكة أثناء تجارتهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ هي سدوم عظمى قرى قوم لوط، فأهلك الله أهلها لفعلهم الفاحشة، بمطر مصحوب بالحجارة. والسوء: مصدر ساء ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ في أثناء سفرهم إلى الشام، فيعتبروا ويتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله. والاستفهام للتقرير. ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي بل كانوا كفرة لا يخافون بعثاً، فلا يؤمنون ولا يتعظون.

المناسبة:

بعد بيان شبهات المشركين حول القرآن والنبوة والبعث، ذكر الله تعالى قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم الرسل، ليعتبر هؤلاء المشركون، ويحذروا ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الماضية من أليم العقاب، إذا بقوا على كفرهم وعنادهم، وذكر تعالى أربعة قصص هي ما يأتي:

القصة الأولى - قصة موسى وهارون عليهما السلام:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ بدأ تعالى بذكر موسى، فقال: وتالله لقد آتينا موسى التوراة، وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً له، أي نبياً مؤازراً ومعيناً وناصراً. ونبوة هارون ثابتة في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٥٣] لكنه وإن كان نبياً فالشريعة لموسى عليه السلام، وهو تابع له فيها، لذا أمر الاثنان بتبليغ رسالتهما في قوله تعالى:

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ أي فقال الله تعالى آمراً موسى وهارون: اذهبا إلى فرعون وقومه لتبليغ الرسالة وهي إعلان الوحدانية والربوبية لله عز وجل، فلا إله غيره، ولا معبود سواه،

فلما ذهبا كذبهما فرعون وجنوده، كما قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٧-٢١] وقال سبحانه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٢٠/٤٢-٤٦].

فلما كذب فرعون وقومه برسالة موسى وأخيه هارون، ولم يعترفوا بوحدانية الله تعالى، أهلكهم الله إهلاكاً، كما قال: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ [محمد: ٤٧/١٠]. فانظروا ياكفار مكة عاقبة الكفر وتكذيب الرسل.

القصة الثانية - قصة نوح عليه السلام:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي واذكر يامحمد لقومك ما فعله قوم نوح حين كذبوا رسولهم نوحاً عليه السلام الذي مكث فيهم يدعوهم إلى توحيد الله ويحذرهم من عقابه ونقمته ألف سنة إلا خمسين، فما آمن به إلا قليل، فأغرقناهم بالطوفان، وجعلناهم عبرة وعظة للناس يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/١١-١٢].

وقوله ﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ قصد به تكذيب نوح عليه السلام، على أساس أن من كذب رسولاً واحداً، فقد كذب بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، فدعوتهم إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام واحدة، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول، فإنهم كانوا يكذبون.

ثم عمم تعالى الحكم فقال:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأعددنا وهيأنا عذاباً مؤلماً في الآخرة

لكل ظالم كفر بالله، ولم يؤمن برسله، وسلك سبيلهم في تكذيب الرسل. وفي هذا تهديد لكفار قريش أنه سيصيبهم من العذاب مثلما أصاب قوم نوح.

القصة الثالثة - قصة عاد وثمود وأصحاب الرَّس:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ أي واذكر أيها الرسول أيضاً لقومك قصة عاد الذين كذبوا رسولهم هوداً، وقصة قبيلة ثمود الذين كذبوا رسولهم صالحاً، وقصة أصحاب الرس أي البئر وهم قوم من عبدة الأصنام أصحاب آبار وماشية، بعث الله لهم شعيباً وقيل غيره، فدعاهم إلى توحيد الله والإيمان به وبرسالته، فكذّبوه، فبينا هم حول البئر قعود، خسف الله بهم وبمنازلهم. واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرسّ: هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج.

﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي واذكر لهم أمماً كثيرة بين قوم نوح وعاد وأصحاب الرس، لما كذبوا الرسل، أهلكناهم جميعاً.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ أي وكل واحد من هؤلاء الأقوام بيّنا لهم الحجج، وأوضحنا لهم الأدلة، وأزحنا الأعذار عنهم، فلم يؤمنوا وإنما كذّبوا، بالرغم من الرد على كل الشبهات والاعتراضات، فأهلكناهم إهلاكاً شديداً، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧/١٧] . والقرن في الأظهر: هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد، فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخرْ فهو قرن آخر، كما ثبت في الصحيحين: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». والتتبير: التفتيت والتكسير.

القصة الرابعة - قصة لوط عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ذكّر مشركي مكة بعبرة

أخرى، وهي أنهم والله لقد مروا أثناء تجارتهم إلى الشام في رحلة الصيف على سَدُوم أعظم قرى قوم لوط التي أهلكها الله بالقلب (جعل عاليها سافلها) وبالمطر المصحوب بالحجارة من سجّيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٧٣] لارتكابهم الفاحشة.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي أفلم يروا ما حلّ بتلك القرية من عذاب الله ونكاله، بسبب تكذيبهم بالرسول، وبمخالفتهم أوامر الله، إنهم فعلاً يرون ذلك، ولكنهم لم يعتبروا، ومنشأ عدم العظة والعبرة وتكذيب النبي محمد ﷺ أنهم قوم لا يخافون أو لا يتوقعون نشوراً، أي معاداً يوم القيامة. وهذا تأكيد لما قال تعالى سابقاً في هذه السورة نفسها: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ [١١] فإن عدم الخوف من اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب هو السبب الجوهري في الإعراض عن دعوة الرسول ﷺ.

ورجح الرازي أن الرجاء في قوله تعالى ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ على حقيقته؛ لأن الإنسان لا يتحمل متاعب التكاليف إلا لرجاء ثواب الآخرة، فإذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها، فلا يتحمل تلك المتاعب.

فقه الحياة أو الأحكام:

الغرض من إيراد هذه القصص هنا واضح، وهو تحذير المشركين من تكذيب النبي ﷺ، فيحل بهم من العذاب، كما حلّ بالأمم الماضية المكذبين رسل الله.

فالقصة الأولى - قصة موسى وأخيه هارون عليهما السلام، كان معهما التوراة، وأمرا بالذهاب إلى فرعون وقومه من أقباط مصر لدعوتهم إلى الإيمان بوجود الله، والإقرار بوحدانيته، فكذبوا بآيات الله الدالة على صدق النبوة والتوحيد، فدمرهم الله تدميراً، وأهلكهم إهلاكاً شديداً بالإغراق في البحر.

والقصة الثانية - قصة نوح عليه السلام مع قومه الذي مكث يدعوهم إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام زمناً هو ألف سنة إلا خمسين، مما لم يمكث فيه نبي مع قومه مثل هذا، فبعد أن كذبوه ويئس من إيمانهم، أغرقهم الله جميعاً بالطوفان، وجعلهم للناس آية أي علامة ظاهرة على قدرته، وأعدَّ لهؤلاء المشركين من قوم نوح ولكل ظالم عذاباً شديد الألم في الآخرة، ونَجَّى الله الذين آمنوا مع نوح في السفينة.

وقوله: ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ ذكر الجنس، وأراد به نوحاً وحده؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده، فنوح إنما بعث بـ «لا إله إلا الله» وبالإيمان بما يُنزل الله تعالى، فلما كذبوه كان في ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة.

والقصة الثالثة - قصة عاد وثمود وأصحاب الرس وأقوام آخرين مما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس، أنذروا جميعاً، وضربت لهم الأمثال الحقة، وبيِّنت لهم الحجة، فأبوا الإيمان، وكذبوا الرسل، فأهلكهم الله بالعذاب ودمرهم تدميراً. والرس في كلام العرب: البئر التي تكون غير مطوية.

وأصحاب الرسّ كما عرفنا كانوا قوماً من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواشٍ، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً عليه السلام، فدعاهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه، فبينما هم حول الرس، خسف الله بهم وبدارهم. وقيل: الرس: قرية باليمامة قتلوا نبيهم، فهلكوا، وهم بقية ثمود.

والقصة الرابعة - قصة لوط عليه السلام مع قومه في قرية سدوم إحدى قرى قوم لوط الخمس، دعاهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام، والتطهر من الفاحشة، فأصروا على ما هم عليه؛ لأنهم لا يصدقون بالبعث، أو لا يرجون ثواب الآخرة، فأهلكهم الله بمطر السوء، أي بالحجارة من السماء،

وكان مشركو مكة يمرون في أسفارهم بتلك المدائن، ومع ذلك لم يعتبروا. قال ابن عباس: كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧/١٣٧] وقال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١٥/٧٩] .

وقد أهلك الله تعالى أربعاً من قرى قوم لوط بأهلها، وبقيت واحدة.

استهزاء المشركين بالنبي ﷺ وتسمية دعوته إضلالاً

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

القراءات:

﴿هُزُوًا﴾:

قرئ:

١- (هُزُواً) وهي قراءة حفص.

٢- (هزءاً) وهي قراءة خلف، وحمزة وقفاً.

٣- (هزؤاً) وهي قراءة الباقين.

﴿تَحْسَبُ﴾:

قرئ:

١- (تَحْسِب) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، والكسائي.

٢- (تَحْسَب) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُـزُوًا﴾ ﴿إِن﴾ بمعنى «ما» أي ما يتخذونك إلا ذا هزء أو موضع هزء أو مهزوءاً به، مثل ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون إلا في غرور. ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ محكي بعد قول مضمر تقديره: قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾. و﴿أَهَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، و﴿رَسُولًا﴾ إما منصوب على الحال وهو الأولى، أو على المصدر، بجعل ﴿رَسُولًا﴾ بمعنى «رسالة» مثل قول الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بُحت عندهم بسرّ ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ ﴿إِن﴾ هنا عند البصريين مخففة من الثقيلة.

البلاغة:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ الاستفهام للاستهزاء والتهكم، والإشارة للاستحقار.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيب، وفيه تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية به، والأصل: اتخذ هواه إلهاً له، بأن أطاعه وبنى عليه دينه، لا يسمع حجة، ولا يبصر دليلاً.

المفردات اللغوية:

﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُـزُوًا﴾ أي ما يتخذونك إلا موضع هزء أو مهزوءاً به

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ هناك محذوف تقديره: يقولون، أو قائلين: أهذا الذي بعث الله رسولاً في دعواه، والاستفهام للاستهزاء والتقدير، والإشارة للاستحقار وعدم تأهله للرسالة في زعمهم .﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ يصرفنا و﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي إنه قارب إضلالنا، وصرفنا عن آلهتنا بفرط اجتهاده في الدعوة إلى التوحيد، لولا أننا ثبتنا على عبادة آلهتنا. وهذا اعتراف صريح من المشركين بأن محمداً بلغ الغاية في الدعوة إلى ربه.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ عياناً في الآخرة، وهذا كالجواب عن قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ فإنهم نسبوا الرسول ﷺ إلى الضلال، وفيه وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه، وإن طالت مدة الإمهال، ولا بد للوعيد أن يلحقهم، فلا يغرنهم التأخير، وسينزل بهم العقاب ويعرفون حينئذ من أبعد عن الحق طريقاً، أهم أم المؤمنون؟!

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أخبرني عمن جعل هواه إلهه، بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة، ولا يبصر دليلاً ﴿وَكِيلًا﴾ حافظاً تحفظه عن اتباع هواه أي مهويه، وتمنعه عن الشرك والمعاصي، وحاله هذا؟ لا، فالاستفهام الأول للتقرير والتعجيب، والثاني للإنكار.

﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بل أتحسب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما تقول لهم، فتجديهم الآيات أو الحجج، فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم، وهو أشد مذمة مما قبله حتى حق بالإضراب عنه إليه ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي ما هم إلا كالسوائم في عدم انتفاعهم بقرع الآيات ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أبعد عن الحق طريقاً منها؛ لأنها تنقاد لمن يتعهدها بالرعاية، وهم لا يطيعون مولاهم وخالقهم المنعم عليهم بنعم كثيرة، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار.

سبب النزول:

نزول الآية (٤١):

روي أن هذه الآية نزلت في أبي جهل، فإنه كان إذا مرّ رسول الله ﷺ مع صحبه قال مستهزئاً: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟.

المناسبة:

بعد بيان مواقف المشركين في إنكار نزول القرآن من الله، والطعن في نبوة محمد ﷺ، وعدم الإيمان برسالته، وإيراد الشبهات الواهية حول ذلك، أبان الله تعالى إسرافهم في الشطط والغلو والاستعلاء، وإساءتهم لهذا الرسول ﷺ بالاستهزاء به، والاستهانة بشخصه، والحط من قدره، متهكمين على اختياره للبعثة النبوية، ومغالين في ذلك حتى سموا دعوته إضلالاً، ولجؤوا إلى التحذير من تأثير تلك الدعوة القوية والآيات والحجج البالغة التي شارفت أن تجرفهم إلى الإيمان، وترك دينهم إلى دين الإسلام، لولا ثباتهم على الوثنية، واستمساكهم بعبادة آلهتهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ وتعييره بالعيب والنقص، فيقول:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُـزُوًا﴾ أي إذا رآك أيها النبي المشركون الذين كفروا بالله ورسوله، ما يتخذونك إلا موضع هزء وسخرية، أو مهزوءاً به، مقارنة بما هم عليه من العزة والسيادة والغنى، وما أنت عليه من الفقر واليتم والمسكنة.

﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ ويقولون على سبيل التنقص والازدراء: أهذا المبعوث من عند الله رسولاً إلينا؟ كما قال تعالى في شأن غيره: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠] .

قبحهم الله، فلم يكن رسول الله ﷺ إلا المثل الأعلى للأنبياء وللبشر قاطبة في مشيه وسلوكه وتصرفاته وأخلاقه وفكره ومنطقه العذب، ولكنه العناد في الكفر الذي يصر أهله على تدليس الحقائق وطمس الفضائل، وهم في أصائل قلوبهم يرون الحقيقة ويظهرون غيرها، بدليل قولهم الآتي: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي قارب محمد أن يثنيهم عن عبادة الأصنام، ويحملهم على ترك دينهم إلى دين الإسلام، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على ما هم عليه، وتمسكوا بالوثنية والأسطورة والخرافة التي لا يقبل بها عاقل رشيد.

وفي هذا دلالة واضحة على تناقضهم وإظهارهم خلاف ما يعتقدون من الحقيقة؛ لأنهم عرفوا محمداً الصادق الأمين الراجح العقل في غضون أربعين عاماً من العمر قبل النبوة، ولم يوجهوا له يوماً ما أي طعن أو نقد، وإنما على العكس كان محل احترام وإجلال من جميع قومه، كما هو معروف.

ثم إن في هذا القول اعترافاً ضمنياً بقوة تأثير محمد ﷺ فيهم، بدعوتهم إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام؛ بحجج بالغة وأدلة دامغة، حتى إنهم شارفوا مفارقة دينهم إلى الإسلام، لولا المكابرة والعناد والاستكبار والغلو، فراحوا يقولون بأن صنيعه إضلال.

وبعد أن حكى الله تعالى كلامهم زيَّف طريقتهم وسفَّه آراءهم من وجوه ثلاثة:

الأول:

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هذا وعيد شديد لهم وتهديد على التعامي عن الحق والإعراض عن الاستدلال والنظر، وعلى وصفهم له بالإضلال، فإنهم حين يشاهدون العذاب الذي لا مفرّ لهم منه يدركون من أبعد عن الحق طريقاً، أهم أم المؤمنون وهو ﷺ قائدهم، ومن الضّال ومن المضلّ؟

الثاني:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ وهذا تنبيه على عدم الفائدة من دعوة من سيطرت عليه الأهواء إلى الدين الحق، فانظر فيمن جعل هواه إلهه، بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه، واستولى عليه التقليد، وصمّ أذنه عن سماع الدليل المقنع والبرهان الساطع، فكل ما زين له الهوى شيئاً انقاد له، وحينئذٍ لن تستطيع منعه من الشرك والمعاصي، ولن تكون مستطيعاً دعوته إلى الهدى ولا ولياً حافظاً على شؤونه لتقمعه عن الضلال، وترشده إلى الهدى والصواب؛ فما استحسنه بهواه جعله دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٣٥/٨] .

قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني، وترك الأول.

وهذا دليل على ألا حجة لهم في عبادة الأصنام إلا التقليد واتباع الأهواء، ولا يرشد إلى طريقهم فكر ولا عقل سليم.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢٢] ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٥٠/ ٤٥] ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] .

الثالث:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ وهذا ذمّ أشد مما سبق، لذا عبر عنه بقوله ﴿أَمْ﴾ أي بل للإضراب عما سبق إليه، والمعنى بل أتظن أن أكثرهم يسمعون سماع تدبر وفهم، أو يتعقلون ويفكرون فيما تتلو عليهم، وترشدهم إليه من الفضائل

والأخلاق الحميدة، فتجهد نفسك في إقناعهم بدعوتك، ونقلهم إلى العقيدة الصحيحة، فما حالهم إلا كالأنعام السائمة، بل هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، وأبعد عن الحق طريقاً منها، فإن تلك البهائم تفعل ما هو خير لها ونفع، وتتجنب ما هو ضارّ بها وخطر عليها، أما هؤلاء فلايقدّرون مصلحتهم حق التقدير، فتراهم متهورين في المعاصي، قاذفين أنفسهم في المهالك، لا يشكرون نعمة الخالق عليهم ولا يعرفون إحسانه، وإساءة الشيطان لهم، ولا يفعلون ما يحقق لهم الثواب الأخروي، ولا يتجنبون ما يؤدي بهم إلى العقاب والعذاب.

والسبب في قوله ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لا الكل أن بعضهم عرف الله تعالى وعلم أن الإسلام حق، لكنه لم يعلن إسلامه لمجرد حب الرياسة.

وهذا دليل على فقدهم الإدراك الصحيح والوعي السليم، وتعطيلهم طاقات الحواس والمواهب الإلهية التي لو فكروا بموجبها دون تأثر بعصبية، أو تقليد موروث، أو هوى متبع كحب الزعامة والسيطرة، لانقادوا إلى رسالة الحق والتوحيد، وآمنوا بدعوة النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - اتّخذ المشركون النبي ﷺ موضع استهزاء وسخرية، فهل بعد هذا من جرم أفظع منه وأشنع؟

٢ - دلّ قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ على أمور: هي أنهم سموا ذلك إضلالاً، وأن الرسول ﷺ بلغ أقصى الجهد والاجتهاد في صرفهم عن عبادة الأوثان، وأنهم لم يعترضوا على دلائل النبوة إلا بمحض الجحود والتقليد، وأن القوم أقروا بقوة حجته ﷺ وكمال عقله، لكنهم طاشوا كالمجانين، فاستهزؤوا به، وذلك فعل الجاهل العاجز المتحير في أمره.

٣ - كان الرد الحاسم من الله على قبائح المشركين هذه من وجوه ثلاثة:

أولها:

أنهم حين مشاهدة العذاب يدركون من أضل ديناً أهم أم محمد؟

ثانيها:

أنهم لجهالتهم وإعراضهم عن آيات الله اتخذوا أهواءهم آلهة، فأصروا على الشرك، وقلدوا آباءهم، مع إقرارهم بأن الله خالقهم ورازقهم، وعبدوا الأحجار من غير حجة.

ثالثها:

أن أكثرهم لا يسمعون سماع قبول أو يفكرون فيما يقوله النبي ﷺ فيعقلونه، أي هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع، وما هم إلا كالأنعام لا يفكرون في الآخرة، بل هم أضل؛ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام.

٤ - دلّ قوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي حفيظاً وكفيلاً حتى ترده إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد، على أن الهداية والضلالة ليستا موكولتين إلى مشيئة النبي ﷺ، وإنما عليه التبليغ. والآية تسلية له عن تركهم الإيمان وإعراضهم عن دعوته.

أدلة خمسة على وجود الله وتوحيده

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

وقرأ ابن كثير (الرِّيح).

﴿بُشْرًا﴾:

قرئ:

١- (نُشُراً) هي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن كثير.

٢- (نُشْراً) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (بُشْراً) وهي قراءة عاصم.

٤- (نَشْراً) وهي قراءة الباقين.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (لِيَذْكُروا).

﴿شِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شينا).

الإعراب:

﴿وَأَنَاسِيَّ﴾ معطوف على ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ وواحده (أَنَسي) أو (إنسان). قال الفراء والزجاج: الأَنَسي والأَناسي كالكرسي والكراسي. وقال الزمخشري: الأناسي: جمع أنسي أو إنسان.

البلاغة:

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ تشبيه بليغ، حذف منه أداة الشبه ووجه التشبيه، أي كاللباس الساتر.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ مقابلة بين الليل والنهار، والنوم والتقلب في المعاش.

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ استعارة، استعار اليدين لما هو أمام الشيء وقدَّامه.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ التفات من الغيبة: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ إلى التكلم للتعظيم والامتنان.

﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بينهما مقابلة، أي في نهاية العذوبة ونهاية الملوحة.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تنظر .﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى صنعه وفعله .﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بسطه،

والظل: خيال الأشياء المادية ذات الجسم كجبل أو بناء أو شجر من حين طلوع الشمس حتى غروبها. وهو دليل الحدوث وتصرف الله فيه على الوجه النافع، مما يدل على أن ذلك فعل الصانع الحكيم .﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ ربك. ﴿سَاكِنًا﴾ ثابتاً مقيماً على حاله في القَدْر، فلا يزول ولا تذهبه الشمس بأن يجعل الشمس قائمة على وضع واحد .﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي جعلنا الشمس علامة على الظل، فلولا الشمس ما عرف الظل .﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ أي أزلنا الظل ومحوناه بإيقاع الشعاع عليه تدريجياً قليلاً قليلاً شيئاً فشيئاً بمعدل سير الشمس في فلكها وبمقدار ارتفاعها.

﴿لِبَاسًا﴾ جعل ظلام الليل ساتراً كاللباس .﴿سُبَاتًا﴾ راحة لأبدانكم بقطع الأعمال والمشاغل، من السبت وهو القطع .﴿نُشُورًا﴾ ذا نشور، أي انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش وابتغاء الرزق، أو بعثاً من النوم بعث الأموات .﴿بُشْرًۢا﴾ مبشرات .﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي قدّام المطر، وقرئ: نُشُراً أي متفرقة قدّام المطر، جمع نشور كرسول ورسل .﴿طَهُورًا﴾ مطهراً يتطهر به، لقوله تعالى: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ٨/ ١١] وهو اسم لما يتطهر به، كالوَضُوء لما يتوضأ به، والوَقُود لما يوقد به. وتطهير الظواهر دليل على تطهير البواطن.

﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي لا نبات فيها، والميت يستوي فيه المذكر والمؤنث، وذكّر ميتاً باعتبار المكان، أي لأن البلدة في معنى البلد. والفرق بين المَيْت بالتخفيف، والميِّت بالتشديد أن الأول لمن مات حقيقة، والثاني لمن سيموت. ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي الماء .﴿أَنْعَٰمًا﴾ هي الإبل والبقر والغنم .﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ هم الناس، جمع أنسي. والمراد: أنعاماً كثيرة وبشراً كثيرين؛ لأن فعيل يراد به الكثرة.

﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي الماء بمعنى فرقناه وحولناه من جهة إلى أخرى، ومنه:

تصريف الأمور .﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي يتذكروا نعمة الله به ويعتبروا .﴿كُفُورًا﴾ كفران النعمة وإنكارها وقلة الاكتراث بها، حيث قالوا: مُطرنا بنَوْء كذا أي سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رَقيبه من المشرق، يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً، ما عدا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، وقيل: إلى الطالع؛ لأنه في سلطانه، وجمعه أنواء.

﴿نَّذِيرًا﴾ نبياً ينذر أهلها ويخوفهم، ولكن بعثناك إلى أهل القرى كلها نذيراً، ليعظم أجرك .﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ في هواهم وفيما يريدون منك وهو تهييج له وللمؤمنين .﴿وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه .﴿فَلَا تُطِعِ﴾ والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك، فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحة باطلهم .﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف .﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان .﴿فُرَاتٌ﴾ مفرط العذوبة .﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة .﴿بَرْزَخًا﴾ حاجزاً .﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ تنافراً بليغاً شديداً أو حداً محدوداً .﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي ذوي نسب وهم الذكور الذين ينسب إليهم، والصهر: أي ذوي صهر وهم الإناث اللائي يصاهر بهن.

المناسبة:

لما بيَّن الله تعالى جهل المعرضين عن أدلة التوحيد ومناقشتهم وفساد تفكيرهم في ذلك، ذكر خمسة أدلة دالة بنحو قاطع حساً وعقلاً على وجود الصانع الحكيم، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة.

التفسير والبيان:

أورد الحق تعالى أدلة خمسة على وجوده وقدرته من الظواهر الكونية التي

يدركها ويشاهدها عياناً كل مخلوق وهي خلق الظل، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والبحار الملحة والعذبة، والإنسان من الماء، وهي ما يلي:

أ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ ألم تنظر أيها الرسول وكل سامع إلى صنع ربك الذي يدل على كمال قدرته ومنتهى رحمته كيف بسط الظل، يتفيأ به الناس طوال النهار، وينعمون فيه بالوقاية من شدة حر الشمس، من طلوع الشمس إلى غروبها. ولو شاء لجعله ثابتاً دائماً على حال واحدة لا يتغير طولاً وقصراً، وإنما جعله متفاوتاً في ساعات النهار والفصول المختلفة، وفي ذلك فوائد كثيرة للإنسان والنبات والحيوان، ومن فوائده: اتخاذه مقياساً للزمن، حتى إن الفقهاء جعلوه علامة على بعض أوقات الصلاة، كالظهر عند الزوال، أي تحول الظل نحو المشرق وميل الشمس نحو المغرب، والعصر إذا بلغ ظل كل شيء مثله في رأي الجمهور، وعند أبي حنيفة: إذا بلغ ظل كل شيء مثليه.

وهذا على تفسير ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ برؤية العين، والأولى في رأي الرازي حمله على رؤية القلب، والمعنى: ألم تعلم؛ لأن الظل من المبصرات ولكن تأثير قدرة الله في تمديده غير مرئي.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ، ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ أي ثم جعلنا طلوع الشمس علامة على الظل، فلولا طلوعها لما عرف الظل؛ فإن كل شيء يتميز بضده. وهذا يعني أن الله تعالى خلق الظل أولاً، ثم جعل الشمس دليلاً عليه. ثم أزلنا الظل وحولناه وغيرنا اتجاهه بضوء الشمس قليلاً قليلاً وشيئاً فشيئاً على مَهَل غير فجأة بحسب سير الشمس وارتفاعها، حتى لا يبقى على الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه.

وفي إيجاد الظل وتغيره بعد شروق الشمس إلى غروبها، وانتقاله من حال إلى حال، وقبضه وبسطه، والتصرف فيه على وَفْق الحكمة دليل واضح على وجود الإله القادر، الخبير البصير، العليم الحكيم، الرؤوف الرحيم.

٢ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي والله هو الذي جعل ظلام الليل ساتراً كاللباس، كما قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل: ٩٢/ ١] وجعل النوم كالموت قاطعاً للحركة، توفيراً لراحة الأبدان والحواس والأعضاء، بعد إجهاد النهار، وعناء العمل، فبالنوم تسكن الحركات وتستريح الأعصاب والأعضاء والبدن والروح معاً.

وجعل تعالى النهار مجالاً للانتشار في الأرض، ينتشر فيه الناس لابتغاء الرزق وغيره، ويتوزعون فيه لمعايشهم ومكاسبهم.

وكما أن النوم يشبه الموت، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٠] وقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٢] فإن الانتشار واليقظة يشبه البعث، قال لقمان لابنه: كما تنام فتوقَظ، كذلك تموت فتُنْشَر.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٣].

وفي الليل وسكونه، والنوم وراحته، والنهار وحركته دليل واضح على وجود الإله الخالق القادر المتصرف في الكون، ففي ضوء النهار الحياة والبهجة والحركة والعمل، وفي الليل الهدوء والسكون وإعداد النفس للكد والكدح والجهاد، والله تعالى جعل لكل ظرف ما يناسبه تماماً ويحقق المقصود على أكمل وجه. وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق، فيها إظهار لنعمته على خلقه؛ لأن في ستر الليل فوائد دينية ودنيوية، وفي تشبيه النوم واليقظة بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر.

٣ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي والله تعالى الذي يرسل الرياح مبشِّرات بمجيء السحاب وهطول الأمطار.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ أي وأنزلنا مطراً من السماء، أي السحاب وجعلناه طاهراً مُطَهِّراً، أي وسيلة يتطهر بها في تنظيف الأجسام والملابس والأشياء المختلفة، والانتفاع به في الطعام والشراب وسقي النباتات والحيوانات. والطهور: اسم لما يتطهر به كالوَضوء لما يتوضأ به، والوَقُود لما يوقد به. روى الشافعي وأحمد وصححه، وأبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن الماء طَهُورٌ لا ينجّسُه شيء». وروى أبو داود والترمذي والنسائي أن النبي ﷺ قال لما سئل عن التوضؤ بماء البحر: «هو الطَّهُور ماؤه، الحلُّ ميتته». وقال سعيد بن المسيِّب في هذه الآية: أنزله الله طهوراً، لا ينجسه شيء.

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي وأنزلناه لإحياء الأرض التي لا نبات فيها، وطال انتظارها للغيث، فتصبح بعد ريها مزدهرة بأنواع النبات والزهر والشجر، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٢٢/٥] .

﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي وليشرب منه الحيوان والإنسان المحتاجان إليه أشد الحاجة لبقاء الحياة وسقي الزروع والأشجار، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٤٢/٢٨] .

والخلاصة: ذكر الله تعالى لمنافع الماء أمرين: إحياء النبات، لقوله: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وإحياء الحيوان والإنسان لقوله: ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ﴾.

والسبب في تخصيص الإنسان والأنعام هنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء هو شدة الحاجة، فالطير والوحش تبعد في طلب الماء، وتصبر على فقده أكثر من الناس والحيوان الأهلي، فلا يعوزها الشرب غالباً.

وتنكير الأنعام والأناسي، ووصفهما بالكثرة، لملاحظة أحوال الماشية

البعيدة عن منابع الماء، وأهل البوادي الذين يعيشون بالمطر، أما أهل المدن والقرى فيقيمون عادة بقرب الأنهار ومنابع الماء، فهم في غنية عن المطر بشرب المياه المجاورة لهم.

وقدم الأنعام وأخر الإنسان عن النبات والحيوان لشدة حاجة الحيوان وكونه عاجزاً عن التعبير عن مراده، أما الإنسان فيتفنن في استخراج الماء بوسائل عديدة، ولأن الناس إذا ظفروا بما يسقي أرضهم ومواشيهم، فقد ظفروا أيضاً بسقياهم، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ أي ولقد فرقنا المطر وحولناه من جهة إلى أخرى، فأمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب من مكان إلى آخر ليتذكروا نعمة الله ويعتبروا، فإن الحرمان من الشيء ثم الإفاضة به يذكّر بفضل الله ونعمته، فيوجب الشكر، ويدفع الإنسان إلى العظة والعبرة، ولكن أكثر الناس يأبون شكر النعمة، ويكفرون بها ويجحدونها، وينسبون ذلك لغير الخالق الحقيقي، فيقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، أي من النجوم الساقطة أو الطالعة، كما ورد في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتَدْرُونَ ماذا قال ربُّكم؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي، مؤمن بالكوكب».

وفسر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ أي تصريف القرآن وتقليب حججه وآياته من حال إلى حال، ليذكر الناس ويتعظوا، ومع ذلك كفر به كثيرون.

وفي إنزال المطر والتحكم فيه من قبل الله دليل على وجوده وقدرته

وحكمته، فإذا ما أحيا الله الأرض الميتة به، تذكر الناس أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات، وإذا ما حرم قوم المطر تذكروا أنما أصيبوا بالحرمان بذنب حدث منهم، فيقلعون عما هم عليه، ليتعرضوا إلى رحمة الله. وكما أن المطر نعمة ينبغي أن تذكر فتشكر، هناك نعمة عظمى على الإنسانية وهي إرسال الرسول محمد ﷺ بالقرآن، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ أي لو أردنا أن نبعث في كل قرية رسولاً منذراً يخوف الناس من عذاب أليم لفعلنا، ولكنا بعثناك يا محمد إلى الثقلين: الجن والإنس، وإلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٢/٧] وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨] وجاء في الصحيحين: «بعثتُ إلى الأحمر والأسود» أي إلى العجم والعرب. وفيهما أيضاً: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وعموم البعثة لندّخر لك أيها الرسول عظيم الثواب، وواسع الجزاء، فما عليك إلا الجهاد والصبر، ولا تأبه بإعراضهم عن دعوتك. لهذا قال:

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ أي فلا تتبع الكفار فيما يدعونك إليه من مجاملة أو موافقة لآرائهم ومذاهبهم، وجاهدهم بكل سلاح مادي أو عقلي وهو القرآن جهاداً شاملاً لا هوادة فيه، متناسباً مع كل فرصة تنتهزها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/٧٣] . والجهاد الكبير: هو الذي لا يخالطه فتور.

٤ - ﴿۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ أي والله الذي جعل البحرين المتضادين متجاورين متلاصقين لا يمتزجان، هذا ماء زلال عذب شديد العذوبة، وهذا ملح شديد الملوحة، ولكن لا يختلط أحدهما بالآخر، كأن بينهما حاجزاً

منيعاً، وكأنهما ضدان مفترقان متنافران لا يجتمعان، ولا يصل أحدهما إلى الآخر، فهما في مرأى العين واحد، ولكنهما في الحقيقة والواقع منفصلان، كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن: ٥٥/١٩-٢١] وقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٢٧/٦١].

أي دليل آخر يدل على قدرة الله الباهرة غير مثل هذا الدليل؟ إن الماء ماء واحد، ولكن الماء العذب لا يختلط بالماء المالح، والله خلق الماءين: الحلو والملح، وجعل الأنهار والعيون والآبار حلوة، وهي البحر الحلو الفرات الزلال، وجعل البحار في المشارق والمغارب والمحيطات الخمس مالحة، وملوحتها سبب لنقاوتها وعدم فسادها، ويتجدد هواء البحر بالمد والجزر، فتستطيع الأسماك في قيعانه العيش بسلام.

٥ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)﴾ أي والله سبحانه الذي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعدَّله، وجعله كامل الخلْقة، ذكراً وأنثى كما يشاء، فقسَمه قسمين: ذكوراً تنسب إليهم الأنساب، وإناثاً يصاهر بهن، كما قال: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩)﴾ [القيامة: ٧٥/٣٩] وكان الله قديراً بالغ القدرة على كل شيء من هذا وغيره، يخلق ما يريد، وقد أبدع كل شيء خلقه، وأتقن كل ما في الوجود، وهو ما يزال كامل القدرة على الإبداع والخلق والتكوين. وخَتْمُ الآية بإثبات القدرة هو مسك الختام.

قال ابن سيرين: نزلت هذه الآية في النبي ﷺ وعلي رضي الله عنه؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر. وقال ابن عطية: فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة.

وهذا دليل آخر على قدرة الله تعالى إذ خلق الإنسان في أحسن تقويم،

وزوده بطاقات الحس والعقل، والمعرفة والتفكير، وأقدره على مخلوقات الدنيا، وجعلها مذلّلة مسخرة لخدمته ونفعه، فسبحانه من إله بديع الخلق، عجيب الصنع، واهب الوجود، ومُبْدع الكون العجيب.

فقه الحياة أو الأحكام:

في هذه الآيات أدلة خمسة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وهي:

أولاً - خلق الظل المقابل للشمس وتمديده طوال النهار وانعدامه عند الظهيرة ما عدا سقف البيت والشجر، حكى أبو عبيدة عن رؤبة: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل.

والظل نعمة عظمى للأحياء والعقلاء في كل مكان، لا سيما في البلاد الحارة، ففيه الراحة والهدوء، وتوقي الحر، أو الوقاية من ضربات الشمس الحادّة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ١٦/٤٨] .

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين، ويجوز أن تكون من العلم، أي من رؤية القلب. والخطاب وإن كان في الظاهر للرسول ﷺ فهو عام في المعنى.

والشمس دليل على الظل؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها، ولولا الشمس ما عرف الظل، ولولا النور ما عرفت الظلمة، فالشمس دليل، أي حجة وبرهان.

ويتفاوت طول الظل وقصره أثناء النهار تفاوتاً سهلاً يسيراً، شيئاً فشيئاً، والله هو الذي يقبضه بيسر وسهولة، وكل أمر ربنا عليه يسير.

ثانياً - الليل ستر للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن، والنوم راحة للأبدان بالانقطاع عن الأشغال، والنهار ذو نشور، أي انتشار للمعاش، فهو سبب الإحياء للانتشار. والنوم ليلاً يشبه الإماتة، واليقظة نهاراً تشبه البعث، وكان ﷺ إذا أصبح قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

ثالثاً - الرياح مُبَشِّرات بهطول المطر، تقود السحب من مكان إلى آخر، والأمطار الهاطلة حياة الأبدان والنباتات والحيوانات، وهي ماء طهور أي ما يتطهر به، والمراد أنه مطهر. وأجمعت الأمة على أن وصف (طهور) يختص بالماء، ولا يتعدى إلى سائر المائعات، وهي طاهرة.

والمياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة، على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها. والمخالط للماء ثلاثة أنواع: نوع يوافقه في صفتيه جميعاً وهو التراب طاهر مطهر، ونوع يوافقه في إحدى صفتيه وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيّره سلبه صلاحية التطهير وهو ماء الورد وسائر المائعات الطاهرات، ونوع يخالفه في الصفتين جميعاً، وهو النجس.

ويرى الجمهور أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة، والكثير لا يفسده إلا ما غيَّر لونه أو طعمه أو ريحه من النجاسات. ويرى أبو حنيفة أنه إذا وقعت نجاسة في الماء أفسدته، كثيراً كان أو قليلاً إذا تحققت النجاسة فيه، فإن وقعت نقطة بول في بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها بتحرك أحدهما فالكل نجس، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس.

وميّز الشافعية بين القليل والكثير بمقدار القلتين (١٥ صفيحة) فإذا بلغ الماء قلتين، فوقعت فيه نجاسة، ولم تغير طعمه أو لونه أو ريحه، فهو طاهر مطهر، وإذا غيرت أحد أوصافه، ولو تغيراً يسيراً فنجس؛ لقوله ﷺ فيما رواه أصحاب السنن الأربع عن ابن عمر: «إذا بلَغَ الماءُ قُلّتين، لم يَحْملِ الْخَبَثَ» أو «لم ينجس» قال الحاكم: على شرط الشيخين: البخاري ومسلم.

ولا حدَّ عند المالكية بين القليل والكثير، والمرجع فيه إلى العرف والعادة، فما هو قدر آنية الوضوء والغسل قليل يسير، وما يزيد عن ذلك كثير.

ولا يضر تغير الماء بما في مقره وممره كزرنيخ وطحلب وورق شجر ينبت عليه. وكذلك لا يضر ما مات في الماء مما لا دم له، أو له دم سائل من دواب الماء، كالحوت والضفدع إن لم يغيِّر ريحه.

والماء المستعمل القليل في رفع حدث أو إزالة نجس طاهر مطهر عند المالكية، وطاهر غير مطهر عند الجمهور. ودليل المالكية: الآية التي وصفت الماء بالطهور والمطهر، والأصل في الثابت بقاؤه، والسنة وهو أنه ﷺ توضأ فمسح رأسه بفضل ماء في يده، وأنه توضأ فأخذ من بلل لحيته، فمسح به رأسه، والقياس: وهو أنه ماء طاهر لقي جسداً طاهراً، فأشبه ما إذا لقي حجارة أو حديداً. ودليل الجمهور قوله ﷺ فيما رواه مسلم: «لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم[1] وهو جنب» ولو بقي الماء كما كان طاهراً مطهراً لما كان للمنع منه معنى. والقياس وهو أن الصحابة كانوا يتوضؤون في الأسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه، مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك إلى الماء، ولو كان ذلك الماء مطهراً لحملوه ليوم الحاجة[2].

والماء الطاهر المطهر الذي يجوز به الوضوء وغسل النجاسات: هو الماء الصافي من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار، وما عرفه الناس ماء مطلقاً غير مضاف إلى شيء خالطه كماء الورد، ولا يضره لون أرضه، كما بينا.

ولا بأس في مذهب الجمهور أن يتوضأ الرجل بفضل ماء وضوء المرأة

(١) الماء الدائم: هو الراكد الساكن.

(٢) تفسير الرازي: ٢٤/ ٩٢

وتتوضأ المرأة من فضل ماء وضوء الرجل، سواء انفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد؛ روى الترمذي عن ابن عباس قال: حدثتني ميمونة قالت: كنتُ أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد من الجنابة. وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه مسلم أيضاً.

رابعاً - أرسل الله البحرين: العذب والمالح، وجعلهما متجاورين متلاصقين لا يمتزجان ولا يختلطان، وجعل بينهما حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه، وستراً مستوراً يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر، فالبرزخ: الحاجز، والحِجْر: المانع.

خامساً - خلق الله تعالى من النطفة إنساناً، وجعل من الإنسان صنفين: الذكر والأنثى، وجعل الذكر موضع نسبة النسب، والأنثى سبباً للمصاهرة، وإيجاد قرابات جديدة، فكل من النسب والصهر قرابة ويعمان كل قربى بين آدميين.

وتضمنت الآيات أيضاً بالإضافة إلى الاستدلال بها على قدرة الله تعداد النعم على بني الإنسان من إيجاد الظل، وتعاقب الليل والنهار، وإنزال الأمطار، وخلق الماءين: الحلو والمالح، وتسخير البحار والأنهار لسير المراكب وتنقل الناس، وإيجاد الإنسان بعد العدم، والتنبيه على العبرة في كل ذلك.

كما تضمنت الآيات بيان فضله تعالى في إنزال القرآن على تفسير التصريف بتصريف آيات القرآن وترداد الحجج والبينات فيه، وفي بعثة النبي ﷺ لجميع العالم في الشرق والغرب، فهاتان هما النعمتان العظيمتان على بني الإنسان، وعلى التخصيص المسلمين.

وإذا لم يكن النسب ثابتاً شرعاً لم تثبت حرمة المصاهرة، وعليه قال الجمهور: إذا لم يكن نسب شرعاً، فلا صهر شرعاً، فلا يحرّم الزنى بنت أم

ولا أمّ بنت، ولا بنتاً من الزنى، وما يحرّم من الحلال لا يحرّم من الحرام؛ لأن الله امتن بالنسب والصهر على عباده، ورفع قدرهما، وعلّق الأحكام في الحل والحرمة عليهما، فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما. وقال الحنفية: تحرم البنت من الزنى أو الأخت أو بنت الابن من الزنى؛ بسبب التولد من ماء الرجل.

جهل المشركين في عبادة الأوثان وتوجيه النبي وسبب جعل العبادة للرحمن

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

القراءات:

﴿فَسْـَٔلْ﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وحمزة وقفاً (فَسَلْ).

﴿قِيلَ﴾:

قرأ الكسائي: بإشمام كسرة القاف الضم، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿تَأْمُرُنَا﴾:

وقرأ حمزة (يأمرنا).

﴿سِرَاجًا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (سُرُجاً).

﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾:

وقرأ حمزة، وخلف (أن يَذْكُرَ).

الإعراب:

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي على معصية ربه، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ ﴿مَن﴾ في موضع نصب على الاستثناء المنقطع، و﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي إلى قربة ربه، فحذف المضاف.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي كفاك الله، فحذف المفعول الذي هو الكاف، والباء: زائدة، و﴿خَبِيرًا﴾ تمييز أو حال.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: إما خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن، أو مبتدأ، و﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ خبره، أو الخبر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أو بدل من ضمير ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾.

ويجوز النصب على المدح، والجر على البدل من ﴿ٱلْحَىِّ﴾ و﴿خَبِيرًا﴾: مفعول اسأل، وهو وصف لموصوف محذوف، تقديره: فاسأل به إنساناً خبيراً، والباء بمعنى (عن) مثل: فإن تسألوني بالنساء أي عن النساء.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ ما: إما اسم موصول، والتقدير: للذي تأمرنا به،

فحذف حرف الجر ثم الهاء العائدة إلى الاسم الموصول. وإما مصدرية، فلا يكون هناك شيء محذوف.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ أي الكفار. ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمۡ﴾ بعبادته. ﴿وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ بتركها، وهو الأصنام. ﴿ظَهِيرًا﴾ معيناً للشيطان بالعداوة والشرك. ﴿مُبَشِّرًا﴾ بالجنة. ﴿وَنَذِيرًا﴾ مخوّفاً من النار. ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي على تبليغ ما أرسلت به. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾ أي لكن فعل من أراد. ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً بإنفاق ماله في مرضاته تعالى، فلا أمنعه من ذلك، أو إلا من أراد أن يتقرب إلى ربه ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة. وفيه إشعار بأن الطاعة تعود على صاحبها بالثواب.

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ نزّهه عن صفات النقصان وصفه بصفات الكمال، قائلاً: سبحان الله والحمد لله. ﴿خَبِيرًا﴾ عالماً بالظاهر والباطن. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي قدر ستة أيام من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقهن في لمحة واحدة، ولكنه عدل إلى ذلك لتعليم خلقه التثبت والتأني في الأمر والتدرّج.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ أي استوى استواء يليق به على العرش الذي هو أعظم من خلق السماوات والأرض وأعظم المخلوقات، وليس خلق العرش بعد خلق السماوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ١١/ ٧].

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي اسأل بالرحمن أي عن الرحمن خبيراً يخبرك بصفاته. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ لكفار مكة أي قال لهم الرسول ﷺ، فهو الآمر بالسجود. ﴿لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ للذي تأمرنا به أي تأمرنا بسجوده. ﴿وَزَادَهُمۡ﴾ هذا القول ﴿نُفُورًا﴾ إعراضاً عن الإيمان.

﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم. ﴿بُرُوجًا﴾ منازل الكواكب السيارة الاثني عشر المعروفة وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، المجموعة في قول الشاعر:

حمَلَ الثورُ جوزةَ السَّرَطان ورعى الليثُ سُنْبَل الميزان
ورمى عقربٌ بقوس لِجَدْي نزح الدلو بركة الحيتان

وهي منازل الكواكب السيارة السبعة وهي المرِّيخ: وله الحمل والعقرب، والزُّهَرة: ولها الثور والميزان، وعُطارد: وله الجوزاء والسنبلة، والقمر: وله السرطان، والشمس: ولها الأسد، والمشتري: وله القوس والحوت، وزُحَل: وله الجَدْي والدلو. ونظم الشاعر هذه الكواكب بقوله:

زُحَل شرى مرّيخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

وسميت بالبروج وهي لغة: القصور العالية للتشبيه بها، فهي للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها. ﴿سِرَٰجًا﴾ هو الشمس، وقرئ: سُرُجاً بالجمع وهي الشمس والكواكب الكبار فيها. ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل، وقرئ: قُمُر جمع قمراء، وخص الشمس والقمر بالذكر لفضيلتهما. ﴿خِلْفَةً﴾ أي يخلف كل منهما الآخر بأن يأتي بعده ويقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه. ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾ أن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه، فيعلم أنه لا بدّ له من صانع حكيم واجب الذات رحيم بالعباد، ويتذكر أيضاً ما فاته في أحدهما من خير فيفعله في الآخر. ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أن يشكر الله على ما فيه من النعم.

المناسبة:

بالرغم مما أبان الله تعالى من أدلة التوحيد في ظواهر الكون، فإن المشركين ظلوا يعكفون على عبادة الأصنام، فأخبر تعالى عن جهلهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع، بلا دليل ولا حجة في ذلك، بل بمجرد التقليد والهوى والتشهي، تاركين اتباع الرسول ﷺ الذي جاء يبشرهم بالخير إن أطاعوا، وينذرهم بالعذاب إن عصوا وأعرضوا، وهو لا يبتغي على ذلك أجراً.

ثم وجه الله تعالى رسوله بأن يتوكل على الله الحي الذي لا يموت، العالم بجميع المعلومات، القادر على كل الممكنات، فلا يرهب جانب المشركين ولا

يخشى بأسهم، وأمره أيضاً بأن ينزه ربه عن كل صفات النقص كالشريك والولد، ويصفه بجميع صفات الكمال، وأبان له أن وجوب السجود والعبادة لا يكون إلا للرحمن الذي خلق الكواكب السيارة وجعل لها منازل، وجعل الليل والنهار في تعاقب دائم للتذكر وتوجيه الشكر لله تعالى.

التفسير والبيان:

يخبرالله تعالى عن ضلال المشركين عن عبادة الله وجهلهم وكفرهم بربهم فيقول:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي ويعبد المشركون آلهة من غير الله لا تنفعهم عبادتها، ولا يضرهم هجرها وتركها، ولا دليل لهم على ذلك إلا مجرد الهوى والتشهي، ويتركون عبادة من أنعم عليهم بالنعم السابق ذكرها في الآيات من مدّ الظل وغيره.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي وكان الكافر على معصية ربه معيناً للشيطان بالعداوة والشرك أو يعينه على معصية الله. والمراد: جنس الكافر وهو عام في كل كافر.

قال ابن عباس: نزلت الآية في أبي الحكم بن هشام الذي سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام. لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالأولى حمل لفظ ﴿ٱلْكَافِرُ﴾ على العموم، ولأنه أوفق لظاهر قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ أي إن المشركين قوم حمقى جهال، فكيف يعينون الشيطان على معصية الله ورسوله، مع أن الله أرسل رسوله محمداً ﷺ ليبشر من أطاعه بالجنة، وينذر من عصاه بالنار؟ وأما أنت أيها الرسول فلا تأبه بعنادهم وكفرهم، فما أنت إلا نذير وبشير، وعلى الله

الحساب والعقاب، فلا تحزن على عدم إيمانهم. وهل من جهل أعظم من الإمعان في إيذاء من يريد نفعهم في الدنيا والآخرة؟!

ونظير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧].

وهو يريد نفعهم بمحض الإخلاص دون أن يبغي لنفسه نفعاً من أجر أو غيره، لذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي قل أيها الرسول لقومِك: لا أطلبُ على هذا البلاغ وهذا الإنذار أُجرةً من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى. و﴿مِنْ﴾ للتأكيد.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي لم أسألكم أجراً أبداً، لكن من أراد أن يتقرب إلى الله بالإنفاق في الجهاد والتطوعات وغيرها، ويتخذ إلى ربه طريقاً يؤدي به إلى رحمته ونيل ثوابه، بالعمل الصالح، فليفعل ولا يتردد. والمراد: لا تصنعوا معي إحساناً بأجر تدفعونه لي، ولكن اطلبوا الأجر لأنفسكم بفعل الخير وعبادة الله وشكره.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ بعد أن بيَّن سبحانه لرسوله أن الكفار متظاهرون على إيذائه، مع أنه لا يطلب منهم أجراً مطلقاً، أمره بأن يتوكل عليه في أموره كلها لدفع جميع المضار، وجلب جميع المنافع، فمن يتوكل عليه فهو حسبه وكافيه من كل شر، وناصره، ثم أمره بأن ينزهه عن كل نقص كالشريك والولد، تنزيهاً مقترناً بحمده وشكره، فيقرن بين الحمد والتسبيح، قائلاً: سبحان الله وبحمده، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك» أي أخلص له العبادة والتوكل. ومعنى التوكل: تفويض الأمر كله لله بعد اتخاذ الأسباب والوسائط المطلوبة شرعاً وعقلاً.

وللآية نظائر كثيرة مثل: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا

﴿٩﴾ [المزمل: ٧٣/٩] ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١١/١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٦٧/٢٩] .

﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أي كفاك الله عالماً علماً تاماً بمعاصي عباده، لا تخفى عليه خافية، يعلم ما ظهر منها وما بطن، وهو محصيها عليهم، ومجازيهم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٥٧/٣] . وفي هذا سلوة لرسوله، ووعيد للكفار إن لم يؤمنوا على كفرهم ومعاصيهم.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي إن الله الخبير العليم بكل شيء هو الذي أوجد السماوات السبع والأرضين السبع في ستة أيام بقدرته وسلطانه، ثم استوى على العرش أعظم المخلوقات استواء يليق بعظمته، كما يقول السلف، وهو الأصح، واستولى على العرش كما يقول الخلف، يدبر الأمر، ويقضي بالحق، وهو خير الفاصلين. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الإخباري، لا للترتيب الزمني؛ لأنها ما دخلت على خلق العرش، بل على رفعه على السماوات.

﴿الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ أي إن ذلك الخالق هو العظيم الرحمة بكم، فلا تتكلوا إلا عليه، واستعلم أيها السامع من هو خبير به، عالم بعظمته، فاتبعه واقتد به. ومن المعلوم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ﷺ، فما قاله فهو الحق، وما أخبر به فهو الصدق، وهو الإمام المحكم فيما يتنازع فيه البشر: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٥٣/٤] .

تبين مما ذكر أن الله سبحانه لما أمر الرسول ﷺ بأن يتوكل عليه، وصف نفسه بأمور ثلاثة هي:

الأول - أنه حي لا يموت، وهو قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾.

الثاني - أنه عالم بجميع المعلومات، وهو قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

الثالث - أنه قادر على جميع الممكنات، وهو المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لأنه لما كان هو الخالق للسماوات والأرض وما بينهما ولا خالق سواه، ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضارّ، وأن النعم كلها من جهته، فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه.

أما الكفار فقابلوا الشكر والتوكل بالكفر والاعتماد على النفس، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي وإذا طلب منهم السجود لله الرحمن الرحيم، وعبادته وحده دون سواه، قالوا: لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يُسمَّى الله باسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وإذا كنا لا نعرف الرحمن فكيف نسجد له. وهذا شبيه بقول موسى لفرعون: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠٤] فقال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٣].

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي أنسجد للذي أمرتنا بالسجود له، لمجرد قولك، من غير أن نعرفه، وزادهم هذا الأمر بالسجود نفوراً وإعراضاً، وبعداً عن الحق والصواب، ومن حقه أن يكون باعثاً على الفعل والقبول.

وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان يشرع السجود عندها لقارئها ومستمعها. وهذا شأن المؤمنين الذين يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالألوهية، ويسجدون له. روى الضحاك أن رسول الله ﷺ وأصحابه سجدوا، فلما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين. فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي فزادهم سجودهم نفوراً.

وبعد أن حكى سبحانه عن الكفار مزيد النفرة عن السجود، ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن، فقال:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ يمجّد الله تعالى نفسه ويعظمها على جميل ما خلق في السماوات، فيذكر أنه تعاظم وتقدس الله الذي جعل في السماء كواكب عظاماً ومنازل لتلك الكواكب السيارة وغيرها، التي عدها المتقومون ألفاً، ورصدتها الآلات الحديثة أكثر من مئتي ألف ألف، وجعل في السماء سراجاً وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ: ١٣/٧٨] وجعل في السماء أيضاً قمراً منيراً، أي مشرقاً مضيئاً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥/١٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ أي والله هو الذي جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ويأتي بعده، توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، فيكون في ذلك عظة لمن أراد أن يتذكر ما يجب عليه، ويتفكر في آلاء الله وعجائب صنعه، ويشكر ربه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى. جاء في الحديث الصحيح لدى الشيخين: «إن الله عزَّ وجل يَبْسُطُ يدَه بالليلِ ليتوب مسيءُ النهار، وَيَبْسُط يدَه بالنهارِ ليتوبَ مسيءُ الليل». وقال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب، وقد فاتته قراءة القرآن بالليل: «يابنَ الخطاب، لقد أنزل الله فيك آية وتلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾. ما فاتك من النوافل بالليل، فاقضه في نهارك، وما فاتك من النهار فاقضه في ليلك». وروى أبو داود الطيالسي عن الحسن أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: إنه بقي علي من وِرْدي شيء فأحببت أن أتمه، أو قال: أقضيه، وتلا هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

وهذه الآية وما قبلها من أدلة قدرة الله تعالى ووحدانيته ووجوده.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ً - إن مما يثير العجب والدهشة أن الله تعالى بعد أن عدد النعم وبيَّن كمال قدرته، وجد المشركين باقين على إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضرر، بسبب جهلهم وعنادهم، وشأن الكافر أنه معين للشيطان على المعاصي.

٢ً - لا سلطان للرسول ﷺ في مجال الإيمان والطاعة على أحد، وإنما تقتصر مهمته على تبشير من أطاعه بالجنة، وإنذار من عصاه بالنار، يفعل ذلك بمحض الإخلاص وحب الخير للناس، دون أن يطلب على التبليغ والإنذار أو الوحي والقرآن أجراً ولا جزاء ولا شكوراً.

لكن باب التنافس في القربات والمبادرة إلى الخيرات مفتوح على مصراعيه، فمن أراد أن ينفق من ماله في سبيل الله من جهاد وصدقات وغيرها فليفعل.

٣ً - على الرسول ﷺ وكل مؤمن بعد اتخاذ الأسباب والوسائط أن يتوكل على الله الحي الذي لا يموت. والتوكل: اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها. ويجب تنزيه الله تعالى عما يصفه الكفار به من الشركاء، فيقول الواحد: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم أستغفر الله، كما ورد في المأثور. والتسبيح: التنزيه. وحسبك أيها الإنسان أن الله عليم بكل شيء من أمورك ظاهرها وباطنها، فيجازيك عليها خيراً أو شراً.

٤ً - إن الله تعالى هو الحي الدائم الباقي الذي لا يموت ولا يفنى، وهو عالم بجميع المعلومات، قادر على كل الممكنات.

٥ً - الله سبحانه هو خالق كل شيء، خلق جميع السماوات في ارتفاعها واتساعها، وخلق جميع الأرضين في سفولها وكثافتها. وقد أتم خلق السماء والأرض في ستة أيام لتعليم الناس التثبت والتروي والتؤدة. وخلق العرش واستوى عليه استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته، وما على الجاهل إلا أن يسأل خبيراً بالله من رسول أو عالم، ثم يتبعه ويقتدي به.

قال الرازي في تفسير قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: الاستقرار غير جائز؛ لأنه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث، ويقتضي التركيب والبعضية، وكل ذلك على الله محال، بل المراد: ثم خلق العرش ورفعه على السماوات، وهو مستولٍ، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣١] فإن المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون. وليس خلق العرش بعد خلق السماوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ١١/ ٧] وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ ما دخلت على خلق العرش، بل على رفعه على السماوات.

٦ً - استبد العناد والاستكبار بالمشركين أنه إذا طلب منهم السجود للرحمن، قالوا على جهة الإنكار والتعجب: وما الرحمنُ؟ أي ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة الكذاب، أنسجد لما تأمرنا أنت يامحمد؟ وزادهم هذا الأمر نفوراً عن الدين، ومن شأنه حملهم على الفعل والقبول. كان سفيان الثوري يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعاً ما زاد عِداك نفوراً.

٧ً - من أدلة قدرة الله تعالى ووحدانيته: جعله في السماء بروجاً، أي منازل للكواكب العظام كالزُّهرة والمشْتري وزُحل والسماكين ونحوها، وجعله فيها الشمس ضياء والقمر نوراً ينير الأرض إذا طلع، وجعله الليل والنهار في تعاقب دائم في الضياء والظلام والزيادة والنقصان، لا عبثاً وإنما ليتذكر المقصر تقصيره والمسيء إساءته، فيصلح ما بدر منه، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه

في العقل والفكر والفهم. قال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن: معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل.

ففي الليل دعة وسكون وهدوء يستدعي التذكر، وفي النهار حركة وتصرف وانشغال قد يشغل عن التذكر، أو يكون سبباً لتذكر ما مر من الليل بالنوم، فيستدرك المؤمن ما فاته في أحدهما من الخير في وقت الآخر، فهما وقتان للمتذكرين والشاكرين، والله يتقبل عمل الليل وعمل النهار، فهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سِنَة ولا نوم.

ثم إن سكون الليل والتصرف بالنهار نعمة تستحق الشكر، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٣].

صفات عباد الرحمن

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ :

قرئ:

١- (ولم يُقْتِروا) وهي قراءة نافع، وابن عامر.

٢- (ولم يَقْتِروا) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو.

٣- (ولم يَقْتُرُوا) وهي قراءة الباقين.

﴿يُضَٰعَفۡ﴾، ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾:

قرئ:

١- (يُضَعَّفْ، ويَخْلُدْ) وهي قراءة ابن كثير.

٢- (يُضَعَّفُ، ويَخْلُدُ) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (يضاعَفْ، ويَخْلُدْ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾:

بصلة هاء (فيه) بياء مدّية، قرأ ابن كثير، وحفص.

وقرأ الباقون بترك الصلة.

﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾:

قرئ:

١- (وذَرِّيَّاتنا) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص.

٢- (وذرِّيَّتنا) وهي قراءة الباقين.

﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (ويَلْقَون).

الإعراب:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ﴾ إلى قوله:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ مبتدأ، وخبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ منصوب على المصدر أي (تسليماً) فسلام في موضع تسليم.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ مضمر فيها، و﴿قَوَامًا﴾ خبرها، أي كان الإنفاق ذا قوام بين الإسراف والإقتار. ويجوز جعل ﴿بَيْنَ﴾ متعلقاً بخبر ﴿كَانَ﴾ أي كائناً بين ذلك، فيكون ﴿قَوَامًا﴾ خبراً بعد خبر.

﴿يُضَٰعَفْ﴾ بالجزم: بدل من ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ والفعل يبدل من الفعل، كما يبدل الاسم من الاسم. ويقرأ بالضم على أنه في موضع الحال، أو على الاستئناف والقطع مما قبله.

﴿مَتَابًا﴾ منصوب على المصدر، وهو مصدر مؤكد. وأصله: مَتْوَب، فنقلت الفتحة من الواو إلى التاء، فتحركت في الأصل، وانفتح ما قبلها الآن، فقلبت ألفاً.

﴿كِرَامًا﴾ حال من واو ﴿مَرُّواْ﴾.

﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ حال من واو ﴿لَمْ يَخِرُّواْ﴾.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿إِمَامًا﴾ أي إماماً واحداً أريد به الجمع، أي أئمة كثيراً، واكتفى بالواحد عن الجمع للعلم به، كقولهم: نزلنا الوادي فصِدْنا غزالاً كثيراً، أي غزلاناً. ويجوز أن يكون جمع (آمّ) على وزن فاعل، وفاعل يجمع على فِعَال نحو قائم وقيام وصاحب وصِحاب.

﴿لِزَامًا﴾ خبر ﴿يَكُونُ﴾ واسمها مضمر فيها، وتقديره: فسوف يكون التكذيب لزاماً؛ لدلالة قوله: ﴿كَذَّبْتُمْ﴾.

البلاغة:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم.

﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ و﴿لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ بين كلٍّ طباق.

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ و﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مقابلة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ استعارة، استعار لمن يتغافل عن الهداية والإنذار حال من لا يسمع ولا يبصر.

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ كناية عن الفرحة والسرور، وكذلك ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة.

المفردات اللغوية:

﴿هَوْنًا﴾ الهون: اللين والرفق، والمراد أنهم يمشون بسكينة وتواضع ووقار، دون تكبر ولا تجبر .﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ السفهاء .﴿سَلَٰمًا﴾ أي تسليم متاركة بلا خير ولا شر، أو سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم. ﴿يَبِيتُونَ﴾ يدركون الليل، ناموا أو لم يناموا .﴿سُجَّدًا﴾ جمع ساجد. ﴿وَقِيَٰمًا﴾ أي قائمين يصلون بالليل. وخصَّ البيتوتة؛ لأن العبادة بالليل أبعد عن الرياء، وأكثر خشوعاً وقربة إلى الله تعالى.

﴿غَرَامًا﴾ لازماً لا يفارق؛ لأنه عذاب دائم، وهو إشارة إلى أنهم مع اجتهادهم في عبادة الحق خائفون من العذاب، مبتهلون إلى الله في صرفه عنهم، لعدم اعتدادهم بأعمالهم .﴿سَآءَتْ﴾ بئست .﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ موضع استقرار وإقامة. والجملة تعليل لما سبق.

﴿أَنفَقُواْ﴾ على عيالهم وأنفسهم .﴿لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ لم يجاوزوا الحدّ

المعتاد، ولم يضيقوا تضييق الشحيح، والقتر والإقتار والتقتير: البخل. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي كان الإنفاق بين الإسراف والإقتار وسطاً عدلاً. وقرئ بكسر القاف أي مايقام به الحاجة، لا يفضل عنها ولا ينقص، وهو ما يدوم عليه الأمر ويستقر.

﴿لَا يَدْعُونَ﴾ لا يعبدون ولا يشركون. ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي حرَّمها بمعنى حرَّم قتلها. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ واحداً من الثلاثة. ﴿أَثَامًا﴾ عقوبة وجزاء إثم في الآخرة، والأثام: الإثم، والمراد جزاؤه. ﴿يُضَٰعَفْ﴾ وفي قراءة: يضعَّف، وسبب مضاعفة العذاب انضمام المعصية إلى الكفر. ﴿مُهَانًا﴾ ذليلاً مستحقراً. ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ أي في الآخرة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي ولم يزل متصفاً بذلك، فيعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات. ﴿وَمَن تَابَ﴾ من ذنوبه أو معاصيه، بتركها والندم عليها. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يتلافى به ما فرط. ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ يرجع إلى الله رجوعاً مرضياً عند الله، ماحياً للعقاب، ومحصلاً للثواب، فيجازيه عليه. وهذا تعميم بعد تخصيص.

﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يقيمون الشهادة الباطلة أو الكاذبة، و﴿ٱلزُّورَ﴾ الكذب والباطل، والمقصود: لا يعينون أهل الباطل على باطلهم. ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ ما يجب أن يلغى ويطرح من الكلام القبيح وغيره. ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي وعظوا بالقرآن. ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا﴾ يسقطوا، والخرور: السقوط على غير نظام ولا ترتيب. ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ المراد: لم يقيموا عليها غير واعين ولا متبصرين بما فيها، كمن لا يسمع ولا يبصر، بل أقبلوا عليها سامعين بآذان واعية، مبصرين ناظرين منتفعين. ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ لنا بأن نراهم مطيعين لنا، والمراد: الفرح والسرور

بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل، فإن المؤمن يسرّ قلبه بطاعة أهله وأولاده لربهم، ليلحقوا به في الجنة. و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ ابتدائية أو بيانية. وتنكير الأعين للتعظيم، والإتيان بجمع القلة في كلمة ﴿أَعْيُنٍ﴾ لأن المراد أعين المتقين، وهي قليلة بالنسبة إلى عيون غيرهم .﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ في الخير، يقتدون بنا في أمر الدين، بإفاضة العلم والتوفيق للعمل. وأفرده، وأراد به الجمع، أي أئمة يقتدى بهم في إقامة مراسم الدين؛ لأنه يستعمل للمفرد والجمع.

﴿الْغُرْفَةَ﴾ كل بناء مرتفع عال، والمراد الدرجة العليا في الجنة أو أعلى مواضع الجنة، وهي اسم جنس أريد به الجمع، لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٧] .﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على المشاق والقيام بطاعة الله .﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ بالتشديد، والتخفيف، أي يَلْقون في الغرفة. ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ من الملائكة، أي تحييهم الملائكة ويسلمون عليهم، وهو دعاء بالتعمير والسلامة. أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه .﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ موضع استقرار وإقامة دائمة لهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ﴾ ما يعتدّ بكم ولا يبالي ولا يكترث، و﴿مَا﴾ : نافية .﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ إياه في الشدائد، فيكشفها، أو عبادتكم له تعالى، فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة، وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء .﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي كيف يعبأ بكم وقد ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ الرسول والقرآن .﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي سوف يكون العذاب وجزاء التكذيب ملازماً لكم في الآخرة حتى يقذفكم في النار، بعدما يحلّ بكم في الدنيا، فقتل منهم يوم بدر سبعون. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ دلّ عليه ما قبله، أي لولا دعاؤكم لم يبال بكم.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٨):

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ﴾: أخرج الشيخان عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ، أي الذنبِ أعظمُ؟ قال: «أن تجعل لله نِدّاً، وهو خَلَقَك»، قلتُ: ثم أي؟ قال: «أن تقتلَ ولدَك مخافةَ أن يَطْعَم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تُزاني حليلة جارك» فأنزل الله تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية.

وأخرج الشيخان عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قَتَلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لوتخبرنا أن لِما عملنا كفارة؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. ونزل: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

سبب نزول الآية (٧٠):

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾: أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: لما أنزلت في الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ الآية، قال مشركو أهل مكة: قد قتلنا النفس بغير حق، ودعونا مع الله إلهاً آخر، وأتينا الفواحش، فنزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة، وإعراض الكافرين عن السجود له، بالرغم من اطلاعهم على دلائل التوحيد والقدرة الإلهية، ذكر صفات المؤمنين عباد الرحمن التي استحقوا من أجلها أعلى منازل الجنان، وأنه خصّ اسم العبودية بالمشتغلين بالعبادة، مما يدل على

أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات، فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره وقلبه ولسانه بما أمره، فهو الذي يستحق اسم العبودية.

ووصفهم سبحانه بتسع صفات كما ذكر الرازي، وقال القرطبي: وصف تعالى عباد الرحمن بإحدى عشرة صفة حميدة من التحلِّي والتخلِّي، وهي: (التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والبعد عن الزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله).

ثم بيَّن الله تعالى جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة التي هي الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا[١].

التفسير والبيان:

هذه صفات عباد الله المؤمنين عباد الرحمن الذين استحقوا أعلى الدرجات في الجنة، وهي في الجملة تسع صفات:

١ - التواضع: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ أي وعباد الله المخلصون الربانيون الذين لهم الجزاء الحسن من ربهم هم الذين يمشون في سكينة ووقار، من غير تجبر ولا استكبار، يطؤون الأرض برفق، ويعاملون الناس بلين، لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً، كما قال تعالى حاكياً وصية لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٨].

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً، وإنما بعزة وأنفة هي عزة

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٨٣

المؤمن المتواضع لله وحده، فقد كان النبي ﷺ سيد ولد آدم إذا مشى كأنما ينحطّ من صَبَب[١]، وكأنما الأرض تطوى له.

وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً، فقال: مالك أأنت مريض؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين، فعَلاه بالدِّرَّة، وأمره أن يمشي بقوة.

وإنما المراد بالهون هنا: السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ في الصحيحين عن أبي هريرة: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأْتوها، وعليكم السكينة، فما أدركتم منها فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

وروي أيضاً أن عمر رضي الله عنه رأى غلاماً يتبختر في مشيته، فقال: إن البَخْترة مِشْية تُكْرَه إلا في سبيل الله، وقد مدح الله أقواماً فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فاقصد في مِشْيتك.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٧] .

٢ - الحلم أو الكلام الطيب: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السَّيِّئ، لم يقابلوهم بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٥] . قال النحاس: ليس ﴿سَلَٰمًا﴾ من التسليم، إنما هو من التسلُّم، تقول العرب: سلاماً، أي تسلُّماً منك، أي براءة منك.

وروى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرِّن المزني قال: قال رسول الله ﷺ -

---

(١) أي كأنما ينحدر من مكان عالٍ مرتفع.

وسَبَّ رجلٌ رجلاً عنده، فجعل المسبوب يقول: عليك السلام -: «أما إن ملَكاً بينكما يذُبُّ عنك، كلما شتمك هذا، قال له: بل أنت، وأنت أحقُّ به، وإذا قلت له: وعليك السلام قال: لا، بل عليك، وأنت أحق به».

وقوله: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ يعني قالوا سداداً، أو ردوا معروفاً من القول. وقال الحسن البصري: قالوا: سلام عليكم: إن جُهل عليهم حلُمُوا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون.

هاتان صفتان بينهم وبين الناس وهما ترك الإيذاء وتحمل الأذى، ثم ذكر الله تعالى صفاتهم فيما بينه وبينهم فقال:

٣ - التهجد ليلاً: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ أي إن سيرتهم في الليل كسيرتهم في النهار، فنهارهم خير نهار، وليلهم خير ليل، فإذا أمسوا أو أدركوا الليل باتوا ساجدين قائمين لربهم، يصلّون بعض الليل أو أكثره، طائعين عابدين، كما قال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ١٧-١٨]، وقال سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٦]، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٩].

قال ابن عباس: من صلَّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء، فقد بات لله ساجداً وقائماً.

٤ - الخوف من عذاب الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي والذين يخافون ربّهم ويدعونه في وَجَل، ويقولون في حَذَر: ربّنا أبْعِد عنا عذاب جهنم وشدته، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٠]. ثم ذكر تعالى أن علة سؤالهم ودعائهم شيئان:

الأول - ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي إن عذاباً كان ملازماً دائماً للإنسان العاصي، لزوم الدائن الغريم لمدينه، أو هلاكاً وخسراناً لازماً.

الثاني - ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ أي إن جهنم بئس المنزل مستقراً ومنظراً يستقر فيه، وبئس المقيل مقاماً. وهذا أمر لا شك فيه يعلمه كل من اكتوى بشيء من نار الدنيا.

٥ - الاعتدال في الإنفاق: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ أي والذين إذا أنفقوا على أنفسهم أو عيالهم ليسوا بالمبذِّرين في إنفاقهم، فلا ينفقون فوق الحاجة، ولا بالبخلاء، فيقصرون في حقهم وفيما يجب عليهم، بل ينفقون عدلاً وسطاً خياراً، بقدر الحاجة، وخير الأمور أوسطها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩/١٧] أي الوسطية في الاعتدال، وترك الإسراف والتقتير.

وهذا أساس الاقتصاد وعماد الإنفاق في الإسلام، روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من فِقْهِ الرجل قصدُه في معيشته». وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد». وروى الحافظ أبو بكر البزار عن حُذَيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحسنَ القصدَ في الغِنى، وما أحسنَ القصدَ في الفقر، وما أحسنَ القصد في العبادة».

فالتبذير سبب في ضياع مال الشخص ومال الأمة: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧/١٧] ومن المعلوم أنه لا سرف في الخير، ولا خير في السرف، قال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه ابنته فاطمة: ما نفقتك؟ فقال له عمر:

الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله. وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السَّرَف أن تأكل كل ما اشتهيت».

ثم ذكر الله تعالى صفات سلبية بعيدة عن المؤمنين، وإنما هي من صفات المشركين والفاسقين فقال:

٦ - البعد عن الشرك والقتل والزنى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي والذين لا يعبدون مع الله إلهاً آخر، فيجعلون مع الله في عبادتهم شريكاً آخر، وإنما يخلصون له الطاعة والعبادة، ولا يقتلون النفس عمداً إلا بحق، كالكفر بعد الإيمان، والزنى بعد الإحصان، وقتل النفس بغير حق، ويكون القتل بحكم الحاكم أو القاضي لا برأي شخصي، ولا يزنون، وهذه أعظم الجرائم: الشرك، والقتل العمد العدوان، والزنى، والجريمة الأولى عدوان على الله، والثانية عدوان على الإنسانية، والثالثة عدوان على الحقوق وانتهاك للأعراض.

فإذا جعلنا هذه الصفات ثلاثاً، صارت إحدى عشرة، كما ذكر القرطبي. ثم توعد الله تعالى مرتكب هذه الجرائم فقال:

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ، يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ أي ومن يفعل واحدةً من تلك الجرائم الثلاث، يلقَ في الآخرة عقاباً شديداً وجزاء إثمه وذنبه الذي ارتكبه، بل يضاعف له العذاب ضعفين بسبب انضمام المعصية إلى الكفر، ويخلد في نار جهنم أبداً مع الإهانة والإذلال والاحتقار، وذلك عذابان: حسي ومعنوي.

ثم فتح الله تعالى باب التوبة للترغيب في الإصلاح والعودة إلى الاستقامة فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ أي لكن من تاب في الدنيا إلى

الله عزّ وجلّ عن جميع ذلك بأن أقلع عن الذنب، وندم على المعصية، وكان مؤمناً مصدقاً بالله ورسله واليوم الآخر، وعمل الصالحات، فأولئك يمحو الله عنهم بالتوبة السيئات، ويبدلهم مكانها حسنات بإثبات لواحق الطاعة، أو تنقلب تلك السيئات الماضية بالتوبة نفسها حسنات. روى أبو ذر عن النبي ﷺ: «إن السيئات تبدل بحسنات» وروى أحمد والترمذي والبيهقي عن معاذ أن النبي ﷺ قال: «أتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَن» وهذا الحديث مؤكد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١/ ١١٤].

والخلاصة: في معنى قوله ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ قولان[١]:

القول الأول - إنهم بدَّلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً، وبالكفر إسلاماً. أي إن التبديل يكون في الدنيا، وأثره في الآخرة.

والقول الثاني - إن تلك السيئات تنقلب بالتوبة النصوح نفسها حسنات، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم، واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، أي إن التبديل يكون في الآخرة.

والظاهر القول الأول، وأن التوبة تجبّ ما قبلها، وتفتح للتائب صفحة جديدة، فيثاب على الأعمال الصالحة، ويعاقب على السيئات، كغيره من المؤمنين.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ أي ومن تاب

(١) تفسير الرازي: ٢٤/ ١١٢، تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٢٧

عن معاصيه، وعمل الأعمال الصالحة، فإن الله يقبل توبته، لأنه رجع إلى الله رجوعاً مرضياً عند الله، فيمحو عنه العقاب، ويجزل له الثواب.

وهذا تعميم لقبول التوبة عن جميع المعاصي، بعد تخصيص قبولها ممن تاب عن كبائر المعاصي السابقة التي هي الشرك والقتل العمد والزنى.

وللآية نظائر كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٤] وقوله سبحانه: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

٧ - البعد عن شهادة الزور أو تجنب الكذب: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ أي الذين لا يشهدون شهادة الزور وهي الكذب متعمداً على غيره، أو لا يحضرون مواضع الكذب، قال ابن كثير: والأظهر من السياق أن المراد لا يحضرون الزور، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مرّوا، ولم يتدنسوا منه بشيء. ونظير الآية: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٥].

والواقع أن الآية تدل على أمرين: تحريم شهادة الزور وتجنب مجالس اللغو أو العفو عن المسيء، ويستدل بها الفقهاء على الأمر الأول، كما ورد في الصحيحين عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً، قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الشركُ بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقولُ الزور، ألا وشهادةُ الزور» فما يزال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهه (يطليه بالسواد) ويحلق رأسه، ويطوّف به السوق.

٨ - قبول المواعظ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ أي والذين إذا ذُكِّروا بالآياتِ، أكبُّوا عليها حِرْصاً على استماعها، وأقبلوا على من ذكَّرهم بها بآذانٍ صاغية واعية، وعيون مبصرة متفتحة، وقلوب مستوعبة، لا كالكفار والمنافقين والعصاة من المؤمنين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به، ولم يغيروا ما هم عليه، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم، وجهلهم وطغيانهم، كأنهم صمّ عمي، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٤-١٢٥].

٩ - الابتهال إلى الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ أي والذين يبتهلون إلى ربّهم داعين الله أن يرزقهم زوجات صالحات وأولاداً مؤمنين صالحين مهديين للإسلام يعملون الخير، ويبتعدون عن الشر، تقرُّ بهم أعينهم، وتُسَرُّ بهم نفوسُهم، فإن المؤمن إذا رأى من يعمل بطاعة الله قرَّت عينه، وسُرَّ قلبُه في الدنيا والآخرة. ويدعونه أيضاً أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير واتباع أوامر الدين.

وبذلك أحبوا أن تتصل عبادتهم بعبادة زوجاتهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع فهم دعاة خير وبر، وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثٍ: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

قال بعضهم: في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها، قال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٤].

ثم ذكر الله تعالى جزاء المتصفين بتلك الصفات الإحدى عشرة فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة، والأقوال والأفعال الحميدة يجزون يوم القيامة الغرفة أي الغرفات لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٧] وهي المنازل العالية، والدرجات الرفيعة في الجنان، بصبرهم على القيام بها، ويُلَقّون في الجنة تحيةً وسلاماً، أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويعاملون بالتوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ، سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٣-٢٤] . ودلّ قوله: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ على أن الجنة بالاستحقاق.

ومفاد الآية أن الطائعين في نعيم الجنة مع التعظيم والاحترام، على عكس العصاة الذين يضاعف لهم العذاب، مع الإهانة والاحتقار.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ أي إن نعيمهم دائم لا ينقطع، فهم مقيمون في الجنان، إقامة مستمرة لا يُحوّلون، ولا يموتون ولا يزولون عنها، ولا يبغون عنها حولاً، حسنت منظراً، وطابت مقيلاً ومنزلاً، كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١١/ ١٠٨] .

والخلاصة: إن الله وعد عباد الرحمن بالمنافع الجلى في الجنة أولاً، وبالتعظيم ثانياً، ثم بيّن أن صفتهما الدوام: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، والخلوص أيضاً ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي إن الله غني عن عباده، وإنما كلفهم لينتفعوا، وعذبهم لعصيانهم، فلا يبالي بهم ولا يكترث إذا لم يؤمنوا به ولم يعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرةً وأصيلاً،

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي إنكم أيها الكافرون والعصاة إذا كذبتم رسلي، ولم تؤمنوا بلقائي، فسوف يكون تكذيبكم سبباً ملازماً ومؤدياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١١/١٠٦-١٠٧]. واللِّزام: الملازمة.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه هي صفات عباد الرحمن، وهي إحدى عشرة صفة، يستحق بها أهلها المنازل العالية في الجنان.

الصفة الأولى:

التواضع والطاعة لله تعالى: ويكون ذلك بالعلم بالله والخوف منه، والمعرفة بأحكامه، والخشية من عذابه وعقابه.

الصفة الثانية:

الحلم والكلام الطيب: فإذا أُوذوا قابلوا الإساءة بالإحسان، قال الحسن البصري: «حُلماء، إن جهل عليهم لم يجهلوا» أي على نقيض خلق الجاهلية: «ونجهل فوق جهل الجاهلين» وإنما يقول المؤمن للجاهل كلاماً موصوفاً بالرفق واللين.

الصفة الثالثة:

التهجّد ليلاً: أي العبادة الخالصة لله تعالى في جوف الليل، فإنها أكثر خشوعاً، وأضبط معنى، وأبعد عن الرياء.

الصفة الرابعة:

الخوف من عذاب الله تعالى: أي إنهم مع طاعتهم مشفقون خائفون وَجِلون من عذاب الله، سواء في سجودهم وقيامهم؛ لأن عذاب جهنم لازم دائم غير مفارق، وبئس المستقر، وبئس المقام، وهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علم، كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقرب إلى النجاح.

الصفة الخامسة:

الاعتدال في الإنفاق دون إسراف ولا تقتير، والمراد من النفقة نفقة الطاعات في المباحات، فهذه يطالب فيها الإنسان ألا يفرط فيها حتى يضيع حقاً آخر أو عيالاً، وألا يضيق أيضاً ويقتر، حتى يجيع العيال، ويفرط في الشح، والحسَنُ في ذلك هو القَوَام، أي العدل، والقَوَامُ في كل واحد بحسب حاله وعياله، وصبره وجلده على الكسب، وخير الأمور أوساطها، وهذه الوسطية خير للإنسان في دينه وصحته ودنياه وآخرته.

أما النفقة في معصية الله فهو محظور حظرته الشريعة قليلاً كان أو كثيراً، وكذلك التعدي على مال الغير، هو حرام أيضاً.

الصفة السادسة:

البعد عن الشرك: وهو عبادة أحد مع الله أو عبادة غير الله، وهو أكبر الجرائم، لذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨] .

الصفة السابعة:

الابتعاد عن القتل العمد: وهو إزهاق النفس الإنسانية عمداً دون حق، وهو اعتداء على صنع الله، وإهدار لحق الحياة الذي هو أقدس حقوق الإنسان. أما القتل بحق كالقتل بسبب الردة أو زنى المحصن أو القصاص فجائز من قبل الحاكم.

الصفة الثامنة:

اجتناب الزنى: وهو انتهاك حرمة العرض، وهو جريمة خطيرة تؤدي إلى اختلاط الأنساب، وإشاعة الأمراض، وهدم الحقوق، وإثارة العداوات والأحقاد والبغضاء.

ومن يرتكب هذه الجرائم العظمى (الشرك، والقتل، والزنى) يضاعف له العذاب في نار جهنم، ويكون مخلّداً فيها ذليلاً خاسئاً مبعداً مطروداً من رحمة الله تعالى.

لكن إذا تاب الكافر والقاتل والزاني تقبل توبته، ويبدل الله سيئته حسنة إما في الدنيا على رأي، بأن يجعل الإيمان محل الشرك، والإخلاص محل الشك، والإحصان مكان الفجور، وإما في الآخرة على رأي آخر فيمن غلبت حسناته على سيئاته. وقيل: التبديل عبارة عن الغفران، أي يغفر الله لهم تلك السيئات، لا أن يبدلها حسنات.

ثم أكَّد الله قبول التوبة الصادقة النصوح من كل إنسان.

الصفة التاسعة:

تجنب الكذب والباطل وشهادة الزور، فلا يحضر المسلم مجالس اللغو والكذب والغناء واللهو ونحوها، ولا يؤدي شهادة الزور مهما كانت البواعث والأسباب؛ لأنها محرمة لذاتها. لذا قال أكثر أهل العلم: ولا تقبل له شهادة أبداً، وإن تاب وحسنت حاله، فأمره إلى الله تعالى.

الصفة العاشرة:

قبول المواعظ: فإذا قرئ القرآن عليهم ذكروا آخرتهم ومعادهم، ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع.

الصفة الحادية عشرة:

الابتهال إلى الله بجعل توابع الإنسان من أزواج وذريات هداة مهديين مطيعين لله، تقرّ النفوس بهم، وتثلج الصدور بسيرتهم العطرة، وأن يكونوا أئمة وقدوة يقتدى بهم في الخير، ولا يكون ذلك إلا إذا كان الداعي تقياً صالحاً.

وهذا يدل على جواز الدعاء بالولد، وللولد وللزوجة، وبأن يكون نفع الإنسان شاملاً غيره.

وجزاؤهم الدرجات العليا في غرفات الجنان، مع التوقير والاحترام، بالتحية والسلام، والخلود الدائم، والتمتع بحسن المقام والمنظر والاستقرار.

ونفع الطاعة للعباد لا لله، فالله غني عن عباده، فلولا عبادتهم وكثرة استغاثتهم إليه في الشدائد ونحوها، لما بالى الله بهم ولا اكترث بشأنهم. فإن كذبوا بما دعوا إليه من الإيمان وعبادة الله كان تكذيبهم ملازماً لهم، وجزاء التكذيب دائم لا مفرَّ منه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشعراء

مكية إلا الآية ١٩٧ ومن الآية ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية آياتها ٢٢٧

تسميتها:

سميت (سورة الشعراء) لما ختمت به من المقارنة بين الشعراء الضالين والشعراء المؤمنين في قوله سبحانه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [٢٢٤ - ٢٢٧] بقصد الرد على المشركين الذين زعموا أن محمداً ﷺ كان شاعراً، وأن ما جاء به من قبيل الشعر.

مناسبتها لما قبلها:

تتضح مناسبة هذه السورة لسورة الفرقان في الموضوع والبداية والنهاية.

أما الموضوع: ففيها تفصيل لما أجمل في ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ من قصص الأنبياء بحسب ترتيبها المذكور في تلك السورة، فبدأ بقصة موسى، وهذا سر لطيف يجمع بين السورتين. وكان في ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ إشارة إلى قرون بين ذلك كثيرة، ففصلت هنا قصة إبراهيم، وقوم شعيب، وقوم لوط.

وأما البداية: فقد بدئت كلتا السورتين بتمجيد القرآن العظيم: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾

وأما النهاية: فإن خاتمة كلتا السورتين متشابهة، فقد ختمت (الفرقان) بوعيد المكذبين، ووصف المؤمنين بأنهم يقولون: ﴿سَلَٰمًا﴾ للجاهلين، وأنهم يمرون مر الكرام باللغو، وختمت (الشعراء) بتهديد الظالمين المكذبين، والرضا عن الشعراء المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويذكرون الله كثيراً، وينتصرون ممن ظلمهم.

مشتملاتها:

تضمنت هذه السورة كسائر السور المكية الكلام عن أصول الاعتقاد والإيمان من إثبات «التوحيد، والرسالة النبوية، والبعث» لذا كانت آياتها قصاراً للزجر والردع وشدة التأثير.

وابتدأت الكلام عن القرآن الكريم وبيان هدفه في الهداية، وتبشير المؤمنين الصالحين بالجنة، وإنذار الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة بسوء العذاب، وإثبات إنزال القرآن وحياً على النبي ﷺ، وتسليته عن إعراض قومه عن الإيمان برسالته، والاستدلال بخلق النباتات على وجود الله وتوحيده.

ثم أوردت قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم لعظة المكذبين، مبتدئة بقصة موسى ومعجزاته، ومحاورته مع فرعون الجبار وقومه في شأن توحيد الله، وتأييده بالآيات البيِّنات، وإيمان السحرة برب موسى وهارون، ثم تلتها قصة إبراهيم الخليل مع أبيه وقومه عبدة الأوثان، وإبطاله عبادتها، وإثباته وحدانية الله عز وجل.

ثم جاء بعدها قصص «نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب» عليهم السلام وما فيها من حملاتهم العنيفة ضد الوثنية، والفساد الخلقي

والاجتماعي، وبيان عاقبة التكذيب للرسل، ونهاية الجبابرة العتاة بأنواع رهيبة من العذاب.

وأعقب ذلك جعل الخاتمة كبدء السورة بإثبات كون القرآن العظيم وحياً وتنزيلاً من رب العالمين لا من كلام الشياطين، وأن محمداً ﷺ رسول من الله لتبليغ رسالته إلى عشيرته والأمم جميعاً، ليس بكاهن ولا شاعر، وأنه من سلالة الموحدين، وبراءته من أفعال المشركين، والرد على افترائهم وزعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين التي تتنزل على كل أفّاك أثيم، وإعلامهم بأن الغاوين الضالين هم أتباع الشعراء، وليسوا المؤمنين الصلحاء المجاهدين.

فضلها:

ورد في فضل هذه السورة خبران: الأول عن ابن عباس، والثاني عن البراء.

- روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أُعطيتُ السورةَ التي تذكر فيها البقرة من الذِّكْر الأول، وأعطيت طه، وطسم من ألواح موسى، وأُعطيت فواتح القرآن، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصَّل نافلة».

- وروى البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المُبِين مكان الإنجيل، وأعطاني الطواسين مكان الزبور، وفضلني بالحواميم والمفصَّل، ما قرأهن نبي قبلي»[1].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٨٧

تكذيب المشركين بالقرآن وإنذارهم وإثبات وحدانية الله

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

القراءات:

﴿نُنَزِّلْ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (نُنْزِل).

الإعراب:

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ ﴿فَظَلَّتْ﴾ في موضع جزم بالعطف على ﴿نُنَزِّلْ﴾. و﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾ : اسمها، و﴿خَٰضِعِينَ﴾ : خبرها.

وإنما قال ﴿خَٰضِعِينَ﴾ لأنه أراد بالأعناق الرؤساء، أي فظلت الرؤساء خاضعين لها، أو بتقدير مضاف محذوف، أي فظلت أصحاب الأعناق.

البلاغة:

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ كناية عن الذل والهوان الذي يلحقهم.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وعيد وتهديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ استفهام للتوبيخ على إهمال النظر في دلائل وجود الله وتوحيده.

المفردات اللغوية:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ تقرأ طا، سين، ميم، مع إدغام السين في الميم والمراد بهذه الأحرف الهجائية كما بينا سابقاً الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وتحدي العرب بالإتيان بمثله، مع أنه مركب من الحروف الهجائية التي تتركب منها لغتهم، وينطق بها كل عربي، وهم أساطين البيان وفرسان الفصاحة والبلاغة. وعليه، فهي حروف تنبيه مثل ألا ونحوها، ويا للنداء.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أي هذه الآيات في هذه السورة، أو آيات القرآن كله، هي آيات القرآن الظاهر إعجازه وصحته، والمظهر الحق من الباطل، وإضافة ﴿ءَايَٰتُ﴾ إلى ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمعنى من ﴿لَعَلَّكَ﴾ يا محمد، ولعل: هنا يراد بها الاستفهام المقصود به الإنكار والإشفاق، أي أشفق على نفسك بتخفيف هذا الغم .﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتلها أو مهلكها غماً وحزناً .﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي من أجل عدم إيمان قومك أهل مكة. وأصل البخع: أن يبلغ بالذّبح البِخاع: وهو عرق في فقرات الرقبة، مبالغة في الذبح .﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ دلالة ملجئة إلى الإيمان، أو بلية قاسرة عليه. ﴿فَظَلَّتْ﴾ بمعنى المضارع، أي تظل وتدوم .﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾ أي أصحابها، كما يكنى عن النفس بالوجه، ولما وصفت الأعناق بصفات العقلاء وهو الخضوع أجريت مجراهم، وجمعت الصفة جمع العقلاء وهي: خاضعين، أي منقادين، وأصل الكلام: فظلوا لها خاضعين.

﴿ذِكْرٍ﴾ تذكير وموعظة، وهو القرآن .﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بوحيه إلى نبيه. ﴿مُحْدَثٍ﴾ مجدّد إنزاله؛ لتكرار التذكير وتنويع التقرير .﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ الا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على ما كانوا عليه ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾ به أي

بالذكر بعد إعراضهم، وأمعنوا في تكذيبه، بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي سيحل بهم العذاب إما في الدنيا كيوم بدر، وإما يوم القيامة. ﴿أَنبَٰٓؤُا۟﴾ عواقب. ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من أنه كان حقاً أم باطلاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها. ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا﴾ أي كثيراً. ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ صنف محمود كثير المنفعة، وهو صفة لكل ما يحمد ويرضي. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف. ﴿لَءَايَةً﴾ دلالة على أن مُنبتها تام القدرة والحكمة، سابغ النعمة والرحمة. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في علم الله تعالى، فلا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ذو العزة الغالب القادر على الانتقام من الكفرة. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم. أو العزيز في انتقامه ممن كفر، الرحيم لمن تاب وآمن.

التفسير والبيان:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أي هذا القرآن مكون من أحرف عربية، مثل الطاء والسين والميم، يقصد بها تحدي العرب به ليأتوا مثله، فإذا عجزوا دل على أنه كلام الله الموحى به إلى نبيه. وهذه آيات القرآن البيِّن الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ أأنت يا محمد مهلك نفسك حزناً وأسفاً على عدم إيمان قومك برسالتك؟! وهذا إيناس أو تسرية من الله لرسوله في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٣٥/٨] وقال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/٦].

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ أي إن الله قادر على كل شيء، فلو نشاء لأنزلنا عليهم من السماء آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، وتقسرهم عليه، فتصبح رقابهم خاضعة ذليلة منقادة لما نريد، أو يصبح

كبراؤهم ورؤساؤهم منقادين، ولكنا لا نفعل ذلك؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان عن اختيار وطواعية ورضا، لا بالقسر والإكراه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩] وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١/ ١١٨]. وأضحت سنتنا إرسال الرسل إلى البشر، وإنزال الكتب عليهم، ليؤمنوا عن بيِّنة واقتناع.

لكن الكفار ممعنون في الكفر، موغلون في الضلال، معاندون معرضون، فقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، وما الهدف من تجديد إنزال الكتب الإلهية إلا تكرار التذكير، وتنويع البيان، للتأمل وإعمال الفكر، والهداية والإصلاح، غير أنه كلما جدد الله لهم موعظة وتذكيراً جددوا إعراضاً وتكذيباً كما قال:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ أي فقد كذب أولئك المشركون بما جاءهم من الذِّكْر والحق، ثم بادروا إلى الاستهزاء، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب والاستهزاء في المستقبل، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٨٨] وقال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٣٠].

ثم إنهم أعرضوا عن التفكير في آيات الله الكونية وآثاره المشاهدة فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ أي أو لم ينظروا إلى الأرض التي خلقها الله، وأنبت فيها من كل صنف كثير النفع من الزروع والثمار، فيستدلوا بذلك على عظمة سلطان الله، وباهر قدرته، فهو موجود واحد قادر على كل شيء من هداية القوم وغيرها.

والجمع بين ﴿كَمْ﴾ و﴿كُلِّ﴾ لدلالة ﴿كُلِّ﴾ على الإحاطة بأزواج النبات

على سبيل التفصيل، ودلالة ﴿كَمْ﴾ على أن هذا المحيط متكاثر، فجمع بين الكثرة والإحاطة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ أي في ذلك الإنبات لدلالة على قدرة الخالق للأشياء، وقدرته على البعث والإحياء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا نهيه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي وإن ربك أيها الرسول لهو القادر على كل ما يريد، القاهر الغالب الذي قهر كل شيء وغلبه، الرحيم بخلقه، فلا يعجل على من عصاه، بل يمهله ويؤجله، لعله يرجع عن غيه، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن القرآن الكريم كلام الله المعجز الواضح الجلي الذي أبان الحق وزيّف الباطل، وقرر الأحكام، ودعا إلى الهدى والرشاد.

٢ً - لا حاجة بك أيها النبي إلى الإسراف في الأسى والحزن على تكذيب القوم وإعراضهم عن رسالتك، وعدم إيمانهم بالقرآن ودعوة الإسلام.

٣ً - إن الله جلت قدرته قادر على إنزال معجزة ظاهرة تجبرهم على الإيمان، ولكنه لم يفعل؛ لأن سنته وحكمته اقتضت جعل الإيمان اختيارياً لا قسر فيه ولا إكراه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] .

٤ً - بالرغم من تجدد المواعظ والمذكِّرات فإن المشركين أعرضوا عن الهدى، وكذبوا بالمنزل على الأنبياء، فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا، والذي استهزؤوا به.

ويلاحظ أنه تعالى وصف الكفار بالإعراض عن القرآن المنزل أولاً، وبالتكذيب ثانياً، والإنكار إلى درجة الاستهزاء ثالثاً.

٥ً - احتجت المعتزلة بقوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ على خلق القرآن فقالوا: الذكر هو القرآن، لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥٠] وبُيّن في هذه الآية أن الذكر محدث، فيلزم منه أن القرآن محدث، والجواب: أن الحدوث إنما هو لهذه الألفاظ المتلوة بالوحي الحاصل، أما أصل القرآن الذي هو كلام الله فهو قديم قِدَم الله تعالى.

٦ً - نبّه الله تعالى بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ على عظمته وقدرته، وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم، لعلموا أن الله هو الذي يستحق أن يعبد، إذ هو القادر على كل شيء، لذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي إن فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدليلاً واضحاً على أن الله قادر، ولكن، وما أكثر الناس بمصدقين، لما سبق من علمي فيهم، وإن الله هو المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

القصة الأولى
قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وقومه
- ١ -
امتنان فرعون على موسى بتربيته

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أخاف).

الإعراب:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ﴾ (إذ): ظرف منصوب متعلق بفعل مقدر، تقديره: واتل عليهم إذ نادى.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب؛ لأنه يتعلق بمحذوف في موضع الحال، تقديره: فأرسلني مضموماً إلى هارون.

﴿إِنَّا رَسُولُ﴾ قال ﴿رَسُولُ﴾ بالإفراد؛ لأنه أراد بالرسول الجنس، فوحَّد، أو أن يكون ﴿رَسُولُ﴾ بمعنى رسالة، أي إنا ذوا رسالة ربّ العالمين، فَحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ أي بأن أرسل معنا، فحذف حرف الجر، وهي تحذف معها كثيراً. ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ إما بدل مرفوع من ﴿نِعْمَةٌ﴾ وإما منصوب بتقدير: لأن عبدت، ثم حذف حرف الجر، لطول الكلام بصلة ﴿أَنْ﴾ طلباً للتخفيف.

البلاغة:

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بينهما مقابلة.

﴿رَسُولُ﴾ ﴿أَرْسِلْ﴾ جناس اشتقاق.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ جناس ناقص، لاختلاف الشكل واتحاد الحروف.

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ إيجاز بالحذف، تقديره: فأتيا فرعون فقالا له ذلك، فقال لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ كذلك إيجاز بالحذف، أي فأرسل جبريل إلى هارون واجعله نبياً يؤازرني ويعاضدني.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ﴾ متعلق بفعل مقدر، أي اذكر أو اتل يا محمد لقومك. ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ليلة رأى النار والشجرة. ﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ بأن ائت رسولاً. ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبح أولادهم. ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ الأول أو عطف بيان له. ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ الله بطاعته، فيوحدوه، والاستفهام إنكاري، وهو استئناف أتبعه إرساله إليهم للإنذار، تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه، وفيه مزيد الحثّ على التقوى. ﴿وَيَضِيقُ

صَدْرِي﴾ من تكذيبهم لي .﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأداء الرسالة، للعقدة التي فيه. ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ أي أرسل جبريل إلى أخي هارون معي، ليكون نبياً. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ لهم علي تبعة ذنب، فحذف المضاف، والمراد قتل القبطي، وإنما سماه ذنباً على زعمهم .﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ به، وكان القتل قبل أداء الرسالة.

﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر وردع، أي ثق بالله، ولا تخف منهم، فلا يقتلونك. ﴿فَاذْهَبَا﴾ أنت وأخوك، فيه تغليب الحاضر على الغائب، وهو معطوف على الفعل الذي دلّ عليه ﴿كَلَّا﴾ كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن، فاذهب أنت والذي طلبته ليكون معك نبياً وهو هارون .﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ معجزاتنا .﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يعني موسى وهارون وفرعون، أو أجريا مجرى الجماعة .﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ ما تقولون وما يقال لكم وما يجري بينكما وبينه، فأجعل لكما الغلبة عليه.

﴿إِنَّا رَسُولُ﴾ أي إن كُلّاً منا رسول من الله إليك، أو أراد به الجنس أو ضمنه معنى الإرسال والرسالة .﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ أي بأن أرسل معنا إلى الشام، ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ أي فأتياه فقالا له ما ذكر، فقال فرعون لموسى: ألم نكن ربّيناك في منازلنا .﴿وَلِيدًا﴾ طفلاً صغيراً، سمي بذلك لقربه من الولادة بعد فطامه .﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي ثلاثين سنة، يلبس من ملابس فرعون، ويركب من مراكبه، وكان يسمى ابنه. ثم خرج إلى مدين عشر سنين، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين، ثم بقي بعد الإغراق لفرعون وقومه خمسين .﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ وهي قتل القبطي، وبَّخه به معظماً إياه، بعدما عدَّد عليه نعمته .﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الجاحدين لنعمتي عليك بالتربية وعدم الاستعباد. وهو حال من تاء ﴿فَعَلْتَ﴾.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي قال موسى: فعلتها حينئذٍ وأنا من المخطئين أو من الجاهلين، قبل أن يؤتيني الله العلم والرسالة؛ لأنه لم يتعمد

قتله .﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ خرجت من بينكم إلى مدين .﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ حكمةً وعلماً .﴿تَمُنُّهَا﴾ تمنُّ بها، أي وتلك التربية نعمة تمتن علي بها ظاهراً، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل وذبح أبنائهم، أي اتخذتهم عبيداً، ولم تستعبدني، لا نعمة لك بذلك لظلمك باستعبادهم. وقدر بعضهم أول الكلام همزة استفهام للإنكار، أي أَوَتلك نعمة تمنها علي وهي أن عبدت؟ والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي، وأنك لم تستعبدني.

المناسبة:

هذه القصة التي ترددت في القرآن كثيراً في سور عديدة[١] يراد من ذكرها هنا إيناس النبي ﷺ عما يلقاه من قومه من صدود وإعراض وتكذيب، فبعد أن ذكر الله تعالى تكذيب المشركين برسالته وإنذارهم وإثبات وحدانية الله لهم بإنبات النبات، ذكر قصة موسى مع فرعون وقومه الذين كذبوه مع إثبات نبوته بالمعجزات البينات، ولما لم تغن الآيات والنذر، حاق بالمكذبين سوء العذاب، وأغرقهم الله في اليم، جزاء جحودهم وتكذيبهم.

التفسير والبيان:

يبدأ الله تعالى القصة من بدء بعثة موسى بن عمران عليه السلام وتكليم ربّه له ومناجاته إياه من جانب الطور الأيمن، فيقول:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ أي، اذكر يا محمد لقومك حين نادى الله موسى من جانب الطور الأيمن بالوادي المقدس طُوى، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه القوم الظالمين أنفسهم بالشرك واستعباد بني إسرائيل وذبح أولادهم، فيدعوهم إلى عبادة الله وحده، وتخلّيهم عن فكرة تأليه فرعون.

(١) ذكرت قصة موسى في البقرة، والأعراف، ويونس، وهود، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وغافر (المؤمن)، والسجدة (فصلت)، والنازعات، بأساليب مختلفة.

وقال الله لموسى تعجبياً من حالهم: ألا يتقونني، ألا يخافون بطشي وانتقامي في الآخرة، ويحذرون عصياني وعذابي على كفرهم وبغيهم. وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كلام مستأنف، أتبعه تعالى إرساله إليهم للإنذار وتسجيل الظلم عليهم، وأمنهم العواقب وقلة خوفهم.

والنداء الذي سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى هو كلام الله القديم المنزه عن مشابهة الحروف والأصوات، مع أنه مسموع، على رأي أبي الحسن الأشعري. وقال أبو منصور الماتريدي: الذي سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والأصوات(١).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي قال موسى مجيباً ربّه: يا ربّ، إني أخشى تكذيبهم لي، فأحزن ويضيق صدري تأثراً وتألماً بما يعملون، ولا ينطلق لساني بما يجب علي من أداء الرسالة، بل أتلعثم، وأخي هارون أفصح مني لساناً، وأقوى بنياناً.

﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي فاجعل هارون نبياً مثلي، أو أرسل جبريل عليه السلام له بالوحي ليكون معي نبياً ورسولاً، يؤازرني ويعاضدني، فتتحقق أعباء الرسالة على الوجه الأكمل. وسبب آخر هو:

﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ أي ولهم آل القبط علي تبعة جرم بقتل قبطي خطأ قبل الرسالة أدى إلى خروجي من مصر، فأخاف إن كنت وحدي أن يقتلوني بسبب ذلك، وحينئذٍ لا يحصل المقصود من البعثة، وأما هارون فليس متهماً بشيء، فيتحقق المقصود من البعثة. وهذا إيماء إلى أن الخوف قد يطرأ على الأنبياء كما يطرأ على غيرهم من البشر، وقد وقع مثل هذا لنبينا، حتى طمأنه الله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٤/ ١٢١

والخلاصة: هذه أعذار سأل الله إزاحتها عنه، وأسباب لبعثة هارون معه إلى فرعون وقومه، بدأ بخوف التكذيب من فرعون وملئه، ثم ثنّى بضيق الصدر تأثراً وتألماً، ثم ثلَّث بعدم انطلاق اللسان، وأما هارون فهو أفصح لساناً، وأهدأ بالاً، ثم ربَّع بوجود تبعة الذنب وهو جرم القتل خطأً قبل النبوة، فخاف أن يبادروا إلى قتله، فيفوت أداء الرسالة ونشرها. ويجمع مطالبه أمران: طلب دفع السوء أو الشر أو التقصير عنه، وإرسال هارون معه.

فأجابه الله إليها فقال:

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي قال الله له: ارتدع يا موسى عما تظن، ولا تخف من شيء، فإنهم لا يقدرون على قتلك، وأجابه إلى المطلب الثاني بقوله: ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي اذهب أنت وأخوك الذي طلبته وهو هارون إلى فرعون وملئه بآياتنا ومعجزاتنا الدالة على صدقكما، وأنا ناصركما ومعينكما، كما قال تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٤٦] أي إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي، وقوله: ﴿إِنَّا﴾ يريد نفسه تعالى، وقوله: ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي سامعون ما يقولون وما يجاوبون، وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما، وأنه يعينهما ويحفظهما.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي فاذهبا إلى فرعون، فقولا له بلين ورفق: إننا رسولا ربّ العالمين أرسلنا الله لك ولقومك أي أرسل كلاً منا إليك، فأطلق حرية بني إسرائيل، ليعبدوا ربّهم في أرض الله الواسعة، ويعودوا معنا إلى الأرض المقدسة: فلسطين.

وجاء لفظ الرسول هنا مفرداً، وفي آية أخرى مثنى ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٢٠/ ٤٧] لأن الرسول يطلق على الواحد وغيره؛ لأنه اسم جنس، أو لأنه بمعنى الرسالة، أي إنا ذوا رسالة ربّ العالمين، أو لأنهما على شريعة واحدة وإخوة كأنهما رسول واحد، أو كل واحد منا رسول.

فأعرض عنهما فرعون، ونظر إلى موسى وأجابه بازدراء وتقريع معاتباً إياه بأمرين:

الأول:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾؟ أي في الكلام حذف، وهو أنهما أتياه وقالا ما أمر الله به، فعند ذلك قال فرعون: ما هذا هو المؤمل منك، أأنت الذي ربيناك صغيراً في بيوتنا وعلى فراشنا، ولم نقتلك من جملة من قتلنا، وأنعمنا عليك مدة من السنين - قيل: لبث عندهم ثلاثين سنة - ثم تقابل الإحسان بكفر النعمة، وتبادرنا بما تقول؟ ومتى كان هذا الذي تدعيه؟

الثاني:

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي وقتلت أيضاً رجلاً منا، وهو ذلك القبطي الذي وكزته فقضيت عليه، وهو من أتباعي، فإنه كان خباز فرعون، وكنت من جاحدي النعمة، وهذا لا يليق في أخلاق الرجال من الوفاء وردّ الجميل.

فأجاب موسى عن قضية القتل، وترك أمر التربية المعلومة الظاهرة والتي لم ينكرها موسى؛ لأن الرسول مطالب بتبليغ الرسالة سواء كان المرسل عليه أنعم عليه أم لا، والإعراض عن مثل هذا الكلام أولى، إذ لا مكابرة فيه.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي قال موسى لفرعون: فعلت تلك الفعلة السيئة وهي قتل القبطي في تلك الحال، وأنا من المخطئين لا المتعمدين قبل أن يوحى إلي وينعم الله علي بالرسالة والنبوة كمن يقتل خطأً من غير تعمد للقتل، أو: وأنا من الجاهلين بأن ضربتي تؤدي إلى القتل، فإني تعمدت الوكز دفاعاً وتأديباً، فأدى ذلك إلى القتل، وهو ما يسمى في القوانين الحديثة

بالضرب المفضي إلى الموت. أي إن القتل الذي تعاتبني عليه لم يكن مقصوداً مني.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي فولّيت هارباً إلى مَدْين خوفاً من بأسكم، حين أخبرني رجل، فقال لي: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٠] وجاء أمر آخر وهو أن الله منحني فهماً وعلماً وحكمة[١]، وأرسلني إليك، فإن أطعته سلمت، وإن خالفته هلكت.

ثم أجاب موسى عن فضل التربية لفرد والإساءة إلى جماعة وهم بنو إسرائيل فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ أي وما أحسنت إلي وربيتني إلا وقد أسأت إلى بني إسرائيل قومي، فجعلتهم عبيداً وخدماً، يقومون في أعمالك وأعمال رعيتك الشاقة، فهل الإحسان إلى رجل واحد منهم له قيمة بالنظر إلى الإساءة إلى مجموعهم؟ فليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

فقوله: ﴿عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معناه اتخذتهم عبيداً لك مُسْتَذَلِّين. وإنما جمع الضمير في ﴿مِنكُمْ﴾ و﴿خِفْتُكُمْ﴾ مع إفراده في ﴿تَمُنُّهَا﴾ و﴿عَبَّدتَّ﴾ لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله تعالى المتقدم: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد[٢].

---

(١) قال الرازي: الأقرب أن الحكم غير النبوة، والنبوة مفهومة من قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فالمراد بالحكم: العلم، ويدخل في العلم: العقل والرأي والعلم بالدين الذي هو التوحيد.

(٢) الكشاف: ٢/ ٤٢٢

فقه الحياة أو الأحكام:

هذا هو الفصل الأول من قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه، ويستفاد منه ما يأتي:

١ً - كان إرسال موسى وأخيه هارون إلى فرعون الطاغية الجبار الذي ادعى الألوهية، ومعه قومه الظالمون بالشرك واستعباد الضعفاء إعذاراً وإنذاراً، حتى لا يبقى لهم ولأمثالهم حجة يتذرعون بها للجهل بحقيقة الإيمان والدين.

٢ً - في قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ حثّ شديد على التقوى لمن تدبر وتأمل ووعى المستقبل المنتظر.

٣ً - قدَّر موسى خطورة المهمة وأداء الرسالة التي كلف بها إلى فرعون فسأل ربّه أمرين: أن يدفع عنه شرهم، وأن يرسل معه هارون نبياً، فأجابه الله تعالى إلى الأمرين، فهدَّأ خوفه وروعه، وأمره بالثقة بالله تعالى، وأيَّده بنصره وعونه، وجعل أخاه رسولاً مثله، ليؤازره ويعاونه، كما قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٠/٢٩-٣٢]، وقال سبحانه: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٢٨/٣٤].

قال القرطبي: وكأن موسى أُذن له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة، بل طلب من يعينه. ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر، ويخاف من نفسه تقصيراً، أن يأخذ من يستعين به عليه، ولا يلحقه في ذلك لوم[1].

٤ً - لا بدّ من اتخاذ الأسباب لكل مهمة خطيرة أو غير خطيرة، فذلك

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/٩٢

مأمور به شرعاً، كما أن الحذر مطلوب، وتقدير المخاطر مما يوجبه الشرع والعقل.

٥ً - لم يتردد موسى وأخوه هارون بعد هذا التأييد الإلهي من الذهاب إلى فرعون الظالم، وأعلنا له أنهما رسولان إليه من ربِّ العالمين، وهذا واجب التبليغ الذي لا بدّ فيه من الجرأة والشجاعة والصبر، حتى إنه ذكر أن فرعون لم يأذن لهما سنة في الدخول عليه، ثم أذن استهزاء، فدخلا عليه وأدّيا الرسالة.

٦ً - كان مطلب موسى وهارون بعد إعلان الرسالة والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك مطلباً عدلاً، وهو إخلاء سبيل بني إسرائيل حتى يسيروا مع هذين الرسولين إلى فلسطين، وإنهاء عهد الاستعباد، فإن فرعون استعبدهم أربع مئة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ست مئة وثلاثين ألفاً.

٧ً - إن حادثة قتل القبطي من قبل موسى عليه السلام كانت قبل النبوة في عهد الشباب، بدليل قوله بعدئذٍ: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وحدثت تلك الحادثة خطأ من غير تعمد القتل، وجهلاً بأن الوكزة تؤدي إلى القتل. وقد أجاب موسى عليه السلام فرعون عن ذلك أولاً.

٨ً- قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ **مختلف في معناه وفائدته:**

- قال السّدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة؛ كأنه يقول: نعم! وتربيتك نعمة علي من حيث عبدّت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي.

- وقال قتادة وغيره: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار؛ أي أتمنُّ علي بأن ربيتني وليداً، وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟ أي

ليست تلك التربية بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم، فإنهم قومي؛ فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص؟!

وقال الأخفش والفراء أيضاً: فيه تقدير استفهام؛ أي أَوَتلك نعمة؟!

- وقال الضّحاك: إن الكلام خرج مخرج التبكيت، والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام، والمعنى: لو لم تقتل بني إسرائيل لربّاني أبواي، فأي نعمة لك علي! فأنت تمنّ علي بما لا يجب أن تمنّ به.

والظاهر لي هو المعنى الثاني، وهو ما جريت عليه في أثناء التفسير.

- ٢ -

الجدل بين موسى وفرعون في إثبات وجود الله

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

القراءات:

﴿جِئْتُكَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيتك).

البلاغة:

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ صيغة تعجيب.

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ التأكيد بإنّ واللام لتشكك السامع وتردده.

﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ بينهما طباق.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ قال موسى ذلك في بدء مناظرته لفرعون وقومه بطريق التلطف والملاينة طمعاً في إيمانهم، ثم لما رأى عنادهم ومغالطتهم وبخهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا مقابل لقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لموسى .﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وما حقيقته وأيّ شيء هو الذي قلت: إنك رسوله .﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ لما لم يكن للخلْق سبيل إلى معرفة حقيقته تعالى، وإنما يعرفونه بصفاته، أجابه موسى عليه السلام بأنه خالق السماوات والأرض وما بينهما، وهو أظهر خواصه وآثاره. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بأنه تعالى خلق ذلك، فآمنوا به وحده، أو إن كنتم ذوي قلوب موقنة وأبصار نافذة، والمعنى: إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح، نفعكم هذا الجواب، وإلا لم ينفع.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ قال فرعون لأشراف قومه ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جوابه الذي لم يطابق السؤال، سألته عن حقيقة رب العالمين، فذكر أفعاله، أو يزعم أنه رب السماوات وهي متحركة بذواتها وغير محتاجة إلى مؤثر، وهذا مذهب الدهرية، وفيه تعجب من نسبة الربوبية إلى غيره.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ قال موسى: إنه رب جميع الخلائق وإنه رب المشرق والمغرب، وهذا وإن كان داخلاً فيما قبله الذي استوعب به الخلائق كلها، فإنه تخصيص بعد تعميم؛ لأنه أقرب إلى الناظر وأوضح عند

التأمل. ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أسأله عن شيء ويجيبني عن آخر، وسماه رسولاً على سبيل السخرية.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ قال موسى: إنه الرب الذي تشاهدون آثاره كل يوم، فيأتي بالشمس من المشرق، ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله، حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع ينتظم به أمور الكائنات. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كان لكم عقل علمتم ألا جواب لكم فوق ذاك. إنه بقوله السابق: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ لاينهم أولاً، ثم لما رأى شدتهم وخشانتهم عارضهم بمثل مقالتهم.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ قال فرعون، عدولاً إلى التهديد عن المحاجة والمناظرة، وهكذا شأن المعاند المحجوج. وهذا دليل على ادعائه الألوهية وإنكاره للصانع. واللام في المسجونين للعهد، أي ممن عرفت حالهم في سجوني، فإن سجنه كان شديداً، يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده، لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً، حتى يموت، فكان ذلك أشد من القتل.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي قال له موسى: أتفعل ذلك ولو جئتك ببرهان على رسالتي يعني المعجزة. والواو في قوله: (أو) واو الحال، دخلت عليها همزة الاستفهام. ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي قال فرعون له: فائت به إن كنت صادقاً في أن لك بينة، أو في دعواك النبوة، فإن مدعي النبوة لا بد له من حجة.

المناسبة:

لما سمع فرعون جواب موسى عما طعن به فيه وهو القتل والتربية، ورأى أن موسى وهارون مصران على دعوتهما إلى توحيد الله، وطلبهما إخراج بني إسرائيل من مصر، شرع في الاعتراض على الدعوى، فبدأ بالاستفسار عن

حقيقة المرسل للأنبياء، علماً بأن فرعون لم يقل لموسى: وما ربّ العالمين إلا وقد دعاه موسى إلى طاعة رب العالمين، بدليل ما تقدم من قوله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

التفسير والبيان:

هذه مناظرة بين موسى وفرعون حول الإله، فلما قال موسى وهارون لفرعون: إنا أرسلنا إليك من رب العالمين لهدايتك إلى الحق وتوحيد الله، وتفوّقا عليه بالحجة، لجأ إلى المعارضة، وأصرَّ على جحوده وتمرده وطغيانه، فقال:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي قال فرعون لموسى: وما حقيقة رب العالمين الذي أرسلك؟ ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ وسبب السؤال أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٢٨/٣٨] فجحدوا الإله الصانع جلّ وعلا، واعتقدوا أنه لا رب لهم سوى فرعون.

فأجابه موسى عليه السلام:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي قال موسى: هو خالق ومالك السماوات والأرض وما فيهما من كواكب ونجوم، وبحار وجبال وأنهار وأشجار، وإنسان وحيوان ونبات، وما بينهما من الهواء والطير وما يحتوي عليه الجو، إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، الجميع عبيد له، خاضعون ذليلون، خلق الأشياء كلها، وهو المتصرف فيها. أو إن كنتم موقنين بإسناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود لذاته، فاعرفوا أنه هو الله، وأنه لا يمكن تعريفه إلا بآثاره. ونظير الآية قوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٢٠/٤٩-٥٠].

فلم يعجبه الجواب والتفت إلى خاصته ورؤساء دولته قائلاً لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي قال فرعون لحاشيته: ألا تعجبون من قوله وزعمه أن لكم إلهاً غيري، وألا تستمعون لتخريفه وتهربه من الجواب؟ أسأله عن حقيقة رب العالمين، فيذكر أفعاله وآثاره.

فذكر موسى جواباً آخر أخص مما ذكر وأدل على المراد؛ لأنه واقع حسي مشاهد لهم:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي إنه تعالى خالقكم وخالق آبائكم المتقدمين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه، والمقصود أن التغير من وجود إلى عدم وبالعكس دليل الحدوث، فأنتم محدثون، كنتم بعد العدم، وآباؤكم ماتوا بعد أن كانوا موجودين، وأنتم مثلهم على الطريق، أما الإله الواجب لذاته فهو الباقي الذي لا يطرأ عليه الفناء، ولا أول لوجوده ولا آخر، فهو إذن الإله.

فلما حار فرعون ولم يجد جواباً مقنعاً، لجأ إلى عقلية الصبية والاتهام الرخيص:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾أي قال فرعون لقومه: إن رسولكم ليس له عقل، لا يفهم السؤال، فضلاً عن أن يجيب عنه، وهو يخلط في كلامه، ويدعي أن هناك إلهاً غيري.

فعدل موسى إلى طريق ثالث أوضح من الجواب الثاني فقال:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي قال موسى: إنه الله تعالى رب طلوع الشمس وظهور النهار، ورب غروب الشمس وزوال النهار، وهو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب، والمغرب

مغرباً تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع انتظام مداراتها، فهذا الذي يغير ويبدل، وينظم ويدبر تدبيراً مستمراً كل يوم هو الله، بل هو الذي يدبر الكون كله، لا أنتم، إن كان لكم عقل تدركون به ظواهر الكون، وهذا مناسب لقولهم واتهامهم بأنه مجنون. فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً، فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً.

وهذا الطريق في الاستدلال على وجود الله هو الذي سلكه إبراهيم الخليل عليه السلام مع نمروذ، فإنه استدل أولاً بالإحياء والإماتة، وهو بعينه الذي أجاب به موسى هنا بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فأجابه نمروذ بقوله: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٨] فقال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٨] وهو الذي ذكره موسى هنا بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

ولما غَلَب موسى فرعون بحجته، اتجه كأهل السلطة في كل زمان ومكان إلى التهديد والوعيد باستخدام القوة والقهر والسلطان، فقال:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي قال فرعون: لئن ألّهت غيري، لجعلتك في عداد المسجونين الذين يزجّ بهم كما تعلم في قيعان السجون تحت الأرض، ويتركون حتى يموتوا، وكان سجنه أشد من القتل.

فقابل موسى التهديد والتخويف بالمعجزات الخارقة للعادة بعد أن لم تفلح الأدلة العقلية، فقال:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي قال موسى: أتفعل هذا وهو السجن، ولو أتيتك بحجة بيّنة، وبرهان قاطع واضح على صدق دعواي النبوة؟ وهي المعجزة الدالة على وجود الله تعالى.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ قال فرعون: فأت بهذا الشيء الذي يشهد لك، والدليل الواضح على دعوى الرسالة، فكل من يدعي النبوة عليه تأييد دعواه، ظناً منه أنه سيعارضه.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه مناظرة حاسمة في شأن إثبات وجود الله بين موسى عليه السلام وفرعون الطاغية الجبار.

يتبين منها النزعة المادية عند الماديين والملحدين، الذين يريدون رؤية الله تعالى بالعين المجردة أو لمسه بالحس المجاور، كشأن بقية المواد، لذا استفهم فرعون عن حقيقة رب العالمين، فأتى موسى عليه السلام بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته، التي لا يشاركه فيها مخلوق؛ لأن حقيقة الله لا يدركها أحد، ولأن المادة المجسدة محدَثة، والله تعالى هو خالقها وموجدها.

وكان جواب موسى الأول أن الله هو خالق السماوات والأرض وما بينهما، فهو المالك والمتصرف وخالق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيّرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير وغيرهما. وخَلْقُ الأشياء هو الدليل القاطع على وجود الله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٦/١٧].

فلما أدرك فرعون عجزه عن الإيجاد والخلق، قال: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ مستخدماً أسلوب الإغراء والتعجب من غرابة المقالة التي تصادم المقرر في عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم، كالفراعنة المتقدمين.

ثم أتى موسى عليه السلام ثانياً بدليل يفهمونه عنه من الحس والمشاهدة التي يطلبونها، فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إن الله خالقهم وخالق

آبائهم الأوائل، فانحدارهم من آباء فنوا، ووجودهم بعد أن لم يكونوا، دليل على أنه لا بدَّ لهم من مغيِّر، فهم محدثون، ولا بدَّ لهم من مكوِّن وهم مخلوقون.

لم يجد فرعون جواباً، فلجأ إلى التهكم والاستخفاف واتهم موسى بالجنون؛ لأنه لا يجيب عما سأله تماماً.

فأجابه موسى ثالثاً بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي إن الله هو مسيِّر نظام الكون كله، ومحرك هذا العالم بأجمعه في نظام بديع لا يعرف الخلل والاضطراب، ومالك جميع أنحاء الأرض، أما فرعون فيملك بلداً واحداً، لا سلطان له على غيره، فهل من عقل يدرك هذا، وهل من إدراك يؤدي بهم إلى ضرورة الإيمان بصاحب الملك المطلق، وأن المالك الجزئي عبث وسفه وجنون أن يكون إلهاً، فمن إله بقية العالم؟

ولما هزم فرعون أمام حجة موسى، لم يجد بداً من استخدام السلطة الإرهابية، فتوعد موسى بالسجن، وذلك عين الضعف، مع أنه كما يروى كان سجنه أشد من القتل، وكان إذا سجن أحداً، لم يخرجه من سجنه حتى يموت، فكان مَخُوفاً.

ولكن التأييد الإلهي أشد نفاذاً وإرهاباً وإقناعاً، ولا يجدي معه توعد فرعون، ويهون أمامه كل مخاوف الدنيا، فحينئذ طلب موسى عليه السلام إثبات صدق دعواه النبوة بالمعجزة الخارقة للعادة التي لا تحدث إلا على يد نبي أو رسول بإحداث الله تعالى وإيجاده، فقبِل فرعون إظهار تلك المعجزة، ظناً منه أنه سيبطلها، ويأتي بما يعارضها.

- ٣ -

معجزة موسى عليه السلام ووصف فرعون لها بالسحر

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

الإعراب:

﴿أَرْجِهْ﴾ فعل أمر، أي أخر أمره وأمر أخيه، يقال: أرجأته وأرجيته، أي أخرته. وسُكّنت الهاء؛ لأنه أجرى الوصل مجرى الوقف. وقرئ بكسر الهاء من غير إشباع، اكتفاء بالكسرة عن الياء، وقرئ بكسر الهاء والإشباع، وقرئ بالضم والإشباع على الأصل، وبالضم دون الإشباع، اكتفاء بالضمة عن الواو.

المفردات اللغوية:

﴿ثُعْبَانٌ﴾ ذكر الحيات. ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر ثعبانيته بلا تمويه ولا تخييل، كما يفعل السحرة. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أخرجها من جيبه. ﴿بَيْضَآءُ﴾ ذات شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسدّ الأفق. ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ خلاف ما كانت عليه من ظاهرة الجلد واللحم والعظم. ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ للأشراف والرؤساء المستقرين حوله، فهو ظرف وقع موقع الحال. ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بهره سلطان المعجزة حتى أنساه دعوى الربوبية إلى الاستعانة بائتمار القوم وتنفيرهم عن موسى، وفيه استشعار بتغلبه واستيلائه على ملكه.

﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخر أمرهما، وقيل: احبسهما .﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أرسل في أنحاء البلاد شُرَطاً يحشرون (يجمعون) السحرة .﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ خبير بفن السحر يتفوق على موسى ويفضله.

التفسير والبيان:

بعد أن وافق فرعون على إظهار موسى عليه السلام معجزته، أظهرها، فقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ أي رمى موسى عصاه من يده، فانقلبت ثعباناً واضحاً ظاهراً، لا لَبْس فيه، ولا تمويه ولا تخييل. روي أنه لما انقلبت حية، ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون، وجعلت تقول: يا موسى، مُرْني بما شئت، ويقول فرعون: يا موسى، أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها، فعادت عصا[1].

والسبب في قوله هنا: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٢٠] وفي آية ثالثة: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣١] : أن الحية اسم الجنس، ثم إنها لكبرها صارت ثعباناً، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها.

ولما أتى موسى عليه السلام بهذه الآية قال له فرعون: هل غيرها؟ قال: نعم، وهذا في الآية التالية:

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي أدخل موسى يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء تلمع وتتلألأ للناظرين، لها شعاع كالشمس، يكاد يغشى الأبصار، ويسدّ الأفق.

ومع هذا كله، أراد فرعون تعمية الأمر، فبادر بشقاوته إلى التكذيب والعناد، فذكر أموراً ثلاثة:

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ١٣١، الكشاف ٢/ ٤٢٤

١ - ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي قال لحاشيته من القادة وأشراف قومه الذين حوله: إن هذا الرجل لبارع في السحر، يريد بذلك وصف فعله بأنه سحر لا معجز. ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به فقال:

٢، ٣ - ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟ أي يريد إخراجكم من وطنكم، ويتغلب عليكم بسحره، وبما يلقيه بينكم من العداوات، فيفرق جمعكم، ويكثر أعوانه وأنصاره، ويغلبكم على دولتكم، ويأخذ معه بني إسرائيل، فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به؟ إني متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم، وهذا أسلوب يستنفر حماسهم وجهودهم وتوحيد كلمتهم لمطاردته والتغلب عليه، فاتفقوا على جواب واحد وهو:

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي قال مستشاروه بعد أن تشاوروا فيما يفعلون: أخر أمره ومناظرته وأخاه ولا تتعجل في عقابهما لوقت اجتماع السحرة، بأن تجمعهم من أنحاء البلاد، فتبعث في أرجاء مملكتك جامعين يحشرون السحرة، ويأتونك بكل خبير في السحر ماهر فيه، فيقابلون موسى بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت ويكون لك النصر والتأييد عليه.

وكان هذا من تسخير الله تعالى لموسى وأخيه، ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس جهاراً نهاراً.

وقيل: معنى ﴿أَرْجِهْ﴾ احبسه، روي أن فرعون أراد قتله، ولم يكن يصل إليه، فقالوا له: لا تفعل، فإنك إن قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة، ولكن أرجئه وأخاه إلى أن تحشر السحرة ليقاوموه، فلا يثبت له عليك حجة، ثم أشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون السحرة، ظناً منهم بأنهم إذا كثروا غلبوه، وكشفوا حاله.

ويلاحظ أنهم عارضوا قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاؤوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة، ليطيبوا قلبه، وليسكنوا بعض قلقه.

فقه الحياة أو الأحكام:

كانت معجزة موسى عليه السلام العصا واليد، فألقى عصاه من يده، فانقلبت ثعباناً وهو أعظم ما يكون من الحيَّات، وأدخل يده في جيبه ثم أخرجها، فإذا هي تلألأ، كأنها قطعة من الشمس، لكن كان بياضها نورانياً كالقمر.

فوصف فرعون تلك المعجزة لقومه بأنها من قبيل السحر، لا من قبيل المعجزة، وحرضهم على اتخاذ خطة للغلبة على موسى وأخيه، حتى لا يأخذ البلاد من أيديهم.

وهنا جاء دور المزايدة كما يفعل أتباع الرؤساء اليوم، فأشاروا على فرعون بجمع مهرة السحرة من أرجاء البلاد، ليقابلوه بنظير ما جاء به موسى، وتتحقق لفرعون الغلبة والنصرة عليه.

ولكن كان في هذا الجمع مفاجأة إلهية أدت إلى إيمان السحرة جميعاً بإله موسى وهارون.

- ٤ -

إيمان السحرة بالله في المبارزة الحاسمة في مشهد عظيم

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (٤٣) فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (٤٥) فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ (٤٩) قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٥١)﴾

القراءات:

﴿وَقِيلَ﴾ :

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿نَعَمۡ﴾ :

وقرأ الكسائي (نَعِم).

﴿هِيَ تَلۡقَفُ﴾ :

قرئ:

١- (هيَ تَلْقَفُ) وهي قراءة حفص.

٢- (هيَ تَلقَّفُ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بدل اشتمال من (أُلقي) أو حال بإضمار: قد.

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ بدل للتوضيح.

المفردات اللغوية:

﴿لِمِيقَٰتِ﴾ ما وقت به من ساعات يوم معين، وهو وقت الضحى من يوم الزينة الذي حدده موسى عليه السلام. والميقات يطلق على الميقات الزماني كأشهر الحج، والميقات المكاني وهو مواقيت الإحرام .﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ الاستفهام للحث على مبادرتهم إلى الاجتماع .﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلبوا، والترجي على تقدير غلبتهم، ليستمروا على دينهم، فلا يتبعوا موسى، فالمقصود الأصلي ألا يتبعوا موسى، لا أن يتبعوا السحرة، فساقوا الكلام مساق الكناية؛ لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه السلام.

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادة عليه إن غلبوا .﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ لم يرد به الأمر بالسحر والتمويه، بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة، توسلاً به إلى إظهار الحق .﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أقسموا بعزة فرعون، أي قوته على أن الغلبة لهم، لفرط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر.

﴿تَلۡقَفُ﴾ تبتلع .﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه، بتمويههم وتزويرهم،

فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى. ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر، وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق، يخيل شيئاً لا حقيقة له. وإنما بدّل الخرور بالإلقاء ليشاكل ما قبله، ويدل على أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم، فكأنهم أُخذوا وطرحوا على وجوههم، وأنه تعالى ألقاهم بما تعهدهم به من التوفيق. ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فيه إشعار بأن موجب إيمانهم ما أجراه الله على يدي موسى وهارون؛ لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يتأتى بالسحر.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ قال فرعون أآمنتم لموسى. ﴿ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أنا. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ إن المسؤول هو كبيركم موسى الذي علمكم شيئاً دون شيء، ولذلك غلبكم، وتواطأتم على ما حدث. أراد بذلك التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق. ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم، وما ينالكم مني.

﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر علينا في ذلك وفيما يلحقنا من عذاب الدنيا. ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي إنا راجعون في الآخرة بعد موتنا إلى الله ربنا بأي وجه كان، فالصبر على الإيمان محّاء للذنوب موجب للثواب والقرب من الله تعالى. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ نرجو. ﴿أَن كُنَّآ﴾ بأن كنا أو لأن. ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في زماننا.

التفسير والبيان:

أراد فرعون وقومه القبط أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون، وهذا شأن الإيمان والكفر، والحق والباطل، ما تواجها وتقابلا إلا غلب الإيمان الكفر: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨/٢١]، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١/١٧].

وهذا مشهد من مشاهد الصراع بين الحق والباطل، قال تعالى:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾﴾ جمع السحرة وجاؤوا من أقاليم مصر، في اليوم المخصص للقاء موسى، وهو وقت الضحى من يوم الزينة (العيد) كما حدد موسى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٢٠/٥٩] والميقات: ما وقت به الزمان أو المكان، ومنه مواقيت الإحرام.

وكان السحرة أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلاً في ذلك، وكانوا هم الفئة المثقفة، وكانوا جمعاً كثيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل أكثر، والله أعلم بعددهم. قال ابن إسحاق: وكان أمرهم راجعاً إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم وهم: سابور وعاذور وحطحط ومصفى.

وأراد موسى عليه السلام أن تقع تلك المبارزة يوم عيد لهم، ليكون ذلك أمام حشد عظيم، ولتظهر حجته عليهم أمام الجموع الغفيرة، وهذا كله من لطف الله تعالى في إظهار أمر موسى عليه السلام.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾؟ أي طلب من الناس الاجتماع، وحثهم قوم فرعون على الحضور لمشاهدة ما يحدث من الجانبين، ثقة من فرعون بالغلبة، وهم أرادوا ذلك حتى لا يؤمن أحد بموسى، وموسى عليه السلام رغب أيضاً في هذا التجمع لتعلو كلمة الله، وتتغلب حجة الله على حجة الكافرين.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي وقال قائلهم: إنا نرجو أن يتغلب السحرة، فنستمر على دينهم، ولا نتبع دين موسى. ولم يقولوا: نتبع الحق، سواء كان من السحرة أو من موسى؛ لأن الرعية على دين ملكهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي لما قدم السحرة إلى مجلس فرعون، وقد جمع حوله وزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، قالوا: هل لنا أجر من مال أو

غيره إن تغلبنا على موسى، قال: نعم لكم الأجر، وزيادة على ذلك أجعلكم من المقربين عندي ومن جلسائي، فهم ابتدؤوا بطلب الجزاء: وهو إما المال وإما الجاه، فبذل لهم كلا الأمرين.

وبعدئذ تحاوروا مع موسى على البادئ بالإلقاء، فجعلهم أولاً كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي أذن لهم موسى بالبدء بالإلقاء، وقال: ألقوا ما تريدون إلقاءه من العصي والحبال، ثقة منه بأن الله غالبه ومؤيده، وليكون ما يلقونه طعمة لعصاه، بعد أن عرضوا عليه أن يبدأ أولاً بالإلقاء، فألقوا ما معهم من الحبال المطلية بالزئبق، والعصي المحشوة به، وقالوا: بعزة فرعون أي بقوته وجبروته إنا لنحن المتغلبون عليه.

فلما حميت الشمس، تحركت العصي والحبال، وامتلأت الساحة بالحيات والثعابين، وخيل إلى موسى أنها تسعى، وسحروا أعين الناس، واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ، فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٢٠/٦٦-٦٨] وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧/١١٦] . وحينئذ ابتهج فرعون وقومه، واعتقدوا أن السحرة غلبوا، وأن عصا موسى لن تفعل شيئاً أمام آلاف الحيات.

فأمره الله أن يلقي عصاه:

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي فلما ألقى موسى عصاه، فإذا هي تبتلع من كل بقعة ما قلبوا صورته وزيفوا حاله بتمويههم وتخييلهم أنها حيات تسعى، فلم تدع منه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/١١٧-١١٨] .

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦﴾ أي فخرّ السحرة ساجدين بلا شعور؛ لأنهم أدركوا أن ما فعله موسى فوق قدرة البشر، وأنه من فعل إله الكون رب موسى وهارون، فلم يتمالكوا أنفسهم إلا ووجدوها ساجدة لهذا الإله، أما هم فقد بذلوا أقصى ما لديهم من علم وطاقة، وما هو منتهى فعل السحرة من تخييل وتمويه.

وفاعل الإلقاء في (أُلقي) أو نائب الفاعل هو الله عز وجل بما رزقهم من التوفيق، أو هو إيمانهم، أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة. ويجوز عدم تقدير فاعل؛ لأن ألقوا بمعنى خروا وسقطوا.

والتعبير بالإلقاء إشارة إلى الدهشة التي اعترتهم، حتى لكأنهم أُخذوا فطُرحوا وسقطوا ساجدين لله. ثم أعلنوا ما وقر في صدورهم:

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ أي قال السحرة: صدقنا واعترفنا برب العالمين الذي دعا إليه موسى وهارون، مفضلين الإيمان على الكفر، والحق على الباطل، غير عابئين بعزة فرعون وجبروته وباطله، ولا طامعين بأجره وقربته ومنافعه.

وهذا دليل على إسقاط ربوبية فرعون، وأن سبب الإيمان هو ما رأوه من معجزة الرسولين: موسى وهارون عليهما السلام.

ولما رأى فرعون ما حدث أسقط في يده، وتحير في أمره، فلجأ إلى التهديد والوعيد شأن العتاة الظالمين، حتى لا تسقط هيبته أمام شعبه، وتتداعى أركان حكمه وسلطانه، ويفعل الناس مثل فعل السحرة الكثيرين، فإنه توقع الغلبة، ففوجئ بالهزيمة المنكرة، ولكن لم تفلح تهديداته في السحرة شيئاً، وأصروا على الإيمان بالله تعالى، لانكشاف الحقيقة لهم، وقال لإنقاذ موقفه:

أولاً - ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ قال فرعون للسحرة: أتؤمنون

بموسى قبل استئذاني، وكيف تخرجون عن طاعتي، وأنا الحاكم المطاع؟! وفي هذا إيهام أن مسارعتكم إلى الإيمان به دالة على ميلكم إليه، وأنكم متهمون بالتواطؤ معه، فربما قصروا في إتقان السحر.

وإنما قال ﴿لَهُۥ﴾ لا (به) لأنه الذي يدعو إليه موسى وهارون.

ثانياً - ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وهذا تصريح بما رمز إليه أولاً، فإنكم فعلتم ذلك بتواطؤ بينكم وبينه، وقصَّرتم في السحر، ليظهر أمر موسى. وهذا تلبيس على القوم وتضليل لهم لئلا يعتقدوا أن إيمان السحرة حق، ومبالغة في التنفير عن موسى عليه السلام، ومكابرة ظاهرة الضعف، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل الموعد أصلاً، فكيف يكون هو كبيرهم الذي علمهم السحر؟!

ثالثاً - ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم، وما ينالكم مني من عقاب. وهذا وعيد مطلق وتهديد شديد.

رابعاً - ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي توعدهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والصلب بعد ذلك جميعاً. وليس في الإهلاك أشد من ذلك.

فأجابوه بما يدل على صلابة الإيمان بوجهين:

الأول - ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ الضر والضير واحد، أي لا حرج ولا ضرر علينا من ذلك، ولا نبالي به، فكل إنسان ميت، ولو بعد حين، والمرجع إلى الله عز وجل، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء، وهذا دليل على أنهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب، وإنما مقصودهم مرضاة الله تعالى، ولهذا قالوا:

الثاني - ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ وهذا إشارة منهم إلى الكفر والسحر، أي إنا نأمل أن يغفر لنا ربنا ذنوبنا وما أكرهتنا عليه من السحر، من أجل أن كنا أول المؤمنين الذين شهدوا هذا الموقف، أو بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فما كان من فرعون إلا أن قتلهم جميعاً. والطمع في هذا الموضع يحتمل اليقين، كقول إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[الشعراء: ٢٦/ ٨٢] ويحتمل الظن؛ لأن المرء لا يعلم ما سيحصل في المستقبل.

ونظير الآية: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٧٢-٧٣].

فقه الحياة أو الأحكام:

كان اجتماع السحرة مع موسى عليه السلام للمبارزة أمام فرعون وملئه في مشهد عظيم خلده التاريخ، تبين فيه موقف أهل الحق والإيمان بالله، وموقف الأفاكين والمبطلين.

اجتمع الناس يوم عيد للقبط هو يوم الزينة، كما حدد موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٥٩] وحرض بعضهم بعضاً على الحضور، ورجوا أو تأملوا غلبة السحرة على موسى وأخيه هارون.

وبوادر الهزيمة كانت قائمة، فالسحرة أرادوا التفوق والغلبة لهدف دنيوي إما المال وإما الجاه، ووعدهم فرعون بالأمرين معاً، وأما موسى وأخوه عليهما السلام فأرادوا نصرة الحق، وإثبات صدق النبوة والرسالة، وإعلاء كلمة الله، فأيدهما الله بنصره؛ لأن المعجزة أمر خارق للعادة، مصدرها الإرادة الإلهية، وشتان بين قدرة الله وقدرة البشر!.

ومن علائم الهزيمة: ابتداء السحرة بإلقاء حبالهم وعصيهم لتكون طعمة لعصا موسى عليه السلام، بالرغم من انشداه الناس وانبهارهم بها، روي عن ابن عباس: أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم، وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق، والعصي مجوفة مملوءة بالزئبق، فلما حميت اشتدت حركتها، فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض، فهاب موسى عليه السلام ذلك، فقيل له: ألق ما في يمينك ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ ثم فتحت فاها، فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم، حتى أكلت الكل، ثم أخذ موسى عصاه، فإذا هي كما كانت، فلما رأى السحرة ذلك قالوا لفرعون: كنا نساحر الناس، فإذا غلبناهم بقيت الحبال والعصي، وكذلك إن غلبونا، ولكن هذا حق، فسجدوا وآمنوا برب العالمين.

أما عدد السحرة والحبال والعصي فليس فيها رواية ثابتة، والذي يدل عليه القرآن أنها كانت كثيرة، من حيث حشروا من كل بلد، ولأن فرعون اطمأن إلى الغلبة بهذا الجمع الغفير.

ومن أمارات الهزيمة: أن السحرة قالوا حين الإلقاء: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي قطعوا بالغلبة، أما موسى فألقى باسم الله وعزته.

والمفاجأة العظمى الأخرى غير نصر المعجزة لموسى عليه السلام هي إيمان السحرة بالله عز وجل، فخروا ساجدين لله تعالى؛ لأنهم كانوا عالمين بمنتهى السحر، فلما رأوا أن عصا موسى تبتلع كل ما صنعوا من تخييل وتمويه، وشاهدوا أن ذلك خارج عن حدّ السحر، علموا أنه ليس بسحر.

وقد أعلنوا إيمانهم الجازم بالله عز وجل غير عابئين بتهديدات فرعون الجبار العاتي، وفضلوا الموت استشهاداً في سبيل هذا الإيمان، مع تقطيع الأيدي والأرجل والصلب، على العودة إلى مستنقع الكفر وضلال السحر، وخلد القرآن الكريم موقفهم الصلب الثابت رضي الله عنهم، بأمرين:

الأول - التفاني في حب الله وابتغاء مرضاته، وأنهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾ وهذا أعلى درجات الصديقين.

الثاني - التخلص من تَبِعاتِ الماضي الذميم القائم على الكفر والسحر: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ فكانوا بذلك السباقين إلى الإيمان في بيئة تغصُّ بالكفر ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- ٥ -

نجاة موسى وقومه وإغراق فرعون وجنده

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾

القراءات:

﴿بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم﴾:

وقرأ نافع (بعباديَ إنكم).

﴿حَٰذِرُونَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (حذرون).

﴿وَعُيُونٍ﴾ :

قرئ:

١- (وعِيُون) وهي قراءة ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي.

٢- (وعُيُون) وهي قراءة الباقين.

﴿مَعِيَ رَبِّي﴾ :

قرئ:

١- (معيَ ربي) وهي قراءة حفص.

٢- (معيْ ربي) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَنْ أَسْرِ﴾ في موضع نصب بـ(أوحينا) وتقديره: بأن أسرِ، فحذفت الباء، فاتصل الفعل به.

﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ إنما جمع ﴿قَلِيلُونَ﴾ وإن كان لفظ ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ مفرداً، حملاً على المعنى؛ لأن الشرذمة جماعة من الناس، موافقة لرؤوس الآي، ولو أفرد لكان جائزاً حملاً على اللفظ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيه ثلاثة أوجه: النصب بفعل مقدر أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا. والجر على أنه وصف لمقام، أي مقام مثل ذلك المقام الذي كان لهم، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك. ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ حال لقوم فرعون.

﴿فَٱنفَلَقَ﴾ معطوف على جملة فعلية محذوفة، تقديرها: ضُرب البحر فانفلق، ويجوز حذف الجملة الفعلية، كما يجوز حذف الجملة الاسمية، كقولهم: زيد أبوه منطلق وعمرو، أي وعمرو أبوه منطلق، مثل: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر.

البلاغة:

﴿فَٱنفَلَقَ﴾ إيجاز بالحذف، أي فضرب البحر فانفلق.

﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تشبيه مرسل مجمل، ذكرت أداة الشبه وحذف وجه الشبه، أي كالجبل في رسوخه وثباته.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ أي بعد سنين أقامها في مصر يدعو شعبها بآيات الله إلى الحق، فلم يزيدوا إلا عتواً وفساداً وإعراضاً. ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ أي سر بهم ليلاً، وأسر: من سرى بمعنى أسرى: سار ليلاً، وقد أمر موسى بالتوجه إلى البحر. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده، وهو علة الأمر بالإسراء، فإذا اتبعوكم مصبحين قبل وصولكم إلى البحر أنجيكم وأغرقهم، إذ إنهم يسيرون وراءكم، ويدخلون في مساركم في البحر. ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أخبر بسيرهم. ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ قيل: كان له ألف مدينة، واثنا عشر ألف قرية. ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعين العساكر ليتبعوهم.

﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ طائفة. ﴿قَلِيلُونَ﴾ قللهم بالنظر إلى كثرة جيشه، قيل: كان بنو إسرائيل ست مئة وسبعين ألفاً، ومقدمة جيش فرعون سبع مئة ألف، كل رجل على حصان، وعلى رأسه خوذة، أما الجيش فهو مليون وخمس مئة ألف، والتحديد بهذه الأعداد محل نظر لم يثبت، والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي لفاعلون ما يغيظنا. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ

﴿٥٦﴾ وإنا لجميع مستعدون في حذر وحزم في الأمور. وقرئ: حَذِرون أي متيقظون.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ أي فرعون وقومه من مصر ليلحقوا موسى وقومه، أي هيأنا في أنفسهم دواعي الخروج وحملناهم عليه. ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين كانت على جانبي النيل. ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار جارية في الدور من النيل. ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أموال كنزوها أو خزنوها في الأرض. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي قصور عالية ومنازل فخمة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم، أو كذلك إخراجنا كما وصفنا. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعد إغراق فرعون وقومه. ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ لحقوهم. ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين وقت شروق الشمس.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر. ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾ لملحقون، يدركنا جمع فرعون، ولا طاقة لنا به. ﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿كَلَّا﴾ أي لن يدركونا. ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظ والنصرة. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة منهم.

﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ أي البحر الأحمر (القُلْزُم) أو النيل. ﴿فَانفَلَقَ﴾ أي فضرب، فانشق اثني عشر فِرْقاً بينها مسالك. ﴿فِرْقٍ﴾ قطعة من البحر. ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ كالجبل الضخم الثابت، فدخلوا في شعابها، كل سبط في شِعْب، لم يبتل منها أحد. ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قرَّبنا. ﴿ثَمَّ﴾ هناك. ﴿الْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه، حتى دخلوا وراءهم مداخلهم، وسلكوا مسالكهم. ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ فرعون وقومه، بإطباق البحر عليهم، لما تم دخولهم في البحر، وخروج بني إسرائيل منه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإغراق. ﴿لَآيَةً﴾ لعظة وعبرة. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وما تنبه عليها أكثرهم، إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقي في مصر من القبط غير آسية امرأة فرعون، وأبيها (حزقيل) مؤمن آل فرعون، ومريم بنت ذاموسى التي دلت على عظام يوسف عليه السلام،

وكذلك بنو إسرائيل بعد النجاة سألوا بقرة يعبدونها، واتخذوا العجل، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٥٥] .﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقم من أعدائه .﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين، فأنجاهم من الغرق.

مقدمة لخروج بني إسرائيل من مصر:

ذكر المفسرون أنه لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم في ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عزّ وجلّ. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً، قائلين لهم: إن لنا في هذه الليلة عيداً. وكان خروجه بهم وقت طلوع القمر.

وكان موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم؛ لأن يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم.

التفسير والبيان:

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾: أوحى الله إلى موسى أن يسير ليلاً باتجاه البحر مع قومه بني إسرائيل، ففعل موسى، وقد أخبره الله أن فرعون وقومه سيتبعونهم، حتى إذا تبعوهم مصبحين، تقدموا عليهم ولم يدركوهم قبل وصولهم إلى البحر، فيدخلون فيه، ثم يلحقهم في مسالكهم فرعون وجنده، فيطبقه عليهم ويغرقهم.

وكانت إقامة بني إسرائيل في مصر ٤٣٠ سنة، وليلة الخروج هي عيد الفصح عندهم إلى الأبد. وكان عددهم كما روي عن ابن عباس ست مئة ألف ماش من الرجال.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣)﴾ أي فلما أصبح فرعون وقومه وعلم بخروج بني إسرائيل، غاظه ذلك واشتد غضبه على بني إسرائيل، فأرسل سريعاً في مدائن مصر من يحشر الجند كالنقباء والحجّاب.

واستخدم فرعون أسلوب التعبئة المعنوية لتحريض قومه على الخروج معه، فوصف بني إسرائيل بثلاث صفات:

أً - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)﴾ إن بني إسرائيل لطائفة قليلة، فيسهل متابعتهم وأسرهم أو قتلهم أو إعادتهم إلى العبودية.

٢ً - ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥)﴾ أي إنهم في كل آونة يغيظوننا ويضايقوننا، بالفتنة والشغب، وقد ذهبوا بأموالنا، وخرجوا عن عبوديتنا، وخالفوا ديننا.

٣ً - ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)﴾ أي وإن جميعنا قوم آخذون حذرنا وأهبتنا ومستعدون بالسلاح، وإني أريد إبادتهم واستئصالهم.

فجمع الجموع الغفيرة، ولا يوجد رواية ثابتة تحصي عددهم، ولا عدد بني إسرائيل، لكن من المؤكد أن عددهم كان أقل من عدد جند فرعون.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)﴾ أي فجعلنا في قلوبهم داعية الخروج، وخرجوا من النعيم إلى الجحيم، وتركوا البساتين الخضر، والرياض الغُنّ، والأنهار الجارية والأموال المكنوزة المخزونة في الأرض والمنازل العالية والدور الفخمة والملك والجاه العظيم في الدنيا.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ أي كان الأمر حقاً كما قلنا، وكذلك كان إخراجنا كما وصفنا، وورثنا بني إسرائيل تلك الثروات، وتحولوا من العبودية إلى الحرية والاستقلال والترف والنعيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٧/١٣٧]، وقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)﴾ [القصص: ٢٨/٥].

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس على خليج السويس. وفي هذه الآونة ظهرت المخاوف على بني إسرائيل، فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي فلما رأى كل من الفريقين صاحبه، قال بنو إسرائيل وقد أيقنوا بالهلاك: إن فرعون وجنوده لحقوا بنا وسيقتلوننا، أو إنا لمتابَعون وسنموت على أيديهم.

فطمأنهم موسى عليه السلام وهدَّأ نفوسهم قائلاً:

﴿قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ قال موسى: كلا لا يدركوننا، إن معي ربي بالحفظ والنصرة سيهديني إلى طريق النجاة والخلاص منهم، وسينصرني عليهم؛ وأوحى الله إلى موسى:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ أي أمر الله موسى بضرب البحر بعصاه، فضربه بها، ففيها سلطان الله الذي أعطاه، فانفلق اثني عشر طريقاً، وصارت كل قطعة من الماء المحجوز عن الانسياب الواقف عن التحرك كالجبل الشامخ الكبير، وكانت الطرق الجافة بالهواء والشمس بعدد أسباط بني إسرائيل، لكل سِبْط منهم طريق، كما قال تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٧٧].

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي وقرَّبنا من البحر هنالك الآخرين وهم فرعون وجنوده، فتبعوهم.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم، فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده، ولم يبق منهم أحد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في هذه القصة وما فيها من العجائب لعبرة وعظة وآية دالة على قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام، وعلى إنجاء عباد الله المؤمنين وإهلاك الكافرين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ولم يؤمن أكثر من بقي في مصر من القبط، وكذلك لم يؤمن أكثر بني إسرائيل، فإن هذه المعجزة تحمل على الإيمان، ومع ذلك كذب بنو إسرائيل، واتخذوا العجل إلهاً، وقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.

وفي هذا تسرية أو إيناس للرسول ﷺ عما أغمه وأحزنه من تكذيب قومه، مع قيام الأدلة والمعجزات على الإيمان بالله والرسل.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ أي وإن الله تعالى لهو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه المؤمنين. وهذا بشارة بالنصر للنبي ﷺ في المستقبل القريب.

فقه الحياة أو الأحكام:

في هذا الفصل الخامس والأخير من قصة موسى وفرعون حسم الموقف حسماً يظهر قدرة الله تعالى في أحلك الساعات وأشد الأزمات، ويبين مدى ضعف الاعتماد على القوة البشرية الظالمة في مواجهة قدرة الله تعالى واختراعه، أما عصا موسى فمجرد ضربها ليس بفارق للبحر إلا بما اقترن به من إظهار القدرة الإلهية، وهذا ما يجب التبصر به بالنسبة إلى الكافرين غير المؤمنين الهازئين بتأثير العصا في فلق البحر اثني عشر طريقاً يَبَساً.

ومن حكمته تعالى أن يستدرج الظالمين إلى الهاوية والهلاك، فيغرقهم جميعاً ليكون عبرة للمعتبر، وأن يقود جيش الإيمان بقيادة نبيهم إلى ساحل النجاة، ليظهر فضله، وتمام نعمته عليهم، وكان بإمكان الله تعالى أن يهلك فرعون وجنوده في قلب مملكته وفي أرض دولته.

وإظهاراً لتلك الحكمة وسنته تعالى في عباده لإنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، أمر موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى، وأوحى إليه أن فرعون وجنوده سيتبعونهم ليردوهم إلى بلاد مصر، لإبقائهم عبيداً أرقاء.

فجمَّع فرعون عساكره، وأعد جيشه في اليوم التالي لمسيرة موسى ببني إسرائيل ليلاً، مستنفراً القوى العسكرية بأن هؤلاء طائفة قليلة حقيرة، وأنهم أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها كما تقدم بيانه، وأننا مجتمع أخذنا حذرنا وأسلحتنا.

وكان هذا الاستنفار تجريداً لهم من أرض مصر وما فيها من أشجار وأنهار ومنازل عالية، وجعل ممتلكاتهم إرثاً مشروعاً لبني إسرائيل الذين كانوا عبيداً أذلاء مستضعفين في مصر. قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه. وقيل: أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى. قال القرطبي: وكلا الأمرين حصل لهم، والحمد لله، أي فقد عادوا إلى مصر وأصبحوا قادتها وسادتها وملاكها.

وتبع فرعون وقومه بني إسرائيل حين أشرقت الشمس. وكان سبب تأخر فرعون وقومه إما اشتغالهم بدفن أولادهم الأبكار الذين ماتوا في تلك الليلة بسبب وباء وقع فيهم، وإما لأن سحابة أظلتهم وظلمة أعاقتهم، فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا.

فلما تقابل الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه، خاف أصحاب موسى، وقالوا: لقد قرب منا العدو ولا طاقة لنا به، فالعدو وراءنا والبحر أمامنا، وساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فردّ عليهم قولهم وزجرهم وذكَّرهم وعد الله سبحانه بالهداية والظفر، قائلاً لهم:

﴿كَلَّآ﴾ لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي معي بالنصر على العدو، وسيدلني على طريق النجاة.

فلما عظم البلاء واشتدّ خوف بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ لأنه تعالى أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة في الظاهر بفعل يفعله، وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه، وجعل هذا من معجزات موسى عليه السلام.

ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالجبل العظيم، وكأنه جُمِّد، فصار البحر طريقاً يَبَساً بتأثير رياح لفحتها وجففتها وجعلتها كوجه الأرض، كما قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٢٠/٧٧].

وقرَّب الله فرعون وقومه إلى البحر، والغيظ يملأ نفوسهم، ونار الحقد تغلي في قلوبهم كالمراجل، وأنجى موسى ومن معه أجمعين، ثم لما صار الآخرون في وسط البحر أطبقه عليهم وأغرقهم جميعاً.

إنها آية وأي آية! عظة للمتعظ وعبرة للمعتبر المتأمل، حقاً، إن الذي حدث في البحر آية عجيبة من آيات الله العظام الدالة على قدرته، وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له، وعلى اعتبار المعتبرين به أبداً.

وفي هذا تحذير شديد من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى، وأمر رسوله، ويكون فيه اعتبار وتسلية لمحمد ﷺ الذي كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات، فلا تعجب يا محمد من تكذيب أكثر قومك لك، واصبر على إيذائهم، فلعلهم أن يصلحوا، لذا قال تعالى عقيب ذلك:

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ سواء من قوم فرعون أو من قوم موسى، فإنه لم

يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل، وابنته آسية امرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام. وأما قوم موسى فبعد أن نجوا، عبدوا العجل، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٥٥] .

القصة الثانية

قصة إبراهيم عليه السلام

- ١ -

التنديد بعبادة الأصنام وبيان صفات الرّب المستحق للعبادة

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

القراءات:

﴿عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (عدوٌّ ليَ إلا).

الإعراب:

﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من قوله ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾

﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ فيه مضاف محذوف، أي هل يسمعون دعاءكم إذ تدعون.

﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ ﴿عَدُوّٞ﴾: اسم مفرد يؤدي معنى الجمع. و﴿رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: منصوب على الاستثناء المنقطع؛ لأنه سبحانه ليس من أعداء إبراهيم.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ ﴿ٱلَّذِي﴾ مبتدأ، و﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ خبره، والفاء للسببية.

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩﴾ عطف على ﴿ٱلَّذِي﴾ المتقدم، وخبره محذوف. وتقديره: والذي هو يطعمني ويسقيني، فهو يهدين. وكذلك كل ما جاء بعدها من ﴿ٱلَّذِي﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي﴾ خبره: «فهو يهدين» مقدراً.

البلاغة:

﴿يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ بينهما طباق، وكذلك بين ﴿يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾.

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ أسند المرض لنفسه مراعاة للأدب تأدباً مع الله؛ لأن الشر لا ينسب إليه تعالى أدباً، وإن كان المرض والشفاء كلاهما من الله، فلم يقل: أمرضني.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ على مشركي العرب ومنهم كفار مكة وأمثالهم .﴿نَبَأَ﴾ خبراً مهماً .﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾؟ سألهم ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة. ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا﴾ صرحوا بالفعل .﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي: ندوم مقيمين على عبادتها، وزادوا هذا الجواب على قولهم: ﴿نَعۡبُدُ﴾ تبجحاً وافتخاراً به،

وإظهاراً لما في نفوسهم من الابتهاج. ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ حين تدعون. ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ حين تعبدونهم. ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي يضرونكم إن لم تعبدوهم. ومجيئه مضارعاً مع ﴿إِذْ﴾ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها. ﴿كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مثل فعلنا، لم يجدوا جواباً إلا التمسك بالتقليد. ﴿وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ التقدم لا يدل على الصحة، ولا ينقلب به الباطل حقاً.

﴿عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ لا أعبدهم، والمراد أنهم أعداء لعابديهم؛ لأنهم يتضررون من جهتهم، لكنه صوَّر الأمر في نفسه تعريضاً لهم، فإنه أنفع في النصح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه، ليكون أدعى إلى القبول. وإفراد لفظ (العدو) لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسب أي عدوي، أجراه على النسب. ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لكن ربّ العالمين فإني أعبده، استثناء منقطع.

﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى الدين؛ لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد، هداية مطردة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله، يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضارّ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ٣] وتبدأ الهداية في الإنسان من وقت هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من الرحم، وتنتهي إلى طريق الجنة والتنعم بلذائذها. ﴿أَطْمَعُ﴾ أرجو. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ الجزاء.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى في أول السورة شدة حزن محمد ﷺ بسبب كفر قومه، ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة حصلت لموسى فيكون ذلك تسلية له، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضاً أن حزن إبراهيم كان أشد من حزنه؛ لأنه يرى أباه وقومه في النار، وهو لا يتمكن من إنقاذهم، وكل ذلك إشارة إلى أن معارضة الرسل من أقوامهم أمر قديم ومستمر، فلا داعي للغم والحزن.

التفسير والبيان:

هذا هو الفصل الأول من قصة إبراهيم إمام الحنفاء عليه السلام مع قومه، موضوعه الإنكار على قومه عبادة الأصنام مع الله عزّ وجلّ، وتبيان صفات الربّ الذي يجب أن يعبد، فقال تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي واتل يا محمد على أمتك خبر إبراهيم عليه السلام، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل على الله، وعبادته وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من صغره إلى كبره، ولما شبَّ أنكر على قومه عبادة الأصنام، وقال لأبيه وقومه: ما الذي تعبدونه؟ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ليلفت نظرهم إلى أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة في شرع ولا عقل.

فأجابوه مقرين بعبادة الأصنام، ومظهرين لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بها: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي قال قوم إبراهيم: نعبد هذه الأصنام، وندوم مقيمين على عبادتها في الليل والنهار.

فناقشهم في جدوى تلك العبادة متعجباً من فعلهم:

﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾؟ أي قال إبراهيم: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم، وهل يجلبون لكم نفعاً أو يدفعون عنكم ضرراً؟ إذ ما الفائدة من عبادة لا هدف لها؟ فهل تفكرون قليلاً، وتتأملون كثيراً فيما تفعلون؟ وكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه؟

﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ لم يجدوا جواباً مقنعاً يرد حجة إبراهيم إلا التمسك بالتقليد الأعمى للآباء والأجداد، وليس لهم حجة مقبولة لتسويغ عبادتها وتقديسها. وهذا من أقوى الأدلة على فساد التقليد في

العقائد ووجوب الاعتماد على الاستدلال العقلي المقنع؛ لأن الله أورد ذلك ذماً لطريقة الكفار وإنكاراً لمنهجهم.

فتقوّى إبراهيم في تقريعهم وتوبيخهم وتحديهم، فسألهم:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧)﴾ أخبروني عن حال ما تعبدونه، أنتم وآباؤكم وأجدادكم الغابرون من قديم الزمان إلى الآن، هل حققت هذه العبادة شيئاً، وهل استحقت تلك الأصنام الجمادات التي لا تسمع ولا تنطق عبادة العابدين؟ فإن كان لهذه الأصنام تأثير، فلتجلب إلي الإساءة والأذى، فإني عدو لها لا أعبدها، ولا أبالي بها، ولا أفكر فيها. وهذا استهزاء منه بعبدة الأصنام، وتحدٍ صارخ لصحة ما يعبدون.

لكن ربّ العالمين الذي خلقني ورزقني، وهو وليي في الدنيا والآخرة هو الذي أعبده وأنحني إجلالاً لعظمته وعزته، فعبادتي للأصنام عبادة للعدو، لذا اجتنبتها، وآثرت عبادة من بيده الخير كله. وهذا نصيحة لنفسه، فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه.

وهذا نظير قول نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ١٠/ ٧١] وقول هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ، مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ١١/ ٥٤-٥٦].

ثم أكد إبراهيم أنه لا يعبد إلا المتصف بهذه الأوصاف الخمسة وهي:

أ - ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ أي هو الخالق المبدع الموجد الذي خلقني وغيري من المخلوقات، وهو الذي يهديني دائماً لما فيه الخير في الدنيا

والآخرة، كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٨٧/ ٢-٣] أي الخالق الذي قدر قدراً، وسوى المخلوق في أحسن تقويم، وهدى الخلائق إليه، فكلٌّ يجري على ما قدر له، فبالخلق والهداية يحصل جميع المنافع لكل منتفع.

٢ - ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾ أي هو خالقي ورازقي بما يسَّر من الأسباب السماوية والأرضية، فأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من الثمرات المختلفة رزقاً للعباد، وأوجد الأنعام وغيرها، فوفر للإنسان الطعام والشراب وغيرهما من كل ما يتصل بالرزق.

٣ - ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ أي وإذا طرأ علي مرض، فهو تعالى الذي ينعم علي بالشفاء منه. ويلاحظ أنه نسب المرض إلى نفسه ولم يقل: أمرضني، تأدباً مع الله، وإن كان المرض والشفاء من الله عزّ وجلّ جميعاً، وكلاهما يحدث بقدر الله وقضائه، كما قال تعالى آمراً المصلي أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ١/ ٦] ثم قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ١/ ٧] أسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى، وحذف فاعل الغضب أدباً وأسند الضلال إلى البشر، وكما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٣] ، وكما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ٧٢/ ١٠] . وهنا أضاف إبراهيم المرض إليه، أي إذا وقعتُ في مرض، فإنه لا يقدر على شفائي أحد غير الله بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه.

٤ - ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾ أي وهو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد، والمراد منه الإماتة في الدنيا، والإعادة والبعث في الآخرة، بدليل عطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾.

٥ - ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ أي وهو الذي

أرجو أن يستر ذنبي يوم القيامة، فإنه لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، كما قال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٥] . وإنما قال ﴿أَطْمَعُ﴾ مع أنه ﷺ كان قاطعاً بذلك؛ لأنه لا يجب على الله لأحد شيء، فاستعمال الرجاء والظن للدلالة على أن الثواب ورفع العذاب فضل من الله ونعمة.

وأسند إلى نفسه الخطيئة، مع أن الأنبياء منزهون عن الخطايا قطعاً، مريداً بذلك تسمية ما صدر عنه من عمل هو خلاف الأولى خطيئة، استعظاماً له. وعلَّق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، وإنما تغفر في الدنيا؛ لأن أثرها يظهر يوم الدين.

وقال: ﴿لِيٓ﴾ في قوله: ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي﴾ لبيان أن غفرانه لي ولأجلي، لا لأجل أمر عائد إليه البتة. والخلاصة: إن هذا مَن إبراهيم عليه السلام إظهار للعبودية، وإن كان يعلم أنه مغفور له.

جاء في صحيح مسلم عن عائشة: «قلت: يا رسول الله، ابن جُدْعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذلك نافعُه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

ويوم الدين: هو يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام هنا كان لتنبيه المشركين على فرط جهلهم إذا رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه، وهو أبوهم، وليُسرَّى[1] عن النبي ﷺ مما وقع فيه من هم وغم وحزن لإعراض قومه عن الإيمان برسالته.

(١) سُرِّي عنه، وانسرى عنه الهم: انكشف.

وتتضمن القصة نقاشاً حاداً بين سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وبين أبيه وقومه في فائدة عبادة الأصنام، حرصاً على عدم إضاعة جهودهم سدى، فإن العبادة تكون عادة لفائدة، ويدرك كل عاقل أن هذه الأصنام الجمادات لا تأتي بخير أو رزق، ولا تملك لأحد خيراً، كما لا تدفع عنه ضراً إن عصيت، فإذا لم ينفعوكم أيها الوثنيون ولم يضروا، فما معنى عبادتكم لها؟

ولما وجدوا هذه الحجة مقنعة وقاطعة في الإفهام وإثبات المراد، لجؤوا إلى التمسك بالتقليد للآباء والأجداد من غير حجة ولا دليل. وفي هذا دلالة كافية على ذم التقليد وفساده في شأن العقائد، وأنه لا بد في تكوينه وإثباته من الاعتماد على الدليل المقنع المنطقي.

فأكد إبراهيم الخليل قوله السابق، وأفهم هؤلاء القوم الجهلة بأن عبادة هذه الأصنام ضرر محض لعابديها، وأنه لا تنبغي العبادة إلا لله ربّ العالمين من الإنس والجن والملائكة، فمن عبده انتفع ودفع الضرر عن نفسه في الدنيا والآخرة، ومن أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى.

ثم إن صفات هذا المعبود بحق تستوجب عبادته والتقرب إليه، فهو الخالق الهادي المرشد إلى الدين الحق، وهو الذي يرزق الطعام والشراب وغيرهما من المنافع، لا غيره، وهو الشافي المعافي، وهو المميت والمحيي، أي الموجد من العدم، ثم المفني، ثم الباعث البعث، وهو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، الفعال لما يشاء.

- ٢ -

دعاء إبراهيم عليه السلام دعاء المخلصين الأوّابين

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

القراءات:

﴿لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ﴾:

وقرأ نافع (لأبيَ إنه).

البلاغة:

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ استعارة، استعار اللسان للذِكْر الجميل والثناء الحسن.

المفردات اللغوية:

﴿حُكْمًا﴾ فهماً وعلماً بالخير وعملاً به ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح وهم الأنبياء، والمراد: وفقني للأعمال التي تجعلني في زمرة الصالحين البعيدين عن صغائر الذنوب وكبائرها .﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثناء حسناً وصيتاً طيباً في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين، بتوفيقي للعمل الصالح، حتى يقتدي بي الناس .﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة.

﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في الآخرة، أي ممن يعطاها ويتمتعون بها، كما

يتمتع الناس بميراث الدنيا. ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ بأن توفقه للهداية والإيمان وتتوب عليه، فتغفر له؛ لأن المغفرة مشروطة بالإسلام، فهذا دعاء لأبيه بالإسلام. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ طريق الحق أي المشركين. وهذا قبل أن يتبين له أنه عدو لله. ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ لا تهنّي، من الخزي: وهو الهوان، أو من الخزاية وهي الحياء. ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي الناس، فالضمير للعباد؛ لأنهم معلومون أو للضالين. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي مخلصاً سليم القلب من الكفر والنفاق وميل للمعاصي، وهو قلب المؤمنين.

المناسبة:

بعد أن أثنى إبراهيم عليه السلام على ربه وعظم شأنه، وعدَّد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، أتبع ذلك بالدعاء بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوَّابين، وهذا على ما هو مطلوب من تقديم الثناء على الدعاء.

التفسير والبيان:

سأل إبراهيم الخليل ربّه أموراً في هذه الدعوات تجعله من الأخيار المصطفين، للتعليم والاقتداء به، وتلك الأمور هي:

١ - ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي امنحني يا رب علماً وفهماً ومعرفة تُنير بها قلبي للتعرف على صفاتك، وإدراك الحق والصواب لأعمل به.

٢ - ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وفقني لطاعتك، لأنتظم في زمرة الكاملين في الصلاح المنزهين عن الذنوب كلها صغيرها وكبيرها، واجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى» قالها ثلاثاً. وقال ﷺ في دعائه: «اللهم أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبدِّلين».

وقد أجاب الله دعاء إبراهيم كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٧].

٣ - ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي واجعل لي ذِكْراً جميلاً بعدي، أُذكر به في الدنيا، بتوفيقي للعمل الصالح، فيقتدى بي في الخير. فأجاب الله دعاءه كما قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٨-١١٠].

قال مجاهد وقتادة: اللسان الصدق: يعني الثناء الحسن.

وقد اتفقت الملل على محبة إبراهيم عليه السلام وجعله قدوة في الدين.

وبعد أن طلب سعادة الدنيا، طلب ثواب الآخرة، فقال:

٤ - ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أي واجعلني من أهل الجنة الذين يتمتعون بخيراتها ونعيمها، كما يتمتع الوارث بإرث غيره في الدنيا.

وبعد أن طلب لنفسه السعادة الدنيوية والأخروية طلبها لأبيه وليّ نعمته وسبب وجوده، فقال:

٥ - ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ كما قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤١] أي اغفر له ذنوبه ووفقه للتوبة والإسلام، فإنه ضالّ عن طريق الهدى والحق، أي إنه مشرك. وهذا وفاء بما وعده من قبل، وقبل أن يتبين أنه عدو لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١٤].

ثم طلب الستر التام في الآخرة فقال:

٦ - ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي لا تفضحني بعتاب على ما فرطت،

أو بنقص منزلة عن وارث، وأجرني من الخزي والهوان يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم. وهذا مبالغة منه ﷺ في تحري الكمال والسلامة والنجاة، في يوم شديد الأهوال، وصفه فقال:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي ذلك اليوم الذي لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ولا أولاده ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً، وإنما ينفع يومئذ الإيمان بالله تعالى، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك وأهله. فالمراد بالقلب السليم: هو الخالي من العقائد الفاسدة والأخلاق المرذولة والميل إلى المعاصي، وعلى رأسها الكفر والشرك والنفاق، وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: القلب السليم: هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠] .

فقه الحياة أو الأحكام:

جمع إبراهيم الخليل عليه السلام في دعائه هذا خيري الدنيا والآخرة، فطلب أن يؤتيه الله علماً وفهماً ومعرفة بالله عز وجل وبحدوده وأحكامه. ثم طلب أن يخلد ذكره الجميل في الدنيا، ويمنح الثناء الحسن بالتوفيق لصالح العمل، وقال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه، ثم سأل الله أن يكون من أهل الجنة الذين يتمتعون بنعيمها.

روى أشهب عن مالك قال: قال الله عز وجل ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾: لا بأس أن يحبَّ الرجل أن يُثنى عليه صالحاً، ويرى في عمل الصالحين إذا قصد به وجه الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٢٠/ ٣٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٦] أي حباً في قلوب عباده، وثناء حسناً. فنبه تعالى بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٤] على استحباب اكتساب ما يورث الذكْر الجميل، فهو الحياة الثانية.

وفي هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن، قال النبي ﷺ - فيما يرويه مسلم والبخاري في الأدب وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن أبي هريرة -: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له».

ثم سأل الله تعالى أن يوفق أباه، ويهديه للإسلام والإيمان، ويخرجه من الشرك، لأن أباه وعده في الظاهر أن يؤمن به، فاستغفر له لهذا، فلما بان أنه لا يفي بما قال، تبرأ منه.

وختم إبراهيم دعاءه بالستر التام والسلامة والنجاة فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد، أو لا تعذبني يوم القيامة. ثبت في البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة، عليه الغبرة والقَتَرة» والغبرة هي القترة. وفي البخاري أيضاً عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا ربّ، إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين».

ووصف إبراهيم يوم القيامة بأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون أحداً، ولكن ينفع القلب السليم وهو الخالص من الشك والشرك. أما الذنوب فلا يسلم منها أحد، وهذا رأي أكثر المفسرين.

وخص القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت الجوارح.

ومن المعلوم أن ذكر الله تعالى على الدوام من أهم حالات وأسباب ترويض القلوب على السلامة والخلوص من الأوصاف الذميمة، والاتصاف بالأوصاف الجميلة، جاء في الأثر أو الحديث القدسي عن الله تعالى فيما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري: «من شَغَله القرآن عن مسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السائلين». وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن ثوبان

قال: لما نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ الآية، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ، لو علمنا أيُّ المال خير اتخذناه، فقال رسول الله ﷺ: «أفضله لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه».

والخلاصة: إن هذه الأدعية من أبي الأنبياء وإمام الحنفاء تهدف إلى التوجيه والتعليم والاتِّباع والالتزام، فما علينا إلا تردادها والعمل بها.

- ٣ -

أوصاف يوم القيامة وثواب الله وعقابه وندم المشركين على ضلالهم

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

القراءات:

﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿أَجۡمَعُونَ﴾ إما تأكيد للجنود إن جعل مبتدأ، وخبره ما بعده، وإما تأكيد للضمير ﴿هُمۡ﴾ وما عطف عليه.

﴿تَاللَّهِ إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي إنه.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: فتح ﴿أَنَّ﴾ لوقوعها بعد (لو) وإنما فتحت بعد (لو) لأنها لا يقع بعدها إلا الفعل، وهو فعل لا يجوز إظهاره، وتقديره: لو وقع أن لنا كرة. و(نكونَ): منصوب على جواب التمني بالفاء بتقدير «أن» لأن «لو» في معنى التمني.

البلاغة:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ و﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ بينهما مقابلة.

(المتقين) (الغاوين) ﴿مُّبِينٍ﴾ ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ﴿شَافِعِينَ﴾ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ سجع ومراعاة للفواصل أواخر الآيات.

﴿تَعْبُدُونَ﴾ ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ (الغاوون) ﴿أَجْمَعُونَ﴾ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ سجع ومراعاة فواصل أيضاً.

المفردات اللغوية:

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قرّبت ليدخلوها بحيث يرونها من الموقف. ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أظهرت وجعلت بارزة لهم بحيث يرون أهوالها. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الكافرين الضالين عن طريق الحق. ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قيل لهم على سبيل التوبيخ: أين آلهتكم الذين تزعمون أنهم شفعاؤكم من غير الله من الأصنام. ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم. ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم؛ لأنهم وآلهتهم يدخلون النار، كما قال: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾ ألقوا فيها على وجوههم، الآلهة وعبدتها. ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أتباعه ومطيعوه من عصاة الثقلين: الجن والإنس. ﴿مُّبِينٍ﴾ بيِّن. ﴿قَالُوا﴾ أي الغاوون. ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يتخاصمون مع معبوديهم، على أساس أن الله يُنطق الأصنام، فتخاصم العبدة، ويؤيده الخطاب في قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾

أي نجعلكم مساوين له في استحقاق العبادة. قال البيضاوي: ويجوز أن تكون الضمائر للعبدة، كما في ﴿قَالُوا۟﴾ والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة، والمعنى: أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة، متحسرون عليها. ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ عن الهدى. ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الشياطين أو آباؤنا الذين اقتدينا بهم .﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء.

﴿صَدِيقٍ﴾ صادق في وده. ﴿حَمِيمٍ﴾ يهمه أمرنا. وجمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، أو لإطلاق الصديق على الجمع كالعدو؛ لأنه في الأصل مصدر كالحنين والصهيل .﴿كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا وقوله: ﴿فَلَوْ﴾ للتمني، أقيم مقام «ليت» لتلاقيهما في معنى التقدير، و(نكون): جواب التمني .﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ فيما ذكر من قصة إبراهيم ﴿لَءَايَةً﴾ لحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر .﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر قومه ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ به. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا، هم أو أحد من ذريتهم.

المناسبة:

بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام بدعوات المخلصين الأوابين، وختمها بألا يخزيه الله يوم البعث، وصف يوم القيامة، وما فيه من ثواب وعقاب، وندم المشركين وحسرتهم على ما كانوا فيه من الضلال، وتمني الكرَّة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

التفسير والبيان:

وصف إبراهيم عليه السلام يوم القيامة بثلاثة أوصاف هي:

أ - ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي إن ذلك

اليوم هو اليوم الذي قُرِّبت وأدنيت فيه الجنة للمتقين السعداء، ينظرون إليها، ويدخلونها، تعجيلاً للبشارة والمسرَّة بما عملوا في الدنيا من صالحات الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٣١].

وهو اليوم الذي أظهرت فيه النار وجعلت بارزة مكشوفة للضالين عن الحق الكافرين الأشقياء، بحيث يرونها، ويعلمون أنهم مواقعوها، تعجيلاً للغم والحسرة على شقاوتهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٤] وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٧].

ثم يسأل أهل النار تقريعاً وتوبيخاً، فيقال لهم:

٢ - ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾؟ أي أين آلهتكم التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد، هل ينفعونكم بنصرتهم لكم ويمنعونكم من العذاب، وهل ينفعون أنفسهم بانتصارهم ودفع العذاب عنهم؟ لا يحصل كلا الأمرين، فإنهم وآلهتهم وقود النار، وحصب جهنم، هم لها واردون، كما قال:

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي فَدُهْوِروا فيها، أي الآلهة غير المؤمنة وعبدتهم، والقادة وأتباعهم يلقون فيها إلقاء مكرراً، بعضهم على بعض، كما يُلقى معهم مُتَّبعو إبليس من عصاة الإنس والجن أجمعين، أولهم وآخرهم. وتقديم إلقاء الآلهة ليشاهد الغاوون سوء حالهم، وييأسوا من النجاة.

٣ - ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي قال أهل الغواية، وهم في حال الغيظ الشديد من المخاصمة والمحاجة بينهم وبين الآلهة المعبودة والشياطين الداعية لتلك

العبادة: والله لقد كنا في ضلال عن الحق واضح بيِّن حين نجعلكم أيها الأصنام والأحجار والملائكة وبعض البشر متساوين في استحقاق العبادة وإطاعة الأمر مع رب العالمين من الإنس والجن: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٦٤] . وهذا خطاب في الحقيقة بدليل قولهم:

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي والحق أنه ما دعانا إلى ذلك الخطأ العظيم إلا المجرمون من الشياطين والقادة والرؤساء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٧] . وقد أفلسنا اليوم من وعودهم الكاذبة والآمال المعقودة كما قال:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي فليس لنا اليوم شفيع يشفع، ولا صديق ودود قريب يهمه أمرنا، من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس يعدونهم بالنجاة والإنقاذ، كما قال تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٣] وقال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٦٧] .

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي ليت لنا رجعة إلى الدنيا، فنؤمن بالله ربنا وحده لاشريك له، ونؤمن برسله الكرام، ونعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، ولكن ذلك كذب ومراوغة، كما أخبر تعالى عنهم بخلاف ذلك، ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٨] وقال سبحانه أيضاً: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧٥] .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي إنّ في ذلك المذكور من قصة إبراهيم، ومحاجته لقومه، وإقامة الحجج عليهم في التوحيد، وتغلبه

عليهم، وفي مخاصمة أهل النار، لعظة وعبرة، ودلالة واضحة جلية على أن: لا إله إلا الله، وألا معبود سواه، ولا رب غيره، وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين بالله وبرسوله.

وفي هذا إيناس لرسول الله ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه وإعراضهم عن دعوته، مع إقامة الأدلة، وظهور المعجزات.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ أي وإن ربك الذي أحسن إليهم بإرسالك لهم لهدايتهم، لقادر على الانتقام منهم، ورحيم بهم إذ لم يعجل إهلاكهم، ورحيم بالمؤمنين الطائعين.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات الكريمة تصوير تام شامل لليوم الآخر، ووصف موجز ليوم القيامة بما فيه من ثواب المتقين وعقاب العصاة الكافرين، وندم المشركين على ضلالهم في الدنيا.

وهو تصوير محبَّب، ووصف جذاب يأخذ بمجامع القلوب، فالجنة تُقرَّب وتُدنى للمتقين فتتعلق بها نفوسهم ويأخذهم الفرح والحبور، وتعمهم الغبطة، وجهنم تبرز وتكشف للكافرين الذين ضلوا عن الهدى، وتظهر لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن، فيبدو منها عنق، فإذا زفرت زفرة بلغت القلوب منها الحناجر، كما يستشعر أهل الجنة الفرح، لعلمهم أنهم يدخلون الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا.

ويقال لأهل جهنم تقريعاً وتوبيخاً: أين آلهتكم من الأصنام والأنداد التي كنتم تعبدونها من دون الله، هل ينصرونكم وينجونكم من عذاب الله، وهل ينتصرون لأنفسهم؟!

إنهم يقلبون على رؤوسهم، ويُدَهْوَرُون في النار، ويلقى بعضهم على

بعض، الآلهة المعبودة وعابدوها وجنود إبليس أجمعون، وهم من كان من ذريته، وكل من دعاه إلى عبادة الأصنام ونحوها فاتّبعه.

حينئذ لا يجد هؤلاء الكفرة مناصاً من الإقرار بكفرهم، ويقول الإنس والشياطين والغاوون والمعبودون المتخاصمون في جهنم: والله إننا كنا في ضلال مبين، أي في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة، إذ اتخذنا مع الله آلهة، فعبدناها كما يُعبد الإله الحق، ونجعلها مساوية في العبادة لرب العالمين، وهذه الآلهة لا يستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسهم، ولقد أضلنا الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام، أو أسلافنا الذين قلدناهم، قال أبو العالية وعكرمة: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: إبليس وابن آدم القاتل: هما أوّل من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي.

فليس لنا شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين، ولا صديق مشفق علينا. قال الزمخشري رحمه الله: وجمع الشافع لكثرة الشافعين، ووحّد الصديق لقلته، أي إن الشفعاء يكثرون عادة عند المحنة، وإن لم يكن هناك سبق معرفة، وأما الصديق المخلص في وداده فقليل نادر.

ويتمنون الأماني حين لا ينفعهم التمني، ويقولون: ولو حدث لنا رجوع إلى الدنيا، لآمنا حتى يكون لنا شفعاء. يقولون ذلك حين تشفع الملائكة والمؤمنون. قال جابر بن عبد الله، قال النبي ﷺ: «إن الرجل ليقول في الجنة: ما فعل فلان وصديقه في الجحيم؟ فلا يزال يشفع له حتى يشفّعه الله فيه، فإذا نجا قال المشركون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾». وقال الحسن البصري: ما اجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبد من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض، وهم عند الله شافعون مشفَّعون.

وختمت الآيات ببيان العبرة والعظة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا

كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ أي إن في المذكور من قصة إبراهيم واختصام أهل النار وحسرتهم على ضلالهم لعبرة وعظة مؤثرة، ولم يكن أكثر قوم إبراهيم، بل ولا أكثر الناس بمؤمنين بالله ورسله، ولكن الله هو المنتقم الجبار الذي ينتقم من المعاندين الكفرة، الرحيم بالناس إذ لم يعجل لهم الانتقام، وإنما أمهلهم لعلهم يعودون إلى دائرة الحق والإيمان والتوبة.

القصة الثالثة

قصة نوح عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿أَجْرِيَ إِلَّا﴾:

قرئ:

١- (أجريَ إلا) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص.

٢- (أجريْ إلا) وهي قراءة الباقين.

﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ﴾:

قرئ:

١- (ومن معيَ مِن) وهي قراءة ورش، وحفص.

٢- (ومَن معيْ مِن) وهي قراءة الباقين.

البلاغة:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ في قوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: مجاز مرسل، من قبيل إطلاق الكل وإرادة بعضه، فإنه أراد بالمرسلين نوحاً، وذكره بصيغة الجمع تعظيماً له، وتنبيهاً على أن من كذب رسولاً، فقد كذب جميع المرسلين.

﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ استعارة تبعية، استعار المفتاح للحاكم، والفتح للحكم؛ لأنه يفتح المنغلق من الأمر، والمعنى: احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل.

المفردات اللغوية:

﴿قَوْمُ﴾ اسم لا واحد له من لفظه، كرهط ونفر، يذكر ويؤنث، وتذكيره باعتبار لفظه، وتأنيثه باعتبار معناه ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ المراد به نوح عليه السلام، عبر عنه بصيغة الجمع تعظيماً له، ولأن من كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين، لاشتراكهم برسالة التوحيد، أو لأنه لطول لبثه فيهم كأنه رسل. ﴿أَخُوهُمْ﴾ أي أُخوة نسب أو جنس لا أخوة دين؛ لأنه كان منهم. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، فتتركوا عبادة غيره .﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيكم، وأمين على تبليغ ما أرسلت به.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ فيما آمركم به من توحيد الله وإطاعته. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغه. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما ثوابي إلا على الله. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ كرره للتأكيد. ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أنصدق لقولك. ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ وفي قراءة: وأتباعك. ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ السفلة، الأقلون جاهاً ومالاً، كأهل الحرف والمهن الوضيعة من الحاكة والأساكفة ونحوهم، جمع أرذل، والرذالة: الخسة والدناءة. وهذا من سخافة عقولهم وقصور نظرهم على المادة وحطام الدنيا، وإشارة إلى أن اتّباعهم ليس عن نظر وبصيرة، وإنما هو لتوقع مال ورفعة، لذلك قال: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا علم لي بأنهم عملوه إخلاصاً، أو طمعاً في شيء، وما علي إلا اعتبار الظاهر.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي ما حسابهم على بواطنهم إلا على الله، فإنه المطلع عليها، لو تعلمون ذلك، ولكنكم تجهلون، فتقولون ما لا تعلمون. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي ما أنا إلا بيِّن الإنذار، وهذا كالعلة لما سبق، فما أنا إلا رجل مبعوث لإنذار المكلفين عن الكفر والمعاصي، سواء كانوا أعزاء أو أذلاء، فكيف يليق بي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟!

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ عما تقول لنا. ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ المقتولين أو المضروبين بالحجارة، أو من المشتومين. ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ قال نوح ذلك، إظهاراً لسبب الدعاء عليهم وهو تكذيب الحق. ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي فاحكم بيني وبينهم حكماً. ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي نجني من شؤم عملهم. ﴿الْفُلْكِ﴾ يطلق على الواحد والجمع. ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء بالناس والحيوان. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجائهم. ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه. ﴿لَآيَةً﴾ عبرة شاعت وتواترت.

المناسبة:

لما قص الله تعالى على نبيه محمد ﷺ قصة موسى وإبراهيم، أتبعه بذكر قصة

أبي البشر الثاني نوح عليه السلام، ثم خبر هود، وصالح، ولوط، وشعيب فيما يأتي بعد، والهدف من كل ذلك واحد، وهو إيناس رسوله فيما يلقاه من قومه، وبيان لسنة الله في عقاب المكذبين، فإن أقوام هؤلاء جميعاً كذبوا رسلهم، فعوقبوا، وقومك يا محمد كمن سبقهم، فلا تجزع ولا تحزن ولا تغتم. وقد تقدم تفصيل نبأ نوح في سورتي الأعراف وهود.

التفسير والبيان:

هذا قصص نوح عليه السلام مع قومه، فهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد أن عبدت الأصنام والأنداد، فنهاهم عن ذلك وحذرهم من وبيل عقاب ربهم، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين، فكذبه قومه، واستمروا على ما هم عليه من الوثنية، ونزَّل الله تكذيبهم له منزلة تكذيب جميع المرسلين، فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي كذب قوم نوح رسل الله أي نوحاً نفسه فيما جاءهم به من الهداية لتوحيد الله وإنهاء عبادة الأصنام، حين قال لهم نوح أخوهم: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ألا تحذرون عقابه على كفركم به؟

وجعل تكذيب نوح تكذيباً للرسل جميعاً؛ لأن من كذب رسولاً، فقد كذب جميع الرسل. وإنما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ لأن القوم مؤنث، وتصغيرها قويمة. وقال: ﴿أَخُوهُمْ﴾ لأنه كان منهم، كما تقول العرب: يا أخا بني تميم، أي يا واحداً منهم.

وبعد أن خوفهم نوح من سوء فعلهم، وصف نفسه بأمرين:

الأول - ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ أي إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالات ربي، دون زيادة ولا نقص.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ أي خافوا عذاب الله، وأطيعوني فيما آمركم به من توحيد الله وعبادته وطاعته. وإنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بطاعته؛ لأن تقوى الله علة لطاعته، وهي أساس الطاعة ومبعثها، فلولا الخوف من الله تعالى ما أطاعه الناس.

الثاني - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله تعالى.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ أي فقد وضح لكم صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به، وائتمنني عليه. وكرر ذلك للتأكيد عليهم، وتقريره في نفوسهم؛ لأن التقوى والطاعة أساس الدين، لكن جعل علة الأول كونه أميناً فيما بينهم، وعلة الثاني حسم طمعه عنهم.

ولما لم يجدوا سبيلاً للتخلص من حجته وعدم إمكان الطعن بها، أوردوا شبهة واهية فقالوا: ﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي إنهم قالوا: لا نؤمن لك ولا نتبعك، ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأراذل السفلة في المجتمع، فإنهم أراذلنا، وضعاف الناس، وفقراء القوم، ونحن السادة أهل الجاه والثروة والنفوذ!!

وهذه شبهة في نهاية السقوط والضعف، فإن نوحاً عليه السلام بعث هادياً لجميع الناس، لا فرق بين غني وفقير، ووجيه ووضيع، وحسيب ومغمور، وسيد ومسود، ولا يبحث الرسول عادة عن هويات المؤمنين ومنازلهم، لذا قال:

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي قال نوح: لا علم لي بأعمال هؤلاء وحرفهم ومهنهم، ولا أنقب عنهم أو أبحث أو أفحص أمورهم الداخلية، وإنما ليس لي إلا الظاهر، فأقبل منهم تصديقهم إياي، وأترك سرائرهم إلى الله عز وجل، وحسابهم على ربهم، لا علي، كما قال:

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي إن كان لهم عمل شيء، فما حسابهم علي، وإنما على ربي، فالله محاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر، لا محاسب ولا مجازٍ، لو تشعرون ذلك بأن كنتم ذوي شعور مرهف وحس صادق وعقل واعٍ، ولكنكم تجهلون، فتنساقون مع الجهل حيث سيّركم ووجهكم لما عيّرتموني بصنائعهم.

والقصد من ذلك تبديد شبهتهم، وإنكار تسمية المؤمن رذلاً، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً، فإن الغنى غنى الدين، والنسب نسب التقوى.

ثم ردّ على ما فهم من مطلبهم بإبعاد هؤلاء وطردهم من مجلسه، فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي ليس من شأني ولا من مبدئي ورسالتي طرد هؤلاء الذين آمنوا بربهم واتبعوني وصدقوني، إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني، كان مني وأنا منه، سواء كان شريفاً أو وضيعاً، جليلاً أو حقيراً، وإني أخوّف من كذبني ولم يقبل مني، فمن قبل فهو القريب، ومن رد فهو البعيد.

فلما أفحمهم بجوابه، لم يجدوا بداً من اللجوء إلى التهديد:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ أي قال قوم نوح له: لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك، لنرجمنك بالحجارة. وهذا تخويف منهم بالقتل بالحجارة، فعندئذ دعا عليهم بعد اليأس من إيمانهم دعوة استجاب الله منه، بعد أن أذن له، فقال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ أي قال نوح: يارب، إن قومي كذبوني في دعوتي إياهم إلى الإيمان بك، فاحكم بيني وبينهم حكماً عدلاً تنصر به أهل الحق، وتهلك أهل الباطل والضلال، ونجني من العذاب مع من آمن برسالتي وصدق بدعوتي، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ٥٤/١٠].

ويلاحظ أنه ليس الغرض من هذا إخبار الله تعالى بالتكذيب، لعلمه أن الله عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد أني لا أدعوك عليهم لإيذائي، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك.

والمراد من هذا الحكم في قوله: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ إنزال العقوبة عليهم؛ لأنه قال عقبه: ﴿وَنَجِّنِي﴾.

فأجاب الله دعاءه فقال:

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي أنجينا نوحاً ومن آمن بدعوته، فوحد الله وأطاعه، وهجر عبادة الأصنام، وأنقذناهم بسفينة مملوءة بالناس والأمتعة وأجناس الحيوان. ثم أغرقنا بعد إنجائهم قومه الآخرين الذين بقوا على كفرهم، وخالفوا أمره. روي أن الناجين كانوا ثمانين، أربعين رجلاً وأربعين امرأة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ أي إن في إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين لعبرة وعظة لكل من صدق أو كذب بالرسل، وإن من سنتنا دائماً إنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك الذين كذبوا برسالتهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ أي وإن ربك الله لهو القوي الغالب المنتقم ممن كفر به وخالف أمره، الرحيم بمن أطاعه وأناب إليه وتاب، فلا يعاقبه.

فقه الحياة أو الأحكام:

الوثنية وعبادة الأصنام تقارن عادة وجود الشعوب البدائية، فهي في الغالب عقيدتهم، لذا كان نوح عليه السلام أول رسول للناس بعد ظهور هذه العقيدة. والبدائية والمادية وسخف العقل وسطحية التفكير أمور متلازمة، لذا كان الإصرار على عبادة شيء من دون الله هو الظاهرة الشائعة، وكانت مهمة الأنبياء المتقدمين عسيرة وصعبة.

فهذا نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين يدعوهم إلى توحيد الله والتخلي عن عبادة الأصنام، فكذبوه وآذوه، بالرغم من أنه أكد لهم أنه رسول أمين صادق فيما بلغهم عن الله تعالى، وقد عرفوا أمانته وصدقه من قبل، كمحمد ﷺ في قريش، وبالرغم من تخويفهم من عقاب الله قائلاً لهم مرة: ألا تتقون الله في عبادة الأصنام؟ ومرة: فاتقوا الله وأطيعوني أي استتروا بطاعة الله تعالى من عقابه، وأطيعوني فيما آمركم به من الإيمان، ولا طمع لي في مالكم، وما جزائي إلا على رب العالمين.

ولكن تذرعوا بشبهة واهية للبقاء على عنادهم وكفرهم، ودفعهم الغرور والاستكبار إلى الترفع عن الإيمان بسبب تصديق فئة ضعيفة برسالة نوح، ليسوا من الوجهاء ولا من الأثرياء، وإنما من طبقة المهنيين والحرفيين. وهذا قول الكفرة، فإن تعلم الصناعات مما رغب به الدين، وليست الحرفة عيباً، وإنما هي شرف وعزة، يستغني بها الإنسان عن الآخرين، فلا يفهمن أحد خطأً أن الدين ينتقص من قدر هؤلاء، وإنما الذي انتقصهم هم الأغنياء المترفون.

ويؤكد ذلك جواب نوح عليه السلام لهم وهو: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي إنني لم أكلف العلم بأعمالهم، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان، لا بالحرف والصنائع، وليس للحرفة أو الصنعة تأثير في ميزان الدين، وكذلك النظر في الدعوة إلى الله إلى الظاهر، لا إلى الباطن.

ثم أجابهم بجواب آخر: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي لو شعرتم أن حسابهم على ربهم، لما عبتموهم بصنائعهم.

وجواب ثالث: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي لخساسة أحوالهم وأشغالهم كما تتصورون، وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء، كما طلبته قريش.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ أي إن الله ما أرسلني أخص ذوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول للناس جميعاً، أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعني فذلك السعيد عند الله، وإن كان فقيراً.

ولما تغلب نوح عليه السلام على قومه بالحجة العقلية والمنطق الصريح، لجؤوا إلى التهديد شأن كل العتاة، فقالوا: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ أي لئن لم تنته عن سب آلهتنا وعيب ديننا لنقتلنك بالحجارة، أو لنسبنك ونشتمنك. قال الثُّماليّ: كل «مرجومين» في القرآن فهو القتل إلا في مريم: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦/١٩].

وبعد أن يئس من إيمانهم، دعا عليهم بالعذاب، طالباً حكم الله العدل فيهم، فأنجاه ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالناس والدواب وغير ذلك، ثم أغرقهم الله أجمعين.

إن في ذلك لآية وأي آية، وعبرة وعظة، وكان أكثرهم كافرين، والله هو القادر المنتقم من كل مكذِّب بالله ورسله، رحيم بمن آمن وأطاع.

وهاتان الآيتان الواردتان للعبرة والعظة هما اللتان ختمت بهما قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأنهما بيت القصيد من القصة.

القصة الرابعة
قصة هود عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَجْرِىَ إِلَّا﴾:

قرئ:

١- (أجريَ إلا) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص.

٢- (أجريْ إلا) وهي قراءة الباقين.

﴿وَعُيُونٍ﴾:

قرئ:

١- (وعِيُون) وهي قراءة ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي.

٢- (وعُيُون) وهي قراءة الباقين.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أخاف).

﴿خُلُقُ﴾:

قرئ:

١- (خُلُق)، وهي قراءة نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (خَلْق) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿تَعْبَثُونَ﴾ الجملة حال من ضمير: (تبنون).

المفردات اللغوية:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ أنثه باعتبار القبيلة، وهو في الأصل اسم أبي القبيلة الأكبر، ويعبر عن القبيلة عادة باسم الأب، أو ببني فلان .﴿رِيعٍ﴾ مكان مرتفع ﴿ءَايَةً﴾ علامة أو علماً بارزاً للمارة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تفعلون ما لا فائدة فيه أصلاً، كاللعب ﴿مَصَانِعَ﴾ مجامع الماء ومآخذه، وقيل: قصوراً مشيدة وحصوناً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي كأنكم تخلدون فيها لا تموتون، ولعل هنا: للتشبيه ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بضرب أو قتل، والبطش: الأخذ بالعنف ﴿جَبَّارِينَ﴾ متسلطين عاتين بلا رأفة ولا شفقة، ولا قصد تأديب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه؛ فإنه أنفع لكم.

﴿أَمَدَّكُم﴾ أنعم عليكم أو سخر لكم ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ كرره للتأكيد والتنبيه على دوام الإمداد، والوعيد على تركه بالانقطاع ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قدَر على الإنعام، قدر على الانتقام

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ مستوٍ عندنا ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أصلاً، أي لا نرعوي لوعظك عما نحن عليه. والوعظ: كلام لطيف يلين القلب بذكر الوعد والوعيد.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي ما هذا الذي خوفتنا به إلا خلق المتقدمين وكذب الأولين وعادتهم وطبيعتهم ونحن بهم مقتدون، فلا حساب ولا بعث، والمراد: عادتهم في اعتقاد ألا بعث ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ على ما نحن عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بسبب التكذيب في الدنيا بريح صرصر.

المناسبة:

هذه قصة أخرى للعظة والعبرة، هي قصة هود عليه السلام الذي دعا قومه إلى توحيد الله وطاعته، وحذرهم من عقابه، وهم في الزمان بعد قوم نوح، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٧/ ٦٩] وكانوا يسكنون الأحقاف: وهي جبال الرمل قرب حضرموت في بلاد اليمن. وكانوا أولي طول مديد وبأس وشدة، ورخاء ونعيم، بسبب كثرة الأرزاق والأموال والأنهار والزروع والثمار، لكنهم مع ذلك كانوا يعبدون غير الله تعالى، وكذبوا نبيهم هوداً عليه السلام، فأهلكهم وقبر هود معروف اليوم في حضرموت.

التفسير والبيان:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي كذبت قبيلة عاد رسالة الرسل المرسلين من عند الله، حين قال لهم هود عليه السلام: ألا تتقون الله، وتخافون عذابه، إني لكم رسول

أمين على رسالتي التي هي من عند الله، فاتقوا الله فيما أمر ونهى، وأطيعوني فيما آمركم وأنهاكم عنه، يصلح حالكم، وتسعدون في دنياكم وأخراكم، ولا أطلب منكم على تبليغ رسالتي أجراً ولا مالاً، ولا أبتغي بذلك سلطاناً ولا جاهاً، إن أجري وجزائي إلا على ربي لو علمتم ذلك، ولكنهم كذبوه وآذوه.

وهذه المقالة بعينها جاءت على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه على وحدة رسالة الأنبياء الداعية إلى توحيد الله وطاعته، وترك عبادة ما سواه.

ثم تكلم معهم هود عليه السلام على ثلاثة أمور:

أ - ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي أتعمرون في كل مكان مرتفع بنياناً محكماً هائلاً باهراً، يكون علامة على القوة والعزة والغنى تفاخراً، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، لا للحاجة إليه، لذا أنكر عليهم؛ لأنه تضييع للزمان، وإتعاب الأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

٢ - ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي وتتخذون قصوراً مشيدة وحصوناً، لكي تقيموا فيها أبداً، كأنكم مخلدون في الدنيا، أو ترجون الخلد في الدنيا، مع أنكم زائلون عنها، كما زال من كان قبلكم. وقيل: المصانع: مآخذ الماء.

روى ابن أبي حاتم رحمه الله أن أبا الدرداء رضي الله عنه، لما رأى ما أحدث المسلمون في غُوطة دمشق من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم، فنادى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثّقون، ويأملون فيُطيلون، فأصبح أملهم غروراً، وأصبح

جمعُهم بُوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عَدَن وعَمّان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟!

٣ - ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي إنكم مع ذلك السرف والحرص، تعاملون غيركم معاملة الجبارين؛ لأنكم قوم قساة غلاظ عتاة متجبرون.

والخلاصة: إن اتخاذ الأبنية العالية يدل على حب العلو، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، فهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو، وهذه صفات الإله، وهي ممتنعة الوصف للعبد، فدل ذلك على حب الدنيا، والخروج عن حد العبودية، والحوم حول ادعاء الربوبية.

وفي هذا تنبيه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وعنوان كل كفر ومعصية، لذا قال:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ أي فاحذروا عقاب الله، واعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم، فذلك أدوم لكم وأنفع، إذ لا خلود لأحد في هذه الدنيا.

ثم ذكّرهم نعم الله عليهم تفصيلاً، فقال:

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ أي اتقوا عقاب الله الذي أمدكم بنعم وفيرة، ورزقكم أنواع الحيوانات المأكولة والأولاد الكثيرة، والبساتين الغُنّ والأنهار العذبة الفياضة، فاجعلوا مقابل هذه النعم عبادة الله الذي أنعم بها.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ أي إني أخشى عليكم إن كذبتم وخالفتم وأصررتم على الكفر عذاب يوم شديد الأهوال.

وقد دل هذا على أنه دعاهم إلى الإيمان بالله بالحسنى وبالترغيب والترهيب، والتخويف والبيان، بما هو النهاية في ذلك، فكان جوابهم:

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي يستوي عندنا وعظك لنا وتحذيرك إيانا، وعدم وعظك أصلاً، فإنا لا نرجع عما نحن عليه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١١/٥٣] . وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: ٢/٦] . وذريعتهم في عدم إيمانهم هي:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي ما جئت به اختلاق الأولين وافتراؤهم وكذبهم، كما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أو ما هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم، سالكون سبيلهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولا ثواب ولا عقاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، وما نحن بمعذَّبين أبداً؛ لأنه ليس الأمر كما تقول.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي فكانت النتيجة أنهم كذبوا هوداً عليه السلام فيما أتى به، واستمروا على تكذيبه ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، أي ريح شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان سبب إهلاكهم من جنس عملهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ [الفجر: ٨٩/٦-٧] وهم عاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٥٠] وهم من نسل إرم بن سام بن نوح، وذات العماد: الذين كانوا يسكنون العمد، وليست إرم بلداً. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ

يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ٤١/١٥] . وقد حصبت الريح كل شيء لهم كما قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٤٦/٢٥] .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ أي إن في إهلاك عاد بسبب تكذيبها رسولها لعبرة لكل الأقوام فيما أتيتهم به من رسالة الله، وما كان أكثر هؤلاء المهْلَكين بمؤمنين في سابق علمنا، وإن ربك لهو المنتقم من أعدائه، الرحيم بالمؤمنين من عباده إن تابوا وأصلحوا.

فقه الحياة أو الأحكام:

تبين من هذه القصة ما يلي:

١ً - لقد كان موقف هود عليه السلام من قومه موقف الحكيم الحليم المتلطف بهم، فبالرغم من أنهم وصفوه بالسفاهة والجنون، ترفَّع عن اتهامهم، واكتفى بالقول: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/٦٧] .

٢ً - إن أسلوب الداعية يجب أن يكون لطيفاً دون تنفير، فقد سلك هود عليه السلام هذا الأسلوب، فذكّر قومه بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، وحثهم على شكرها، والإيمان بالله المنعم كِفاء ما أنعم، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر.

٣ً - إن التجبر أو العتو أو الطغيان لا يأتي بخير، وكل من ظن أن جبروته يحقق له كل ما يريد فهو غرّ جاهل، فهؤلاء قبيلة عاد الأولى توافرت لهم القوة البدنية الفائقة، والطول المديد، والنعمة السابغة، من الأموال والبساتين والأنهار، والحصون المشيدة والمباني الضخمة والزروع والثمار، ولكنهم لما طغوا وبغوا، وعاملوا الناس معاملة الجبابرة، وأصروا على كفرهم وعنادهم،

عاقبهم الله بما هو أشد من جبروتهم، وأرسل عليهم ريحاً باردة عاتية، فدمرت كل شيء لهم؛ إذ أين قوة البشر من قوة الله وقدرته؟!

٤ً - إذا استولى الكفر والعناد والكبرياء على قلب الإنسان، لم يبق أمل في نفوذ هداية الله إليه، ولم يعد يحسّ فيه بتقوى الله، ولا يقدّر وجوب طاعته: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

٥ً - يعتمد عبدة الأوثان في اعتقادهم وعبادتهم على ما توارثوه عن الأسلاف، ويسيطر الفكر المادي على أذهانهم، فينظرون إلى الحياة نظرة المتمتع المترفه فيها، ثم يرتحل عنها: حياة ثم موت، ولا بعث.

٦ً - يرى المتأمل كيف أهلك الله من كذَّب رسوله، فليحذر الناس في كل زمان ومكان من عصيان الرسل وتكذيبهم، ولكن مع الأسف لا يتعظ أكثر الناس بهذا، ويبقون في كفرهم وعدم إيمانهم، ويهملون النظر إلى قدرة الله القادر على الانتقام من كل أحد.

القصة الخامسة

قصة صالح عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

القراءات:

﴿أَجْرِىَ إِلَّا﴾:

قرئ:

١- (أجريَ إلا) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص.

٢- (أجريْ إلا) وهي قراءة الباقين.

﴿وَعُيُونٍ﴾:

قرئ:

١- (وعِيُون) وهي قراءة ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي.

٢- (وعُيُون) وهي قراءة الباقين.

﴿بُيُوتًا﴾:

قرئ:

١- (بُيُوتاً) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتاً) وهي قراءة الباقين.

﴿فَرِهِينَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (فرهين).

الإعراب:

﴿فَرِهِينَ﴾ حال من واو (تنحتون).

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ ﴿شِرْبٌ﴾ مرفوع بالظرف، على مذهب سيبويه والأخفش؛ لأنه قد جرى وصفاً على النكرة، والظرف إذا وقع وصفاً ارتفع به ما بعده، كالفعل.

البلاغة:

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ استعار الطاعة التي هي انقياد الآمر لامتثال الأمر.

﴿يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَمِينٌ﴾ (أطيعون) ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (عيون) توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وكذلك ﴿هَضِيمٌ﴾ ﴿مَّعْلُومٍ﴾ ﴿عَظِيمٍ﴾ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ مبالغة؛ لأن المسحَّر مبالغة عن المسحور.

المفردات اللغوية:

﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما أجري ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ إما إنكار لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم، وإما تذكير بالنعمة في تخلية الله إياهم ﴿فِى مَا هَٰهُنَآ﴾ من الخيرات والنعيم ﴿طَلْعُهَا﴾ أول ما يطلع من ثمر النخل، وما يأتي بعده يسمى خلالاً، ثم بلحاً، ثم بُسْراً، ثم رُطَباً، ثم تمراً ﴿هَضِيمٌ﴾ نضيج لطيف لين ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ النحت: النَّجْر والبَرْي والتسوية ﴿فَرِهِينَ﴾ بطرين، من الفَرَه: وهو شدة الفرح، أو حاذقين بنحتها من الفراهة: وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب، وقرئ: فرهين، أي بطرين وهو أبلغ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمرتكم به ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ العاصين ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ بطاعة الله، وأتى به لبيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح. ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ المغلوب على عقولهم بكثرة السحر ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك الرسالة ﴿شِرْبٌ﴾ نصيب من الماء ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظم اليوم لعظم ما يحل فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ رموها بسهم ثم قتلوها، وأسند العقر إلى كلهم؛ لأن عاقرها إنما عقر برضاهم، ولذلك عذبوا جميعاً ﴿نَٰدِمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب، لا تَوْبةً من ذنوبهم، أو عند حلول العذاب، ولذلك لم ينفعهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الموعود به، فهلكوا.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال البيضاوي: في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماء بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم، لما أخذوا بالعذاب، وإن قريشاً إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم.

المناسبة:

لما قص الله على رسوله قصة هود عليه السلام وعاد، أتبعه بقصة صالح عليه

السلام وثمود، وقد كانوا عرباً مثل عاد، يسكنون مدينة الحجْر التي بين وادي القُرى والشام أي على طريق المدينة، ومساكنهم معروفة مشهورة، كانت قريش في رحلة الصيف يمرون عليها، وهم ذاهبون إلى الشام، ومرَّ رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام، فوصل إلى تبوك ليتأهب لذلك. وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام.

دعاهم نبيهم صالح إلى عبادة الله وحده لاشريك له، وأن يطيعوه فيما بلَّغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذَّبوه وخالفوه، فأخذهم عذاب الزلزلة، فزلزلت بهم الأرض، ولم تبق منهم أحداً، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٥] .

التفسير والبيان:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ قد عرفنا أن هذه المقالة مشابهة لما سبقها من مقالة نوح وهود عليهما السلام.

والمعنى: أن قبيلة ثمود كذبت برسالة نبيهم صالح عليه السلام حين قال لهم: ألا تتقون عقاب الله، فتؤمنوا به وتوحدوه وتعبدوه، وتطيعوني فيما بلغتكم من الرسالة، فإني رسول من عند الله تعالى، أمين على رسالته التي أرسلها معي إليكم، ولا أطلب على نصحي وتبليغي عوضاً ولا جزاء، فما جزائي إلا على الله الذي أرسلني، وهو يتولاني في الدنيا والآخرة.

ثم وعظهم، وحذرهم نقم الله أن تحل بهم، وذكَّرهم بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الطيبات، وفجَّر لهم العيون والأنهار، وأنبت لهم الزروع والثمرات، وجعلهم في أمن من المحذورات، فقال مخاطباً لهم بأمور ثلاثة:

أ - ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾؟ أي أتظنون أنكم في الدنيا مُخَلَّدون في النعيم، وأنكم تُتركون في دياركم آمنين، متمتعين في الجنات والعيون، والنخيل ذات الرطب الهضيم اللين اللطيف، والزروع والثمار، وتطمعون في ذلك، وتظنون ألا دار للجزاء على الأعمال؟ لا يعقل أن تبقوا على الشرك والكفر، وأنتم ترفلون في هذه النعم، وتتمتعون بهذه الخيرات.

وقوله: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ أي في الذي استقر في هذا المكان من النعيم، ثم فصّله وفسره بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾﴾ إلخ، فهو تفصيل بعد إجمال.

٢ - ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ أي وتتخذون بيوتاً في الجبال حاذقين في نحتها وبنائها، بطرين فرحين أشرين بها، متنافسين في عمارتها، من غير حاجة إلى السكنى فيها. فاتقوا الله حق التقوى، وأقبلوا على ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم.

ويلاحظ أن الغالب على قوم هود الذين تقدم وصفهم هو اللذات المعنوية وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية المادية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة.

٣ - ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي ولا تطيعوا أمر الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي وارتكاب الخطايا والترف والمجون، وهم كبراؤهم ورؤساؤهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق، وهم الرهط التسعة في أرض ثمود المشار إليهم في آية أخرى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ

﴿٤٨﴾ [النمل: ٢٧/٤٨] . وإنما قال ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ بعد قوله ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ لبيان أن فسادهم خالص، ليس معه شيء من الصلاح، على عكس حال بعض المفسدين المخلوطة أعمالهم ببعض الصلاح.

فأجابوا نبيهم صالحاً عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ أي قال قومه: ثمود، الذي يغلب على الظن أنك أصبحت من المغلوب على عقولهم بكثرة السحر، وصرت من المسحورين، أي إنك في قولك هذا مسحور لا عقل لك، فلا يسمع لرأيك ولا لنصحك.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي إنك بشر مثلنا، فكيف أوحي إليك دوننا، وتكون نبياً لنا؟ كما قالوا في آية أخرى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٥٤/٢٥-٢٦] . وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون في الأنبياء أنهم لو كانوا صادقين، لكانوا من جنس الملائكة.

ثم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وهو أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عُشَراء (حامل لعشرة أشهر) صفتها كذا وكذا، فما كان منه إلا أن أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام، فصلى، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء، على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم، وكفر أكثرهم[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٤٤، تفسير القرطبي: ١٣/ ١٣٠، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس، وربما كان الأمر محتاجاً إلى رواية موثقة ثابتة السند ليجب علينا الاعتقاد بذلك.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ أي إن النبي صالح عليه السلام قال مجيباً طلبهم إرسال آية تكون دليلاً على صدقه: الدليل هو ناقة الله هذه، فهي الآية والمعجزة الدالة على صدقي، ترِد ماءكم يوماً، ويوماً ترِدُونه أنتم.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾أي وإياكم أن تصيبوها بأذى من ضرب أو قتل أو غير ذلك، فيصيبكم عذاب شديد. وقد عظم اليوم لحلول العذاب فيه، ووصف اليوم بالعظم أبلغ من وصف العذاب؛ لأن الوقت إذا عظم بسبب العذاب، كان موقعه من العظم أشد.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي ذبحوا الناقة، ثم ندموا على فعلهم عند معاينة العذاب، أي حين علموا أن العذاب نازل بهم، فنالهم عذاب الله وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر مالم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين.

والذي حدث أن الناقة مكثت لديهم حيناً من الزمان، ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها، يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد، وحضرأشقاهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها. روي أن مِسْطَعاً ألجأها إلى مضيق في شِعْب، فرماها بسهم، فأصاب رِجْلها، فسقطت، ثم ضربها قُدَار.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ أي إن في ذلك المذكور من قصة صالح عليه السلام، وتكذيب قومه ثمود لرسالته، واعتدائهم على معجزة الناقة لآية وعبرة وعظة، وأي آية أعظم من هذا؟ إنهم كذبوا رسولهم فلم يؤمنوا به، واغتروا بمالهم ومتعتهم الدنيوية، واعتدوا على الناقة، فنزل بهم العذاب، ولم يكن أكثرهم مؤمنين

بالله ورسله، وإن ربك لهو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه المؤمنين إن تابوا وأنابوا إليه. وهذه الخاتمة بذاتها هي خاتمة قصة نوح وهود؛ لأن القصد منها واحد، وهو العظة والاعتبار بحال المكذبين.

يقال: إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمان مئة رجل وامرأة.

فقه الحياة أو الأحكام:

كانت قبيلة ثمود تسكن في الحجْر[1] وهي ذوات نخل وزروع ومياه، ومبانٍ جبلية شاهقة فخمة، وكانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم، إلا أنهم اغتروا بمالهم وجاههم، فكذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، فقرعهم ووبّخهم، وقال: أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت؟.

وأمرهم بتقوى الله عز وجل وهي امتثال أمره واجتناب نهيه، وحذرهم من إطاعة أمر كبرائهم ورؤسائهم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

فاتهموه بأنه مسحور لا عقل له، ونفوا عنه الرسالة؛ لأنه بشر مثلهم فكيف يوحى إليه دونهم، ويكون نبياً غيرهم؟ ثم طالبوه بالإتيان بمعجزة حسية تدل على صدقه، فأيده الله بالناقة العظيمة التي لا مثيل لها، فكانت تشرب ماء نهير صغير كله في يوم، ثم تدرّ لهم الحليب، فيحلبون منها ما شاؤوا في اليوم التالي. ولكن أبطرتهم النعمة، وأساؤوا إلى أنفسهم، وتواطؤوا على عقرها، حبّاً في الإساءة ذاتها، فعقرها رجل منهم اسمه (قُدار) ثم ندموا على عقرها لما أيقنوا بالعذاب، ولكن لم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ٤/ ١٨] فأهلكهم الله بالزلزلة والصيحة بسوء فعلهم وقبح كفرهم.

---

(١) الحجر: واد بين المدينة والشام.

القصة السادسة

قصة لوط عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

القراءات:

﴿أَجْرِيَ إِلَّا﴾:

قرئ:

١- (أجريَ إلا) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص.

٢- (أجريْ إلا) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ على حذف مضاف، أي عقوبة ما يعملون من الفاحشة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

البلاغة:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ.

﴿قَالَ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ جناس ناقص، الأول من القول، والثاني من القِلى مصدر قَلَى: أبغض بغضاً شديداً.

المفردات اللغوية:

﴿أَخُوهُمْ﴾ الذي يعايشهم في السكن والبلد، لا في الدين والنسب؛ لأنه ابن أخي إبراهيم من أرض بابل ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾ الذكور ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الناس ﴿لَكُمْ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أي أقبالهن ﴿عَادُونَ﴾ متجاوزون الحدود الشرعية والعقلية والفطرية السليمة من الحلال إلى الحرام ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عن إنكارك علينا ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ المطرودين المنفيين من بلدنا ﴿ٱلْقَالِينَ﴾ المبغضين لفعلكم غاية البغض أو أشد البغض ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من عذاب أو عقوبة أو شؤم عملهم.

﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أي أهل بيته والمتبعين له على دينه، أخرجه الله من بينهم وقت حلول العذاب بهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأة لوط ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب، أصابها حجر في الطريق فأهلكها؛ لأنها كانت مائلة إلى القوم، راضية بفعلهم، وقيل: كانت فيمن بقي في القرية، فإنها لم تخرج مع لوط ﴿دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أهلكناهم أشد إهلاك ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ قيل: أمطر الله عليهم حجارة، فأهلكهم ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مطرهم، واللام فيه للجنس، حتى يصح وقوع المضاف إليه فاعل (ساء) والمخصوص بالذم محذوف، وهو مطرهم.

المناسبة:

هذه قصة أخرى كسابقاتها للعبرة والعظة، هي قصة لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، بعثه الله تعالى إلى أمة عظيمة في عهد إبراهيم، تسكن من قطاع الأردن سدوم وأعمالها التي أهلكها الله

وهي عمورة وثلاثة مدن أخرى، وجعل مكانها بلاد الغَوْر المتاخمة لجبال بيت المقدس، والمحاذية لبلاد وجبال الكرك والشوبك، والمجاورة للبحر الميت (بحيرة لوط) فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل وحده، لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما ابتدعوه من الفواحش، مما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين، من إتيان الذكور دون الإناث.

التفسير والبيان:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي إن قوم لوط كذبوا نبيهم المرسل إليهم، ومن كذَّب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين، حين قال لهم لوط عليه السلام: ألا تتقون عذاب الله بترك معاصيه، فإني رسول لكم مؤتمن على تبليغ رسالته، فاتقوا الله بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وأطيعوني فيما آمركم به من عبادة الله وحده، وإتيان النساء بالزواج وما أنهاكم عنه من ارتكاب الفواحش، ولا أطلب منكم أجراً أو جزاء على تبليغ رسالتي، فما جزائي إلا على الله رب الإنس والجن وجميع العوالم في الأرض والسماء.

ثم وبخهم وقرعهم وأنكر عليهم ظاهرة الفحش الشنيعة قائلاً: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أي كيف تقدمون على شيء شاذ جداً، أترتكبون هذه المعصية الشنيعة؟ وهو إتيان الذكور من الناس، وهو كناية عن وطء الرجال، وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء، وسماه الله تعالى فاحشة، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٠] وتتركون إتيان نسائكم اللاتي جعلهن الله للاستمتاع الطبيعي بهن، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٢] .

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي لكن أنتم قوم متجاوزون الحد في الظلم وفي جميع المعاصي، ومنها هذه الفعلة الشنيعة.

وقوله: ﴿بَلْ﴾ إضراب، بمعنى الانتقال من شيء إلى شيء، لا أنه إبطال لما سبق من الإنكار عليهم وتقبيح أفعالهم. والمراد: بل أنتم أحق بأن توصفوا بالعدوان، حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة.

ولما نهاهم عن هذا الفعل القبيح توعدوه وهددوه:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ أي قال قوم لوط له: لئن لم تنته عن دعواك النبوة، وعن الإنكار علينا فيما نأتيه من الذكور، وهو ما جئتنا به، لنطردنك وننفينك من هذه البلدة التي نشأت فيها، ونبعدنك من بيننا، كما أبعدنا من نهانا قبلك، كما قال تعالى: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٢٧/٥٦] .

فأجابهم بأن إبعاده لا يمنعه من الإنكار عليهم والتبرؤ منهم لما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه، وأنهم مستمرون على ضلالتهم، فقال:

﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي إني من المبغضين بغضاً شديداً لعملكم، فلا أرضاه ولا أحبه، وإني بريء منكم، وإن هددتموني وأوعدتموني بالطرد. وكونه بعض القالين يدل على أنه يبغض هذا الفعل ناسٌ غيره، هو بعضهم، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قالٍ.

وفيه تنبيه على أن هذا الفعل موجب للبغض، حتى يبغضه الناس.

ثم دعا الله بإنجائه من سوء فعلهم قائلاً:

﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي يارب، خلّصني من عقوبة ما يعملون من المعاصي، ونجني من شؤم أعمالهم.

والخلاصة: إنهم لما توعدوه بالإخراج، أخبرهم ببغض عملهم، ثم دعا ربّه بالنجاة من سوء فعلهم. فأجاب الله دعاءه:

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي فنجيناه وأهل بيته ومن آمن به جميعاً ليلاً من عقوبة عملهم ومعاصيهم، إلا امرأة عجوزاً هي امرأته، وكانت عجوز سَوْء لم تؤمن بدينِ لوط، بقيت مع القوم ولم تخرج، فهلكت، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ١١/ ٨١] لأنها كانت راضيةً بسوء أفعالهم، وتنقل إليهم الأخبار.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي ثم أهلكنا القوم الآخرين الباقين الذين انغمسوا في المنكرات، وكفروا بالله الذي خلقهم، ولم يؤمنوا برسله، وأنزلنا عليهم العذاب الذي عم جميعهم، وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل منضود، فبئس هذا المطر مطر المهلَكين المنذَرين بالهلاك. قال قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم. وقال مقاتل: خسف الله بقوم لوط، وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من القرية، ولم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط. وقال وهب بن مُنبِّه: أنزل الله عليهم الكبريت والنار، أي فجر الله فيها البراكين النارية. و﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ لم يرد بهم قوماً بأعيانهم، إنما هو للجنس، والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم.

والخلاصة: إن عقابهم كان زلزالاً شديداً جعل بلادهم عاليها سافلها، وكان مصحوباً بكبريت ونار وحجارة من السماء، فأحرقت قراهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ١١/ ٨٢] فالعقوبة: هي الزلزال والبركان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ وهذه هي العبرة والخاتمة التي ختمت بها القصة، كما ختمت بها قصص الأنبياء المتقدمين، والمعنى: إن في تلك القصة لعبرة وعظة لكل متأمل،

حيث أهلك الله العصاة الموغلين في المعصية، وهم الفاعلون فعل قوم لوط، ونجى المؤمنين الصالحين الذين أنكروا تلك الفاحشة، وكانت امرأة لوط من الهالكين لتواطئها مع قومها، ومحبتها فعلهم، ولم تنفعها صلتها بالنبي لوط عليه السلام؛ لأن لكل امرئ ما اكتسب من الإثم، وما كان أكثر هؤلاء القوم بمؤمنين، بل كانوا كافرين، وإن ربك لهو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه المؤمنين التائبين.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن الكفر بالله تعالى ورسله، والشذوذ الجنسي (فعل قوم لوط) وترك الاستمتاع الطبيعي الحلال من طريق الزواج بالنساء، مدعاة للانتقام الإلهي، والعقاب الشديد في الدنيا والآخرة.

ومهمة النبي لوط عليه السلام كانت صعبة جداً في علاج هذا الأمر المتأصل المستعصي في قومه، فأنكر عليهم أشد الإنكار، ووبّخهم أشد التوبيخ، ووصفهم بأنهم قوم موغلون في العدوان وتجاوز حدود الله، وأعلن بغضه الشديد لعملهم، بالرغم من تهديدهم له بالطرد والإبعاد من بلدهم.

ولما يئس لوط عليه السلام من إيمان هؤلاء القوم بالله، والتطهر من فعل الفاحشة الشنيعة، دعا ربه بأن ينجيه وأهله من عذاب عملهم، وألا يصيبه من عذابهم، وهذا يتضمن الدعاء عليهم، ولا يدعو النبي على قومه إلا بإذن من ربه.

فأجاب الله دعاءه، ونجاه وأهل بيته ومن آمن معه أجمعين من العقاب الأليم الذي أنزله بهم، إلا امرأته العجوز بقيت في عذاب الله تعالى.

وكان العقاب الدنيوي هو الإهلاك بالخسف والحصب، أي بالزلزال والبركان، فأمطر الله عليهم الحجارة، بأن خسف جبريل عليه السلام بقريتهم وجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها الله بالحجارة.

إن في ذلك لآية وأي آية، والعاقل من اتعظ بغيره، ولم يكن من قوم لوط مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه، والله قادر على الانتقام من أعدائه، وهو في الوقت نفسه رحيم بأوليائه المؤمنين.

القصة السابعة

قصة شعيب عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

القراءات:

﴿أَجْرِىَ إِلَّا﴾:

قرئ:

١- (أجريَ إلا) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص.

٢- (أجريْ إلا) وهي قراءة الباقين.

﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾:

قرئ:

١- (أصحابُ لَيْكَةَ) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر.

٢- (أصحابُ الأيكةِ) وهي قراءة الباقين.

﴿ بِٱلْقِسْطَاسِ ﴾ :

قرئ:

١- (بالقِسطاس) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (بالقُسطاس) وهي قراءة الباقين.

﴿ كِسَفًا ﴾ :

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون: (كِسْفاً).

﴿ رَبِّيٓ أَعْلَمُ ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ربيَ أعلم).

الإعراب:

﴿ لْـَٔيْكَةِ ﴾ معرَّف بالألف واللام، ومجرور بالإضافة، يقرأ بالهمزة وبتخفيفها، وهو الوجه ويقرأ بلام أصلية مفردة «لَيْكَةَ» بالنصب: اسم بلد، على أنه ممنوع من الصرف للتعريف (العلمية) والتأنيث، ووزنه «فَعْلة». والواقع أن أصل: «ليكة»: الأيكة، فنقلت حركة الهمزة إلى اللام تخفيفاً ثم حذفت، فاستغني عن همزة الوصل، وصارت الكلمة «ليكة». وكتبت هنا وفي سورة ﴿ صٓ ﴾ بغير ألف اتباعاً للفظ.

البلاغة:

﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ إطناب؛ لأن وفاء الكيل نهي عن الخسران.

المفردات اللغوية:

﴿لَئۡيۡكَةِ﴾ غيضة شجر كثير ناعم ملتف، قرب مدين، بعث الله إلى أهلها شعيباً عليه السلام، كما بعث إلى مدين، ولم يكن منهم نسباً، وكان أجنبياً منهم، ولذلك قال: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ ولم يقل «أخوهم». جاء في الحديث: «إن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم، وإلى أصحاب الأيكة». ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أتموه ﴿مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ الناقصين حقوق الناس بالتطفيف.

﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ الميزان السوي أو العدل ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ لا تنقصوهم من حقهم شيئاً ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أي لا تفسدوا أشد الإفساد بالقتل والغارة وقطع الطريق، يقال: عثا في الأرض: أفسد فيها، و﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لمعنى عاملها ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ أي ذوي الجبلة، أي الخلقة والطبيعة، يقال: جُبل فلان على كذا، أي خُلِق، والمراد: أنهم كانوا على خلقة عظيمة ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من تقدمهم من الخلائق ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ المغلوبين على عقولهم بكثرة السحر.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافيين للرسالة، مبالغة في تكذيبه، أي المسحور البشر ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾ (إن) مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي إنه ﴿لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في دعواك ﴿كِسَفًا﴾ جمع كِسْفة أي قطعة (وزناً ومعنى) والمراد قطع عذاب. ﴿ٱلظُّلَّةِ﴾ السحابة التي أظلتهم بعد حر شديد أصابهم، فاجتمعوا تحتها، ثم أمطرتهم ناراً فاحترقوا جميعاً.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ إلى قوله ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هي مقالة الأنبياء السابقين نفسها.

المناسبة:

هذا آخر القصص السبع المذكورة في هذه السورة باختصار، إيناساً لرسول

الله ﷺ عما يلقاه من إعراض قومه، فيغتم ويحزن، وتهديداً للمكذبين به، وإعلاماً باطراد نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به، واقتراحهم له استهزاءً وعدم مبالاة به.

وهي قصة شعيب عليه السلام مع قومه أهل مدين: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ومع أهل الأيكة، وهم قوم كانوا أصحاب غيضة وشجر وزرع وثمر، بعثه الله إليهم، لإصلاح الوضع الاجتماعي المتردي فيهم، وهو بخس الكيل والميزان وتطفيفه، والإفساد الشديد في الأرض، فنصحهم بإيفاء الكيل والميزان، وألا يعثوا في الأرض مفسدين، فكذبوه، فأهلكهم الله بعذاب يوم الظلة.

التفسير والبيان:

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ أي كذب أصحاب الغيضة وهي الشجر الكثير الملتفّ، وكانت قرب مدين، وقال ابن كثير: «أصحاب الأيكة: هم أصحاب مدين على الصحيح»[1]. كذبوا رسولهم الذي بعث إليهم، وهو شعيب عليه السلام.

كذبوه حين قال لهم شعيب: ألا تتقون عذاب الله؟! بالإيمان به وبرسوله وبالامتناع عن معاصيه. ولم يقل «أخوهم شعيب» لأنه كما يرى الزمخشري والبيضاوي والرازي لم يكن منهم نسباً. ورأى ابن كثير أنه تعالى قطع نسب الأخوة بينه وبينهم، للمعنى الذي نسب إليهم وهو عبادة الأيكة وهي شجرة، وإن كان أخاهم نسباً.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٤٥

وحثهم بإخلاص على اتباع رسالته مطمئناً لهم بصراحة أنه رسول إليهم مرسل من عند الله، أمين على تبليغ الرسالة بكاملها، فاتقوا الله وخافوه بامتثال أمره واجتناب نهيه، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، وما أطلب منكم أجراً وجزاء مادياً أو معنوياً كجاه أو سلطان أو رياسة على تبليغي الرسالة، فما جزائي إلا على الله الذي أرسلني إليكم.

نصحهم بهذه النصائح الأساسية في رسالته، ثم أمرهم بأشياء قائلاً:

١ - إيفاء الكيل والميزان: ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي إذا بعتم فأتموا الكيل والميزان، ولا تكونوا ممن ينتقص الناس حقوقهم، وإذا اشتريتم فلا تزيدوا في الوزن والكيل طمعاً بأموال الناس، كما لو بعتم، أي إن الواجب يقتضي المساواة في الأخذ والعطاء، فخذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ أي وزنوا بالميزان العادل السوي، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ١-٤] فهذا نهي عن التطفيف في الكيل والوزن، يشمل المساواة في الأخذ والعطاء والبيع والشراء.

ثم نهاهم عن الظلم والبخس نهياً عاماً في كل حق فقال:

٢ - عدم إنقاص الحقوق: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي ولا تنقصوهم أموالهم أو حقوقهم في أي شيء مكيل أو موزون، مذروع أو معدود، فشمل كل المقادير، وأوجب العدل في المقاييس عامة، كيلاً أو وزناً أو مساحة أو قدراً، كذلك شمل حقوقهم الأدبية والمعنوية كالحفاظ على الكرامة والعرض، قال الرازي: وهذا عام في كل حق يثبت لأحد ألا يهضم،

وفي كل ملك ألا يغصب مالكه، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً. ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض بجميع أنواعه فقال:

٣ - عدم الإفساد: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تفسدوا أشد الإفساد في الأرض كقطع الطريق والغارة والنهب والسلب والقتل وإهلاك الزرع وغير ذلك من أنواع الفساد التي كانوا يفعلونها.

٤ - تقوى الله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ أي وخافوا بأس الله الذي تفضل عليكم بخلقكم وخلق من تقدمهم من ذوي الخلقة المتقدمين، من آبائهم الذين انحدروا منهم وكانوا في الظاهر سبب وجودهم وخلقهم، ومنهم أصحاب البأس والقوة والمال كقوم هود وقوم صالح. وهذا كما قال موسى عليه السلام سابقاً: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٢٦].

فأجابوه بالطعن في رسالته من ناحيتين، ثم بالاستخفاف بالوعيد والتهديد. أما الطعن فهو:

١ - ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ، وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي ما أنت إلا رجل مسحور مغلوب على عقله، فلا يسمع لقولك، ولا يؤبه لنصحك. وهذا مثلما أجابت به ثمود رسولها، تشابهت قلوبهم، واتفقت منازع الكفر فيهم.

ثم قالوا له: إنك مثلنا بشر، فما الذي فضّلك علينا، وجعلك نبياً ورسولاً دوننا؟!. وأتوا بالواو في قولهم ﴿وَمَآ﴾ للتعبير عن قصدهم معنيين كلاهما منافٍ للرسالة في تقديرهم: السحر والبشرية. وإذا تركت الواو فلم يقصدوا إلا معنى واحداً، وهو كونه مسحراً، ثم قرروا كونه بشراً مثلهم.

٢ - ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي ويغلب على ظننا أنك ممن تعمد الكذب فيما يقول، ولست ممن أرسلك الله إلينا.

وأما الاستخفاف بالتهديد فهو:

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ أي إن كنت صادقاً في تهديدك ووعيدك بأننا سنعذب، فأنزل علينا قطعاً من السحاب فيها نوازل العذاب. وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب والعناد واستبعادهم وقوع العذاب. وبعبارة أخرى: إن كنت صادقاً أنك نبي، فادع الله أن يُسقط علينا كِسَفاً من السماء. والسماء: السحاب أو المظلة.

وهذا شبيه بما قالت قريش للنبي ﷺ فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ إلى أن قالوا: ﴿تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠-٩٢] وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] .

وهم بهذا ظنوا أنه إذا لم يقع العذاب ظهر كذبه، فأجابهم شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨﴾ أي قال شعيب: الله ربي أعلم بعملكم، فيجازيكم عليه، إما عاجلاً وإما آجلاً، وأما أنا فلا قدرة لي على إنزال العذاب، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به، وهو غير ظالم لكم.

وهذا دليل على أنه لم يَدْعُ عليهم، بل فوض الأمر في التعذيب إلى الله تعالى، فلما استمروا في التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على ما اقترحوا من عذاب يوم الظُّلَّة، فقال تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩﴾ أي فلما أصروا على التكذيب واستمروا عليه، جوزوا بعذاب الظلة وهو أنهم أصيبوا بحر عظيم، أخذ بأنفاسهم، لا ينفعهم ظل ولا ماء، فاضطروا إلى الخروج إلى البرية، فأظلتهم سحابة، وجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم ناراً، فاحترقوا جميعاً. وهذا كما حكى الله تعالى

بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٤٤].

إن ذلك العذاب عذاب شديد الهول، عظيم الوقع، أدى إلى الإفناء:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ أي في تلك القصة البليغة لعبرة وعظة يا أهل مكة وغيركم من الكفار، تلك العبرة الدالة بوضوح على صدق الرسل، ومجيء العذاب بتوقيت الله، وما كان أكثر قوم شعيب بمؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ أي وإن الله ربك يا محمد لهو القادر على الانتقام من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

وهذه هي الخاتمة بذاتها التي ختمت بها القصص السبع المذكورة في هذه السورة للدلالة على وجوب استنباط العظة والعبرة من كل قصة، وكلها دليل قاطع على أن القرآن كلام الله الذي يخبر وحده عن الغيب: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١٢/ ١١١].

فقه الحياة أو الأحكام:

تكرر في المناسبة والتفسير بيان الهدف العام من هذه القصة وغيرها من القصص السابقة، وكان مجموعها في هذه السورة سبعاً، فإن الله تعالى أنزل في قرآنه هذه القصص تسلية لرسوله محمد ﷺ، وإزالة للحزن عن قلبه، بسبب صدود الناس عن دعوته، وهي تسرية دائمة لكل داعية مخلص، حتى لا ييأس ولا يعجز، ولا يلين ولا يقف عن السير في دعوته، فيستمر ثابت الخطا، ماضي العزم، رافع الرأس معتزاً بما يقوم به.

والخلاصة: إن السبب في تشابه بداية هذه القصص وآخرها: هو التأكيد وتقرير المعاني في النفوس وتثبيتها في الصدور.

وفهم من هذه القصص أن الله هو الذي أنزل العذاب على المكذبين لرسله، وأنه إنما أنزله عليهم جزاء وفاقاً على كفرهم، لا ظلماً ولا تشفياً ولا ثأراً، وإنما لإرساء معالم الحق، وتوطيد صرح العدل بين الخلائق.

ويلاحظ أن جميع الأنبياء متفقون على أصول الرسالات من الدعوة إلى توحيد الله، واحترام الفضائل ومحاربة الرذائل، ثم يقوم كل واحد منهم بمعالجة الظواهر المرضية، والأوضاع الشاذة عند قومه، فهذا هود عليه السلام ينكر على قومه العبث بالبناء، والطمع في الدنيا كأنهم مخلدون، والبطش بطش الجبارين وغير ذلك من النزعات المعنوية المغالية؛ وهذا صالح عليه السلام ينكر على قومه إقامة البيوت في الجبال بطرين أشرين مستكبرين، حريصين على الملذات الحسية المادية؛ وهذا لوط عليه السلام يستنكر الفاحشة الشنيعة وهي إتيان الذكور في أدبارهم، وترك إتيان النساء الأزواج في أقبالهن؛ وهذا شعيب ينكر على قومه الظلم الاجتماعي بسرقة أموال الناس وإهدار حقوقهم بتطفيف الكيل والميزان، فيأمرهم بإيفاء الكيل والوزن كاملاً غير زائد ولا ناقص، وبألا يبخسوا الناس أشياءهم، وألا يعثوا في الأرض فساداً، وأن يتقوا الله الذي خلقهم وخلق آباءهم العظام الأولين. ومن أنعم بهذه النعم كان هو المستحق للعبادة، لكنهم قوم ظالمون كافرون بالقيم والأخلاق الاجتماعية، مستصغرون وعيد الرسل، مستخفون بنصحهم ووعظهم.

وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحداً على صيغة واحدة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع عن أخذ الأجر على تبليغ الرسالة.

واتفق هؤلاء الرسل على الترفع عن مقابلة إساءة أقوامهم لهم واتهاماتهم الباطلة، والصبر على الدعوة، وتفويض الأمر الحازم الحاسم بإنزال العذاب

وغيره إلى الله عز وجل، ليبقوا في مرتبة البشرية التي ظنها الكفرة نقصاً، وهي في الحقيقة عنوان العبودية لله عز وجل.

وأما صفة عذاب قوم شعيب وإهلاكهم، فإن الله أبانها في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [٨٨] فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة.

وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [٦٧] ولأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [٨٧] قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحةٌ تسكتهم، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الآية.

وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن الله سلَّط عليهم الحر سبعة أيام، حتى ما يظلهم منه شيء، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم، فاستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فأتوها جميعاً، فاستظلوا تحتها، فأججت عليهم ناراً[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٤٦

إنزال القرآن من عند الله لإنذار المشركين وبشارة المؤمنين

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

القراءات:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾:

قرئ:

١- (نَزَل به الرُوح الأمينُ) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (نَزَّلَ به الروحَ الأمينَ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾:

وقرأ ابن عامر (أو لم تكن لهم آيةٌ).

الإعراب:

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ متعلق بنزَل، ويجوز أن يتعلق بالمنذرين، أي لتكون من المنذرين بلغة العرب.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ﴾ ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ اسم يكن، و﴿ءَايَةً﴾ خبر مقدم، و﴿لَّهُمْ﴾ متعلق بحال، والتقدير: أولم يكن لهم علم بني إسرائيل آية لهم. و﴿يَكُن﴾ يقرأ بالياء والتاء. وعلى قراءة التاء تكون: ﴿ءَايَةً﴾ خبر: (تكن)، والتاء لتأنيث القصة، و﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ في موضع رفع مبتدأ، و﴿لَّهُمْ﴾ خبر مقدم، والتقدير: أولم تكن القصة علم بني إسرائيل آية لهم.

﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجمي، وهو من لا يتكلم بالعربية، أصله: أعجميين، فاستثقلوا اجتماع الأمثال، فحذفوا الياء الثانية من ياءي النسب، ثم حذفوا الياء الأولى لالتقاء الساكنين، مثل حذفهم ياءي النسب في «الأشعرين ومقتدين والياسين».

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ ﴿مَآ﴾ إما استفهامية في موضع نصب بـ ﴿أَغْنَىٰ﴾ وإما نافية، و﴿مَآ﴾ «الثانية» في موضع رفع بـ ﴿أَغْنَىٰ﴾.

﴿ذِكْرَىٰ﴾ إما منصوب على المصدر، أي ذكّرنا ذكرى، وإما منصوب على الحال، وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: إنذارنا ذكرى.

البلاغة:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ التأكيد بإن واللام لدفع شبهة المتشككين في صحة نزول القرآن.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ الاستفهام للتوبيخ والتبكيت.

﴿يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا﴾ جناس اشتقاق.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ مجاز مرسل، أي من أهل قرية، من إطلاق المحل وإرادة الحال.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ هو جبريل عليه السلام، فإنه أمين على وحي الله تعالى ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ على روحك؛ لأنه مركز الإدراك والتكليف دون الجسد ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ واضح المعنى، لئلا يقولوا: ما نصنع بما لا نفهمه؟ وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ معناه من الذين أنذروا بلغة العرب، وهم خمسة: هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، إذا تعلق قوله ﴿بِلِسَانٍ﴾ بالمنذرين. وأما إذا تعلق بنَزَل فمعناه نزله باللسان العربي لينذر به؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي لقالوا له: ما نصنع بما لا نفهمه؟ فيتعذر الإنذار به، فتنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك؛ لأنك تفهمه ويفهمه قومك.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن المنزل على محمد ﴿لَفِى زُبُرِ﴾ كتب جمع زبور ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كالتوراة والإنجيل ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ أي أولم يكن لكفار مكة دليلاً وبرهاناً على صحة القرآن، أو نبوة محمد ﷺ: «أن يعلمه علماء بني إسرائيل» أن يعرفه هؤلاء العلماء، كعبد الله بن سَلام وأصحابه ممن آمنوا، فإنهم يخبرون بذلك، بما هو مذكور في كتبهم.

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ قرأه محمد عليه السلام على كفار مكة ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ ما صدقوا به أنفة من اتباعه، ولفرط عنادهم واستكبارهم ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أدخلناه، أي مثل إدخالنا التكذيب به أدخلنا التكذيب به في قلوب المجرمين أي كفار مكة بقراءة النبي ﷺ، وضمير (أدخلناه) عائد للكفر المدلول عليه بقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ وهو يدل على أن الكفر بخلق الله تعالى، وقيل: يعود الضمير للقرآن، أي أدخلناه في قلوبهم، فعرفوا معانيه وإعجازه، ثم لم يؤمنوا به عناداً .﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الملجئ إلى الإيمان.

﴿بَغۡتَةً﴾ فجأة في الدنيا والآخرة ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿مُنظَرُونَ﴾ مؤخرون لنؤمن به، ويقولون ذلك تحسراً وتأسفاً ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ٢٠٤﴾؟ فيقولون: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢]، ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف ٧/ ٧٠ وهود ١١/ ٣٢ والأحقاف ٤٦/ ٢٢] ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ أخبرني ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦﴾ من العذاب ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ ﴿مَآ﴾ استفهامية بمعنى أي شيء، أو نافية، أي لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب أو تخفيفه.

﴿لَهَا مُنذِرُونَ﴾ رسل تنذر أهلها إلزاماً للحجة ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ تذكرة وعظة لهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في إهلاكهم بعد إنذارهم. وهو رد لقول المشركين ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كما زعم المشركون أنه من قبيل ما تلقي الشياطين على الكهنة ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ أي ما يتيسر ولا يتسنى ولا يصح لهم أن يتنزلوا به ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي ما يقدرون على ذلك ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾ أي لممنوعون بالشهب؛ لأن نفوسهم خبيثة شريرة بالذات لا تقبل ذلك.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٠٥)

﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال: «رئي النبي ﷺ، كأنه متحير، فسألوه عن ذلك، فقال: ولِمَ، ورأيت عدوي يكون من أمتي بعد؟ فنزلت: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾ فطابت نفسه».

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصص الأنبياء تسلية لرسوله، ووعداً له بالفوز

والغلبة، وإنذاراً للمشركين من تكذيبه، حتى لا يهلكوا كما أهلك المكذبون السابقون، أردفه ببيان ما يدل على نبوته ﷺ من تنزيل القرآن المعجز على قلب نبيه ﷺ. كذلك لتتناسب خاتمة السورة مع فاتحتها التي افتتحت بالحديث عن إعراض المشركين عما يأتيهم من الذِّكْر: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ [٥ - ٦].

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن خواص الكتاب الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ بأنه وحي من عند الله، بلسان عربي، وللدلالة على نبوته ﷺ، وذلك من وجهين:

الدليل الأول:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ أي إن القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ هو كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ؛ لأنه لفصاحته كان معجزاً، فكان تنزيله من ربّ العالمين، كما أن فيه إخباراً عن القصص الماضية من غير تعليم، وذلك لا يكون إلا بوحي من الله تعالى. نزل به جبريل الأمين على الوحي والرسالة، ذو المكانة عند الله، المطاع في الملأ الأعلى، على قلبك أي على روحك المدركة الواعية، وفهمك إياه، سالماً من الدنس والزيادة والنقص، لتنذر به قومك والعالم كله بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له بالجنة والنعيم المقيم في الآخرة، وكان إنزاله باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيّناً واضحاً قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً على الحق، هادياً إلى الرشاد، مصلحاً أحوال العباد.

وقوله ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ دليل على أن القرآن محفوظ، وأن الرسول ﷺ متمكن منه، وثابت في وعيه؛ لأن القلب موضع التمييز، ومركز الحواس الروحية، ومحل الإدراك والوعي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٥٠/٣٧] ، وقال ﷺ فيما أخرجه الصحيحان: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». وندد تعالى بأن قلوب الكفار مغلقة، فقال: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٤٧/٢٤] ، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٦] .

وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ توبيخ للمشركين في مكة وتقريع لهم وتحريض على الإيمان به، فإنهم كذبوه لا لعسر فهمه، فهو بلغتهم، وإنما بسبب العناد والاستكبار والأنفة.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يدخل تحت الإنذار الدعاء إلى كل واجب من علم وعمل، والمنع من كل قبيح؛ لأنه في كلا الحالين يوجد الخوف من العقاب.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي وإن ذِكْر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب المتقدمين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، عملاً بالميثاق الذي أخذ به عليهم، وعبر عنه آخرهم وهو عيسى مبشراً بأحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦١/٦] والزبر هنا: هي الكتب، وهي جمع زبور، ومنها زبور داود أي كتابه. وكذلك جميع الكتب السابقة المنزلة على الأنبياء بشرت بالنبي ﷺ وبأنه سينزل عليه قرآن يشهد بصدقها، ويهيمن عليها: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٢/٨٩] . وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَآ

﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨].

والخلاصة: إن هذه الآيات تتضمن أدلة ثلاثة على أن القرآن من عند الله: وهي كونه منزلاً على قلب النبي الأمي الذي لم يسبق له علم بشيء منه، والذي وعاه وحفظه وأنذر به، وكونه بلسان عربي مبين تحدى به العرب على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، بل بسورة منه، فعجزوا، مما يدل على أنه من عند الله، لا من عند محمد، وكونه منوهاً به ومبشراً به في الكتب السماوية السابقة. وإذا ثبت كون القرآن من عند الله، ثبتت نبوة النبي المصطفى ﷺ.

الدليل الثاني على نبوته ﷺ وصدقه:

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾؟ أي أو ليس يكفيهم شاهد على صدقه أن علماء بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها من التوراة والإنجيل، وبيان صفة النبي ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، وكان مشركو قريش يذهبون إليهم ويسألونهم عن ذلك ويتعرفون منهم هذا الخبر. ذكر الثعلبي عن ابن عباس: أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبي ﷺ، فقالوا: هذا أوانه، وذكروا نعته[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

وهذا يدل دلالة واضحة على نبوته ﷺ؛ لأن تطابق الكتب الإلهية على إيراد نعمه ووصفه يدل قطعاً على نبوته.

(١) البحر المحيط: ٧/ ٤١

وبعد أن بيَّن الله تعالى بالدليلين المذكورين نبوة محمد ﷺ وصدق لهجته، بيَّن بعدئذٍ أن هؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل ولا البراهين، فقال:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ أي ولو فرضنا أننا أنزلنا هذا القرآن على بعض الأعاجم، وهم الذين لا ينطقون باللغة العربية، فضلاً عن أن يقدروا على نظم مثله، فقرأه عليهم فصيحاً معجزاً متحدى به، لكفروا به أيضاً، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٤]، وذلك بحجة عدم فهمهم له، أما العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وإعجازه، فلا عذر لهم في عدم الإيمان به.

وعلى هذا، الأمر سيّان، فسواء أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وإعجازه، أو أنزلناه على أعجمي لا يحسن العربية لكفروا به.

وهذا دليل ملموس على تعنت كفار قريش وعنادهم وشدة كفرهم، مع أنهم عرفوا الحق، وأدركوا سرّ فصاحة القرآن وبلاغته، ولكنهم تجاهلوه عصبيةً وأنفةً واستكباراً. وفيه أيضاً تسلية لرسول الله ﷺ وتخفيف لأحزانه لإعراض قومه عن الإيمان برسالته.

ثم أكد الله تعالى هذا الموقف المتعنت فقال:

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي أدخلناه ومكنَّاه، والمعنى: مثل إدخالنا التكذيب به بقراءة الأعجمي على العرب، أدخلنا التكذيب به في قلوب المجرمين كفار قريش. والمقصود أنه مهما فعلنا من إنزال القرآن على عربي أو أعجمي، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الجحود والإنكار، فإن الكفر به والتكذيب له متمكن في قلوبهم، فلا ينفعهم في اقتلاع الكفر من نفوسهم أي وسيلة علاج أو إصلاح، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا

﴿فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: ٦/٧] .

وهذا أيضاً مما يفيد تسلية الرسول ﷺ؛ لأنه إذا عرف هذا الرسول إصرارهم على الكفر، وأنه تمّ القضاء به لسبق علم الله بموقفهم المتصلب الذي لا يتغير، حصل له اليأس من إيمانهم والاطمئنان على سلامة موقفه منهم، وأنه لا ضير عليه في ذلك.

وزاد في التأكيد والتوضيح والبيان فقال:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٢٠١﴾ أي إنهم يظلون كافرين، غير مؤمنين بالحق، جاحدين له في قلوبهم، لا يزالون على التكذيب به، حتى يعاينوا العذاب الشديد الألم.

ثم أخبر الله تعالى عما هو أشد من العذاب وهو مجيئه فجأة، فقال:

﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٠٢﴾ أي إن هذا العذاب يأتي أولئك المكذبين بالقرآن فجأة، دون أن يشعروا بمجيئه، وحينئذٍ يتحسرون، كما قال تعالى:

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ۝٢٠٣﴾؟ مؤخرون، أي إنهم يتمنون حينئذٍ تأخير العذاب قليلاً حينما يشاهدونه، ليتداركوا ما فاتهم، ويعملوا في زعمهم بطاعة الله تعالى، ولكن لا ينفعهم الندم ولن يؤجلوا؛ لأنهم يعلمون ألا ملجأ في الآخرة، وإنما يذكرون ذلك استرواحاً.

ومع هذا البيان والإنذار تغلب عليهم الحماقة والجهل، فيطلبون تعجيل العذاب، فقال: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤﴾؟ أي كيف يطلبون تعجيل العذاب، بقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ٢٦/١٨٧] وقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧/٧٠] ، وهم عند نزول العذاب يطلبون التأجيل والتأخير، فهم قوم متناقضون.

وهذا إنكار عليهم وتهديد لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول ﷺ تكذيباً واستبعاداً: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٩] .

ثم بيّن الله تعالى أن استعجال العذاب على وجه التكذيب إنما يحدث منهم ليتمتعوا في الدنيا، فقال:

﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾أي لو فرض أيها المخاطب أننا لو أطلنا في عيشهم ليتمتعوا من نعيم الدنيا طوال سنين، ثم جاءهم العذاب الموعود به فجأة، فلا يجدي أي شيء عنهم، ولا ما كانوا فيه من النعيم، ولا يخفف من عذابهم، ولا يدفعه عنهم؛ لأن مدة التمتع في الدنيا مهما طالت متناهية قليلة، ومدة العذاب في الآخرة غير متناهية، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٦] ، وقال سبحانه: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٩٦] ، وقال عزّ وجل: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الليل: ٩٢/ ١١] .

عن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن البصري في الطواف بالكعبة، فقال له: عِظني، فلم يزد على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت[١].

وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بالكافر فيُغمَس في النار غَمْسة، ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا والله يا ربّ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط، فيقول: لا والله يا ربِّ» أي كأن شيئاً لم يكن.

ثم أخبرالله تعالى عن قانون عدله التام الدائم في خلقه، وهوأنه لا يعذب

(١) تفسير الرازي: ٢٤/ ١٧١.

قوماً إلا بعد إنذار، ولا يهلك أمة إلا بعد إعذار وبيان الحجة، وبعثة الرسل، فقال: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ أي وما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد إرسالنا إليهم رسلاً ينذرونهم من عذابنا على كفرهم، ويبشرونهم بالنعيم إن آمنوا وأطاعوا، وذلك تذكرة لهم وتنبيه إلى ما يجب عليهم، ولم نكن في أي حال ظالمين لهم في عقابهم، وإنما أصروا على الكفر والجحود وعبادة غيرنا.

وهذا المبدأ شهير مكرر في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥] ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٩] .

ثم ردَّ الله تعالى على المشركين الذين كانوا يقولون: إن محمداً كاهن، وإن ما أنزل عليه من القرآن مثلما تلقي الشياطين على الكهنة، فقال: ﴿نَزَلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ، وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ أي إن القرآن العظيم لم تُلق به الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة، ولا يتيسر لهم ولا يسهل ولا يتمكنون من ذلك، فهم عن سمع الملائكة التي تنزل بالوحي مرجومون بالشهب، معزولون عن استماع كلام أهل السماء.

فهذا الإنزال يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه[1]:

أحدها:

إنه ليس هو من بغيتهم ولا من مطلبهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وفي القرآن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو هدى ونور وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، وتغاير شديد.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٤٩ .

الثاني:

إنّه لو انبغى لهم لما استطاعوا تحمله، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢١] .

الثالث:

أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إليه؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً، في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلا يشتبه الأمر.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ - القرآن الكريم: كلام الله القديم المنزل بواسطة جبريل الأمين على قلب النبي ﷺ باللسان العربي المبين، والذي أعلنت عن نزوله كتب الأنبياء المتقدمين. نزل به جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، فتلاه عليه، ووعاه قلبه منه، ورسخ في عقله رسوخاً كالنقش في الحجر، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٢/ ٩٧] ، وقال سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٦-١٩] .

ونزوله بلغة العرب لئلا يقولوا: لسنا نفهم ما تقول. وبشّرت بنزوله كتب الأنبياء المتقدمين، كما بشّرت ببعثة محمد ﷺ.

٢ - أثبتت الآيات نبوة النبي محمد ﷺ، لأنه مع كونه أمياً بهر العالم ببلاغة القرآن وفصاحته، وإخباره عن المغيبات، وإثرائه الحياة بأنظمة سديدة رصينة لا تقبل الطعن ولا النقد، وهذا العطاء الإلهي دليل قاطع على النبوة. كما أن

من الأدلة على النبوة علم أهل الكتاب بأوصاف النبي ﷺ ونعوته، سواء من أسلموا أم من لم يسلموا.

وإنما صحت شهادة أهل الكتاب وصارت حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون إليهم في شؤون الدين، يسألونهم عن مدى تطابق القرآن مع ما أخبرت به كتبهم الدينية.

٣ً - إن مهمة النبي ﷺ وغيره من الأنبياء هي الإنذار ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ ويدخل في الإنذار الدعوة إلى كل واجب من علم وعمل، والمنع من كل قبيح.

٤ً - إن كفر المشركين من أهل مكة بالقرآن مجرد عناد واستكبار، دون دليل ولا برهان، وإنما على العكس علموا بأنه الحق ثم جحدوه، وكان تحدي القرآن لهم بالإتيان بمثل سورة منه حجة عليهم، فهو منزل بلغتهم، فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته، وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله، وانضم إلى ذلك بشارة كتب الله السالفة به، فلم يؤمنوا به وجحدوه عناداً وأنفة ومكابرة، وسموه - زوراً وبهتاناً - شعراً تارة، وسحراً أخرى.

ولو نزل هذا القرآن على رجل ليس بعربي اللسان (أعجمي) فقرأه على كفار قريش بغير لغة العرب، لما آمنوا ولقالوا: لا نفقه ما نسمع. فهذا إلزام لهم، وإنكار عليهم، وفضح لأحوالهم؛ لأن القرآن نزل بلغتهم فهم أولى الناس بالإيمان به.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الموقف المتعنت بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي إن الذي منعهم من الإيمان، وإعلان الكفر بالقرآن والتكذيب به هو الإصرار على ما هم عليه والحفاظ على رياساتهم ومصالحهم المادية، حتى أصبح ذلك مُدْخلاً سالكاً في قلوبهم، خَلْقاً غير قابل للتغيير والتبديل، بمنزلة أمر جبلوا عليه وفطروا، كما يقال: فلان مجبول على الشّح، والمراد تمكن الشّح فيه.

ولا يتصور إيمانهم بالقرآن والنبي ﷺ إلا حين مشاهدة العذاب المؤلم ومعاينته، ومجيئه فجأة دون أن يشعروا به، وهو إما عذاب الدنيا، وإما عذاب الساعة (القيامة) وحينئذٍ يقولون: هل نحن مؤخرون وممهلون، إنهم يطلبون الرجعة إلى الدنيا فلا يجابون إليها.

ومعنى التعقيب في قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا﴾ كما ذكر الزمخشري: ليس ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال التأخير فيه في الوجود، وإنما المعنى ترتبها في الشدة، كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب، فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم فجأة، فما هو أشد منه، وهو سؤالهم التأخير. ومثال ذلك: أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مقَتك الصالحون، فمقتك الله، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب: أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، إنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين، فما هو أشد من مقتهم، وهو مقت الله[١].

٥ - كان جزاء هذا الموقف المتعنت لكفار قريش تبكيتهم بالإنكار عليهم والتهكم على أمر آخر، وهو: كيف يستعجل العذاب المعرَّضون للعذاب؟ ثم يشنع القرآن عليهم ويوبخهم على حبهم إطالة الاستمتاع بالدنيا، فذلك العذاب المنتظر والهلاك كائن لا محالة، ولا يغني عنهم الزمان الذي كانوا يمتعونه.

عن الزهري: إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح، أمسك بلحيته، ثم قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

---

(١) الكشاف: ٢/ ٤٣٧

٦ً - اقتضت عدالة الله ورحمته ألا يهلك قوماً أو يعذب أهل قرية إلا بعد إرسال الرسل المنذرين لهم بأس الله وعذابه، فإذا جاء العذاب أو العقاب، لم يكن الله ظالماً في تعذيبهم، حيث قدم الحجة عليهم وأعذر إليهم.

٧ً - القرآن - كما تقدم - نزل به الروح الأمين من عند الله تعالى، ولم تنزل به الشياطين، فإنه لا يتيسر لهم إنزاله، ولا يستطيعون تحمله وتأديته، ولا يتمكنون من اختلاسه واستراقه؛ لأنهم معزولون عن سمع ملائكة السماء برمي الشهب عليهم فتحرقهم.

٨ً - محل العقل: ورد في الآية أن القرآن منزل على قلب النبي ﷺ فهل المراد بالقلب العضو المعروف في الجانب الأيسر من الإنسان أم العقل الكائن في الدماغ؟ المعروف لدى علماء الطب والتشريح المعاصر أن محل العقل الدماغ. أما العلماء القدماء فانقسموا فريقين: فريق يرى أن محل العقل القلب، وفريق آخر يرى أن محل العقل الدماغ[(١)].

واستدل الفريق الأول بالأدلة التالية:

الأول - قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦/٢٢] ، وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩/٧]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧/٥٠] أي عَقْل، أطلق عليه اسم القلب؛ لأنه محله.

الثاني - أنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب، وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠/٢] ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧/٢] ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥/٤] ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤/٩] ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي

(١) تفسير الرازي: ١٦٧/٢٤

قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١١] ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤] ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٦] دلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب، فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضاً هو القلب.

الثالث - إذا أمعن الإنسان في الفكر وغيره أحس من قلبه ضيقاً وضجراً حتى كأنه يتألم بذلك، مما يدل على أن موضع العقل هو القلب، فوجب أن يكون المكلف هو القلب؛ لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم.

الرابع - أن القلب أول الأعضاء تكوناً، وآخرها موتاً.

واحتج الفريق الثاني القائل بأن العقل في الدماغ بما يأتي:

الأول - إن الحواس التي هي آلات الإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب، أي إن الدماغ محل الإحساس.

الثاني - إن الأعصاب آلات الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب، أي إن الدماغ مركز التنبيه العصبي.

الثالث - إن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل، مثل الجنون والنزف الدماغي.

الرابع - جرى العرف على أن من أريد وصفه بقلة العقل، قيل: إنه خفيف الدماغ، خفيف الرأس.

الخامس - إن العقل أشرف أجزاء الإنسان، فيكون مكانه أشرف، والأعلى هو الأشرف، وذلك في الدماغ، لا القلب.

ورأيي هو ترجيح الرأي الثاني؛ لأن العلم الحديث أجرى مئات التجارب

على الدماغ وما فيه من مخ ومخيخ، فوجد أنه محل العقل والإحساس والتنبيه والذاكرة وغير ذلك من وظائف الدماغ، فدل على أنه هو محل العقل. أما الآيات القرآنية المتقدمة التي يفهم منها كون العقل في القلب، فذلك من قبيل الإطلاق العرفي السائد في الكلام، والذي يراد به العقل، فيقال: لا قلب عنده، أي لا عقل.

أما القيم الأدبية أو الأخلاقية: فمحلها القلب باعتباره المعبر عن النفس الإنسانية التي لا حياة فيها إلا بالقلب.

ثم إن المعاني المتقدمة التي تختص بالقلوب، ويراد بها المعاني العقلية كالنية والمعلومات والمعارف، قد تنسب إلى الصدر تارة، وإلى الفؤاد أخرى. أما الصدر: فلقوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: ١٠٠/ ١٠] ، وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤] ، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٣] ، ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٩] .

وأما الفؤاد فقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٠] .

آداب الداعية وواجباته

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾

القراءات:

﴿وتوكّل﴾ :

وقرأ نافع، وابن عامر (فتوكَّلْ).

البلاغة:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ بأسلوب التهييج والإلهاب، لما عرف عنه من زيادة إخلاص وتقوى.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ استعارة مكنية، حذف منها المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، شبَّه التواضع ولين الجانب بخفض الطائر جناحه عند إرادة الهبوط، فأطلق على المشبه اسم الخفض.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ إن فعلت شيئاً مما دعوك إليه، وهذا تهييج للنبي ﷺ وإلهاب لزيادة الإخلاص، وتحذير لسائر المكلفين. ﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ هم بنو هاشم وبنو المطلب، وقد أنذرهم جهاراً، كما روى البخاري ومسلم، وبدأ بالأقرب منهم فالأقرب؛ لأن الاهتمام بشأنهم أهم، روى أحمد ومسلم وغيرهما أنه ﷺ: «لما نزلت هذه الآية، صعد الصفا، وناداهم فخذاً فخذاً، حتى اجتمعوا إليه، فقال: لوأخبرتُكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً، أكنتم مصدِّقي؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ ألن جانبك. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين، و﴿مِنَ﴾: بيانية أو للتبيين. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ ولم يتبعوك أي عشيرتك. ﴿بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عبادة غير الله، أي مما تعملونه أو من أعمالكم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ أي فوض إلى الله جميع أمورك، فهو الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد (صلاة الليل). ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ تغير

أحوالك في أركان الصلاة، قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً .﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ المصلين. وإنما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحال نبيه التي بها يستأهل ولايته، بعد أن وصف تعالى نفسه بأن من شأنه قهر أعدائه ونصر أوليائه، تحقيقاً للتوكل، وتطميناً لقلبه عليه .﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله .﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن جريج قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ بدأ بأهل بيته وفصيلته، فشقَّ ذلك على المسلمين فأنزل الله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾

المناسبة:

بعد أن بالغ الله تعالى في إيناس رسوله أولاً بقصص الأنبياء وما تبعها، ثم أقام الحجة على نبوته ثانياً، ثم أجاب عن سؤال المنكرين، أمره بعد ذلك بما يتعلق بالتبليغ والرسالة، فرتب له طريق الإنذار بدءاً بالأقرب فالأقرب. والرفق بالمؤمنين، ثم ختم وصاياه له بالتوكل عليه تعالى وحده.

سيرته ﷺ في التبليغ:

وردت أحاديث كثيرة توضح كيفية قيامه ﷺ بإبلاغ رسالته والدعوة إلى ربِّه، منها: ما رواه أحمد ومسلم عن عائشة قالت: «لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: يا فاطمةُ بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم».

ومنها: ما رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أتى النبي ﷺ الصفا، فصعِد عليه، ثم نادى: «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه

بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فِهْر، يا بني لؤي، أرأيتم لوأخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١١١/١] .

ومنها: ما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فعمَّ وخصّ، فقال: «يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسَكم من النار، يا معشر بني هاشم، أنقذوا أنفسَكم من النار، يا معشر عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، فإني والله، لا أملك لكم من الله شيئاً، ألا إن لكم رَحِماً، وسأبُلُّها ببِلالها» يريد: أصِلُكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئاً.

التفسير والبيان:

تضمنت هذه الآيات أوامر أربعة للنبي ﷺ تتعلق بتبليغ رسالته وهي:

أ - ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ أي اعبد الله وحده لاشريك له، واحذر أن تدعو أو تعبد معه إلهاً غيره، فإن العبادة لا تكون إلا لله وحده بإخلاص، والشرك رأس المعاصي.

وهذا حثّ للرسول ﷺ على زيادة الإخلاص في العبادة، فالله يعلم أنه لا يكون ذلك منه، ثم إنه بدأ بالأمر به؛ لأنه قائد الأمة، فكان ذلك في الحقيقة توجيهاً وخطاباً لغيره من الناس؛ لأن من شأن الحكيم إذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود بذلك هم الأتباع. والخلاصة: أنه بدأ بالرسول ﷺ فتوعده إن دعا مع الله إلهاً آخر، ثم أمره بدعوة الأقرب فالأقرب، فقال:

٢ - ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أي خوف أقاربك في العشيرة بأس الله وعذابه لمن أشرك به سواه.

وهذا جزء من مهمته بإنذار البشر كافة من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٧]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١].

ويأتي التبشير عادة مع الإنذار، كما ذكر في آيات كثيرة، منها: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٧]، ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٥-٤٦].

وروى مسلم عن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دَخَلَ النار».

ثم أمره ربه بالرفق بالمؤمنين، فقال:

٣ - ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ أي ألن جانبك وارفق بأتباعك الذين آمنوا بك وصدقوك، فذلك أطيب لقلوبهم.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ أي فإن عصاك أحد ممن أنذرتهم من عشيرتك وغيرهم، فقل: إني بريء من أعمالكم التي ستجازون عليها يوم القيامة.

٤ - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أي وفوض جميع أمورك إلى الله القوي القاهر الغالب القادر على الانتقام من أعدائه، الرحيم بأوليائه، الذي يراك حين تقوم للصلاة

بالناس، ويرى أحوالك متقلباً من قائم إلى قاعد، وراكع إلى ساجد، فيما بين المصلين. وعبَّر عنهم بالساجدين؛ لأن العبد أقرب ما يكون من ربّه، وهو ساجد.

والمقصود أن الله مؤيدُك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك، ومعتنٍ بك في جميع أحوالك التي منها الصلاة وما فيها من قيام وركوع وسجود، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٥٢/٤٨].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ أي إن ربك هو السميع لأقوال عباده، العليم بأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم ونواياهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ١٠/٦١].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - المساواة أمام التكاليف الشرعية دون استثناء أحد: فإذا أُمر رسول الله ﷺ وهو القائد والقدوة بإخلاص العبادة لله تعالى، وبالبدء بإنذار أقاربه، كان غيرهم مطالباً بجميع التكاليف الشرعية بالأولى، وكان الإنذار لمن عداهم أشد تأثيراً وأجدى نفعاً، وهو دليل على إلغاء جميع الامتيازات لأحد في الإسلام، فلا يعفى شخص وإن كان حاكماً ولا حاشيته من الالتزام بتطبيق شرع الله ودينه.

٢ - دلت الآية: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ والأحاديث المتقدمة على أن القرب في الأنساب لا ينفع، مع إهمال الأسباب والتفاني في الأعمال الصالحة. ودلت أيضاً على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته؛ لقوله ﷺ في الحديث المتقدم: «إن لكم رَحِماً سأبُلُّها ببِلالها» وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا

يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨] .

٣ً - إن الإحسان إلى الأتباع من حسن السياسة، ومما يحقق فوائد جمة، لذا أمر الرسول ﷺ بالتواضع وإلانة الجانب لأتباعه المؤمنين برسالته، المستقيمين على منهج الحق وتقوى الله. فإن عصوا وخالفوا أمره، فإنه ﷺ بريء من معصيتهم إياه؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عزّ وجلّ، باعتبار أنه ﷺ لا يأمر إلا بما يرضي ربه، ومن تبرأ منه رسول الله ﷺ فقد تبرأ الله منه.

٤ً - التوكل على الله من أصول الإيمان وخصائصه في الإسلام، وقد أمر الله نبيه بتفويض أمره إلى ربه العزيز الذي لا يُغالَب، الرحيم الذي لا يخذل أولياءه.

٥ً - إن الله تعالى عاصم نبيه من كل سوء، حافظه من كل مكروه، ناصره على أعدائه، معتنٍ بأمره كله، يعلم بكل أنشطته وأعماله، فهو يراه حين يقوم إلى الصلاة، ويراه قائماً وراكعاً وساجداً؛ لأنه سبحانه السميعُ لأقوال عباده جميعاً، العليم بجميع حركاتهم وسكناتهم.

٦ً - قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أي تنقله وسلالته في أصلاب الآباء: آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً.

وقد استدل الشيعة بهذه الآية على أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين، كما استدلوا على ذلك بالخبر التالي في قوله ﷺ: «لم أزل أُنقلُ من أصلابِ الطاهرين إلى أرحام الطاهرات».

الرد على افتراء المشركين بأن النبي كاهن أو شاعر

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾:

وقرأ نافع (يتْبَعُهُم).

الإعراب:

﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ﴿أَىَّ﴾ منصوب على المصدر بـ ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ وتقديره: أي انقلاب ينقلبون. ولا يجوز نصبه بـ(سيعلم) لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، وإنما يعمل فيه ما بعده.

البلاغة:

﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ كلاهما صيغة مبالغة على وزن فعّال وفعيل، أي كثير الكذب كثير الفجور.

﴿يَقُولُونَ﴾ و﴿يَفْعَلُونَ﴾ و﴿وَٱنتَصَرُوا۟﴾ و﴿ظُلِمُوا۟﴾ بين كلٍّ طباق.

﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ استعارة تمثيلية، شبه حال الشعراء بإفراطهم في المديح والهجاء واسترسال الخيال بالتائه في الصحراء الذي هام على وجهه، فهو لا يدري أين يسير.

﴿مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿يَهِيمُونَ﴾، ﴿يَنقَلِبُونَ﴾، ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ سجع لمراعاة الفواصل وخواتيم الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم يا أهل مكة وأمثالكم. ﴿تَنَزَّلُ﴾ أي تتنزل، ثم حذفت إحدى التاءين من الأصل. ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذاب. ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر، مثل مسيلمة الكذاب وغيره من الكهنة، وهما صيغة مبالغة، أي كثير الإفك والكذب، كثير الذنوب والفجور. ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي الأفاكون من الشياطين يصغون أشد الإصغاء إلى الشياطين، فيتلقون منهم ما أكثره كذب وزور من الظنون والأمارات. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فسره بعضهم بالكل؛ لقوله تعالى: ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ قال البيضاوي: والأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم، على معنى أن هؤلاء قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني. وقيل: تعود الضمائر للشياطين، أي يلقون ما سمعوه من الملائكة إلى الكهنة، ويضمون إلى المسموع كذباً كثيراً، وكان هذا قبل أن حجبت الشياطين عن السماء.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾ أي الضالون المائلون عن منهج الاستقامة، فهم مذمومون، وهذا للمقارنة بينهم وبين المؤمنين، فالشعراء يتبعهم الضالون في شعرهم، فيقولون به، ويروونه عنهم، أما أتباع محمد ﷺ فليسوا كذلك. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم. ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام وفنونه، والوادي: الشِّعْب. ﴿يَهِيمُونَ﴾ يمضون أو يسيرون حائرين، فيجاوزون الحد مدحاً وهجاء؛ لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها، وأغلب كلماتهم في الباطل. ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي يكذبون فيقولون: فعلنا وهم لم يفعلوا.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي من الشعراء. ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ لم يشغلهم الشعر

عن الذكر. ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾ بهجوهم الكفار. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بهجو الكفار لهم مع جملة المؤمنين، فليسوا بمذمومين، لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨/٤] وقوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤/٢]. ﴿مُنقَلَبٍ﴾ مرجع. ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يرجعون بعد الموت، وهو تهديد شديد؛ لأن قوله: (سيعلم) وعيد بليغ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ على الإطلاق والتعميم، وقوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ فيه إبهام وتهويل.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٢٤) وما بعدها: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء، فأنزل الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ الآيات.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة قال: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ قال عبد الله بن رَواحة: قد علم الله أني منهم، فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلخ السورة.

وأخرج ابن جرير والحاكم عن أبي حسن البراد قال: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ الآية، جاء عبد الله بن رواحة، وكَعْب بن مالك، وحسان بن ثابت، فقالوا: يا رسول الله، والله لقد أنزل الله هذه الآية، وهو يعلم أنا شعراء، هلكنا، فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، فدعاهم رسول الله ﷺ، فتلاها عليهم.

المناسبة:

هذا عود على بدء، فبعد أن أبان الله تعالى استحالة تنزل الشياطين بالقرآن

(الآية ٢١٠ وما بعدها) وأثبت أنه تنزيل من رب العالمين، أردف ذلك بأن الشياطين تتنزل على كل كذاب فاجر، لا على الرسول الصادق الأمين، فهو ليس من فئة الكهنة الذين يستمعون إلى الشياطين، كما أنه ليس من فئة الشعراء الغارقين في الخيال، الهائمين في كل واد من فنون القول والكلام، من غير ترجمة للحقيقة، ولا صدق في القلب، وقناعة في العقل، والرسول ﷺ لا ينطق إلا بالحق ولا يتكلم إلا بالصدق.

ولما كان إعجاز القرآن من جهة المعنى واللفظ، وقد قدح المشركون في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء، فإنه تعالى ردّ على القسمين، وبيَّن منافاة القرآن لهما، ومخالفة حال الرسول ﷺ لحال أصحابهما، فهو ليس بكاهن ولا بشاعر.

التفسير والبيان:

هذه الآيات تتضمن نفي فِرْيتين عن القرآن وعن الرسول ﷺ، وهما الكهانة والشعر، فليس القرآن الكريم من جنس ما تتلقاه الكهنة عن الشياطين، وليس هو من الشعر في شيء، كما أن رسول الله ﷺ ليس كاهناً ولا شاعراً.

أما الفرية الأولى فوصفها تعالى ثم ردَّ عليها فقال:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾؟ أي هل أخبركم خبراً حقيقياً، نافعاً لكم في قاموس المعرفة والعلم، على من تنزل عليه الشياطين من الكهان ونحوهم من الكذَبة الفسَقة؟

وكان للكهانة تأثير كبير عند العرب في الجاهلية، ولكهانهم مركز مهم، لقطع النزاع، وفض المشكلات من الأمور، مثل هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان، وفاطمة الخثعمية.

وهذه الآيات رد على من زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رَئِيٌّ من الجن، أي مسّ، وبيان قاطع بأن ما جاء به هذا الرسول ﷺ إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم، أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، والجواب من وجهين:

١ - ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي إن الشياطين تنزل على كل كذوب، فاجر فاسق في أفعاله، من الكهنة المتنبئة، مثل شِقّ بن رَهْم، وسَطِيح بن ربيعة، ومسيلمة وطليحة، ومن الكفار الذين يدعون إلى طاعة الشيطان، ومحمد ﷺ كان يدعو إلى لعن الشيطان والبراءة عنه. وأما الكهنة فالغالب عليهم الكذب، ومحمد ﷺ فيما أخبر عنه من المغيبات لم يظهر عليه إلا الصدق.

٢ - ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ أي يصغي الكهنة الأفاكون سمعهم إلى الشياطين، فيلقون وحيهم الزائف إليهم، ويتلقفون منهم ما أكثره كذب وزور من الظنون والأمارات، فأكثر الشياطين كاذبون فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يُسمعونهم ما لم يسمعوا، كما أن أكثر الأفاكين كاذبون، يفترون على الشياطين ما لم يوحوا به إليهم، فيكون أكثر ما يحكمون به باطلاً وزوراً.

وقيل: يعود الضمير إلى الشياطين، أي يلقون إلى أوليائهم الكهنة المسموع من الملائكة، مما يختطفونه من بعض الكلمات، مما اطلعوا عليه من المغيبات، قبل أن يحجبوا بالرجم، ويبعدوا عن التقاط الكلام من الملأ الأعلى، ثم يوحون به إلى أوليائهم، ويضمون إلى المسموع كذباً كثيراً.

والخلاصة: إن الواقع خير شاهد، يوضح كالشمس الفرق بين النبي ﷺ والكهنة، فكل ما أخبر به النبي عن ربه كان صادقاً مطابقاً للواقع؛ ولم يعرف عنه في سيرته الطويلة المدى إلا الصدق، وأكثر ما يخبر به الكهنة كذب يتنافى

مع الواقع، ولم يعرف عن الكهنة إلا الكذب، لذا مجهم التاريخ، ورفضهم العقل، ولم يعد يصدق أباطيلهم وترهاتهم إلا السُّذَّج البسطاء من الأولاد والنساء وبعض الكبار السطحيين.

وبعد أن بيَّن الله تعالى الفرق بين محمد ﷺ وبين الكهنة، بين الفرق بينه ﷺ وبين الشعراء، رداً على الكفار القائلين: لم لا يجوز أن يقال: إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد، كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء، جرياً على ما هو المعتاد بأن لكل كاهن وشاعر شيطاناً، فقال:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ أي إن الشعراء يتبعهم الضالون، ضُلال الإنس والجن، المنحرفون عن جادة الحق والاستقامة، أما أتباع محمد ﷺ فهم المهتدون المستقيمون القائمون على منهج الحق والإيمان بالله وعبادته والاستقامة على أمره. ثم بيَّن الله تعالى تلك الغواية بأمرين:

أ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ أي ألم تعلم أن الشعراء يخوضون في كل فن من الكلام، ويتناقضون مع أنفسهم، فقد يمدحون الشيء بعد أن ذموه، وبالعكس، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس، وذلك يدل على أنهم لا يقصدون إظهار الحق، ولا إعلان الصدق، فهم قوم خياليون عاطفيون، أما محمد ﷺ فلا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالصدق، ويدعو إلى طريق واحد وهو الدعوة إلى الله تعالى، والترغيب في الآخرة، والإعراض عن الدنيا غير المفيدة.

٢ - ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ أي إن أكثر قولهم الكذب، فإنهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر عنهم، وهذا أيضاً من علامات الغواة، فإنهم يرغّبون في الجود ويرْغبون عنه، وينفِّرون عن البخل ويصرّون عليه، ويقدحون في الأعراض لأدنى سبب، ولا يرتكبون إلا الفواحش، أما النبي محمد ﷺ فعلى خلاف ذلك، لا يأمر بالشيء إلا وقد فعله، ولا ينهى عن

الشيء إلا وقد اجتنبه، يأمره ربه بإخلاص العبادة له أولاً: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ ولا يستثني قرابته من شيء من التكاليف الشرعية أو المدنية أو السياسية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾. فمنهج الشعراء مخالف لحال النبوة، فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون، ودعوة الأنبياء واحدة، وهي الدعاء إلى توحيد الله وعبادته والترغيب في الآخرة والصدق[1].

ثم استثنى الله تعالى من الشعراء من اتصف بصفات أربع هي الإيمان، والعمل الصالح، وذكر الله وتوحيده، ونصرة الحق وأهله، فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ أي إلا الذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة، وذكروا الله كثيراً في كلامهم أو شعرهم، ودافعوا عن النبي ودينه وقاوموا الشرك وأهله، مثل حسان بن ثابت، وعبد الله بن رَواحة، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير الذين ردوا على الكفار الذين كانوا يهجون المؤمنين. ومثلهم بعدئذ البوصيري رحمه الله وأحمد شوقي في مدائحه النبوية ونحوهم.

وقيل: المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير؛ لأنهم كانوا يهجون قريشاً، وعن كعب بن مالك «أن رسول الله ﷺ قال له: اهجهم، فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل» وكان يقول لحسان بن ثابت: «قل وروح القدُس معك».

ثم ختم الله تعالى السورة بالتهديد الشديد والوعيد الأكيد، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي إن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، والتأمل في هذه البينات الفارقة بين نبوة

---

(١) البحر المحيط: ٧/ ٤٩

النبي وكهانة الكهان وشعر الشعراء، سيعلمون أي مرجع يرجعون إليه بعد الموت؛ لأن مصيرهم إلى النار، وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب، وهو شر مرجع.

ذكر الجمهور أن المراد من الآية الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء. قال الرازي: والأول - أي هذا الرأي - أقرب إلى نظم السورة من أولها إلى آخرها. ثم قال ابن كثير: والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم، كما قال ابن أبي حاتم، ومن الوقائع الشهيرة في الاستشهاد بهذه الآية ما قالته عائشة: «كتب أَبي في وصيته سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما وصّى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به، ورجائي فيه، وإن يَجُرْ ويبدل فلا أعلم الغيب: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾».

قال القرطبي: والفرق بين المنقلب والمرجع: أن المنقلب: الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع: هو العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها، فصار كل مرجع منقلباً، وليس كل منقلب مرجعاً، ذكره الماوردي.

فقه الحياة أو الأحكام:

حسمت الآيات الفرق بين النبوة وبين الكهانة والشعر، فالنبوة حق وصدق، والنبي موحى إليه من عند ربه، والقرآن كلام الله الذي نزل به جبريل الأمين على قلب النبي ﷺ.

ولا يمكن للشياطين أن تتنزل بالقرآن ولا تستطيعه ولا تنسجم معه، فهو يدعو إلى الإيمان والهداية والحق والاستقامة، أما الشياطين فتدعو إلى الكفر والضلال والباطل والفساد والانحراف.

والشياطين تتنزل على كل أفَّاك (كذوب) أثيم (فاجر في أفعاله) والكهنة يصغون السمع إلى الشياطين، وأكثر الكهنة والشياطين كاذبون في أخبارهم وأقوالهم. أما الأنبياء فينزل جبريل الأمين عليهم بالوحي الصادق الذي لا مِرْية فيه بكونه من رب العالمين.

والشعراء الماجنون يتّبعهم ضلال الجن والإنس الزائغون عن الحق، وهذا دليل على أن الشعراء أيضاً غاوون؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين، ما كان أتباعهم غواة. أما النبي فيتبعه صلحاء الجن والإنس؛ لأنه يدعو إلى الخير والصلاح والبر والتقوى.

والدليل على غواية أغلب الشعراء أمران: أنهم في كل لغو يخوضون، ولا يتبعون سَنَن الحق؛ لأن من اتّبع الحق وعلم أنه يُكتب عليه ما يقوله تثبَّت، ولم يكن هائماً على وجهه، لا يبالي بما قال؛ وأن أكثرهم يكذبون، فيدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه.

لكن هناك أيضاً شعراء صالحون هم المتصفون بالأوصاف الأربعة التالية: وهي الإيمان بالله الحق وبنبيه المرسل، والقيام بالعمل الصالح الذي يرضي الله، وذكر الله كثيراً في كلامهم، والانتصار من الظالم بعد ظلمه، والانتصار يكون بالحق وحده وبما حدَّه الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل. ثم حذر القرآن وهدد من انتصر بظلم، فإنه سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل، فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة.

موقف الإسلام من الشعر:

ورد عن النبي ﷺ أحاديث في الشعر، منها ما أقره، ومنها ما ذمَّه، فمن الأحاديث التي ذمَّت الشعر: ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلئ جوفُ أحدُكم قَيْحاً حتى يَرِيَه[1] خيرٌ من أن يمتلئ شِعْراً».

ومن الأحاديث التي مدحت الشعر ما رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حُكْماً».

ويمكن التوفيق بين الحديثين بحمل الأول على الشعر المذموم الرديء المردود، كالشعر الذي يتكلم في الغزل الخليع، ويشبِّب بالنساء والغلمان، والذي يدعو إلى الفجور والفسق، وإن كان فناً رائعاً في الأدب. ومنه شعر الشاعر الذي يتخذ الشعر طريقاً للتكسب، فيفرط في المدح إذا أُعطي، وفي الهجو والذم إذا مُنع، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم. ومثل هذا، كل ما يكتسبه بالشعر حرام، وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه، ولا يحل الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه، ولا يحل إعطاؤه شيئاً؛ لأن ذلك عون على المعصية، فإن لم يجد من ذلك بداً أعطاه للضرورة بنية وقاية العِرْض، فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتب له به صدقة.

ومنه شعر الهجاء الذي لم يقصد به هجو الكفار ونصرة الإسلام والمسلمين، فإن كان انتصاراً لمن هجا المسلمين، وشبب بأعراضهم جاز، وكان مستحسناً؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨/٤] .

ويحمل الحديث الآخر على الشعر الممدوح الحسن المقبول الذي قصد به إظهار الحق، وإيراد الحكمة، وتعليم الجاهل، ونصرة المظلوم والحق، والدفاع عن الوطن، والذود عنه بجيد الكلام، ونحو ذلك من كل ما فيه نفع، وتربية للنفوس، وتهذيب للعقول، وتوحيد الصفوف.

---

(١) ورى القيح جوفه يَرِيه وَرْياً: أكله. والقيح: المِدَّة يخالطها دم.

وهذا التوفيق بين الحديثين ما هو إلا نوع من وسطية الإسلام المعروفة، والاعتدال في الأشياء كلها؛ روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «الشعرُ بمنزلة الكلام، حَسَنُه كحسَن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»[(١)].

وردد هذا المعنى كبار الأئمة وعلماء اللغة والأدب، فقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: الشعر نوع من الكلام: حَسَنُه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته، وإنما يكره لمضمونه، وقد كان عند العرب عظيم الأثر والموقع.

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: ولا ينكر الحسنَ من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النُّهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثّل به أو سمعه، فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء، لا يحل سماعه ولا قوله. والخلاصة: إن من الشعر ما يجوز إنشاده، ومنه ما يُكره أو يحرم.

ومن الأمثال الرائدة والنماذج الطيبة للشعر الذي أقره النبي ﷺ ما يأتي:

أ - روى مسلم من حديث عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: رَدِفت رسول الله ﷺ يوماً، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصَّلْت شيء؟ قلت: نعم، قال: هِيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، ثم أنشدته بيتاً فقال: هيه، حتى أنشدته مئة بيت.

قال القرطبي: وهذا دليل على جواز حفظ الأشعار المتضمنة للحكمة

---

(١) رواه البخاري في الأدب والطبراني في الأوسط عن عبد الله بن عمرو، وأبو يعلى عن عائشة، وهو حسن.

والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً وعقلاً، أي والداعية إلى فضائل الأخلاق. وإنما استكثر النبي ﷺ من شعر أمية؛ لأنه كان حكيماً؛ ألا ترى قوله ﷺ: «وكاد أمية بن أبي الصَّلْت أن يسلم».

٢ً - فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه، فذلك مندوب إليه، وكذلك مَدْح رسول الله ﷺ، فقد مَدَحه العباس، فقال له: «لا يَفْضُضِ الله فاك» ومنه الدفاع عن النبي ﷺ، فقد أقر حسَّان بن ثابت على ذلك، ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجُهُم - أو هاجهم - وجبريل معك» أو «قل وروحُ القدُس معك». وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: قد أنزل الله في الشعراء ما أنزل، فقال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنَّ ما ترمونهم به نضْح النَّبْل» أو «اهجُهم، فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ عليهم من رَشْق النَّبْل».

٣ً - روى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «أصدقُ كلمةٍ - أو أشعر كلمة - قالتها العرب قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

أما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم: فهو المتكلم بالباطل، حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحّهم على حاتم، وأن يبهتوا البريء، ويفسقوا التقيّ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء، رغبة في تسلية النفس وتحسين القول، كالمكثر من اللغط والهذَر والغيبة وقبيح القول. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه بعنوان (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر).

لكن قد يكون الشعر حراماً كما بينا في أغراضه وفي أمثلة الشعر المذموم، وقد يكون كفراً كهجو النبي ﷺ، سواء كان قليلاً أو كثيراً. وأما هجو غير النبي ﷺ من المسلمين فهو محرم قليله وكثيره.

قال ابن العربي: أما الاستعارات والتشبيهات فمأذون فيها، وإن استغرقت الحدّ، وتجاوزت المعتاد. ثم قال: وبالجملة، فلا ينبغي أن يكون الغالب على العبد الشعر حتى يستغرق قوله وزمانه، فذلك مذموم شرعاً[١].

وقد أنهى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مشكلة تكسب الشعراء بشعرهم، فلم يعطهم العطايا المعتادة، وكشف حقائقهم، وساسهم بمنطق الشرع وعدله، فأعطى الفرزدق أربعة آلاف درهم، لئلا يعرض لأحد من أهل المدينة بمدح ولا هِجاء، ومنح الأحوص أحد شعراء المدينة مئة دينار، على أن يكف عن هجاء أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان، وعاقب الشاعر جرير بالرغم من مدحه، مع عمرو بن لجأ التيمي، لما تهاجيا وتقاذفا، وغضب على شاعر الخلاعة والغزل والتشبيب بالنساء عمر بن أبي ربيعة، ونفاه إلى دَهْلك، لكثرة تعرضه لنساء الأشراف وبناتهم[٢].

(١) أحكام القرآن: ٣/ ١٤٣٤ وما بعدها.

(٢) الخليفة الراشد العادل عمر بن عبد العزيز للمؤلف ٦٢ وما بعدها، المرجع السابق: ٣/ ١٤٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النمل

مكية وآياتها ثلاثة وتسعون

تسميتها:

سميت سورة النمل لإيراد قصة وادي النمل فيها، ونصيحة نملة منها بقية النمل بدخول جحورهن، حتى لا يتعرضن للدهس من قِبَل جند سليمان عليه السلام دون قصد، ففهم سليمان الذي علمه الله منطق الطير والدواب كلامها، وتبسم ضاحكاً من قولها، ودعا ربه أن يلهمه شكره على ما أنعم به عليه.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه:

أً - إنها كالتتمة لها في بيان بقية قصص الأنبياء، وهي قصة داود وسليمان عليهما السلام.

٢ً - إن فيها تفصيلاً لما أجمل في سورة الشعراء من القصص النبوي، وهي قصة موسى في الآيات [٧ - ١٤] وقصة صالح في الآيات [٤٥ - ٥٣] ولوط في الآيات [٥٤ - ٥٨].

٣ً - نزلت هذه السور الثلاث (الشعراء، والنمل، والقصص) متتالية على هذا الترتيب، وذلك كاف في ترتيبها في المصحف على هذا النحو. روي عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب نزول السور: أن الشعراء، ثم طس، ثم القصص. كما يوجد تشابه بينها في البداية والافتتاح (طسم، الشعراء، طس، النمل، طسم، القصص) ولعل التشابه بين الأولى والثالثة، والاختلاف الجزئي في الثانية دليل على تأكيد المقصود بهذه الحروف المقطعة وهو تحدي العرب بالقرآن الذي تكوَّن من حروف لغتهم المتركبة في جمل، بزيادة أحياناً ونقص أحياناً من تلك الحروف.

٤ً - كذلك وجد التشابه الموضوعي بينهما في وصف القرآن وتنزيله من عند الله؛ لأنه قال في بداية الشعراء: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ وقال هنا: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وقال في أواخر الشعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ وقال هنا: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي الذي هو تنزيل رب العالمين.

٥ً - تلتقي السورتان في بيان وحدة القصد من القصص القرآني، وهو تسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من أذى قومه، وإعراضهم عنه.

مشتملاتها:

هذه السورة المكية تتفق مع أغراض السور المكية في بيان أصول العقيدة: وهي التوحيد، والنبوة، والبعث، وإثبات كون القرآن الكريم منزلاً من عند الله العزيز الحكيم.

وإسهاماً في توضيح تلك الأغراض أبانت السورة معجزة النبي محمد ﷺ الخالدة، وهي تنزيل القرآن المجيد هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين. ثم سردت وقائع مثيرة من قصص الأنبياء: موسى، وداود، وسليمان، وصالح، ولوط، عليهم السلام، تبين مدى ما تعرَّض له موسى وصالح ولوط من أذى

أقوامهم، وتكذيبهم برسالاتهم، وإنزال العقاب الأليم بهم، وتنبّه إلى ما أنعم الله به على داود وسليمان من النعم العظمى، بهبة النبوة والمُلْك والسلطان، وتسخير الجن والإنس والطير، وإذعان الملكة بلقيس لدعوة سليمان.

وفي هذا حكمة بالغة لأصحاب السلطة هي اتخاذ السلطان والنفوذ سبيلاً للدعوة إلى الله جل جلاله.

وتلا ذلك بيان الأدلة والبراهين على وجود الله وتوحيده من خلق الكون: سمائه وأرضه، بره وبحره، وإلهام الإنسان الإفادة من كنوز الأرض، والهداية في ظلمات البر والبحر، وإمداده بالأرزاق الوفيرة، ومفاجأته بأهوال يوم القيامة ومغيبات الأحداث، وسعة علم الله، وتعاقب الليل والنهار.

وأنكرت السورة بعدئذ على المشركين تكذيبهم بالبعث والحشر والنشور، وألزمت بني إسرائيل بالاحتكام إلى القرآن في خلافاتهم وخصوماتهم، وتحدثت عن أشراط الساعة، كخروج دابة الأرض، وحشر فوج من كل أمة، وتسيير الجبال، ثم ذكَّرت بالنفخ في الصور لجمع الناس ومجيئهم داخرين صاغرين لله تعالى.

وختمت السورة بتصنيف الناس إلى سعداء أبرار، وأشقياء فجار، وجزاء كلٍّ بما يستحق خيراً أو شراً، وإعلام المشركين بوجوب عبادة الله وحده، والتخلي عن عبادة الأصنام والأوثان، والالتزام بمنهج القرآن ودستوره في الحياة؛ لأنه نور وهداية، ومن اهتدى فلنفسه ومن ضلَّ فعليها، وتعريفهم بآيات الله العظمى في وقت لا ينفعهم فيه شيء غير الإيمان بالله وحده، وتعرضهم للجزاء الحتمي عن جميع أعمالهم.

والخلاصة: إن ما ذكر في هذه السورة يدعو إلى المبادرة إلى الإيمان بالله تعالى رباً وإلهاً لا شريك له، والتصديق بالبعث طريقاً لإنصاف الخلائق، واتخاذ القرآن نبراساً ودستوراً للحياة الإنسانية.

رسالة القرآن

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

الإعراب:

﴿هُدًى﴾ إما منصوب على الحال من الكتاب، أي تلك آيات القرآن هادياً، ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ عطف عليه، أي مبشراً؛ وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هو هدى، أو خبر بعد خبر، فإن قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، و﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ خبره، و﴿هُدًى﴾ خبر بعد خبر.

﴿فِى ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْأٓخِرَةِ﴾ تبيين، وليس بمتعلق بالأخسرين، فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة.

البلاغة:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ إشارة بالبعيد بدلاً عن القريب، لبيان رفعة القرآن وعلو شأنه.

﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ التنكير للتفخيم والتعظيم، أي كتاب عظيم الشأن رفيع القدر.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ التعبير بالمصدر بدلاً عن اسم الفاعل للمبالغة، أي هادياً ومبشراً.

﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ بينهما مقابلة، وتكرار الضمير فيهما لإفادة الحصر والاختصاص.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ التأكيد بإن واللام للرد على المتشككين في القرآن.

المفردات اللغوية:

﴿طس﴾ تقرأ: طا، سين، وهذه الحروف المقطعة التي ابتدئ بها في كثير من السور القرآنية للتنبيه، أريد بها تحدي العرب للإتيان بمثل القرآن، ما دام مكوناً من حروف لغتهم التي بها ينطقون ويخطبون وينظمون الشعر.

﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ أي هذه الآيات، أو آي السورة ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ أي آيات من القرآن، والإضافة للتفخيم لها والتعظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم. ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مظهر للحق من الباطل، والمراد بالكتاب: إما اللوح، وإبانته: أنه قد خط فيه كل ما هو كائن، فهو يبينه للناظرين، وإما القرآن ذاته، وإبانته: أنه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكَم والشرائع، وإعجازه ظاهر مكشوف، وإذا أريد بالكتاب هنا القرآن، فيكون ذلك عطفاً لإحدى الصفتين على الأخرى، بزيادة صفة، ولتغايرهما في المدلول عليه بالصفة، من حيث إن مدلول ﴿الْقُرْآنِ﴾ الاجتماع، ومدلول (كتاب) الكتابة. وتنكير (كتاب) للتفخيم والتعظيم.

﴿هُدًى﴾ أي هو هادٍ من الضلالة. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي مبشراً للمصدقين بالجنة، أو هما حالان من الآيات، والعامل فيهما معنى الإشارة. ﴿يُقِيمُونَ

﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتون بها تامة على وجهها المطلوب. ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعطون الزكاة المفروضة. ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يصدقون ويعلمون بوجود الآخرة بالاستدلال، والواو: للحال، أو للعطف، وتغيير النظم للدلالة على قوة يقينهم وثباته، وأنهم الأوحدون فيه. ويصح أن تكون جملة اعتراضية، كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، لأن تحمل المشاق إنما يكون لخوف العاقبة والتوثق من المحاسبة.

﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ القبيحة، بأن جعلها مشتهاة للطبع، محبوبة للنفس. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتحيرون فيها لقبحها وعدم إدراكهم ما يتبعها من ضر أو نفع. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أشده في الدنيا، كالقتل والأسر يوم بدر. ﴿وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أشد الناس خسراناً؛ لفوات المثوبة، واستحقاق العقوبة في النار المؤبدة عليهم.

﴿وَإِنَّكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ. ﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ لتؤتاه، ويلقى عليك بشدة. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ من عند أحكم الحكماء وأعلم العلماء. والجمع بين الصفتين، مع أن العلم داخل في الحكمة، لعموم العلم، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، وللدلالة على أن علوم القرآن منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك كالقصص والإخبار عن المغيبات.

التفسير والبيان:

﴿طسٓ﴾ حروف مقطعة في أوائل السور، للتنبيه على إعجاز القرآن، كما بينا.

﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي هذه الآيات المنزلة عليك أيها النبي في هذه السورة هي آيات القرآن المجموع في النهاية، وآيات الكتاب المسطور في السطور، الواضح البيِّن، الذي سيبقى إلى يوم القيامة، ويسهل العمل به لوضوحه وبيانه المشرق، ويستفيد منه من تأمل فيه، واستعذب حلاوة كلام

الله، وفكَّر في عظمته وفضل الله تعالى في إنزاله وبيانه، فهو ليس من كلام البشر، بل ولا يستطيع أحد الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه.

وعطف الكتاب على القرآن من عطف إحدى الصفتين على الأخرى، كما بينا في المفردات، كما تقول: هذا فعل السخي والجواد والكريم. ويلاحظ أن هاتين الصفتين مرة يذكران بالتعريف، ومرة بالتنكير، والمعنى واحد، وأن القرآن له صفتان: قرآن وكتاب؛ لأنه يظهر بالقراءة والكتابة.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ أي إن القرآن هادٍ للناس من الضلالة، ومبشر المؤمنين الطائعين بالجنة وبرحمة الله تعالى.

ومعنى كون القرآن هدى للمؤمنين: أنه يزيدهم هدى على هداهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٤] وأنه يهديهم إلى الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٧٥] .

والتخصيص بالمؤمنين للدلالة على أن الهداية والبشارة إنما يحصلان لمن آمن به، واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه. ثم ذكر تعالى مظاهر الإيمان فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ أي إن المؤمنين المنتفعين بالقرآن هداية وبشارة هم الذين يؤدون الصلاة كاملة الأركان، تامة الشروط، مستحضراً فيها المصلي عظمة ربه، خاشعاً في تلاوته ومناجاته وأذكاره وتسبيحاته، ويعطون الزكاة المفروضة المطهرة لأموالهم وأنفسهم من الدنس والشبهات، ويوقنون بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، والجنة والنار، فيستعدون للأنسب الأفضل لهم، ويطيعون ربهم فيما أمر به، وينأون عما نهى عنه وزجر.

ثم قارن الله تعالى حال هؤلاء بحال من لا يؤمن بالآخرة، فذكر منكري البعث بعد ذكر المؤمنين الموقنين بالبعث فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ أي إن الذين يكذبون بالآخرة ويستبعدون وقوعها بعد الموت، حَسَّنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم، فهم يتيهون ويترددون في ضلالهم، جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٠] .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ أي أولئك جزاؤهم العذاب السَّيِّئ في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فمثل قتلهم وأسرهم يوم بدر، وأما في الآخرة فلهم عذاب النار، بل هم في الآخرة أشد الناس خسراناً، لا يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر؛ لأن عذابهم فيها دائم لا ينقطع.

وبعد وصف حال المؤمنين بالقرآن والمكذبين به، ذكر الله تعالى حال المنزل عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ أي وإنك أيها الرسول لتأخذ القرآن وتعطاه وتتعلمه من عند حكيم في أمره ونهيه وتدبير خلقه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها وبأحوال خلقه وما فيه خيرهم، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٥] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من هذه الآيات ما يلي:

١ - آيات هذه السورة آيات القرآن، وآيات كتاب مبين، وهما صفتان: صفة بأنه قرآن مقروء مجموع مصون، وصفة بأنه كتاب مكتوب، فهو يظهر

بالقراءة ويظهر بالكتابة. وذكر القرآن بلفظ المعرفة، وذكر كتاب بلفظ النكرة، وهما في معنى المعرفة، كما تقول: فلان رجل عاقل، وفلان الرجل العاقل. وذلك بدليل ورودهما في سورة الحجر بالعكس: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ فورد الكتاب بلفظ المعرفة، والقرآن بلفظ النكرة؛ لأن القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة، وأن يجعل صفة.

ووصف القرآن أو الكتاب بصفة «المبين» لأنه تعالى بيّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده.

٢ - وكذلك آيات هذا الكتاب أو القرآن هادية ومبشرة للمؤمنين بالجنة، أولئك المؤمنون المتصفون بأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويصدقون بالآخرة صدقاً لا شك فيه ولا تردد.

٣ - أما الذين لا يصدقون بالبعث فهم في حيرة وضلالة، يترددون في مهاوي الضلال، لذا عاقبهم الله جزاء كفرهم بتزيين أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة، قال الزجّاج: «جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه» وهم يترددون في أعمالهم الخبيثة وفي ضلالتهم.

ولهم عدا هذا العقاب المعنوي عقاب مادي سَيِّئ في الدنيا والآخرة وهو جهنم، وبما أنهم خسروا الآخرة بكفرهم، فهم أخسر كل خاسر.

٤ - إن تنزيل القرآن على النبي ﷺ وتعليمه إياه وتلقينه به من عند الله العلي الحكيم بتدبير خلقه، العليم بأحوالهم وبما يصلحهم. وهذه الآية الأخيرة تمهيد لسياق القصص التالية عن الأنبياء عليهم السلام.

القصة الأولى
قصة موسى عليه السلام بالوادي المقدس

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ آنست).

﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾:

قرئ:

١- (بشهابِ قبسٍ) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (بشهابٍ قبسٍ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ ﴿قَبَسٍ﴾ بالتنوين: بدل مجرور من شهاب. ومن قرأ بغير

تنوين أضاف كلمة (شهاب) إلى ﴿قَبَسٍ﴾ إضافة النوع إلى جنسه، مثل: ثوب خزٍّ.

﴿تَصْطَلُونَ﴾ أصلها «تصتليون» فأبدل من التاء طاء، لتوافق الطاء في الإطباق، ونقلت الضمة من الياء إلى اللام، فبقيت الياء ساكنة، وواو الجمع ساكنة، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين.

﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، أي أنه بورك، وهو في موضع رفع بـ ﴿نُودِيَ﴾ و﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، أي مَنْ في طلب النار، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان للخبر.

﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ﴿تَهْتَزُّ﴾ جملة فعلية حال من هاء ﴿رَءَاهَا﴾. و﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حال أيضاً، أي فلما رآها مهتزة مشبهة جاناً، و﴿مُدْبِرًا﴾ حال منصوب أيضاً.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ﴿مَن﴾ في موضع نصب؛ لأنه استثناء منقطع.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ ﴿بَيْضَآءَ﴾ حال من ضمير ﴿تَخْرُجْ﴾. و﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ حال من (مرسلاً) المحذوف المنصوب على الحال، لدلالة الحال عليه، أي مرسلاً إلى فرعون.

﴿مُبْصِرَةً﴾ حال من الآيات، أي مبينة.

البلاغة:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ إيجاز بالحذف، حذفت جملة: فألقاها، فانقلبت حية، لدلالة السياق عليه.

﴿حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ و﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ بين كل منهما طباق.

﴿ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ استعارة، استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان؛ لأن الإبصار يكون بالعينين.

﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ تشبيه مرسل مجمل، ذكرت أداة الشبه، وحذف وجه الشبه، فصار مرسلاً مجملاً.

المفردات اللغوية:

﴿إِذۡ قَالَ﴾ أي اذكر حين قال موسى. ﴿لِأَهۡلِهِۦٓ﴾ كنى عن زوجته بالأهل عند مسيرته من مدين إلى مصر. ﴿ءَانَسۡتُ﴾ أبصرت من بعيد. ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن حال الطريق؛ لأنه قد ضله. وجمع الضمير في قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ و﴿ءَاتِيكُم﴾ و﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ مراعاة لكلمة (أهله). وأتى بالسين في قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ للدلالة على بعد المسافة، أو الوعد بالإتيان وإن أبطأ. وأتى بأو دون الواو اعتماداً أو رجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه معاً، لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وقد ظفر بكلتا حاجتيه وهما عز الدنيا وعز الآخرة.

﴿بِشِهَابٖ﴾ شعلة نار. ﴿قَبَسٖ﴾ قطعة من النار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها. ﴿تَصۡطَلُونَ﴾ تستدفئون من البرد، وقوله ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾ معناه رجاء أن تستدفئوا. ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ﴾ أي نودي بأن بارك الله، فأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة، أو مفسرة؛ لأن النداء فيه معنى القول ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي بورك من في مكان النار وهو موسى والبقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٠]. ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ المكان الذي حولها، والمعنى: بورك من في مكان النار ومن حول مكانها، قال البيضاوي: والظاهر أنه عام في كل من في تلك البقعة وحواليها من أرض الشام الموسومة بالبركات؛ لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم

أحياء وأمواتاً، وخصوصاً تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من جملة ما نودي، ومعناه: تنزيه الله من السوء. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ﴾ ضمير الشأن والأمر.

﴿تَهْتَزُّ﴾ تتحرك باضطراب. ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حية خفيفة سريعة. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هرب. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع على عقبه. ﴿لَا تَخَفْ﴾ من غيري ثقة بي، أو مطلقاً، لقوله: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لا يخاف عندي الرسل من حية وغيرها، حين يوحى إليهم من فرط الاستغراق. ﴿إِلَّا﴾ لكن فهو استثناء منقطع. ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نفسه. ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أتى حسناً بعد سوء وبدل ذنبه بالتوبة، أي تاب. ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أستر عليه وأغفر له وأرحمه بقبول التوبة. والمراد من الاستثناء التعريض بموسى حينما وكز القبطي.

﴿فِى جَيْبِكَ﴾ طوق قميصك. ﴿تَخْرُجْ﴾ خلاف لونها من الأدمة أي الجلد. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير برص ونحوه من الآفات، لها شعاع يغشي البصر. ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي تلك آية من تسع آيات أي معجزات دالة على صدقك، أو في جملتها، والتسع: هي فلق البحر، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والطمسة، وجدب واديهم، ونقصان مزارعهم. ومن عد العصا واليد من التسع جعل الأخيرين واحداً، ولم يعد الفلق منها؛ لأنه لم يبعث به إلى فرعون وقومه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال. ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة واضحة مضيئة. ﴿مُّبِينٌ﴾ بيِّن ظاهر. ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ لم يقروا. ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ تيقنوا أنها من عند الله والاستيقان أبلغ من الإيقان. ﴿ظُلْمًا﴾ لأنفسهم. ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترفعاً وتكبراً عن الإيمان بما جاء به موسى. ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد. ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة. قال الزمخشري: وأي ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينات واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً مكشوفاً لا شبهة فيه.

المناسبة:

بعد أن أخبر الله تعالى أن القرآن المجيد متلقى من عند الله الحكيم العليم، أُمر النبي ﷺ بتلاوة بعض ما تلقاه، تقريراً له، وهو ما أورده من بعض القصص للعظة والذكرى.

التفسير والبيان:

ابتدأ الله تعالى بالتذكير بقصة موسى كيف اصطفاه الله وكلمه وناجاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا، واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ أي اذكر أيها الرسول حين سار موسى بأهله (زوجته) من مَدْين إلى مصر، فضل الطريق في ليل مظلم، فرأى من بعيد ناراً تتأجج وتضطرم، فقال لأهله مستبشراً بمعرفة الطريق والاصطلاء بالنار: إني أبصرت ناراً، سآتيكم منها بخبر عن الطريق، أو آتيكم منها بشعلة نار، تستدفئون بها في هذه الليلة الباردة.

وكان الأمر كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم هو النبوة، واقتبس منها نوراً عظيماً لا ناراً هو نور الرسالة، كما قال:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ أي فلما وصل إليها، ورأى منظرها هائلاً حيث تضطرم النار في شجرة خضراء، فلا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضارة، ثم رفع رأسه، فإذا نورها متصل بعنان السماء، ولم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً، هو نور رب العالمين، كما قال ابن عباس، فوقف موسى متعجباً مما رأى، فنودي أن بورك من في مكان النار، ومن حول مكانها، أي تبارك

من في النور، والمكان: هو البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ﴾ [القصص: ٢٨/٣٠] وما حولها: أرض الشام ذات البركات والخيرات؛ لكونها مهبط الأنبياء، ومبعث الرسالات.

وقيل: من في النور هو الله سبحانه، ومن حولها: الملائكة، والأولى ما ذكرناه.

وسبب المباركة: حدوث هذا الأمر العظيم فيها، وهو تكليم الله موسى عليه السلام، وجعله رسولاً، وإظهار المعجزات على يده.

ولما كان هذا الحال قد يوهم بالتجسيم والمادية نزه الله تعالى نفسه عما لا يليق بذاته وحكمته، فقال: ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي تنزه الله الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات، والأحد الفرد الصمد المنزه عن مماثلة المحدَثات.

وقد عرف موسى أن ذلك النداء من الله تعالى؛ لأن النار كانت مشتعلة في شجرة خضراء لم تحترق، فصار ذلك كالمعجز الدال على صدور الكلام من الله سبحانه.

ومما يدل على صحة هذا التعليل المروي عن ابن عباس: ما أخرجه مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القِسْط ويرفعه، حجابه النور، لو كشفها[1] لأحرقت سُبُحات (أنوار) وجهه كل شيء أدركه بصره» ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾

(١) لعل تأنيث الضمير بتأويل النور بالأنوار، وهذه رواية ابن ماجه، ورواية مسلم: «لو كشفه».

ثم صرح الله تعالى بإظهار كلامه فقال:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي يا موسى، إن الذي يخاطبك ويناجيك هو الله ربُّك الذي عزَّ كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله.

ثم أراه قدرته وأيده بالمعجزات، فقال تعالى:

المعجزة الأولى:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾ أي أمره الله بإلقاء عصاه من يده على الأرض، فلما ألقاها، انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة، في غاية الكبر وسرعة الحركة معاً، فلما رآها هكذا، ولّى هارباً خوفاً منها، ولم يرجع على عقبيه، ولم يلتفت وراءه من شدة خوفه.

فهدّأ الحق تعالى نفسه، وأزال عنه الرعب، فقال:

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي لا تخف يا موسى مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً، وأجعلك نبياً وجيهاً، ولا يخاف عندي الرسل والأنبياء إذا أمرتهم بإظهار المعجزة.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ هذا استثناء عظيم، وبشارة عظيمة للبشر في هذا الكلام الرباني المباشر مع موسى، أي لكن من ظلم نفسه أو غيره أو كان على عمل سيِّئ، ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب إلى ربه، فإن الله يقبل توبته؛ لأنه بدل بتوبته عملاً حسناً بعد سوء، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٢] وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١١٠].

المعجزة الثانية:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي أدخل يدك في جيب قميصك[١]، فإذا أدخلتها وأخرجتها، خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف، من غير آفة بها كبرص وغيره.

ويلاحظ أن المعجزة الأولى كانت بتغيير ما في يده وقلبها من جماد إلى حيوان، والثانية بتغيير يده نفسها وجعلها ذات أوصاف نورانية.

﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ أي هاتان المعجزتان أو الآيتان في جملة أو من تسع آيات أخرى أؤيدك بهن، وأجعلها برهاناً لك، مرسلاً بها إلى فرعون وقومه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٧/١٠١] .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي لأنهم كانوا قوماً عصاة خارجين عن دائرة الحق، بتأليه فرعون. وهذا تعليل لما سبق من تأييده بالمعجزات.

ثم كان اللقاء مع فرعون وقومه، فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ أي فلما جاءت فرعون وقومه آياتنا التسع بينة واضحة ظاهرة دالة على صدق موسى وأخيه هارون، أنكروها وقالوا: هذا سحر واضح ظاهر، وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين. وعبّر بقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ للدلالة على أنها لفرط وضوحها كأنها تبصر نفسها. ونظراً لهذا الوضوح فيها صدقوا بها في قلوبهم، وكذبوا بها في الظاهر بألسنتهم فقال تعالى:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي وأنكروها وكذبوا بها في ظاهر الأمر مكابرة بالألسنة وعناداً، وتيقنوا وعلموا في أنفسهم أنها حق من

---

(١) هو الفتحة التي يدخل منها الرأس ثم يتدلى الثوب إلى الصدر والجسد.

عند الله ظلماً من أنفسهم واستكباراً عن اتباع الحق، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٤٦] .

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي انظر أيها الرسول وكل سامع كيف كان عاقبة أمر فرعون وقومه في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة. وفي هذا تحذير لمكذبي الرسل الذين أرسلهم الله لهداية البشرية.

والمعنى: فاحذروا أيها المكذّبون لمحمد ﷺ، الجاحدون لما جاء به من عند ربه أن يصيبكم مثل ما أصاب أولئك بطريق الأولى والأحرى؛ لأن النبوات ختمت برسالته، ولأن القرآن المنزل عليه مصدِّق لما بين يديه وما تقدمه من الكتب السابقة ومهيمن عليها، ولبشارات الأنبياء به وأخذ المواثيق له، ولتأييده بأدلة دالة على صدق نبوته أكثر من موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء والرسل، وعلى رأسها معجزة القرآن المجيد، كما أخبر تعالى في مطلع هذه السورة: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

تكررت قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم في سور عديدة، لما تضمنت من العظة والعبرة التي تتجلى في قهر الله أكبر قوة عاتية بشرية وتحطيم جبروت سلطة ظالمة غاشمة، على يد رجل أعزل من السلاح هو وأخوه هارون إلا أنهما قويان بقوة الله، وقوة الإيمان، وعظمة النبوة.

وهي أول قصة حكاها القرآن في هذه السورة على أثر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ أي خذ يا محمد من آثار حكمة الله وعلمه قصة موسى إذ قال لأهله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾.

مشى موسى عليه السلام هو وزوجته من مدين إلى مصر، وشأنه ككل بشر

عادي، يحار في الصحراء، ومفارق الطرق، وفي الليالي الظلماء الباردة العاصفة، فضل الطريق، وأحس هو وزوجته بالحاجة إلى الدفء، كما يحس المسافر العادي بالحاجة إلى النار أثناء البرد.

واستدرجه ربّه فيما يناسب ظرفه والمناخ الذي يكتنفه، فرأى ناراً من بعيد، فبشَّر أهله بما رأى، وأنه سيأتي بشعلة نار منها، ويهتدي بأهل النار إلى الطريق، إذ النار لا توقد وحدها من دون شخص يوقدها.

ولكنه فوجئ بنقيض مقصوده، لما جاء المكان الذي ظن أنه نار، وهي نور، وذلك أنه لما رأى موسى النار وقف قريباً منها، فوجدها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الاخضرار، يقال لها العُلَّيق، لا تزداد النار إلا عظماً وتضرّماً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وحسناً، وأراد أن يقتطع منها غصناً ملتهباً، فلم يتمكن، حتى تبين أنها مباركة، ثم نودي: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي ناداه الله مباركاً مكان النار، ومن حولها: الملائكة والبقعة وموسى. وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له، كما حيَّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ١١/ ٧٣] .

والخلاصة: إن هذه النار التي رآها موسى فيض من نور الله، تمهيداً لتكليم الله موسى وتحيته وجعله نبياً رسولاً، وتنزيهاً وتقديساً لله رب العالمين، علماً بأن هذا الكلام الأخير من قول الله تعالى تعليماً لنا، وقيل: إن موسى عليه السلام قال حين فرغ من سماع النداء: استعانة بالله تعالى وتنزيهاً له.

وكانت فاتحة خطاب الله لموسى إظهار عظمة الله وعزته وحكمته البالغة: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي إنني أنا الله الغالب القاهر الذي ليس كمثله شيء، الحكيم في أمره وفعله.

ثم جعل له تسع آيات دليلاً وبرهاناً على نبوته، وأهمها وأبرزها: العصا

واليد، فكان إذا ألقى عصاه من يده، صارت حية تهتز كأنها جانّ، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم، وقيل: إنها كبيرة ضخمة ذات حركة سريعة. وإذ أدخل يده في جيب ثم أخرجها أصبحت ذات مصدر إشعاع ونور كالقمر.

ومن الطبيعي أن يخاف موسى عليه السلام لأول مرة من الحية المضطربة المتحركة التي يخشى الإنسان من لدغها بالفطرة، ففرَّ هارباً منها، ولم يرجع ولم يلتفت إلى ما وراءه، فطمأنه ربه العلي العظيم قائلاً: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا خبر بالرسالة والنبوة.

ثم استثنى استثناء منقطعاً من خلاف جنس المستثنى منه فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي لكن لا يخاف من ظلم وعصى وأساء، ثم تاب وأناب لربه، فالله غفور لمن تاب، رحيم بمن أناب. وهذا تثبيت لموسى بأنه ليس من شأنه الخوف، وتطمين له بأن ربَّه غفر له بعد أن تاب من حادث قتل القبطي وهو شاب حَدَث قبل النبوة. أما بعد النبوة فالأنبياء معصومون من الصغائر والكبائر.

ثم أخبره ربه بأنه مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه الفاسقين، أي الخارجين عن طاعة الله، فأظهر موسى عليه السلام لهم معجزاته الباهرة الدالة على صدقه دلالة واضحة بيِّنة، فجروا على عادتهم في التكذيب، وأنكروها وعاندوها في الظاهر، ولكنهم تيقنوا من صدقها في الباطن أو في القلب، وأنها من عند الله، وأنها ليست سحراً، غير أنهم تجاهلوا ذلك، وجحدوا بها جحوداً ظلماً وعلواً واستكباراً كشأن كل العتاة المتكبرين.

ثم أوجز الله تعالى العبرة من هذه القصة بتلك العبارة التي ختمت بها فقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان مصير أو آخر أمر الكافرين الظالمين، انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه، ولينظر أيضاً كل عاقل، وليعتبر بالنتائج الحادثة بأسباب تؤدي إليها في سنة الله ونظامه.

القصة الثانية
قصة داود وسليمان عليهما السلام
- ١ -
نعم الله الجليلة عليهما

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

﴿أَوْزِعْنِىٓ أَنْ﴾:

وقرأ ورش، والبزي (أوزعنيَ أن).

الإعراب:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ خاطبهم مخاطبة من يعقل لما وصفهم بصفات من يعقل.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ﴾ ﴿لَا﴾ الناهية، ولهذا دخلت النون المشددة في ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جملة حالية.

البلاغة:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه حسن الاعتذار والالتفات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه نداء، وتنبيه، وأمر بالدخول، وبيان الملجأ والمأمن، والتحذير، وتخصيص سليمان، ثم التعميم، والاعتذار الحسن.

المفردات اللغوية:

﴿عِلْمًا﴾ هو علم الشرائع والأحكام والقضاء بين الناس ومنطق الطير وغير ذلك. ﴿وَقَالَا﴾ شكراً لله، وعطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة هذه النعمة، كأنه قال: ففعلا شكراً له ما فعلا، وقالا: الحمد لله ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بالنبوة والعلم وتسخير الجن والإنس والشياطين على من لم يؤت علماً. وفيه دليل على فضل العلم وشرف أهله، حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبروا ما دونه من الملك. وفيه أيضاً تحريض للعالم على أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضع.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ النبوة والعلم أو الملك دون باقي أولاده الذين كانوا تسعة عشر ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي علمنا فهم ما يريده كل طائر إذا صوَّت، والمنطق والنطق: الصوت المعبر عما في النفس. ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ تؤتاه الأنبياء والملوك، وفيه التحدث بنعمة الله، ودعوة الناس إلى التصديق بالمعجزة التي هي علم الطير وغير ذلك من عظائم ما أوتيه. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المؤتى. ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ البيِّن الظاهر. ﴿يُوزَعُونَ﴾ يُكفّون، ويجمعون بأن يوقف أوائلهم لتلحقهم أواخرهم من الوزع: الكف والمنع. ﴿وَحُشِرَ﴾ جمع. ﴿وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ وادٍ في بلاد الشام كثير النمل، وقيل: في بلاد اليمن. ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾

هي ملكة النمل، وقد رأت جند سليمان .﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أصله: لا يحتطمنكم، وهو نهي لهم عن الحطم أي عن التوقف بحيث يحطمونها ويكسرونها، وهو مثل قولهم: لا أرينك هاهنا .﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يحطمونكم، إذ لو شعروا لم يفعلوا، كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء. وقد نزل النمل منزلة العقلاء، في الخطاب بخطابهم.

﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان .﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجباً من تحذيرها واهتدائها إلى مصالحها أو سروراً بما خصه الله به من إدراك همسها وفهم غرضها. ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ ألهمني .﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أدرج في دعائه ذكر والديه تكثيراً للنعمة أو تعميماً لها، فإن النعمة عليهما نعمة عليه، والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ تماماً للشكر واستدامة للنعمة .﴿فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي أدخلني في عدادهم الجنة، وهم الأنبياء والأولياء.

المناسبة:

هذه قصة ثانية بعد قصة موسى عليه السلام تبين آثار حكمة الله، وتعليمه، وإنزال القرآن، وأنه من حكيم عليم، ففيها يخبر الله تعالى عما أنعم به على داود وسليمان من النعم الجليلة والصفات الجميلة، وما جمع لهما من سعادة الدنيا والآخرة بإيتاء النبوة والمُلْك معاً.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي ولقد أعطينا كلاً من داود وابنه سليمان طائفة من العلم هو علم الشرائع والأحكام والقضاء بين الناس، وعلمنا داود صنعة دروع الحرب، وعلمنا سليمان منطق الطير، فشكرا الله تعالى على نعمه، وقالا: الحمد لله الذي فضَّلنا على كثير من العباد المؤمنين بهذه العلوم والمعارف الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، ولم يؤتهم مثلنا.

وهذا دليل على فضل العلم الذي لم يكن المُلْك إلا دونه، وعلى رفع مرتبة العلم والعلماء، كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ٥٨/١١] وهو حث للعالم على شكر النعمة وعلى التواضع، فلم يفضلا أنفسهما على الكل، وإنما على الكثير، وتذكير بأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل على الكثير أناس مثله. وأشرف مراتب العلم: العلم بالله وبصفاته. روى ابن أبي حاتم أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب: إن الله لم ينعم على عبده نعمة، فيحمد الله عليها، إلا كان حمده أفضل من نعمه، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ أي خلف سليمان أباه داود بعد موته في ميراث النبوة والعلم والمُلْك، وليس المراد وراثة المال؛ لأنه خصص بهذا الإرث عن بقية أولاد داود الكُثُر، ولأن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة: «نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورثُ، ما تركنا صدقةٌ».

وكان داود أكثر تعبداً من سليمان، وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله، وكان أعظم ملكاً من أبيه، فقد أُعطي ما أعطي داود، وزيد له تسخير الريح والشياطين، ومعرفة لغة الطيور، كما أخبر تعالى معدداً بعض نعم الله عليه:

أ - تعليمه منطق الطير:

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي قال سليمان متحدثاً بنعمة الله عليه أن ربه علّمه لغة الطير والحيوان إذا صوَّت، فأستطيع التمييز بين مقاصده من نوع تصويته. وربما فهم بعض الناس الذين يقدمون خدمات للحيوان بعض أصوات الحيوانات، كالخيول والبغال والحمير والأبقار والإبل

والقطط، فيدركون رغبتها في الأكل أو الشرب، ويفهمون تألمها عند المرض أو الضرب. وأدرك أناس في العصر الحديث كثيراً من لغات الطيور حال الحزن أو الفرح أو الحاجة إلى الطعام والشراب والاستغاثة وغير ذلك بالتجربة والملاحظة وتشابه النغمات في حال واحدة، كما حاولوا معرفة لغات الحشرات كالنمل والنحل.

قال البيضاوي: ولعل سليمان عليه السلام كان إذا سمع صوت حيوان، علم بقوّته الحدسية التخيل الذي صوّته، والغرض الذي توخاه به، ومن ذلك ما حُكي: أنه مرَّ ببلبل يصوِّت ويرقص، فقال سليمان: إنه يقول: «إذا أكلتُ نصفَ تمرة فعلى الدنيا العَفَاءُ» وصاحت فاختة[1]، فقال: إنها تقول: «ليت الخلْق لم يُخْلَقوا» فلعل صوت البلبل كان عن شبع وفراغ بال، وصياح الفاختة عن مقاساة شدة وتألم قلب.

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وأعطينا خيراً كثيراً من كل شيء في الدين والدنيا من مُلْك وثروة. وهذا الأسلوب كما ذكر الزمخشري يراد به كثرة ما أوتي كما تقول: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، تريد كثرة قصّاده ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه، ومثله قوله تعالى في مقال الهدهد عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٧/٢٣].

والضمير في ﴿عُلِّمْنَا﴾، ﴿وَأُوتِينَا﴾ لسليمان ولأبيه، أو له وحده، على عادة الملوك، لمراعاة قواعد السياسة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي إن هذا المؤتى من الخيرات والنعم من النبوة والمُلْك والحكم، لهو الفضل الإلهي الظاهر البيِّن الذي لا يخفى على أحد، وهو فضل الله علينا. وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة، كما

(١) نوع من الحمام البري، جمع فواخيت.

قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ يوم القيامة، ولا فَخْرَ» أي أقول هذا القول شكراً، ولا أقوله فخراً.

٢ - جنود سليمان:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي وجُمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، أي ركب فيهم في أبّهة وعظمة، تليه الإنس، ثم الجن، ثم الطير، فإن كان حرّ أظلته منه بأجنحتها، فهم يُجمعون بترتيب ونظام، بأن يوقف أوائلهم لتلحقهم أواخرهم، ويُرَدُّ أو يُكَفُّ أولهم على آخرهم، لئلا يتقدم أحد عن منزلته ومرتبته، وليكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد. وهذا يدل على مسيرته في جيش عظيم منظم له عرفاء، ليس جيشاً من الناس فقط، وإنما معه الجن، والطير.

قال مجاهد: جعل على كل صنف وَزَعة (عرفاء)، يردون أولاها على أخراها، لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم. وعلى هذا فكلمة ﴿يُوزَعُونَ﴾ من الوزع وهو الكف والمنع، قال عثمان بن عفان: ما يزعُ السلطانُ أكثر مما يَزَعُ القرآنُ أي من الناس. وقال الحسن البصري: لا بد للناس من وازع، أي سلطان يكفّ ويمنع.

وهذا دليل على أن سليمان عليه السلام جمع بين النبوة والسلطات كلها، والملك الذي لم يتوافر لأحد بعده، فضلاً من الله واستجابة لدعائه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٥-٣٧] . وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٢-١٣] .

وبه يتبين أن الله تعالى سخر لسليمان الإنس، فكان له عساكر كثيرون

منهم، والجن لصناعة المباني الضخمة والأواني الواسعة والقدور السابغة، والطير، كما سيأتي في قصة الهدهد.

٣ - قصة النملة:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي حتى إذا قدم سليمان ومن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، وهو - كما يقال ولم يثبت - واد بالشام أو بغيره كثير النمل، نادت نملة هي ملكة النمل، كما فهم سليمان: يا أيها النمل، ادخلوا بيوتكم، حتى لا يكسرنكم سليمان وجنوده، دون أن يشعروا بذلك.

وقوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ كما جاء في الكشاف: يحتمل أن يكون جواباً للأمر، أي ادخلوا لا يحطمنكم، مثل: اجتهد لا ترسب، وأن يكون نهياً بدلاً من الأمر، أي في معنى: لا تكونوا حيث أنتم، فيحطمكم، على طريقة: لا أرينك هاهنا.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي فتبسم شارعاً في الضحك بعد أن فهم قولها، تعجباً من تحذيرها، أو سروراً بما خصه الله به من فهم غرضها، وقال: ربّ ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي من تعليمي منطق الطير والحيوان وعلى والدي بالإسلام لك والإيمان بك، وأن أعمل عملاً تحبه وترضاه قياماً بواجب الشكر على النعمة، واجعلني إذا توفيتني في الجنة في زمرة الصالحين من الأنبياء والأولياء الصلحاء. وإنما أدرج ذكر والديه؛ لأن النعمة على الولد نعمة على الوالدين، خصوصاً نعمة الدين، فإن الولد إذا كان تقياً نفعهما بدعائه وشفاعته، وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له.

وهذا دليل على أن نعمة العلم وحدها كافية في وجوب الشكر، مستحقة للحمد والثناء على المتفضل المنعم بها. وفيه الدليل على البر بالوالدين والدعاء لهما بعد موتهما.

ومن وقائع فهم سليمان كلام النمل: ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال: «خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خَلْق من خَلْقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكْنا، فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن نعمة العلم من أجل النعم وأشرفها وأرفعها رتبة، وإن من أوتي العلم فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ٥٨/١١].

٢ً - كان إرث سليمان من والده داود عليهما السلام هو النبوة والمُلْك، وليس وراثة مال، وإلا لكان جميع أولاد داود التسعة عشر فيه سواء. والمقصود أنه صار إليه ذلك بعد موت أبيه، فسمي ميراثاً تجوزاً، كما قال ﷺ فيما رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن أبي الدرداء مرفوعاً: «العلماءُ ورثة الأنبياء» أي ورثتهم في العلم والحكمة وفهم أمور الدين والدنيا على حقيقتها. ودليل ذلك قوله ﷺ في الحديث المتقدم: إنا معشرَ الأنبياء «لا نُورث».

٣ً - تقتضي نعمة العلم وغيره شكر المنعم وحمده على فضله وإحسانه، كما فعل داود وسليمان عليهما السلام، ودل قولهما على تواضع العلماء

والاعتقاد بأنه وإن فضلا على كثير، فقد فضل عليه أناس مثلهما، وهذا مشابه لقول عمر رضي الله عنه: كل الناس أفقه من عمر.

٤ً - عدد الله في القصة نعماً ثلاثاً على سليمان عليه السلام: هي تعليمه منطق الطير وإيتاؤه الخير الكثير، وتسخير الجن والإنس والطير، وفهمه خطاب النملة. وأصوات الطيور والبهائم هو منطقها، وفي مناطقها معاني التسبيح وغير ذلك، كما أخبر تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] .

٥ً - بدأ سليمان عليه السلام في تعداد هذه النعم قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا تشهير لنعمة الله، وتنويه بها، واعتراف بمكانها، ودعوة الناس إلى التصديق برسالته بذكر المعجزة وهي علم منطق الطير وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور.

٦ً - اشتمل دعاء سليمان عليه السلام على طلب الإلهام من الله شكر ما أنعم به عليه، وعلى توفيقه لزيادة العمل الصالح والتقوى، فهو عليه السلام بعد أن سأل ربه شيئاً خاصاً وهو شكر النعمة، سأل شيئاً عاماً وهو أن يعمل عملاً يرضاه الله تعالى.

٧ً - دل قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ على جواز اتخاذ الإمام والحكام وَزَعة (أي عرفاء) يكفّون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم.

هذا.. وقد علّق ابن العربي على قول عثمان: «ما يَزَع الناسَ السلطانُ أكثر مما يَزَعُهم القرآن» فقال:

وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن. وهذا جهل بالله وحكمه وحكمته

ووضعه لخلقه، فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافّة قائمة لِقِوام الخلق، لا زيادة عليها ولا نقصان معها، ولا يصلح سواها، ولكن الظلمة خاسُوا بها، وقصّروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية منها، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها، فلم يرتدع الخلق بها.

ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لا ستقامت الأمور، وصلح الجمهور[1].

٨ً - ما حكاه تعالى من قول النملة: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حسن اعتذار، وبيان عدل سليمان ورأفته وتدينه وفضله وفضل جنوده، فهم لا يحطمون نملة أو لا يدوسون على نملة فما فوقها إلا خطأ غير مقصود لا يشعرون به. وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها، ولذلك أكد التبسم بقوله ﴿ضَاحِكٗا﴾ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، وسرور النبي بأمر الآخرة والدين، لا بأمر الدنيا.

٩ً - أفهم الله تعالى النملة هذا الكلام لتكون معجزة لسليمان عليه السلام.

١٠ً- أودع الله في كل حيوان غرائز معينة، يهتدي بها إلى ما ينفعه، ويمتنع بها عما يضره. ومن درس طبائع الحيوانات وعرف خصائصها، أدرك فيها عجائب مثيرة، وإلهامات غريبة، وذلك يدعو إلى الإيمان بالله الخالق الموجد الملهم، وسبحانه أبدَع كل شيء، وأحسن كل شيء خلقه. وقد أجاب موسى عليه السلام فرعون حينما قال له ولأخيه هارون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٢٠/٤٩-٥٠].

---

(١) أحكام القرآن: ٣/١٤٣٨

- ٢ -

قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾

القراءات:

﴿مَالِيَ لَآ أَرَى﴾:

قرئ:

١- (ماليَ لا أرى) وهي قراءة ابن كثير، وعاصم، والكسائي.

٢- (ماليْ لا أرى) وهي قراءة الباقين.

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾:

وقرأ ابن كثير (أوليأتينّني).

﴿فَمَكَثَ﴾:

قرئ:

١- (فَمَكَث) وهي قراءة عاصم.

٢- (فَمَكُث) وهي قراءة الباقين.

﴿وَجِئْتُكَ﴾:

وقرأ السوسي، ووقفاً حمزة (وجيتك).

﴿مِن سَبَإٍ﴾:

قرئ:

١- (من سبأَ) وهي قراءة البزي، وأبي عمرو.

٢- (من سبأْ) وهي قراءة قنبل.

٣- (من سبأٍ) وهي قراءة الباقين.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾:

وقرأ الكسائي (أَلَا يسجدوا).

﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾:

قرئ:

١- (ما تخفون وما تعلنون) وهي قراءة حفص، والكسائي.

٢- (ما يخفون وما يعلنون) وهي قراءة الباقين.

﴿فَأَلْقِهْ﴾:

قرأ قالون بكسر الهاء من غير صلة.

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة بإسكان الهاء.

وقرأ الباقون بكسر الهاء مع الصلة.

الإعراب:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا﴾ ﴿عَذَابًا﴾: إما منصوب على المصدر، بجعل العذاب الذي هو اسم قائماً مقام (تعذيب) ويجوز إقامة الأسماء مقام المصادر، كقولهم: سلمت عليه سلاماً، وكلمته كلاماً، وإما منصوب على المفعول بتقدير حذف حرف الجر، أي لأعذبنه بعذاب. وليست اللام في ﴿لَيَأْتِيَنِّى﴾ لام القسم؛ لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد، ولكن لما جاء في أثر قوله ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ أجراه مجراه.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ﴿غَيْرَ﴾ إما صفة مصدر محذوف، أي فمكث مكثاً غير بعيد، أو وصف لظرف محذوف، أي فمكث وقتاً غير بعيد.

﴿مِن سَبَإٍ﴾ اسم مصروف للحي أو للأب، ومن قرأ بترك الصرف جعله اسماً لقبيلة أو بلدة، فلم يصرف للتعريف والتأنيث. والصحيح أن ﴿سَبَإٍ﴾ اسم رجل، كما في كتاب الترمذي.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ ﴿أَلَّا﴾ بالتشديد، أصلها «أن لا» وأن: في موضع نصب، لتعلقه بـ ﴿يَهْتَدُونَ﴾ و(لا): زائدة. ومن قرأ بالتخفيف، جعل ﴿أَلَا﴾ للتنبيه، وجعل (يا) حرف نداء، والمنادى محذوف، وتقديره: يا هؤلاء اسجدوا، فحذف المنادى لدلالة حرف النداء عليه.

البلاغة:

﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فيها مراعاة فواصل الآيات. ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ تعجب.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ التأكيد المكرر للدلالة على العزم المشدد على الفعل.

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ﴾ جناس ناقص.

﴿تُخْفُونَ﴾ ﴿تُعْلِنُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ طباق بالمعنى، وهو أبلغ من المطابقة باللفظ؛ لأن الجملة الثانية اسمية، وهي تفيد الثبوت.

المفردات اللغوية:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ بحث عنه، والتفقد: طلب ما فُقِد، والطير: اسم جنس لكل طائر ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ تعجب من عدم رؤيته الهدهد، ظناً منه أنه حاضر محجوب عنه لساتر أو غيره. وأم منقطعة للإضراب، أي فلما لاح له أنه غائب، أضرب عن ذلك وقال: بل أهو غائب، كأنه يسأل عن صحة ما لاح له .﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي تعذيباً شديداً كنتف ريشه وإلقائه في الشمس، فلا يمتنع من هوام الأرض لعجزه عن الطيران، أو كجعله في قفص ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ بقطع حلقومه، ليعتبر به غيره ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ببرهان بين ظاهر أو بحجة بينة على عذره.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي ظل الهدهد غائباً زماناً يسيراً ثم عاد، والمراد الدلالة على سرعة رجوعه خوفاً منه ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ اطلعت على مالم تطلع عليه، والإحاطة: العلم بالشيء من جميع جهاته، أي اطلع على حال سبأ. وفي هذا الخطاب تنبيه له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به، للدلالة على محدودية العلم عند سليمان ﴿مِن سَبَإٍۭ﴾ اسم مدينة

في اليمن، والمراد أهلها، سميت باسم جدٍ لهم وهو سبأ بن يشجُب بن يعرُب ابن قحطان أبو قبيلة باليمن، فمن جعله اسماً للقبيلة منعه من الصرف، ومن جعله اسماً للحي أو الأب الأكبر، جعله مصروفاً، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث مراحل ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ خبر مهم محقق.

﴿ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ اسمها بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان، وضمير ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ لسبأ أو لأهلها ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ المراد كثرة ما أوتيت مما يحتاج إليه الملوك من الآلة والعُدَّة ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ هو سرير الملك ﴿عَظِيمٌ﴾ عظمه بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي كأنهم كانوا يعبدونها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي عبادة الشمس وغيرها من مقابيح أفعالهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: أن يسجدوا له، فزيدت (لا) وأدغم فيها نون «أن» كما في آية ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩/٥٧] أي ليعلم ﴿ٱلْخَبْءَ﴾ المخبوء من كل شيء كالمطر والنبات وغيره من المغيبات، و﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ يظهره، وهو يشمل إشراق الكواكب وإنزال الأمطار وإنبات النبات وإنشاء الأشياء وإبداعها ﴿وَيَعْلَمُ﴾ ما يخفون في قلوبهم (وما يعلنون) بألسنتهم.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ هو استئناف جملة ثناء، مشتمل على عرش الرحمن، في مقابلة عرش بلقيس، وبينهما بون عظيم ﴿قَالَ سَنَنظُرُ﴾ أي قال سليمان للهدهد: سنتعرف ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي من هذا النوع، والتغيير من الجملة الفعلية إلى الاسمية للمبالغة، فالجملة الاسمية أبلغ من: «أم كذبت فيه» ولمراعاة الفواصل.

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ صورة الكتاب: من عبد الله سليمان بن داود إلى

بلقيس ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ انصرف أو تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَانظُرْ﴾ تأمل وفكّر ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما يردّون من الجواب وماذا يقول بعضهم لبعض.

المناسبة:

بعد بيان تسخير الجن والإنس والطير لسليمان عليه السلام، أبان الله تعالى هنا أن سليمان تفقد طير الهدهد، فلم يجده، ثم حضر فأخبره عن مملكة بلقيس، وعن عبادتهم الشمس.

التفسير والبيان:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ أي بحث سليمان عن الهدهد بين جنوده، وكان له علم بمنطق الطير، وكانت الطيور مسخرة له كالريح وغيرها، فقال متعجباً: كيف لا أرى الهدهد؟ علماً بأنه لم يأذن له بالغياب، بل هو من الغائبين دون أن أعلم بغيبته. وفي العبارة قَلْب، أي ما للهدهد لا أراه؟! وهو كقولك: مالي أراك كئيباً؟ أي مالك؟.

وذكر المفسرون أن سبب بحثه عنه أنه كان يدل على مكان وجود الماء تحت الأرض، بنقره فيها، فيستخرج منها من طريق الجن أو الشياطين، كما كان يرشد سليمان وجنوده إلى الحد الفاصل بين قريب الماء وبعيده أثناء السير بفلاة من الأرض.

وحين تثبَّت من غيابه توعده بالعذاب إذا كان بغير عذر مقبول، فقال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١)﴾ أي أنه هدده بالقتل أو بالتعذيب والعقاب الشديد كنتف ريشه إلا أن يأتي ببرهان واضح يبين عذره، أي إن التهديد والوعيد كان بأحد أمرين إن لم يأت بالأمر الثالث وهو العذر الواضح البيِّن.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي غاب الهدهد زماناً يسيراً ثم جاء فسأله سليمان عن سبب غيابه، فقال لسليمان: اطلعت على مالم تطلع عليه أنت ولا جنودك، وجئتك من مدينة سبأ بخبر صدق متيقّن، والأكثر على أن ﴿سَبَإٍ﴾ مصروف؛ لأنه اسم بلد. وأهل سبأ: هم حِمْيَر وهم ملوك اليمن. والأكثر على أن الضمير في (مكث) يعود للهدهد، ويحتمل أن يكون لسليمان، والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل، أي غير وقت طويل.

وقد كان الهدهد ماهراً بالدفاع عن نفسه بتلطف وقدرة على اجتذاب النظر إليه وإصغاء السمع لكلامه، وأنه كان يقوم برحلة استكشاف علمية لمملكة سبأ ومعرفة أحوال أهلها في المُلْك والتدين. ثم عرَّف سليمان ببعض المعارف بالرغم مما أوتيه من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة، للتنبيه على وجود العلم والمعرفة عند من هو أضعف منه، وللإرشاد إلى ضرورة تواضع العلماء.

قال الزمخشري: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة: إن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه[١].

ومضمون خبر الهدهد ثلاثة أمور هي في هذه الآية:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي إني وجدت في بلاد سبأ مملكة عظيمة ذات مجد تملكهم امرأة هي بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها قبلها ملكاً عظيم الملك، وأعطيت من متاع الدنيا الشيء الكثير من ثراء وغنى، ومُلْك وأبهة، وجيش مسلح بأنواع مختلفة من معدات القتال، وبإيجاز: أوتيت من كل شيء تحتاجه المملكة في زمانها، ولها سرير عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ، تجلس

(١) الكشاف: ٢/ ٤٤٨

عليه، فوصفه بالعظم أي في الهيئة ورتبة السلطان، قال المؤرخون: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد، رفيع البناء، محكم الصنع، فيه ثلاث مئة طاقة من مشرقه ومثلها من مغربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساء. وهذا ما أشارت إليه الآية التالية المبينة عقيدتهم الدينية.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي وجدت هذه الملكة وقومها يعبدون الشمس من غير الله، وزيّن لهم الشيطان قبيح أعمالهم، فصاروا يرون السَّيِّئ حسناً، ومنعهم الشيطان عن طريق الحق وعبادة الله الواحد الأحد، فأصبحوا لا يهتدون إليه.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده، دون ما خلق من الكواكب وغيرها، وهو الخالق المبدع الذي يخرج إلى الوجود بعد العدم كل شيء مخبوء مغيب في السماوات والأرض كالمطر والنبات والمعادن والمخلوقات، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال.

ونظير الآية في القسم الأول منها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٤١/٣٧] . ونظيرها في القسم الآخر: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٣/١٠] .

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ أي إنه بعد بيان الدليل على وجود الله وتوحيده، وهو افتقار العالم إليه، نزهه وأبان عظمته، فذكر أنه

الإله الواحد الذي لا شريك له، ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه، فكل عرش مهما عظم فهو دونه، ومنها عرش بلقيس، فكان الواجب إفراده بالعبادة. فوصف الهدهد عرش بلقيس بالعظم بالنسبة أو بالإضافة إلى عرش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظم بالنسبة إلى ما خلق من السماوات والأرض.

فأجاب سليمان عليه السلام طير الهدهد عن دفاعه عن نفسه لتبرئة ساحته، حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم فقال:

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي قال سليمان: سنتعرف على مدى صحة قولك، أصادق في إخبارك هذا، أم أنك كاذب في مقالتك، لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك به؟.

والمغايرة بين الجملتين الفعلية والاسمية في هذه الآية، وجعل الثانية اسمية للمبالغة كما بينا، وإفادة ثبات صفة الكذب عليه، وأنه مداوم على الكذب لا ينفك عنه. ووسيلة الاختبار هي:

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي إن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، يدعوها فيه إلى الإيمان والإسلام لله عز وجل، وأعطاه ذلك الهدهد، وأمره أن يلقيه إليهم، ثم يبتعد عنهم قريباً، ويتأمل رد الفعل، وما يراجع بعضهم بعضاً القول، ويناقش فيه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - القائد يتفقد عادةً جيشه وجنوده، وقد فعل ذلك سليمان عليه السلام أثناء مسيره ومروره بوادي النمل، فتفقد جنس الطير وجماعتها التي كانت تصحبه في سفره، وتظله بأجنحتها. وكان سبب تفقده ما تقتضيه عادة العناية

بأمر المُلك، والاهتمام بعناصر الجيش وبكل جزء منها، كما دل ظاهر الآية. وقال عبد الله بن سَلام: إنما طلب الهدهد؛ لأنه احتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض؛ لأنه كان نزل في مفازة عُدِم فيها الماء، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة؛ تسلخ عنه وجه الأرض كما تُسلخ الشاة.

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام المُلْك. ويرحم الله عمر بن الخطاب، فإنه كان على سيرته؛ قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب، ليُسأَلُ عنها عمر[1]. والخلاصة: استنبط العلماء من الآية استحباب تفقد الحاكم أحوال الرعية، وكذلك تفقد الأصدقاء والأقارب.

٢ - قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دليل على أن الحدّ أي العقوبة على قدر الذنب، لا على قدر الجسد، ولكن يرفق بالمحدود في الزمان والصفة. وأما ذبحه فدليل على أن الله أباح له ذلك، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع.

٣ - قوله تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي علمت مالم تعلمه من الأمر، دليل على من قال: إن الأنبياء تعلم الغيب، ودليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ماليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه.

٤ - الاعتذار الصحيح مقبول عند أهل الحق والإيمان، فقول الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ دفع فيه عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح.

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ١٧٨

٥ً - كانت بلقيس ملكة سبأ، وكان هذا عرفاً معمولاً به عند القدماء، وعند المعاصرين غير المسلمين. أما في شرعنا فقد روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملَّكوا بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم وَلَّوا أمرهم امرأة» قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه. ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تَقْضي فيما تشهد فيه، وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق؛ ولا بأن يكتب لها منشور (أو مسطور) بأن فلانة مُقْدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، بدليل قوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[1]. وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير. وما روي عن عمر أنه قدَّم امرأة على حِسْبة السوق لم يصح، فلا يلتفت إليه، وإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث.

٦ً - كانت أمة بلقيس ممن يعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى، وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأنوار، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم أي ما هم فيه من الكفر، وصدهم عن طريق التوحيد، فهم لا يهتدون إلى الله وتوحيده، وزين لهم ألا يسجدوا لله، أو فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، وعلى هذا تكون (لا) زائدة، مثل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢/٧] أي أن تسجد.

وهذا دليل على أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به قطعاً. ثم آمنت تلك الأمة واهتدت إلى الإقرار بنبوة سليمان ودعوته إلى التوحيد، كما سيأتي بيانه.

٧ً - إن الله الذي خلق فسوى، وأخرج المخبوء في السماوات والأرض

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٨٣

كالمطر من السماء والنبات والكنوز من الأرض، هو الذي تجب عبادته، وهو الذي يستحق العبادة. والآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم، أما القدرة: فقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأموال وإخراجه من السماء بالغيث، ومن الأرض بالنبات. وأما العلم فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

٨ً - قول الهدهد ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ وقوله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ دليل على أنه داع إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، لذا نهى النبي ﷺ عن قتله، كما روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد».

٩ً - قوله تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم، بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه. وإنما صار صدق الهدهد عذراً؛ لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد. وفي الصحيح: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل». وقد قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه.

لكن للإمام أن يمتحن المعتذر إذا تعلق بالأمر حكم من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان بالتثبت من صدق الهدهد.

١٠ً - دلت آية: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعوتهم إلى الإسلام، وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، وإلى كل جبار، كما دلت الآية على سرعة الهدهد في تبليغ الكتاب إليهم، وعلى إيتائه قوة المعرفة وفهم كلامهم، وأن الملكة فهمت الكتاب فوراً

بوساطة مترجم، وعلى حسن آداب الرسل أن يتنحوا عن المرسل إليهم بعد أداء الرسالة، للتشاور فيها.

- ٣ -

جواب بلقيس على كتاب سليمان عليه السلام

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

الإعراب:

﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ في «أن» ثلاثة أوجه:

الأول - أن تكون في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر، أي بألا تعلوا علي.

الثاني - أن تكون في موضع رفع على البدل من ﴿كِتَـٰبٌ﴾ وتقديره: إني ألقي إلي كتاب ألا تعلوا.

الثالث - أن تكون مفسرة بمعنى «أي» كقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي امشوا، ولا موضع لها من الإعراب.

﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ كل من ﴿أَذِلَّةً﴾ والجملة بعدها حال من الهاء والميم في (لنخرجنهم).

المفردات اللغوية:

﴿قَالَتْ﴾ بلقيس لأشراف قومها ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ أشراف القوم وخاصتهم ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ لكرم مضمونه أو مرسله، أو لأنه كان مختوماً ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ أي ألا تتكبروا علي وتنقادوا للأهواء ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين مطيعين مستسلمين. وهذا الكتاب مع وجازته تضمن المقصود لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الصانع وصفاته، والنهي عن الترفع الذي هو داء المعاندين والمتكبرين، والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل.

﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ أشراف القوم ﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أشيروا علي بالرأي في هذا الأمر ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ باتة في أمر أو مبرمة أمراً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي حتى تحضروني أي بمحضركم، وقد استعطفتهم بذلك ليظهروا إخلاصهم التام في الدفاع عنها ﴿أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ قدرة جسدية وعددية ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أصحاب شدة وشجاعة ونجدة وثبات في الحرب ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي ماذا توجهين إيانا بأوامرك فنطيعك ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بالتخريب ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مرسلو الكتاب. ويلاحظ أنها لما أحست ميلهم إلى القتال، جنحت إلى الصلح؛ لأن الحرب سجال، لا يدرى عاقبتها.

﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ بيان لما ترى تقديمه للمصالحة بإرسال هدية تدفع بها عن ملكها ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من قبول الهدية أو ردها، فإن كان ملكاً قبلها، وإن كان نبياً لم يقبلها ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ الرسول بالهدية ومعه أتباعه ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوة والملك ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ من الدنيا ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تهتمون إلا بزخارف الدنيا.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ ارجع أيها الرسول إلى بلقيس وقومها بما أتيت من الهدية

﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ من بلدهم سبأ، سميت باسم أبي قبيلتهم ﴿أَذِلَّةً﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أسرى مهانون محتقرون، إن لم يأتوا مسلمين.

المناسبة:

بعد إرسال سليمان عليه السلام كتابه إلى بلقيس وقومها مع الهدهد، ذكر الله تعالى مضمون الكتاب، وتشاور بلقيس في شأنه مع مستشاريها، فارتأوا القتال، وارتأت المهادنة والصلح بإرسال هدية إليه تدفع بها عن بلادها ويلات الحروب، ولا مانع لديها من إعطائه خراجاً دائماً مقابل ترك القتال.

التفسير والبيان:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ أي قالت بلقيس لأشراف قومها ومستشاريها وأركان دولتها ومملكتها: يا أشراف القوم، إني ألقي إلي كتاب كريم؛ لأن مرسله نبي الله سليمان، وهو ملِك كريم، ولحسن مضمونه وجمال عباراته، ولأنه كان مختوماً، قال ﷺ فيما رواه الطبراني: «كرامة الكتاب: ختمه» وكان ﷺ يكتب إلى العجم، فقيل له: إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم، فاتخذ لنفسه خاتماً؛ كما أن فيه عجيب أمر حامله، وهو طائر ألقاه به إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

ومضمون الكتاب:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي قرأت الكتاب على أشراف قومها، وكان في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة شاملاً أموراً ثلاثة:

أ - البسملة الدالة على إثبات الله ووحدانيته وقدرته ورحمته.

٢ً - النهي عن الترفع الذي يحجب وصول الحق إلى النفوس، والنهي عن الانقياد للأهواء.

٣ً - الأمر بالإسلام الجامع لأصول الفضائل، أو الأمر بالانقياد والطاعة لأمر سليمان.

قال العلماء: لم يكتب أحد: بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام. وبه ثبت أن هذا الكتاب على وجازته جامع كل مالا بد منه من أمور الدين والدنيا.

ثم استشارتهم في شأن الرد على الكتاب، وهذا من الحكمة والديمقراطية ونبذ الاستبداد: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ أي قالت بلقيس: يا أشراف القوم، أشيروا علي في شأن هذا الكتاب الذي أرسل إلي من نبي الله سليمان عليه السلام، ما كنت مبرمة أمراً ولا قاضية في شأن حاسم حتى يكون بحضوركم ومشاورتكم فيه.

وهذا دال على حسن سياستها ورشادها وحكمتها، فإنها استعطفتهم ليعينوها على اتخاذ الرأي الأفضل والأخلص والأصوب، فأجابوها بإظهار الاستعداد للقتال والحرب والدفاع عن المملكة:

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي قال أشراف القوم: نحن أصحاب قوة جسدية وعددية، وذوو نجدة وشجاعة وشدة وثبات في الحروب. ثم فوضوا إليها أمر إعلان الحرب، قائلين: نحن على أتم الاستعداد من جانبنا للحرب، وبعد هذا فالأمر إليك، مُري فينا رأيك نمتثله ونطيعه، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا، ففيه إظهار القوة الذاتية والعرضية، وإظهار الطاعة لها إن أرادت السلم والمصالحة.

فناقشتهم في ذلك، لعلمها بقوة سليمان وجنوده وجيوشه، وما سخر له

من الجن والإنس والطير، فآثرت السلم على الحرب، وقالت: إني أخشى أن نحاربه، فيتغلب علينا، ويصيبنا جميعاً الهلاك والدمار. فمالت إلى المصالحة، وتبين أنها أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، ولهذا حكت لهم ما يفعله الملوك الأشداء:

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي قالت بلقيس لهم حين أظهروا استعدادهم لقتال سليمان: إن الملوك إذا دخلوا بلداً عنوة، خرّبوه وأتلفوا الديار والأموال، وأذلوا أعزة أهلها بالقتل أو الأسر، وأهانوهم غاية الهوان، لتتحقق لهم الغلبة والرهبة، ويفعلون هكذا.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ الأقرب أنه من كلامها الذي أرادت به أن هذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير؛ لأنها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك ورأت.

وهذا تحذير لقومها من محاربة سليمان ومجيئه إليهم ودخوله بلادهم، وبعد أن استبعدت فكرة الحرب، لجأت إلى الوسائل الودية ومنها المسالمة والمصالحة، واقترحت إرسال هدية إليه، وكان ذلك هو الرأي السديد.

﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي وإني ألجأ إلى هذه التجربة وهي بعث هدية إليه، تليق بمثله، وأختبر أمره، أهو نبي أم مِلك؟ وأنظر ماذا يكون جوابه بعدئذٍ، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يفرض علينا خراجاً نرسله إليه في كل عام، فنأمن جانبه، ويترك قتالنا ومحاربتنا.

قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس. قال ﷺ فيما رواه ابن عساكر عن أبي هريرة وهو حسن: «تهادوا تحابوا، وتصافحوا يذهب الغل عنكم».

وقال ابن عباس وغيره: قالت لقومها: إن قَبِل الهدية فهو ملِك، فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

وكانت الهدية عظيمة مشتملة على ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك، قال ابن كثير: والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب، فماذا كان موقف سليمان من الهدية؟:

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي لما جاء الرسول ومعه أتباعه بالهدية إلى سليمان، لم ينظر إليها، وأعرض عنها، وقال منكراً عليهم: أتمدونني بمال؟ أي أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟ إن الله تعالى أعطاني خيراً كثيراً مما أعطاكم وهو النبوة، والمُلْك الواسع العريض، والمال الوفير، فلا حاجة لي بهديتكم، وإنما أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف وتفرحون بها، وأما أنا فلست طالباً للدنيا الزائلة، وإنما أطالبكم بالدخول في دين الله وترك عبادة الشمس، ولا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي ارجع أيها المبعوث إليهم بهديتهم، فإنا سنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بقتالهم، ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة، وهم مهانون مدحورون، إن لم يأتوا مسلمين منقادين لله رب العالمين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - أدب الخطاب وخصوصاً في مجال الدعوة إلى الله تعالى في مكاتبات الملوك ورؤساء الدول مطلوب شرعاً؛ لذا وصفت بلقيس كتاب سليمان عليه السلام بأنه كتاب كريم، لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعوة إلى عبادة

الله عز وجل، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سَبّاً ولا لعناً، ويؤيده قول الله عز وجل إلى نبيه ﷺ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥] وقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤٤].

والوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٧].

٢ً - كانت عادة المتقدمين في المكاتبة أو المراسلة أن يبدؤوا بأنفسهم من فلان إلى فلان، وسار السلف الصالح من أمتنا على هذا المنهج معاملة بالمثل، قال ابن سيرين، قال النبي ﷺ: «إن أهل فارس إذا كتبوا بدؤوا بعظمائهم، فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه» وقال أنس: ما كان أحد أعظم حرمة من النبي ﷺ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم.

لكن لو بدأ الكاتب بالمكتوب إليه جاز؛ لأن الأمة اجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوها في ذلك، فالأحسن في زماننا ومن عدة قرون أيضاً أن يبدأ الكاتب بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأن البداية بنفسه تعدّ منه استخفافاً بالمكتوب إليه، وتكبراً عليه.

٣ً - إذا كانت التحية واردة في رسالة ينبغي على المرسل إليه أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر، وروي عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجباً كما يرى رد السلام.

٤ً - اتفق العلماء على البدء بالبسملة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول الكتب والرسائل، وعلى ختمها؛ لأنه أبعد من الريبة، وجاء في الحديث المتقدم: «كرامة الكتاب خَتْمه» واصطنع النبي ﷺ خاتماً، ونقش على فصه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

٥ً - كان مضمون كتاب سليمان مع وجازته مشتملاً على المقصود وهو إثبات وجود الله وصفاته الحسنى، والنهي عن الانقياد للهوى والنفس والترفع والتكبر، والأمر بالإسلام والطاعة، بأن يأتوه منقادين طائعين مؤمنين.

والبسملة في هذا الموضع آية قرآنية بإجماع العلماء، فيكفر منكرها هنا.

٦ً - المشاورة أمر مطلوب في كل شيء عام أو خاص مالم يكن سراً؛ لأنها تحقق نفعاً ملحوظاً للتوصل إلى أفضل الآراء وأصوبها، وخصوصاً في الحروب والمصالحات وقضايا الأمة العامة، فإنه ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم وكان رسول الله ﷺ أكثر الناس مشاورة، قال الله له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩] إما استعانة بالآراء، وإما مداراة للأولياء، ومدح الله تعالى الفضلاء بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٨] .

والمشاورة نهج قديم، وبخاصة في الحرب، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس قبل إسلامها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ قالت ذلك لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم في أمرهم، ومدى طاعتهم لها. وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده، وربما كان في استبدادها مكمن الخطر والضعف والسقوط في النهاية.

وقد نجحت في هذه المشاورة، فسلّموا الأمر إلى نظرها، مع ما أظهروا لها من القوة والبأس والشدة: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ثم وجّهتهم إلى مراعاة قوة الملوك وشدة بأسهم، حماية لهم وحفظاً لبلادهم، وأن من عادتهم الإفساد والتخريب، والتدمير والإهلاك، والإذلال والإخراج من البلاد، وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا.

٧ً - كان من حسن نظر الملكة بلقيس وتدبيرها اختبار أمر سليمان بإرسال هدية عظيمة إليه، فإن كان نبياً لم يقبلها ولم يرض إلا اتباعهم على دينه، وإن

كان ملكاً قبل الهدية، وللهدية تأثير في كسب المودة والمحبة، واستلال الحقد والضغينة، وإنهاء الخصومة والمشاحنة.

وكان النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن عائشة يقبل الهدية ويثيب عليها، ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها؛ لأنه قال لها في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ وهذا لا تقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهي الرشوة التي لا تحل. وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة؛ لأنها تورث المودة، وتذهب العداوة، روى مالك عن عطاء الخراساني قال: قال رسول الله ﷺ: «تصافحوا يذهب الغِلُّ، وتهادوا تحابُّوا، وتَذْهب الشحناءُ» وعن ابن شهاب الزهري قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «تهادوا بينكم، فإن الهدية تُذهب السَّخيمة». وروى البزار عن أنس بإسناد ضعيف: «تهادوا، فإن الهدية تُسلُّ السخيمة».

قال القرطبي: وعلى الجملة: فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية، وفيه الأسوة الحسنة.

أما سليمان عليه السلام فإنه رد هدية بلقيس؛ لأنها كانت بدلاً عن السكوت عن الحق وعن الدعوة إلى الإسلام والإيمان، وواجب الرسل التبليغ دون أجر، ودون مهادنة أو مساومة؛ لأن غرضهم إرضاء الله، ونشر العقيدة والفضيلة والإخلاص في عبادة الله تعالى. لذا انضم إلى رده الهدية إنذارهم بالحرب والقتال بجيوش لا طاقة لهم على مقاومتها، وتهديدهم بالإخراج من أرضهم أذلة قد سُلبوا ملكهم وعزمهم، مهانين محتقرين إن لم يسلموا.

وقد حقق الإنذار الغاية منه، فجاءت بلقيس مع حاشيتها وجنودها مسلمين منقادين طائعين، كما أبانت الآيات التالية.

- ٤ -

إسلام بلقيس وولاؤها وزيارتها لسليمان عليه السلام

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٤)﴾

القراءات:

﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾

وقرأ نافع: (ليبلونيَ).

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿سَاقَيْهَا﴾:

وقرأ قنبل (سأْقَيْها).

الإعراب:

﴿عِفۡرِيتٞ﴾: التاء فيه زائدة، ووزنه فِعْليت، كغُزْويت، أي قصير، والعفريت: القوي النافذ، وجمعه عفاريت.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت﴾ ما: إما فاعل (صدّ) وإما منصوب بصد، بتقدير حذف حرف الجر، وفاعل (صدها) ضمير وهو الله، أي صدها الله عما كانت تعبد، أي عن عبادتها. وإنها بالكسر على الابتداء، وبالفتح: إما بدل مرفوع من ﴿مَا﴾ إذا كانت فاعلاً، وإما منصوب بتقدير حذف حرف الجر، أي لأنها كانت.

﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ ﴿مَعَ﴾ إما ظرف، وإما حرف وبنيت على الفتح لأنها قد تكون ظرفاً أحياناً، وكانت الحركة فتحة لأنها أخف الحركات، فإن سكنت العين فهو حرف لا غير.

البلاغة:

﴿تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ و﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ فيهما جناس الاشتقاق.

﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ تشبيه مرسل مجمل، أي كأنه عرشي في الهيئة.

﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ استعارة، استعار رجوع الطرف للسرعة في الإتيان بالعرش، مشبهاً السرعة بالتقاء الجفنين الذي هو ارتداد الطرف. ومثله ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ١٦/٧٧] . ﴿أَتَهۡتَدِيٓ﴾ ﴿لَا يَهۡتَدُونَ﴾ بينهما طباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾ العرش: سرير المُلْك، أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوى النبوة،

ويختبر عقلها بعد التمويه على العرش، فينظر أتعرفه أم تنكره ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين طائعين ﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ خبيث ما رد قوي شديد ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ مجلسك للقضاء، وكان من الغداة إلى نصف النهار ﴿عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لقادر مؤتمن على ما فيه من الجواهر وغيرها، لا أنقص منه شيئاً ولا أبدّله. قال سليمان: أريد أسرع من ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزل هو آصف بن برخيا وزيره، كان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وهو المشهور. وقيل: إنه الخضر عليه السلام، وقيل: هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو ملَك أيد الله تعالى به سليمان، وقيل: إنه سليمان نفسه، قال الرازي: وهو الأقرب.

﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي قبل أن يرجع إليك بصرك إذا نظرت به إلى شيء، و﴿يَرْتَدَّ﴾ يرجع، والطرف: تحريك الأجفان، والمراد بذلك السرعة العظيمة على سبيل الاستعارة، كما يقال: آتيك به مثل لمح البصر، أو قبل أن تغمض عينك، ويراد الإسراع الشديد في الإحضار ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ ساكناً حاصلاً بين يديه ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أي الإتيان لي به ﴿فَضْلِ﴾ تفضّل وإحسان ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ ليختبرني ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي أشكر بأن أراه فضلاً من الله بلا حول مني ولا قوة، وأقوم بحقه، أم أجحد الفضل بنسبته إلي، وأقصر في أداء واجب الشكر ﴿يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأجلها؛ لأن ثواب شكره له ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعمة فلم يشكرها ﴿غَنِىٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بالتفضل والإنعام عليه ثانياً.

﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيروه أي بتغيير هيئته وشكله بزيادة أو نقص وغير ذلك ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلى معرفته ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته، قصد بذلك اختبار عقلها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ أمثل هذا عرشك ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ أي فعرفته، ولم تقل: هو، لاحتمال أن يكون مثله، وذلك من كمال عقلها، فشبّهت عليهم كما شبهوا عليها.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هذا من كلام سليمان وقومه، وهو معطوف على محذوف تقديره: قد أصابت في جوابها، وهي عاقلة لبيبة، وقد رزقت الإسلام، ثم قالوا: ونحن أوتينا العلم بالله وبقدرته قبل علمها وكنا منقادين لحكمه، ويكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى في أن خصهم بمزية التقدم في الإسلام. ويصح أن يكون من تتمة كلام بلقيس، متصلاً بقوله ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة، أو قبل هذه الحالة بما تقدم من الآيات، وكنا خاضعين منقادين لله عز وجل. ثم إن قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية من كلام رب العزة. ومعنى (صدها) أي منعها عن عبادة الله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ على قراءة كسر ﴿إِنَّهَا﴾ يكون المعنى: صدها أي منعتها عبادة الشمس عن عبادة الله، وإنها من قوم كافرين، فهو استئناف وابتداء كلام جديد، وعلى قراءة الفتح (أنها) يكون المعنى: صدّها نشوؤها بين أظهر الكفار، أو تعليل لما سبق، أي: لأنها.

﴿ٱلصَّرْحَ﴾ القصر وكل بناء عالٍ ﴿لُجَّةً﴾ ماء مجتمعاً كثيراً ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، روي أن أرضية القصر أو صحنه بني من زجاج أبيض شفاف، وأجري تحته ماء عذب، فيه سمك، ووضع سليمان سريره في صدر الصرح، وجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماءً راكداً، فكشفت عن ساقيها.

﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أملس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من زجاج ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي فلما دعاها إلى الإسلام، اعترفت بظلمها نفسها بعبادة غير الله وأسلمت لله كائنة مع سليمان، أي خضعت.

المناسبة:

بعد أن رجعت الرسل بهديتها إلى الملكة بلقيس، وأخبروها بما قال سليمان، أخبرت قومها بمضمون رأيها السابق وأنه لا طاقة لهم بمواجهة

سليمان وجنوده، ثم استجابت لطلبه، وأقبلت هي وقومها تسير إليه في جنودها معظمة سليمان، ناوية متابعته في الإسلام، فسُرَّ سليمان عليه السلام بقدومهم عليه، ووفودهم إليه، وبعث الجن يأتونه بأخبارهم.

التفسير والبيان:

لما اقترب وفد بلقيس من بلاد الشام، جمع سليمان عليه السلام جنده من الجن والإنس، وخاطبهم بقوله:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي قال سليمان: يا أيها السادة الأعوان، من منكم يستطيع الإتيان بعرش (سرير) بلقيس قبل وصولها مع وفدها إلينا منقادين طائعين، ليكون ذلك دليلاً على صدق نبوتنا، ومعجزة إلهية تعرف بها أن مملكتها صغيرة أمام عجائب الله وبدائع قدرته؟ فأجابه بعض جنده:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي قال شيطان مارد من الجن: أنا أحضره إليك قبل انفضاض مجلس حكمك وقضائك، وكان يمتد إلى منتصف النهار، ثم أكد عزمه وضمن نتيجة فعله بقوله: وإني على حمله لقادر غير عاجز، أمين غير خائن، لا آخذ منه شيئاً، ولا أمسُّ ما فيه من الجواهر واللآلئ.

ثم أجابه آخر بعد أن قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، لأنه أراد بإحضار هذا السرير عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، بأن يأتي بخارق عظيم وهو إحضار سريرها من بلادها في اليمن بعد أن تركته محفوظاً، قبل وصولها إليه:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ أي

قال عالم من علماء أسرار الكتاب الإلهي: أنا أحضره في لمح البصر قبل أن تغمض عينك وقبل أن يرجع إليك نظرك.

وهذا العالم: قيل: كان من الملائكة إما جبريل أو غيره من الملائكة، أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام، وقيل: كان من الإنس وهو آصف بن برخيا وزير سليمان وهو المشهور من قول ابن عباس، وكان يعلم الاسم الأعظم، إذا دعا به أجيب. أو هو الخضر عليه السلام، والراجح في رأي الرازي أنه سليمان عليه السلام؛ لأنه أعرف بالكتاب من غيره؛ لأنه هو النبي، وقال أبو حيان: ومن أغرب الأقوال أنه سليمان عليه السلام، كأنه يقول لنفسه: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. والمهم أنه حدث ما وعد به هذا العالم، والله أعلم به.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؟ أي فلما عاين سليمان وجماعته وجود سرير بلقيس الذي أُتي به من بلاد اليمن السعيدة، ورآه ساكناً قائماً بين يديه، قال: هذا من نعم الله علي ليختبرني أأشكر بأن أراه فضلاً منه بلا حول ولا قوة مني، أم أجحد فأنسب العمل لنفسي. وفائدة الشكر ومضرة الجحود والكفر ترجع إلى الإنسان نفسه، لذا قال:

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ أي ومن شكر النعمة فإن نفع الشكر عائد إليه، لا إلى الله تعالى؛ لأنه بالشكر تدوم النعم، ومن جحد النعمة ولم يشكرها، فإن الله غني عن العباد وعبادتهم وعن شكرهم لا يضره كفرانهم، كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، لا يقطع النعمة عن عباده بسبب إعراضهم عن شكره، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤٦] وقال سبحانه حكاية لقول موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٨] .

وجاء في صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقى قَلْبِ رجلٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من مُلْكي شيئاً. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمدِ الله، ومن وَجَد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه».

ثم أمر سليمان عليه السلام بتغيير صفات عرش بلقيس، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، كما حكى تعالى:

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي قال سليمان لأتباعه: غيِّروا هيئة عرشها وصفته وشكله لنختبر حالها، وننظر في إمكاناتها العقلية وملاحظاتها الفكرية ومقدار ذكائها، أتهتدي إليه، فتعرف أنه عرشها، أم تكون غير مهتدية إليه أو تائهة عنه متحيرة في الحكم وإبداء الرأي؟

وذلك يدل على قدرة الله تعالى بنقله من مكان بعيد إلى بلاد الشام، وعلى صدق سليمان عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ أي حين قدمت، عرض عليها عرشها (سرير الملك) وقد غُيِّر وزيد فيه ونقص، فسئلت عنه: أمثل هذا عرشك؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً، فقالت: كأنه هو، أي يشبهه ويقاربه، ولم تجزم أو تقطع يقيناً بأنه هو، لاحتمال أن يكون مثله بسبب بعد مسافته عنها.

وكان جوابها جواب سياسي بارع ذكي محنَّك، دل على كمال عقلها ودهائها، وثبات شخصيتها، وأنها في غاية الذكاء والحزم، فشبهت عليهم من حيث شبهوا عليها.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾الظاهر كما قال أبو حيان أن هذا الكلام ليس من كلام بلقيس، وإن كان متصلاً بكلامها، فقيل - وهو قول مجاهد : من كلام سليمان، أي أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها، وكنا في كل ذلك موحدين خاضعين لله تعالى، وقيل: من كلام قوم سليمان وأتباعه[1]. قال ابن كثير: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح[2]، كما سيأتي.

ثم أبان الله تعالى عذر بلقيس في عدم إعلانها الإسلام قبل ذلك فقال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي ومنعها عن عبادة الله وإظهار الإسلام ما كانت تعبد من غير الله وهو عبادة الشمس، فإنها كانت من قوم وثنيين كانوا يعبدون الشمس، فتأثرت بالبيئة التي نشأت فيها، ولم تكن قادرة على تغيير عقيدتها، حتى جاءت إلى بلاد سليمان الذي أحسن عرض الإسلام عليها، وأقنعها بصحته ووجوب الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته، فهو رب الكون جميعه، ورب الكواكب كلها، شمسها وقمرها ونجومها العديدة.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ هذا جارٍ على عادة استقبال الملوك والرؤساء في قصور الضيافة الفخمة، فقد قال لها وفد الاستقبال السليماني: ادخلي هذا القصر المشيد العالي، فإنه بني لاستقبال العظماء، وليريها سليمان مُلْكاً أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، وكان صحنه من الزجاج الأبيض الشفاف، فلما رأت مدخله الفخم ظنت وجود ماء مجتمع كثير فيه، فكشفت عن

(١) البحر المحيط: ٧/ ٧٨

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٦٥

ساقيها، فقال لها سليمان: إنه قصر مصنوع من الرخام الأمرد ذي السطح الأملس، ومن الزجاج الصافي، وإن الماء يجري تحته لا فيه، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء.

وحينئذ استدلت بكل ما رأت على التوحيد والنبوة فأعلنت إسلامها، وأراد الله لها الخير والهداية، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ياربي، إني ظلمت نفسي في الماضي بعبادة غيرك، وأسلمت مع إسلام سليمان، وخضعت لله رب العوالم كلها من الإنس والجن.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - استدعى سليمان عليه السلام عرش بلقيس (كرسي الملك) من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ليريها قدرة الله العظمى، ويجعله دليلاً على نبوته؛ لأخذه من قصرها دون جيش ولا حرب، وقبل أن تأتي هي وجماعتها إليه مستسلمين.

٢ - ظهرت قدرة الله على يد مؤمن عالم بكتاب الله وبأسراره وبالاسم الأعظم، فجيء بعرش بلقيس بسرعة خاطفة، وكان هذا العالم بإقدار الله وتوفيقه أقدر من عفريت الجن - وهو القوي المارد - الذي استعد للإتيان به، في زمن أطول، ولكنه سريع وقريب وقصير أيضاً، إذ كان في مدة زمن القضاء اليومي، وأما زمن العالم فهو بمقدار إطباق الأجفان وفتحها.

وفي هذا دلالة على سمو مرتبة العلم ورفعة العلماء في الدنيا والآخرة إذا عملوا بعلمهم صالحات الأعمال.

قال القشيري: وقد أنكر كرامات الأولياء من قال: إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾

وعند هؤلاء يكون ما فعل العفريت ليس من المعجزات، ولا من الكرامات، فإن الجنَّ يقدرون على مثل هذا.

وعلى أي حال، تم نقل العرش من اليمن إلى الشام بقدرة الله العظمى، وإن وجدت الوسيلة في الظاهر، كفلق البحر لموسى عليه السلام، بضرب العصا، فإن الفالق هو الله تعالى، وليس العصا.

٣ً - إن ما حدث من إحضار العرش بهذه السرعة هو معجزة لسليمان عليه السلام، والمعجزات خوارق للعادات، لا تخضع لمقاييس الأحوال العادية، ولا يصدق بالمعجزة إلا مؤمن بقدرة الله، أما الكافر الملحد أو المادي الذي لا يصدق إلا بما يقدمه العلم التجريبي، فإن إقناعه بذلك عبث. وقد أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوة، وتؤمن بنبوته.

٤ً - إن ظهور المعجزة على يد الأنبياء أمر موجب للشكر والحمد الكثير لله عز وجل، لتأييدهم بها، ولإظهار عجزهم الحقيقي أمامها، لذا قال سليمان لما رأى العرش ثابتاً مستقراً عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ أي هذا النصر والتمكين من فضل الله ربي، لينظر أأكون شاكراً حامداً، أم كافراً بالنعمة جاحداً؟

٥ً - لا يرجع نفع الشكر إلا إلى الشاكر نفسه؛ لأنه بالشكر يحقق تمام النعمة ودوامها والمزيد منها، وبه تنال النعمة المفقودة أيضاً. وأما ضرر الكفر والجحود فعائد كذلك إلى الكافر نفسه، ومع كفره فإن الله غني عن شكره، كريم في التفضل والإنعام عليه بالرغم من الكفر.

٦ً - إن تنكير العرش وتغيير هيئته فيه استثارة البحث، وإمعان النظر، وإعمال العقل، وتركيز الانتباه إلى آية المعجزة، وقد بدا كل هذا في جواب بلقيس ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾. قال عكرمة: كانت حكيمة، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾. وقال

مقاتل: عرفته، ولكن شبَّهت عليهم، كما شبّهوا عليها؛ ولو قيل لها: أهذا عرشك؟ لقالت: نعم هو.

٧ً - قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ إذا كان من قول سليمان وهو الظاهر فيراد به أنه أوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة، أو أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها. وإذا كان من قول بلقيس، فيراد به أنه أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل آية العرش هذه، وكنا مسلمين منقادين لأمره.

٨ً - ما أجمل تقديم هذا الاعتذار عن تأخر إسلام بلقيس إلى لقاء سليمان، وهو تأثرها بالبيئة وعقيدة أهل المملكة، فقد منعها أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر، وكانت من قوم كافرين غير مؤمنين بوجود الله ووحدانيته.

٩ً - أراد سليمان أيضاً بالإضافة إلى إظهار المعجزة لنبوته بإحضار عرش بلقيس أن يبهرها بقوة ملكه، وعزة سلطانه، وأن ذلك أعزُّ وأمنعُ من مملكتها الغنية، وبلادها الخصبة، وقصورها المشيدة. كما أنها شهدت في صرح سليمان فناً رائعاً في البناء والهندسة المعمارية ما لا مثيل له حتى في أوج العصر الحاضر وعظمة تقدم العلم والفن في القرن العشرين، ولعل عظمة بناء المسجد الأقصى خير مثال على تقدم فن البناء وعظمته في عهد سليمان عليه السلام.

١٠ً - تبلورت قصة سليمان مع بلقيس في تلك الخاتمة المشرقة وهي تبرؤ بلقيس من الشرك الذي كانت عليه، وإعلان إيمانها بالله الواحد الأحد، وإظهار إسلامها كإسلام سليمان، وخضوعها لله رب العالمين.

وأخيراً يستطرد المفسرون في نهاية هذه القصة إلى قضية زواج سليمان عليه السلام من بلقيس، وأحسن ما أذكره هنا قول الرازي: والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها، وليس لذلك ذِكْر في الكتاب، ولا في خبر مقطوع

بصحته، ويروى عن ابن عباس أنها لما أسلمت قال لها: اختاري من قومك من أزوجك منه، فقالت: مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني، فقال: النكاح من الإسلام، فقالت: إن كان كذلك فزوجني ذا تُبَّع ملك همدان، فزوجها إياه، ثم ردهما إلى اليمن، ولم يزل بها ملكاً، والله أعلم[١].

خلاصة نعم اللّٰه تعالى على سليمان عليه السلام

يحسن أن أوجز هنا خصائص سليمان ومعجزاته ونعم الله عزّ وجلّ عليه مما ذكر في القرآن كله، بعد أن أوردت هذه السورة مواقف أربعة متميزة في قصته، وحينئذ أكون قد ذكرت إلى هنا مجملاً قصص عشرين نبياً أو أكثر تحت عنوان: أضواء من التاريخ على قصة أو حياة كل نبي أو رسول.

ومن المعلوم أن سليمان ذكر في القرآن (١٦) ست عشرة مرة في سور: البقرة والنساء والأنعام والأنبياء والنمل وسبأ، وأوضح الآن نعم الله الكثيرة عليه وهي ما يأتي[٢]:

أ - ذكاؤه وفراسته في القضاء: منح الله تعالى سليمان عليه السلام ذكاءً نادراً وإصابة في القضاء والحكم، بدليل قصة الحرث الذي نفشت فيه غنم الراعي، فكان حكمه كما بينا في سورة الأنبياء أصوب من حكم أبيه داود عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٧٨-٧٩].

(١) تفسير الرازي: ٢٤/٢٠١

(٢) انظر قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ٣١٧ - ٣٤٨، ط رابعة.

٢ً - تعليمه منطق الطير: إن الله تعالى علّم سليمان منطق الطير، فكان يفهم مراد الطيور من أصواتها، كما تبين في تفسير الآية [١٦] من سورة النمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي أوتي نعماً كثيرة، ومنها تعليمه كلاماً لا يعلمه سواه.

٣ً - تسخير الرياح له: كان لسليمان بساط الريح ينقله من مكان إلى آخر بعيد، ويوجه الريح حيث يشاء، فيأمرها بأن تهب في ناحية ما، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨١] ، ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٦] ، ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٢] .

٤ً - تربية الخيول وهي الصافنات الجياد للجهاد: كان رباط الخيل مندوباً إليه في ملة سليمان عليه السلام، كما هو مندوب في شرعنا، قال ﷺ - فيما رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن عروة البارقي -: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، والأجر والمغنم». وكان سليمان يستعرضها كالعروض العسكرية اليوم بمناسبات وطنية أمام الرؤساء، وكان يحبها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾. وقد أعاد عرضها أمامه يمسح سوقها وأعناقها، تشريفاً لها وإعزازاً لنعمتها في جهاد العدو، وتفقداً لأحوالها وأمراضها وعيوبها، وهذا هو المقصود من الآيات: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٠-٣٣] . وأما تفسير هذه الآيات بما يتنافى مع منصب النبوة، كالاشتغال بالخيول عن صلاة العصر، ثم تقطيع أعناقها وسوقها، فهو باطل لا أصل له، كما ذكر الرازي في تفسيره الكبير.

٥ً - فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه: ذكر الله تعالى بعد قصة عرض الصافنات الجياد هذه الفتنة، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٤-٣٧] ، وقد اختار الرازي في تفسير هذه الآيات أن سليمان ابتلي بمرض شديد أضناه، أي أثقله حتى صار لشدة المرض كأنه جسد أو جسم بلا روح، ثم أناب أي رجع إلى الصحة.

واختار العلامة أبو السعود والألوسي في تفسير هذه الآيات ما ورد في الصحيحين مرفوعاً: أنه - أي سليمان - قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

والمراد بالسبعين الكثرة وليس تمام العدد، كما هو المألوف في الاستعمال العربي والقرآني لكلمة (سبعين) مثل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٠] أي إن تستغفر لهم كثيراً.

وأما التفاسير الأخرى المشوبة بالأخلاط والروايات الإسرائيلية فلم تصح ولا يعول عليها.

٦ً - إسالة عين القِطْر (النحاس المذاب) له: أنعم الله على سليمان عليه السلام بتطويع النحاس المذاب له، لاستخدامه لتوثيق المباني العظيمة الضخمة ذات الحجارة الكبيرة، مثل الهيكل المعروف بهيكل سليمان، كما ذكر تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٢] .

٧ً - تسخير الجنّ له: عدد الله تعالى في الآية السابقة في سورة سبأ النعم العظمى التي أنعم بها على سليمان عليه السلام، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ، يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٢-١٣] . وقال سبحانه بعد ذكر تسخير الرِّيح: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: ٣٨/٣٧] . وبه تبين أن الله جلّ جلاله سخر الجنّ كما سخر له الرِّيح، فكانت الجن من جنده، تطيعه بما يأمر، وتعمل له ما يشاء من ضخم المباني والعمائر والتماثيل، وكانت التماثيل جائزة الصنع عندهم، والقدور الراسيات والجفان (الآنية الواسعة) التي كأنها الحياض لسعتها.

٨ً - إسلام ملكة سبأ والإتيان بعرشها: عرفنا في البيان المتقدم في سورة النمل لقصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ أن طير الهدهد أخبره بوجود ملكة عظيمة في سبأ من بلاد اليمن تعبد مع قومها الشمس من دون الله، وأن لها عرشاً عظيماً مزيناً بأنواع الجواهر واللآلئ، فأرسل سليمان رسالة لها مع الهدهد مضمونه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

فاستجابت بلقيس مع قومها لطلب سليمان بعد أن أقنعتهم بألا طاقة لهم بمواجهة جنود سليمان، وآثرت بكمال عقلها وفطنتها السلم والمصالحة والمسالمة والموادعة على الحرب والقتال، بالرغم من توافر قوة عسكرية كبيرة عندها: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

فشيَّد لها سليمان صرحاً عظيماً ومرَّد أرضه بالزجاج، وهذا فن مستحدث لا عهد لأهل اليمن به، ثم لما دخلته حسبته ماء، فكشفت عن ساقيها لخوض الماء لئلا تبتل ثيابها بالماء، ثم أحضر لها عرشها من بلاد اليمن إلى بلاد الشام، ليكون دليلاً على صدق نبوته، ومعجزة على صحة رسالته، وآية على قدرة الله

العجيبة في خرق العادات وتجاوز المحسوسات، مما لم يكتشف العلم سره ونواميسه إلى الآن، فما كان من بلقيس إلا أن أسلمت وآمنت برسالة سليمان، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

٩ً - قصة النملة: كان سليمان بتعليم الله وإرشاده يفهم أيضاً لغة النمل، كما يفهم منطق الطير، وذلك كله من المعجزات الخارقة للعادة، وقد بيّنا كيفية فهم سليمان خطاب النملة في بني جنسها: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ٢٧/١٧-١٩].

١٠ً - موت سليمان عليه السلام: أعمى الله موت سليمان على الجان المسخرين لخدمته في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه (منسأته) بعد موته مدة طويلة نحواً من سنة كما يقال، فلما أكلتها الأرضة (دابة الأرض) ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وهو أمامهم، وتبينت الجن والإنس أنهم لا يعلمون الغيب قطعاً، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ٣٤/١٤]. وهذا من تكريم الله لسليمان عليه السلام، وإلقاء هيبته على الجنّ والإنس حتى بعد موته.

القصة الثالثة

قصة صالح عليه السلام مع قومه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾

القراءات:

﴿أَنِ اعْبُدُوا﴾ :

وصلاً قرئ:

١- (أنِ اعبدوا) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (أنُ اعبدوا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾، ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي (لَتُبَيِّتُنَّه، لَتقولُنَّ).

﴿مَهْلِكَ﴾

قرئ:

١- (مَهْلِك) وهي قراءة حفص.

٢- (مُهْلَك) وهي قراءة الباقين.

﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (إنا دمَّرناهم).

﴿بُيُوتُهُمْ﴾:

قرئ:

١- (بُيُوتهم) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتهم) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، أي بأن اعبدوا الله. و﴿هُمْ﴾ مبتدأ، و﴿فَرِيقَانِ﴾ خبر المبتدأ، وإذا: خبر ثان، أي فبالحضرة هم فريقان. و﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ جملة فعلية في موضع نصب حال من ضمير ﴿فَرِيقَانِ﴾.

﴿اطَّيَّرْنَا﴾ أصله: تطيرنا، فأبدلت التاء طاء، وسكنت وأدغمت الطاء في الطاء، واجتلبت همزة الوصل وكسرت لسكون ما بعدها.

﴿تَقَاسَمُوا﴾ فعل أمر، أمر بعضهم بعضاً بالتقاسم والتحالف على أن يبيتوه وأهله. وقرئ «تقاسموا» على أنه فعل ماض؛ لأنه إخبار عن غائب.

﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ بمعنى الهلاك، وقرئ: (مُهْلَك) وأراد به الإهلاك

مصدر «أهلك» وقرئ «مَهْلَك» وأراد به الهلاك من «هلك» والمشهور في المصدر الفتح، والكسر قليل؛ لأن الكسر يكون في المكان والزمان، فيكون «مهلِك» بالكسر كالمرجع بمعنى الرجوع.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ ﴿أَنَّا﴾ بتقدير حذف حرف الجر، أي لأنا دمرناهم، فتكون ﴿كَانَ﴾ ناقصة، و ﴿عَٰقِبَةُ﴾: اسمها، و﴿كَيْفَ﴾: خبرها. ومن قرأ بالكسر (إنا) فعلى الابتداء، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾، و﴿كَيْفَ﴾ خبرها، وجملة (إنا دمرناهم) خبر مقدم؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام. ويحتمل أن تكون ﴿كَانَ﴾ تامة أي وقع، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ فاعل، ولا تفتقر إلى خبر، و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال، أي انظر على أي حال وقع أمر عاقبة مكرهم، ثم بين العاقبة بقوله: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾.

﴿خَاوِيَةً﴾ حال من ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ وعامله ما في (تلك) من معنى الإشارة أي أشير إليها خاوية، وتقرأ بالرفع على أنها خبر للبيوت، أو خبر ثان، أو خبر لمبتدأ مقدر أي هي خاوية، أو بدل من «البيوت» أو خبر تلك، و﴿بُيُوتُهُمْ﴾ عطف بيان على (تلك).

البلاغة:

﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ ﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾ طباق. وتسمية العذاب أو العقاب بالسيئة مجاز.

﴿يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ طباق.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ للتحضيض.

﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾ جناس اشتقاق.

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ ﴿وَمَكَرْنَا﴾ مشاكلة، سمى تعالى إهلاكهم مكراً على سبيل المشاكلة.

المفردات اللغوية:

﴿أَخَاهُمْ﴾ من القبيلة. ﴿أَنِ اعْبُدُوا﴾ بأن وحدوا الله. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ ففاجؤوا التفرق. ﴿فَرِيقَانِ﴾ فريق مؤمن وفريق كافر. ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يتنازعون ويجادل بعضهم بعضاً. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ قال صالح للمكذبين. ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالعذاب قبل الرحمة، أو بالعقوبة التي تسوء صاحبها قبل التوبة، حيث قلتم: إن كان ما أتيتنا به حقاً فأتنا بالعذاب. ﴿لَوْلَا﴾ هلا. ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ من الشرك. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبول التوبة فلا تعذبوا، فإنها لا تقبل عند نزول العذاب.

﴿اطَّيَّرْنَا﴾ تشاءمنا بك حيث فرقتنا، والطِيَرة: تعليق الخير أو الشر على طيران الطائر يميناً أو شمالاً. ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين، حيث قحطوا المطر وجاعوا. ﴿طَائِرُكُمْ﴾ شؤمكم أي ما يصيبكم من الخير أو الشر. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي هو قدره أتاكم به، أو عملكم المكتوب عنده. ﴿تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون بالخير والشر أو تعاقب السراء والضراء.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ مدينة ثمود وهي الحجْر. ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعة رجال، والرهط: من الثلاثة إلى العشرة، وأما النفر فهو من الواحد إلى العشرة. ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنهم الإفساد الخالص عن شوائب الصلاح، والإفساد: بالمعاصي كاقتطاع جزء من الدراهم والدنانير، والصلاح: بالطاعة. ﴿قَالُوا﴾ قال بعضهم لبعض. ﴿تَقَاسَمُوا﴾ احلفوا. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ لنباغتن صالحاً وأهله الذين آمنوا به ليلاً، أي نقتلهم ليلاً. ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ لولي دمه وهو من له حق القصاص من ذوي قرابته إذا قتل. ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ ما حضرنا. ﴿مَهْلِكَ﴾ هلاك، وقرئ (مُهْلَك) أي إهلاك، أي فلا ندري من قتلهم.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ بهذا التواطؤ على الاغتيال، والمكر: التدبير الخفي

لعمل الشر. ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ جازينا بتعجيل عقوبتهم. ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك. ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾ أهلكناهم. ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بصيحة جبريل، أو برمي الملائكة بحجارة يرونها ولا يرونهم. ﴿خَاوِيَةً﴾ خالية. ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم أي كفرهم. ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة وموعظة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا فيتعظون. ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بصالح، وهم أربعة آلاف. ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك أو الكفر والمعاصي، فلذلك خصوا بالنجاة.

المناسبة:

بعد أن ذكرالله تعالى قصة موسى وداود وسليمان، وهم من بني إسرائيل، ذكر قصة من هو من العرب، وهم ثمود أي عاد الأولى، وصالح أخوهم في النسب، بقصد تذكير قريش والعرب وتنبيههم أن من تقدم من الأنبياء من العرب كان يدعو إلى إفراد الله بالعبادة، ليعلموا أنهم في عبادة الأصنام على ضلالة، وأن شأن الأنبياء عربهم وعجمهم هو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له.

وكل هذه القصص من التاريخ الغابر دليل على أن محمداً رسول الله، وأنه يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم، وإنذار وتهديد لكل كافر أو مشرك.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي وتالله لقد بعثنا إلى قبيلة ثمود العربية أخاهم في النسب والقبيلة بأن اعبدوا الله وحده لاشريك له، فانقسموا فريقين: فريق مؤمن مصدق برسالته وبما جاء به من عند ربه، وفريق كافر مكذِّب بما جاء به.

وأصبح الفريقان يتجادلان ويتنازعان في الدين، كل فريق يقول: الحق معي، وغيري على الباطل، كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن

قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٥-٧٦] .

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾؟ أي قال صالح: يا قومي، لم تطلبون أو تتعجلون نزول العقاب أو العذاب قبل أن تطلبوا من الله رحمته أو ثوابه إن عملتم بما دعوتكم إليه وآمنتم بي، والمقصود: أن الله مكنكم من التوصل إلى رحمة الله تعالى وثوابه بالإيمان، فلماذا تعدلون عنه إلى استعجال عذابه؟ وكان هذا جواباً لهم حينما توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب إن لم يؤمنوا بالله وحده، فقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٧] .

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي هلا تطلبون من الله المغفرة، وتتوبون إليه من كفركم لكي ترحموا!! لأنه إذا نزل العذاب لم تنفعكم التوبة. فكان جوابهم:

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ أي قال قومه بغلظة وشدة: لقد تشاءمنا منك وممن آمن معك ولم نر خيراً فيكم أو من طريقكم؛ إذ تتابعت علينا الشدائد، ووقع بيننا الافتراق منذ اخترعتم دينكم، وكانوا لشقائهم لا يصاب أحد منهم بسوء إلا قالوا: هذا من قِبَل صالح وأصحابه. قال مجاهد: تشاءموا بهم.

وهذا كما قال الله تعالى إخباراً عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣١] .

وسمي التشاؤم تطيراً من عادة العرب بزجر الطير أي رميه بحجر ونحوه، فإن تحول يميناً تفاءلوا، وسموه السانح، وإن اتجه يساراً تشاءموا وسموه البارح.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قال صالح: شؤمكم وتفاؤلكم وما يصيبكم من شر أو خير هو قدر الله أتاكم به، وهو مكتوب عند الله، والله يجازيكم على ذلك، فهو إن شاء رزقكم، وإن شاء حرمكم. وسمي القضاء والقدر طائراً لسرعة نزوله بالإنسان. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨/٤].

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي بل إنكم قوم تختبرون بالطاعة والمعصية، حين أرسلني الله إليكم، فإن أطعتم أجزل الله لكم الثواب، وإن عصيتم حل بكم العقاب. وقال ابن كثير: والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال. وعلى أي حال، فإن القصد بيان أن سبب نزول الشر بهم هو عصيانهم.

ثم أخبر الله تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، وعن كون مدينة ثمود مرتع الفساد الكثير فقال:

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وكان في مدينة ثمود وهي الحجْر تسعة نفر أوغلوا في الفساد الذي لا أثر للصلاح فيه، فكانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح، وهم الذين تواطؤوا على عقر الناقة وعلى قتل صالح ومن آمن به، فقال تعالى:

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي قال بعضهم لبعض في المشاورة بشأن صالح بعد أن عقروا الناقة: احلفوا لنباغتنه وأهله الذين آمنوا معه ليلاً، فنقتلنهم، فهذا تحالف على قتل نبي الله صالح عليه السلام ليلاً قتل غيلة، ثم تحالفوا على أن يقولوا لأولياء الدم أو القصاص إذا مات: ما حضرنا هلاكهم، ولا ندري من قتلهم، وإنا لصادقون في قولنا، أي إننا لم نحضر هلاك أحد الجانبين وهو

أهل صالح، وإن فعلوا الأمرين معاً. قال الزمخشري: وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم. وهذا من الزمخشري على طريقة المعتزلة في أن العقل يدرك الحسن والقبح قبل الشرع، والكذب قبيح عقلاً.

وكان تآمرهم على قتل صالح بعد أن توعدهم على عقرهم الناقة فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ١١/ ٦٥].

ولكن الله كادهم وأحبط مؤامرتهم وجعل الدائرة عليهم، فقال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي ودبروا مؤامرة وكادوا كيداً خفياً، ولكنا جازيناهم وأهلكناهم، وعجلنا لهم العقاب، دون أن يشعروا بمجيئه، ولا يحيق المكر السَّيِّئ إلا بأهله.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي فتأمل أيها الرسول وكل سامع كيف كان مصير تآمرهم أنا أهلكناهم وقومهم جميعاً، ولم نبق أحداً منهم إلا الذين آمنوا بصالح عليه السلام.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي وكان من آثار إنزال العذاب بهم أن أصبحت مساكنهم خالية بسبب ظلمهم أنفسهم، إن في هذا العقاب لعبرة وموعظة لأناس أهل معرفة وعلم، يعلمون بسنة الله في خلقه، وبأن النتائج مرتبطة بالأسباب، فالويل كل الويل لمن كفر بالله وكذب رسله، ولم يقلع عن طغيانه وعناده وكفره.

أما المؤمنون فهم دائماً ناجون كما قال سبحانه:

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي ونجينا من العذاب صالحاً النبي ومن آمن به إذ ساروا إلى بلاد الشام ونزلوا بالرملة من فلسطين؛ لأن الإيمان واتقاء عذاب الله بطاعته سبب دائم للنجاة من عذاب الدنيا والآخرة.

والمقصود تذكير قريش والعرب وتحذيرهم بأنهم إن استمروا في كفرهم وعنادهم عذبوا كما عُذّب أمثالهم، وأن محمداً ﷺ والمؤمنين المصدقين برسالته ينجيهم الله برحمة منه وفضل.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - من البداهة أن ينقسم الناس بعد النبوة إلى فريقين: فريق مؤمن وفريق كافر، وليس هذا شراً، وإنما هو أثر طبيعي من آثار الرسالة النبوية، وهو حجة على الكافرين وليس ذريعة لهم في معاداة الأنبياء.

٢ً - المخاطبون بالرسالة الإلهية هم المخطئون المقصرون بتفويت فرصة الخير على أنفسهم، لذا قال صالح عليه السلام لقوله: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يوجب العقاب، فكانوا يقولون لفرط الإنكار: إيتنا بالعذاب. وهم لم يدركوا أن الإيمان سبب للرحمة، والكفر سبب للعذاب.

٣ً - لقد استبد الجهل والعناد بقوم صالح فقالوا بغلظة: لقد تشاءمنا منك وممن آمن بك، والشؤم: النحس، ولا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطِّيَرة أي التشاؤم، ومن ظن أن خُوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء، أو يدفع مقدوراً فقد جهل. وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة، وكانت إذا أرادت سفراً نفَّرت طائراً، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت، وإن طار شمالاً رجعت وتشاءمت، فنهى النبي ﷺ عن ذلك، وقال فيما رواه أبو داود والحاكم عن أم كرز: «أَقِرُّوا الطير على وكناتها» أي أعشاشها ولا تنفروها، وفي رواية: «مكناتها».

ورد صالح على قومه: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي مصائبكم عند ربكم، وأنتم قوم تمتحنون، وقيل: تعذبون بذنوبكم.

٤ً - إن قادة السوء ودعاة الكفر من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، ويضاعف لهم العذاب، لذا خصص القرآن التنديد بتسعة رجال من أبناء

مدينة صالح وهي الحجْر، وكانوا عظماء المدينة، وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد، ويدعون قومهم إلى الكفر والضلال. وكان قُدار بن سالف الذي عقر الناقة أحد هؤلاء التسعة زعماء الإجرام. وزاد من طغيانهم أنهم عقروا الناقة، وتآمروا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، فكانوا عتاة قوم صالح، مع أنهم كانوا من أبناء أشرافهم.

٥ً - إن كل مكر أو تدبير خفي أو مؤامرة دنيئة كالتآمر على قتل نبي، ذو عاقبة سيئة، فلا يحيق المكر السَّيِّئ إلا بأهله، لذا كان عقاب قبيلة ثمود بسبب كفرهم وطغيانهم التدمير والإهلاك بصيحة جبريل عليه السلام وبإمطار الملائكة عليهم حجارة قاتلة قتلتهم. قال القرطبي: والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد، ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة.

٦ً - بقيت آثار الدمار شاهدة على سوء أفعال ثمود، فصارت بيوتهم خالية من السكان، بسبب ظلمهم أنفسهم بالكفر والفساد والمعاصي، وفي ذلك عبرة للمعتبر.

٧ً - نَجَّى الله الذين آمنوا بصالح؛ لأنهم مؤمنون اتقوا الله وخافوا عذابه، قيل: آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل. وهذا أيضاً بشارة بالرحمة والنجاة لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، فاللهم يا ربنا ثبِّت علينا الإيمان، والإخلاص في عبادتك، وجنبنا العصيان، فإنا نخاف عذابك، ونجنا من عذاب الدنيا وأهوال عذاب الآخرة يا أرحم الراحمين.

القصة الرابعة

قصة لوط عليه السلام مع قومه

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

الإعراب:

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مقدر، تقديره: واذكر لوطاً، أو أرسلنا لوطاً.

البلاغة:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ استفهام توبيخي وإنكاري.

المفردات اللغوية:

﴿وَلُوطًا﴾ أي واذكر لوطاً، أو أرسلنا لوطاً، لدلالة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ في قصة صالح السابقة عليه. ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل مما قبله على تقدير: اذكر، وظرف على تقدير: أرسلنا ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ فعل قوم لوط .﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون فحشها، من بصر القلب؛ لأن اقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح، أو يبصر بعضكم بعضاً انهماكاً في الفاحشة، وإعلاناً بها، فتكون أفحش .﴿شَهْوَةً﴾ بيان لإتيانهم الفاحشة، وتعليله بالشهوة للدلالة على قبحه، والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل، لا قضاء الوطر .﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ اللاتي خلقن لذلك .﴿تَجْهَلُونَ﴾ عاقبة فعلكم، أو تفعلون فعل من يجهل قبحها، أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبيح.

المناسبة:

هذه هي القصة الرابعة في هذه السور، لكن تتمتها في بداية الجزء التالي، قصد بها كما قصد بغيرها من القصص السابقة التحذير من مخالفة أوامر الله، واقتراف الفواحش أو المعاصي الكبيرة، لئلا ينزل بالعصاة من العذاب مثل ما نزل بمن قبلهم.

التفسير والبيان:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾؟ أي واذكر أيها الرسول لقومك قصة لوط حين أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين فقال منكراً عليهم وموبخاً لهم:

أتأتون الفاحشة وهي إتيان الذكور دون الإناث، مع علمكم بقبحها، واقتراف القبيح من العالم أشنع من غيره، أو في حال رؤية بعضكم بعضاً إذ تأتون في ناديكم المنكر. ثم صرح بما يفعلون بعد الإبهام فقال:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ هذا تكرار للتوبيخ، أي كيف تقبلون إتيان الرجال من غير النساء، فهذا شذوذ جنسي، وانتكاس للفطرة، وترك لما أحل الله لكم من الاستمتاع بالنساء، والحقيقة أنكم قوم جهلاء سفهاء، لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً، وتجهلون عاقبة هذا الأمر الشنيع، ولا تميزون بين الحسن والقبيح، فتفضلون العمل الشنيع على المباح لكم من النساء. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٦٥-١٦٦] .

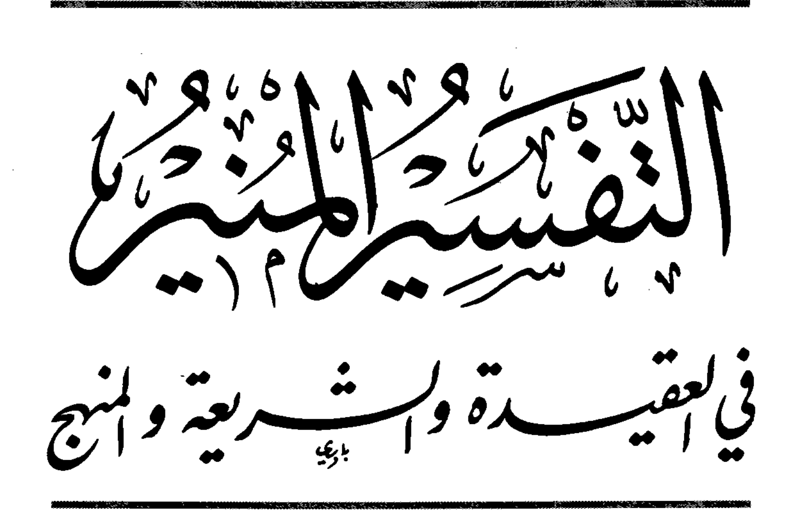
وإذا فسرت ﴿تُبْصِرُونَ﴾ بالعلم، ثم قال ﴿تَجْهَلُونَ﴾ فكيف يكونون علماء جهلاء؟ والجواب كما ذكر الزمخشري أنه أراد: تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة، مع علمكم بذلك، أو تجهلون العاقبة، أو أنه أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها، أي إنهم سفهاء ماجنون.

ولا نرى حملة تشنيع على منكر مثل هذه الحملة الشديدة، فقوله ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ شذوذ يأباه الحيوان، وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ انحراف عن الشي الطبيعي والأفضل، وأنه خطأ بالغ وفعل قبيح، وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصف ثابت لازم لهم بأنهم يفعلون فعال الجهلاء السفهاء الذين لا يميزون ولا يعقلون الفرق بين الحسن والقبيح.

وإزاء هذه الحملة، وبالرغم من عنفها وقسوتها أجابوا عنها بما لا يصلح أن يكون جواباً مقبولاً ولا معقولاً في ميزان العقلاء، وهو ما سيأتي في مطلع الجزء التالي.

آمنت بالله انتهى الجزء التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم



الجزء العشرون



تتمة قصة لوط عليه السلام

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات اللغوية:

﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أهله، ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ ينزهون أنفسهم عن أفعالنا. ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ قضينا وحكمنا أنها من الباقين في العذاب. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أنزلنا عليهم حجارة من السجيل، فأهلكتهم. ﴿فَسَآءَ﴾ بئس. ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي بئس المطر مطرهم، وهم المنذرون بالعذاب.

التفسير والبيان:

هذه تتمة قصة لوط عليه السلام مع قومه، تتضمن جوابهم عن إنذاره: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ أي لقد أعلن القوم إصرارهم على تعاطيهم الفاحشة المنكرة، وأجابوا لوطاً عليه السلام بعد التشاور فيما بينهم أخرجوا لوطاً وأهله ومن معه من بلدتنا، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، ونرتاح من وعظهم وإرشادهم، فإن البلدة بلدتنا، ولوط وجماعته قوم أغراب عنا.

وسبب هذا الإخراج أو الإبعاد:

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي إنهم يتحرجون من أفعالنا، ولا يقروننا على صنيعنا، وهذا صنيع الفساق في كل زمان، لا يريدون تعكير فسادهم بكلام المصلحين، ليبقوا منغمسين في الرذيلة دون منغص أو معترض.

فلما عزموا على إخراج لوط وأهله من بلدتهم دمر الله عليهم، وللكافرين الفاسقين أمثالها، وأنجى الله المؤمنين الصالحين، قال تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي نجينا لوطاً ومن آمن معه برسالته من أهله، أما امرأته التي كانت راضية بأفعالهم القبيحة، ومتواطئة معهم، فتدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم، فإنا حكمنا بجعلها من الباقين في العذاب؛ لأن من رضي بالمنكر وإن لم يفعله فهو مقرٌّ به، فله جزاء الفاعلين.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي وأنزلنا عليهم حجارة من سجيل وهو الحاصب، فأبادهم وخسف بهم الأرض، فبئس المطر مطر المنذَرين بالعذاب الذين قامت عليهم الحجة، ووصلهم الإنذار الإلهي، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهمُّوا بإخراجه من قريتهم، وتلك هي عاقبة الفاسقين.

فقه الحياة أو الأحكام:

اقتضت عدالة الله تعالى ألا يعذب قوماً إلا بعد إنذار، وألا يجعل لهم العقاب إلا بعد نصح وإرشاد وإمهال. وهذا ما فعله نبي الله لوط عليه السلام مع قومه أهل سدوم، فإنه وبخهم وأنكر عليهم بشدة فعلتهم القبيحة الشنيعة التي يعلمون أنها فاحشة، وذلك أعظم تجريماً وأكبر إثماً ومعصية، ويقال: إنهم كانوا يتعاطون هذه الفاحشة جهاراً نهاراً، ولا يستترون من بعضهم بعضاً، عتواً منهم وتمرداً.

ثم صرح لوط عليه السلام بذكر تلك الفعلة الشنيعة، وأعلنها لفرط قبحها وسوئها، ووصفهم بأنهم جاهلون أمر التحريم أو العقوبة، والآن يُعلمهم بشدة الحرمة، وينذرهم بقبح العقاب والعذاب.

لكن القوم أمعنوا في ضلالهم، وازدادوا غياً في فسقهم، وأصروا على معصيتهم، وتآمروا فيما بينهم على طرد لوط وأهله من قريتهم، قائلين على سبيل الاستهزاء منهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزهون عن أدبار الرجال.

فكان مقتضى الرحمة الإلهية أن ينجي الله لوطاً وأهله الذين آمنوا برسالته، وتورعوا من التدنس برجس هؤلاء العصاة الفساق، إلا امرأته التي كانت راضية بأفعال قومها القبيحة، أضحت باقية معهم في العذاب.

وكان من مقتضى العدل أن يجازي الله هؤلاء المصرين على العصيان وارتكاب الفاحشة، والذين أنذروا بالعقاب فلم يقبلوا الإنذار، فأنزل الله عليهم من السماء حجارة من سجيل منضود، مسوَّمة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد، فأهلكوا جميعاً، وما أسوأ ذلك المصير المشؤوم!!

أدلة الوحدانية والقدرة الإلهية

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)﴾

القراءات:

﴿يُشْرِكُونَ﴾ : قرئ:

١- (يشركون) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم.

٢- (تشركون) وهي قراءة الباقين.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ : قرئ:

١- (يذَّكَّرون) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة الباقين.

﴿ٱلرِّيَـٰحَ﴾ : قرئ: ١- (الريح) وهي قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (الرياح) وهي قراءة الباقين.

﴿بُشْرًا﴾ : قرئ:

١- (نُشُراً) هي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن كثير.

٢- (نُشْراً) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (بُشْراً) وهي قراءة عاصم.

٤- (نَشْراً) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، والأظهر - كما قال ابن الأنباري - أن كلمة

﴿خَيْرٌ﴾ هنا للمفاضلة، فإنه وإن لم يكن في آلهتهم خير، فهو بناء على اعتقادهم، فإنهم كانوا يعتقدون أن في آلهتهم خيراً .﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدل من ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ صلة زائدة، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة مصدر مقدر، أي تذكراً قليلاً يذكرون، والمراد به النفي، مثل: قل ما يأتيني، أي لا يأتيني.

البلاغة:

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام يقصد به التبكيت والتهكم.

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ استعارة، أي أمام نزول المطر، استعار اليدين للأمام.

﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بينهما طباق

﴿قَرَارًا﴾ ﴿أَنْهَٰرًا﴾ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فيها مراعاة الفواصل، الذي هو من محاسن الكلام.

المفردات اللغوية:

﴿قُلِ﴾ أيها الرسول .﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هلاك الكفار الفجار من الأمم الخالية .﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار، والأنبياء هم المصطفون المختارون .﴿خَيْرٌ﴾ لمن يعبده .﴿يُشْرِكُونَ﴾ أصله أم ما يشركون فأدغم الميمان ببعضهما، وهم أهل مكة الذين يشركون بالله تعالى آلهة أخرى، أي هل شركهم خير لهم؟ وهو تهكم بهم وتسفيه لرأيهم؛ إذ من المعلوم ألا خير أصلاً فيما أشركوه، حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير وهو الله .﴿أَمَّنْ﴾ أي بل أم من .﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الكائنات ومبادئ المنافع .﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ لأجلكم .﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم لتأكيد

اختصاص الفعل بذاته والتنبيه على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع لا يقدر عليه غيره تعالى، لذا قال: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ أي لعدم قدرتكم عليه.

﴿حَدَآئِقَ﴾ بساتين مسورة، جمع حديقة. ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حسن ورونق. ﴿شَجَرَهَآ﴾ شجر الحدائق. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أغيره يقرن به ويجعل له شريكاً، وهو المتفرد بالخلق والتكوين؟ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يميلون أو ينحرفون عن الحق الذي هو التوحيد، فيشركون بالله غيره.

﴿قَرَارًا﴾ مكاناً يستقر عليه الإنسان، فلا يميد بأهله. ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ وسطها، وبين جهاتها المختلفة، جمع خَلل: أي وسط. ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت، ثبَّت بها الأرض. ﴿بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بين العذب والمالح، لا يختلط أحدهما بالآخر. ﴿حَاجِزًا﴾ فاصلاً بين الشيئين. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق، وهو التوحيد، فيشركون به.

﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ الذي أحوجته الشدة إلى اللجوء والضراعة إلى الله، واللام فيه للجنس، لا للاستغراق، فلا يلزم منه إجابة كل مضطر. ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي يرفع السوء عنه وعن غيره. ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ خلفاء فيها، بأن ورَّثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم، من الخلافة: وهي الملك والتسلط، والإضافة بمعنى في، أي يخلف كل قرن القرن الذي قبله. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الذي خصكم بهذه النعم العامّة والخاصة. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، و﴿مَّا﴾ زائدة لتقليل القليل، والمراد به العدم أو الحقارة التي لا فائدة منها.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ يرشدكم إلى مقاصدكم. ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بالنجوم ليلاً، وبعلامات الأرض نهاراً. والظلمات: ظلمات الليالي، أضافها إلى البر والبحر للملابسة. ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي أمام المطر. ﴿عَمَّا

﴿يُشْرِكُونَ﴾ به غيره، فهو تعالى القادر الخالق، المنزه عن مشاركة العاجز المخلوق. ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ بداية خلق الإنسان الأول من التراب، وبدء خلق سلالة الإنسان في الأرحام من نطفة. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الموت. والكفرة وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون بالبراهين عليها. ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك؟ الحق أنه لا يفعل شيئاً مما ذكر إلا الله، ولا إله معه. ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم على أن غيره يقدر على شيء من ذلك. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إشراككم، فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصص أربعة أنبياء مع أقوامهم، وإهلاكهم بسبب شركهم ووثنيتهم، والإدلال على كمال قدرته ونصر رسله على أعدائهم، أمر رسوله ﷺ بحمد الله تعالى على تلك النعمة، والسلام على الأنبياء كافة، لأدائهم واجب التبليغ لرسالة ربهم على أكمل وجه، ثم رد على عبدة الأوثان ببيان الأدلة المختلفة على وحدانيته وتفرده بالخلق، وقدرته، وإخلاص العبادة له.

التفسير والبيان:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ يأمر الله رسوله ﷺ بحمد الله وشكره على نعمه على عباده التي لا تُعدّ ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلا والأسماء الحسنى، وأن يسلّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم لتبليغ رسالته، وهم رسله وأنبياؤه الكرام على نبينا وعليهم صلوات الله وسلامه. وأما كون الخطاب لنبينا محمد ﷺ فلأن القرآن منزل عليه، وكل ما فيه فهو مخاطب به ﷺ إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره.

ومن تلك النعم تجاه رسله ونصرتهم وتأييدهم، وإهلاك أعدائه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٨٠-١٨٢] .

وهذا تعليم لنا بأن نحمد الله تعالى على جميع أفعاله، ونسلّم على عباده المصطفَيْنَ الأخيار.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي هل الله الذي يتصف بالعظمة والقدرة التامة خير أم ما يشركون به من الأصنام؟ وهذا استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، وتبكيت لهم، وتهكم بحالهم؛ لإيثارهم عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى. والمقصود به التنبيه على نهاية ضلالهم وجهلهم، علماً بأنه لا خير أصلاً فيما أشركوه حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما كانت الموازنة بحسب اعتقادهم وجود منفعة في آلهتهم المزعومة.

وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال: «بل الله خير وأبقى، وأجل وأكرم» .

ثم انتقل من التوبيخ والتبكيت إجمالاً إلى الرد المفصل على عبدة الأوثان ببيان الأدلة على أنه تعالى إله واحد لا شريك له، قادر على كل شيء؛ لأنه الخالق لأصول النعم وفروعها، فكيف تصح عبادة ما لا منفعة منه أصلاً؟ وتلك الأدلة أنواع:

أ- ما يتعلق بالسماوات: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي أعبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع خير أم عبادة من خلق السماوات في ارتفاعها وصفائها، وما

جعل فيها من كواكب نيِّرة ونجوم زاهرة وأفلاك دائرة، وخلق الأرض الصالحة للحياة الهادئة، وجعل فيها الجبال والسهول، والأنهار والوديان، والزروع والأشجار، والثمار والبحار، والحيوانات المختلفة الأصناف والأشكال والألوان، وأنزل لأجل عباده من السماء مطراً جعله رزقاً لهم، فأنبت به بساتين ذات بهجة ونضارة، وشكل حسن ومنظر بهي، ولولاه ما حصل الإنبات، ولم تكونوا تقدرون على إنبات الأشجار والزروع.

فهو المنفرد بالخلق والرزق، فهل يصح بعدئذ وجود إله مع الله يعبد؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٩١] .

بل هؤلاء المشركون قوم يميلون عن الحق إلى الباطل، وينحرفون عن جادة الصواب، فيجعلون لله عِدْلاً ونظيراً.

ونظير الآية كثير مثل: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٧] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨٧] ونحو ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٣] .

هذا.. وقد ذكر الزمخشري الفرق بين أم في (أمّن) وأم في (أما يشركون) وهو أن (أما) متصلة؛ لأن المعنى أيهما خير، وفي (أمن) منقطعة بمعنى «بل» .

٢- ما يتعلق بالأرض: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي أعبادة الأوثان العديمة النفع والضرر خير أم عبادة الذي جعل الأرض مستقراً للإنسان وغيره، لا تميد ولا تتحرك بأهلها، وجعل فيها الأنهار العذبة الطيبة لسقاية الإنسان والحيوان والنبات، وجعل فيها جبالاً ثوابت شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم، وجعل بين المياه العذبة والملحة حاجزاً، أي مانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بذاك، لتبقى

الغاية من التفرقة بينهما متحققة، فإن الماء العذب الزلال لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار، والماء المالح في البحار ليكون مصدراً للأمطار، وليبقى الهواء فوقه نقياً صافياً لا يفسد بالرائحة الكريهة التي تحدث عادة في تجمعات المياه العذبة.

أيوجد إله مع الله فعل هذا وأبدع هذه الكائنات؟! بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فيتبعونه، ولا يعرفون قدر عظمة الإله المستحق للعبادة.

ونظير الجزء الأول من الآية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٤] ونظير آية حاجز البحرين: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٣].

٣- ما يتعلق عموماً باحتياج الخلق إلى الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي أتلك الآلهة الجمادات الصماء خير أم من يجيب المضطر إذا دعاه وهو الذي أحوجه المرض أو الفقر أو المحنة إلى التضرع إلى الله تعالى، ويرفع عنه السوء أو الضرر الذي أصابه من فقر أو مرض أو خوف أو غيره، ويجعلكم ورثة من قبْلكم من الأمم في سكنى الأرض والديار والتصرف فيها، فيخلف قرناً لقرن وخَلَفاً لسلف، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٥].

أيعقل وجود إله مع الله بعد هذا؟ وهل يقدر أحد على ذلك غير الله المتفرد بهذه الأفعال؟ ولكن ما أقل تذكركم نعم الله عليكم، ومن يرشدكم إلى الحق ويهديكم إلى الصراط المستقيم.

٤- ما يتصل باحتياج الخلق إلى الله تعالى في وقت خاص: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ

اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أي أتلك الآلهة التائهة خير أم من يرشدكم في أثناء الظلمات البرية أو البحرية إذا ضللتم الطريق بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦/١٦] وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦/٩٧] .

ومن يرسل الرياح مبشرات أمام نزول الغيث الذي يحيي به الأرض بعد موتها، أيكون هناك إله مع الله فعل هذا؟ تنزه الله المتفرد بالألوهية المتصف بصفات الكمال عن شرك المشركين الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر؟!

٥- ماله صلة بإبداع الخلق والحشر والنشر: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي أتلك الآلهة العاجزة خير، أم الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخَلْق من غير مثال سبق، ثم يميته، ثم يعيده إلى الحياة الأولى مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ٨٥/١٣] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/٢٧] وهو الذي يرزقكم بما يُنَزِّل من السماء من أمطار، وبما ينبت من بركات الأرض.

أيوجد إله آخر فعل هذا مع الله حتى يتخذ شريكاً له؟ قل لهم أيها الرسول: قدّموا برهانكم على صحة ما تدّعون من عبادة آلهة أخرى إن كنتم صادقين في ذلك مع أنفسكم ومع غيركم، والواقع أنه لا حجة لهم ولا برهان يقبله عاقل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٧] .

قال أبو حيان: ناسب ختم كل استفهام بما تقدمه، فلما ذكر العالم العلوي والسفلي وما امتنَّ به من إنزال المطر وإنبات الحدائق، ختمه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي عن عبادته أو يعدلون به غيره مما هو مخلوق، فلا يعبد إلا

موجد العالم، ولما ذكر جعل الأرض مستقراً وتفجير الأنهار وإرساء الجبال، وكان ذلك تنبيهاً على ضرورة تعقل ذلك والتفكر فيه، ختمه بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ولما ذكر إجابة دعاء المضطر وكشف السوء واستخلافهم في الأرض ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى توالي النسيان إذا صار في خير وزال اضطراره، ولما ذكر الهداية في الظلمات وإرسال الرياح مبشرات، ومعبوداتهم لا تهدي وهم يشركون بها، ختمه بقوله: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. واعتقب كل واحدة من هذه الجمل قوله: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ على سبيل التوكيد والتقرير أنه لا إله إلا هو تعالى[1].

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت هذه الآيات الأدلة على إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته الشاملة، وتتلخص هذه الأدلة بالخلق والإيجاد، والتفرد في دفع الضرر، وجلب النفع والخير، والقدرة على الحشر والنشر، ويتجلى ذلك فيما يأتي:

أ- إهلاك كفار الأمم الخالية جميعاً لإصرارهم على الشرك والوثنية وارتكابهم كبائر المعاصي وعظائم الفواحش.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ تعليم وإرشاد إلى حمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية الذي زرعوا الشرك والمعصية في ديارهم، مما يجب التخلص منهم، وفي هذا عبرة وعظة.

ويؤخذ من ذلك الاستفتاح بالتحميد لله والسلام على الأنبياء والمصطفين من عباده، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ جيلاً عن جيل هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله ﷺ في فواتح الأمور المفيدة وفي المواعظ والخطب.

---

(١) البحر المحيط: ٧/ ٩١

٢- قوله سبحانه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبكيت للمشركين وتوبيخ وتهكم على حالهم وضلالهم، لإيثارهم عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى.

٣- الله تعالى هو خالق السماوات والأرض، ومنزل المطر، ومنبت الشجر والزرع والثمر في الحدائق الغنَّاء ذات الأنواع والأشكال والألوان المختلفة، والمناظر الجميلة الرائعة الحسن والبهاء، فيكون قطعاً هو المستحق للعبادة دون غيره؛ لأنه لا يتهيأ للبشر ولا لغيرهم ولا يتيسر لهم ولا يمكنهم أن يخلقوا شيئاً مما ذكر، فهم عَجَزة عن مثل ذلك.

٤- قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ يستدل به لقول مجاهد على منع تصوير أي شيء، سواء أكان له روح أم لم يكن: ويعضده ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي، فليخلقوا ذُرَة، أو ليخلقوا حبّة، أو ليخلقوا شعيرة» .

وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز، كما يجوز الاكتساب به؛ أخرج مسلم أيضاً أن ابن عباس قال للذي سأله أن يصنع الصور: إن كنت لابد فاعلاً، فاصنع الشجر وما لا نفس له.

٥- الله عز وجل هو الذي جعل كرة الأرض اليابسة صالحة للحياة، بجعلها قارّة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها، وزودها بالهواء الذي لا تمكن الحياة بدونه، وجعل فيها الأنهار للسقي، والجبال الثوابت لتمسكها وتمنعها من الحركة، وجعل بين البحرين: العذب والمالح مانعاً من قدرته، لئلا يختلط الأجاج بالعذب.

إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غير الله، فلِمَ يعبد المشركون ما لا يضر ولا ينفع؟ ولكن أكثرهم يجهلون الله، فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية.

٦ً- الله تعالى وحده مصدر الرحمة الذي يدفع الضرر، فيجيب دعاء المضطر (وهو ذو الضرورة المجهود) ويكشف السوء (الضر) ويجعل الناس خلفاء الأرض أي سكانها جيلاً بعد جيل، فيموت قوم وينشئ الله آخرين، أمع الله ويلكم أيها الناس إله؟ ولكنكم تتذكرون تذكراً قليلاً نعم الله عليكم، والمراد نفي التذكر، والقلة تستعمل في معنى النفي.

وهذا دليل على أن الله تعالى ضمن إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ لأن التضرع إليه ينشأ عن الإخلاص، وعدم تعلق القلب بسواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمّة، سواء وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ١٠/٢٢] وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٥] أي إن الله تعالى أجابهم عند ضرورتهم وإخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٥] .

وفي الحديث الصحيح: «ثلاث دَعَوات مستجابات، لا شكَّ فيهن: دعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ الوالدِ على وَلَده» وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لمعاذ لما وجّهه إلى أرض اليمن: «واتقِ دعوةَ المظلوم، فليس بينها وبين الله حجابٌ» .

٧ً- الله تعالى وحده مصدر الخير والنفع، فهو الذي يرشد الطريق في ظلمات البر والبحر حال السفر إلى البلاد البعيدة، وهو الذي يرسل الرياح مبشرات قدام المطر، فهل يوجد إله مع الله يفعل ذلك ويعينه عليه؟ تنزه الله عما يشرك به المشركون من دونه.

٨- الله الذي يقرُّ المشركون أنه الخالق الرازق هو الذي يعيد الخلق يوم القيامة إلى الحياة الجديدة؛ لأن من قدر على ابتداء الخلق فهو قادر حتماً على الإعادة، وهو أهون عليه، أيوجد إله مع الله يخلق ويرزق ويبدئ الخلق ويعيده؟ فيا أيها المشركون مع الله إلهاً آخر، قدّموا حجتكم أن لي شريكاً، أو حجتكم في أنه صنع أحد شيئاً من هذه الأشياء غير الله، إن كنتم صادقين مع أنفسكم في ادعاء أن له شريكاً.

لا يعلم الغيب إلا اللّٰه

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

القراءات:

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (بلْ أدْرَك).

الإعراب:

﴿ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾: بدل مرفوع من ﴿مَنْ﴾ لأنه استثناء من منفي.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾: أي تتابع، وأصله «تدارك» فأبدل من التاء دالاً، وأدغم الدال في الدال، وقرئ (أَدْرَك) أي تناهى علمهم وكمل في أمر الآخرة.

﴿فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ﴿فِي﴾ بمعنى الباء، والمضاف محذوف، أي بل ادّرك علمهم بحدوث الآخرة، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي من حدوثها.

﴿عَمُونَ﴾ أصله «عميون» فاستثقلت الضمة على الياء، فنقلت إلى ما

قبلها، فسكنت الياء، والواو بعدها ساكنة، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وكان حذفها أولى من حذف واو الجمع؛ لأن واو الجمع دخلت لمعنى، وهي لم تدخل لمعنى، فكان حذفها أولى.

البلاغة:

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ استعارة، استعار العمى للتعامي عن الحق، وعدم التفكر في أدلة إثباتها.

المفردات اللغوية:

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والناس ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ ما غاب عنهم ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لكن الله يعلمه، فالاستثناء منقطع ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كفار مكة وغيرهم ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ينشرون، أي يخرجون من القبور للحساب والجزاء ﴿بَلِ﴾ أي هل ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ تتابع وتلاحق واستحكم، وقرئ: «أدْرَك» بوزن أكرم، أي انتهى علمهم وتكامل. والمراد أن ما انتهى وتكامل فيه أسباب علمهم من الحجج والبينات على أن القيامة كائنة لا محالة، لا يعلمونه كما ينبغي، وإذا سألوا عن وقت مجيء القيامة فليس الأمر كذلك، فهم في شك منها ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي فهم في الحقيقة في شك وحيرة عظيمة من حصول القيامة، كمن تحير في أمر لا يجد عليه دليلاً ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم، وهو جمع عمٍ: وهو أعمى القلب والبصيرة، وهو أبلغ مما قبله.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أنه المختص بالقدرة التامة الفائقة العامة، أتبعه بما هو أيضاً من لوازم الألوهية وهو أنه المختص بعلم الغيب، فثبت أنه هو الإله المعبود؛ لأن الإله هو المتمكن من المجازاة لأهل الثواب والعقاب.

التفسير والبيان:

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ أي قل أيها الرسول لجميع الخَلْق: لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله. فقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ استثناء منقطع، أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٦/٥٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣١/٣٤] .

روى مسلم وابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أن النبي ﷺ يعلم ما يكون في غد، فقد أعظم الفِرْية على الله؛ لأن الله يقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾.

ولما نفى عنهم علم الغيب على العموم، نفى عنهم علم الغيب المخصوص بوقت الساعة فصار منتفياً مرتين، فقال:

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي وما يدري أهل السماوات والأرض بوقت الساعة، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ [الأعراف: ٧/١٨٧] أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض، فلا يشعر الكفار وغيرهم في أي وقت يكون البعث للحساب والجزاء، وإنما تأتيهم الساعة فجأة.

ثم أكد الله تعالى جهلم بيوم القيامة فقال:

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي بل انتهى علمهم بالآخرة، وعجز عن معرفة وقت حدوثها، والمراد: أن ما توصلوا إليه من أدلة إثبات الآخرة تلاشى شيئاً فشيئاً، حتى لم يَعُدْ لها قيمة ذات بال.

ثم وصفهم بالحيرة في الآخرة فقال:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي بل الكافرون (أي جنسهم) في حيرة شديدة من تحقق الآخرة ووجودها، أي شاكون في وجودها ووقوعها، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/٤٨] أي أن لن نجعل للكافرين منكم.

ثم وصفهم الله بالتعامي عن التفكر والتدبر في أمر الآخرة، فقال:

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي بل هم في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها، لا يفكرون فيها في أعماق نفوسهم، فهم عمي البصيرة لا البصر، وهذا أسوأ حالاً من الشك.

قال أبو حيان: هذه الإضرابات الثلاثة ما هي إلا تنزيل لأحوالهم، وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه، والإزالة مستطاعة، وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه، فلذلك عدّاه بمن دون «عن»[١].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى أنه لا يعلم أحد الغيب إلا الله، فذلك مما اختص الله به، فيكون هو الإله المستحق للعبادة.

ودلت على أن الكفار وغيرهم لا يشعرون بوقت القيامة حتى تأتيهم فجأة، وعلى أن علمهم بأدلة إثباتها معدوم، فهم جهلة بها ولا علم لهم فيها، وهم أيضاً في شك منها في الدنيا وفي حيرة شديدة من شأن وجودها، وقلوبهم عُمْيٌ عن إدراكها وعما يوصل إلى الحق في شأنها.

---

(١) التفسير الكبير: ٧/ ٩٣.

إنكار المشركين البعث

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

القراءات:

﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ .. ﴿أَئِنَّا﴾: قرئ:

١- (إذا كُنَّا.. أَئِنَّا) وهي قراءة نافع.

٢- (أئذا كُنَّا... إِنَّنا) وهي قراءة ابن عامر، والكسائي.

٣- (أئذا كُنَّا... أئنا) وهي قراءة الباقين.

﴿ضَيۡقٖ﴾:

وقرأ ابن كثير (ضِيْق).

الإعراب:

﴿رَدِفَ لَكُم﴾ أي رَدِفكم، واللام زائدة- كاللام في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي بوأنا إبراهيم.

البلاغة:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ استفهام إنكاري، وتكرار همزة ﴿أَئِنَّا﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ وعيد وتهديد.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ﴾ تأكيد بإن، واللام لترسيخ المعنى.

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بين ﴿تُكِنُّ﴾ أي تخفي ﴿يُعْلِنُونَ﴾ طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي قالوا أيضاً في إنكار البعث بعد بيان عماهم عن الآخرة. ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور أو من حال الفناء إلى الحياة. ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ ما هذا. ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أكاذيب الأقدمين، جمع أسطورة: وهي ما سطره الأقدمون من خرافات وأحاديث. ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي هلاكهم بالعذاب لإنكارهم البعث.

﴿ضَيْقٍ﴾ في ضيق صدر. ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم، أي فإن الله يعصمك من الناس، وهذا تسلية للنبي ﷺ، أي لا تهتم بمكرهم وتآمرهم عليك، فإنا ناصروك عليهم. ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي العذاب الموعود، أو الوعد بالعذاب. ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ أي ردفكم بمعنى تبعكم ولحقكم. ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي أصابهم بعض العذاب وهو القتل ببدر، وباقي العذاب يأتيهم بعد الموت.

﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي ومنه تأخير العذاب عن الكفار. ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله عليهم ومنه تأخير العذاب لإنكارهم وقوعه. ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تخفيه.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم. ﴿غَآئِبَةٍ﴾ التاء المربوطة أو الهاء للمبالغة، والمعنى: أيّ شيء في غاية الخفاء على الناس، كالتاء في علاّمة ونسابة، والأصل: غائب. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن، وهو اللوح المحفوظ، فكل شيء يعلمه الله قديماً، ومنه تعذيب الكفار.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى جهل الكفار بالآخرة، أردفه بما قالوا عنها، مما يدل على إنكارهم لها وأما مناسبة هذه الآيات لجملة السورة فهي أنه تعالى لما تكلم في حال مبدأ الخلق، تكلم بعده في حال المعاد؛ لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة أو في كمال العلم، فإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل الممكنات، وعالماً بكل المعلومات، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل إنسان عن أجزاء بدن غيره، وثبت أنه قادر على إعادة التركيب والحياة إلى تلك الأجزاء، وإذا ثبت إمكان ذلك، ثبت صحة القول بالحشر أو المعاد.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي وقال المشركون منكرو البعث، الذين كفروا بالله وكذبوا رسله: أنخرج من قبورنا أحياء، بعد مماتنا، وبعد أن بليت أجسادنا وصارت تراباً؟ فهذه حكاية لاستبعادهم إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي ما زلنا نسمع كثيراً بهذا نحن وآباؤنا، ولا نلمس له حقيقة ولا وقوعاً ولم نر قيام أحد بعد موته، والمراد أن هذا تاريخ غابر محكي، أكل عليه الدهر وشرب.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الوعد بإعادة الأبدان إلا

أسطورة، أي خرافة وأكذوبة، يتناقلها الناس بعضهم عن بعض، وليس لها حقيقة، ولم يقم عليها دليل مقبول.

ثم أرشدهم الله تعالى إلى الصواب في ذلك وعما ظنوا من الكفر وعدم المعاد بصيغة الوعيد والتهديد، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي قل لهم أيها الرسول: سيروا في أرض الحجاز والشام واليمن وغيرها، فانظروا مصير من سبقكم من المكذبين، إنهم اغتروا بدنياهم، وفتنوا بزخارفها، وكذبوا رسلهم، وأنكروا وجود البعث، فأهلكهم الله بذنوبهم، وبقيت ديارهم آثاراً شاهدة عليهم للعبرة والعظة، ونجى الله رسله ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته من الإيمان بالله وبالبعث، وتلك سنة الله في كل من كذب رسله، وسيعاقبكم بمثل عقابهم إن لم تبادروا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر.

ثم آنس الله نبيه ﷺ عن إعراضهم عن قوله ورسالته فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي ولا تحزن يا محمد على إعراض هؤلاء المكذبين عن رسالتك، ولا تكن ضيق الصدر حزيناً مكروباً مهموماً من كيدهم وتآمرهم عليك، فإن الله مؤيدك وناصرك وعاصمك من الناس، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

ثم حكى الله تعالى إنكاراً آخر من الكفار غير الساعة، وهو إنكار عذاب الله، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي يقول هؤلاء المشركون في مكة وغيرهم في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: متى وقت هذا العذاب الذي تعدنا به، إن كنتم أيها الرسول والمؤمنون به صادقين في ادعائكم وقولكم؟ يقولون ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء.

فأجابهم الله تعالى بقوله:

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي قل لهم يا

محمد: عسى أن يكون ردفكم أي لحقكم وتبعكم واقترب منكم بعض ما تستعجلون وقوعه من العذاب، وهو القتل والعذاب والنكال يوم بدر، فقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ أي ردفكم واللام زائدة، وقال ابن كثير: وإنما دخلت اللام في قوله ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ لأنه ضمن معنى: عجل لكم، كما قال مجاهد في تفسير ذلك.

قال الزمخشري: عسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجِدّه، وما لا مجال للشك بعده، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم، وأنهم لا يعجّلون بالانتقام؛ لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم، فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده[1].

ثم ذكر تعالى سبب تأخير العقاب، فقال:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي وإن الله لهو المنعم المتفضل على الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم حيث يسبغ إنعامه عليهم في الدنيا، مع ظلمهم لأنفسهم، ويترك معاجلتهم بالعقوبة على كفرهم ومعاصيهم، ولكنهم مع ذلك كله لا يشكره أكثرهم على فضله، ولا يشكره إلا القليل منهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي وإن ربك ليعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر، كما قال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٠] وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٢٠/ ٧] والمراد أنه تعالى عالم بمكائد المشركين للرسول، وسيجازيهم على ذلك.

ثم أبان الله تعالى حقيقة شاخصة عامة وهي أن كل ما في الكون محفوظ في اللوح المحفوظ، فقال:

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٦٠

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ أي وما من شيء غائب مخفي في السماوات والأرضين إلا وهو موجود معلوم محفوظ في اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه الله تعالى كل ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، وعالم غيب السماوات والأرض من أمر الخلائق قاطبة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٠] وقال حكاية عن لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٦] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١- تكرر في القرآن الكريم حكاية إنكار المشركين البعث، فهم يعدّونه من خرافات الأقدمين المتوارثة، وكانت الأنبياء يقرِّبون أمر البعث مبالغة في التحذير، وكل ما هو آتٍ قريب.

٢- وبما أن واقعة البعث أمر غيبي يحدث في المستقبل، فإن الله تعالى أجاب المنكرين له بالنظر في مصير المكذبين لرسلهم، المنكرين وقوع البعث، نظرة تأمل في القلوب والبصائر في بلاد الشام والحجاز واليمن وغيرها، هل دام لهم العز والسلطان، أم دمَّر الله ديارهم بسبب كفرهم؟.

٣- كانت درجة إحساس النبي ﷺ عالية جداً، ومرهفة إرهافاً مفرطاً، فتألم وحزن لإعراض قومه عنه، فسرّى عنه القرآن همومه، ونهاه عن حمل الهموم والأحزان على كفار مكة إن لم يؤمنوا، كما نهاه عن الضيق أي الحرج من مكرهم وتدبيرهم وقولهم: متى أو أي وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا؟

٤- أجابهم الحق تعالى عن استبطاء نزول العذاب بالترهيب مرة وبالترغيب مرة أخرى، فأنذرهم بأن بعض عذابهم قد اقترب منهم ودنا من ساحتهم، وذلك في أول لقاء عسكري فاصل بينهم وبين المؤمنين في موقعة بدر، فقُتل رؤساؤهم ويُؤسر أشرافهم، ورغَّبهم بالتوبة والإيمان، وذكَّرهم بفضله سبحانه على الناس في تأخير العقوبة وإدرار الرزق، ولكن أكثرهم لا يشكرون فضله ونعمه.

٥- وأبان لهم أن مصير خططهم ومؤامراتهم إلى الخيبة والفشل، فإن الله يعلم ما تخفي صدورهم وما يظهرون من الأمور، فيحبط مشاريعهم، كما أنه تعالى يعلم جميع ما أخفى عن خلقه وغيَّبه عنهم، وهذا عام بعد خاص، وقد أثبت تعالى في اللوح المحفوظ ما أراد، ليُعلم بذلك من يشاء من ملائكته، فكيف يخفى عليه ما يسرُّ هؤلاء وما يعلنونه؟!

وإن كان الله عليماً بكل نشاطاتهم المشبوهة وتحركاتهم المريبة، فيستحيل وقوع ما يريدون من إيذاء النبي ﷺ أو النيل من رسالته، أو تحقيق الظفر على المسلمين.

إثبات نبوة محمد ﷺ بالقرآن الكريم

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ :

وقرأ ابن كثير (القران).

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ :

وقرأ ابن كثير (ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ).

﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْيِ﴾ :

وقرأ حمزة (تَهْدي العميَ).

البلاغة:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ : في هذا الفعل المضارع استعارة تبعية، استعار ما يتكلم به الإنسان الناطق إلى القرآن، لتضمنه نبأ الأولين، فكان كالإنسان الذي يقصُّ على الناس الأخبار.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعيل.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْيِ﴾ استعارة تمثيلية، فقد عبر بالموتى والصم والعمي تمثيلاً لأحوال الكفار في عدم انتفاعهم بالإيمان بأنهم كالموتى والصم والعمي.

المفردات اللغوية:

﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الموجودين في زمان نبينا ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يخبرهم بأكثر نواحي الاختلاف كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح ﴿لَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب وخص بالمؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ يفصل بين بني

إسرائيل كغيرهم يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ بما هو حكمه الذي هو الحق والعدل ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب، فلا يرد قضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضي فيه، فلا معقب لحكمه.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق به، ولا تبال بمعاداتهم ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ الدين البيِّن، وصاحب الحق جدير بالثقة بنصر الله وحفظه، فإنه سينصرك على الكفار ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ تعليل آخر للأمر بالتوكل، من حيث إنه يقطع الأمل بمتابعتهم ومعاضدتهم، فضرب أمثالاً لهم بالموتى وبالصم وبالعمي، لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم، ولا برؤية ما يرشدهم إلى الإيمان ﴿مُدْبِرِينَ﴾ راجعين فارّين هاربين؛ لأن إسماعهم في هذه الحال أبعد.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ لأن الهداية لا تحصل إلا بالصبر﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما يجدي إسماعك سماع فهم وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يصدق بالقرآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون بتوحيد الله.

المناسبة:

بعد أن أتمَّ الله تعالى الكلام في إثبات المبدأ والمعاد بالأدلة الكونية، الحسية والعقلية، أعقب ذلك بإثبات النبوة بأدلة أعظمها القرآن الكريم المشتمل على المعجزات، وإذا كان معجزاً دل على صدق محمد ﷺ فيما يدعيه.

التفسير والبيان:

إن الكتاب الذي أورد الأدلة على إثبات صفات الكمال لله تعالى، وإثبات البعث لإقامة العدل بين الخلائق بالثواب والعقاب، وهما أصلان للدين، هو هذا القرآن المتضمن وجوه الإعجاز التالية:

أ - الإخبار عن قصص الأنبياء المتقدمين: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ أي إن هذا القرآن العزيز يخبر بني إسرائيل، وهم حملة التوراة والإنجيل، بالحق في كثير من الأمور التي اختلفوا فيها، كاختلافهم في عيسى عليه السلام، فاليهود افتروا عليه، والنصارى غلوا في شأنه، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: إنه عبد من عباد الله، ونبي من أنبيائه ورسله الكرام. وهذه الحقيقة وغيرها من القصص لا تعرف إلا بالوحي الإلهي من عند الله تعالى؛ لأن محمداً ﷺ المنزل عليه القرآن كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتتلمذ على أحد من العلماء للتعليم ومعرفة شؤون الثقافة، ولأن هذه القصص المذكورة في القرآن موافقة لما في التوراة والإنجيل.

٢- إثبات التوحيد والبعث والنبوة وأحكام التشريع بدلائل عقلية: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ أي إن هذا القرآن لهادٍ للمؤمنين إلى طريق الرشاد، ورحمة لهم في الأحكام التشريعية المتعلقة بالعقيدة، كالتوحيد والحشر والنبوة وصفات الله الحسنى، والمتعلقة بالأحكام العملية الملائمة لحاجات البشر وتحقيق مصالحهم في الدنيا والآخرة.

وهو أيضاً هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه غاية الفصاحة والبلاغة حتى عجزت البشر عن معارضته، فدل على إعجازه، وخروجه عن طاقتهم، وأنه وحي منزل من إله حكيم حميد قدير. وخص المؤمنين في الآية؛ لأنهم المنتفعون به.

وبعد بيان خصائص إعجاز القرآن الدالة على صدق الرسالة النبوية أتبعه بذكر أمرين:

الأول - إقامة الدليل على عدل الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ أي إن ربك الذي يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون يقضي بين المصيب والمخطئ منهم بحكمه العادل،

وهو القوي القادر على الانتقام من المبطل منهم، ومكافأة المحسن منهم، فلا يرد قضاؤه، العليم بأفعال عباده وأقوالهم، فيقضي بالصواب المطابق للواقع؛ لأنه العليم بمن يقضي له وبمن يقضي عليه.

ومعنى ﴿يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي يقضي يوم القيامة بما يحكم به وهو عدله؛ لأنه لا يقضي إلا بالعدل، فسمى المحكوم به حكماً، أو أراد أنه يقضي بحكمته.

الثاني - أمر النبي بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ أي ثق بالله واعتمد عليه وفوض جميع أمورك إليه، وبلّغ رسالة ربك، ولا تلتفت إلى أعداء الله، فإنك أنت على الحق الواضح، وإن خالفك فيه من خالفك من أهل الشقاء. وهذه هي العلة الأولى للتوكل على الله، ثم علل ذلك بعلة أخرى فقال:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي إنك لا تستطيع أن تسمعهم شيئاً ينفعهم، فهم حين توليهم مدبرين معرضين عنك كالموتى لا يتأثرون بما يتلى عليهم ولا يفهمونه، وكالصم الذين لا أمل في سماعهم فلا يسمعون بحال، وكالعمي الذين لا يبصرون ولا يلتفتون إلى شيء أصلاً؛ لأن على قلوبهم غشاوة، وفي آذانهم وقر الكفر، وفي نفوسهم استعلاءً واستكباراً عن الرضوخ للحق، وفي هذه العلة الثانية قطع طمع النبي عن الكفار، فيقوى قلبه على إظهار مخالفة أعداء الله، بأن بيَّن له أنهم كالموتى وكالصم وكالعمي، فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل، ولأن الإنسان مادام يطمع في أن يأخذ من أحد شيئاً، فإنه لا يجرؤ على مخالفته.

وهذا سبب قوة قلبه عليه الصلاة والسلام على إظهار الدين كما ينبغي. ومعنى قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ تأكيد لحال الأصم؛ لأنه إذا تباعد وأدبر عن الداعي كان أبعد عن إدراك صوته.

والخلاصة: إنه تعالى أمر رسوله بالتوكل عليه والإعراض عما سواه؛ لأنه على الحق المبين، وغيره على الباطل، ولأنه لا أمل ولا مطمع في مساندة المشركين، ولا في استجابتهم لدعوة الحق.

والمراد من نفي الإسماع للموتى الإسماع الذي يمكن أن يعقبه إجابة وتفاعل وتفاهم، فلا يعارضه ثبوت السماع من جانبهم دون أن يتمكنوا من الرد أو إجابة من يكلمهم، كما ثبت أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه، وأنه ﷺ سلَّم على قبور أهل بدر، وكما ثبت في صحيح البخاري ومسلم «أنه ﷺ خاطب القتلى في قليب (بئر) بدر، فقيل له: يا رسول الله، إنما تكلِّم أجساداً لا أرواح لها، فقال النبي ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم» .

ثم أكد الله تعالى ما سبق فقال:

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي وما أنت أيها الرسول بمستطيع أن تهدي العمي عن ضلالتهم، أي تردهم عن الضلال بالهدى؛ لأن على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن النظر فيما أتيت به نظراً مؤدياً إلى الحق، وما يجدي إسماعك إلا الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته، أي يصدقون بها، فهم مسلمون مخلصون التوحيد لله، خاضعون لله، ولا يستجيب لك إلا من هو مبصر القلب، يستخدم سمعه وبصره في إدراك الأمور على وجهها الصحيح، مستعد لقبول الحق، فهذا هو المسلم الذي أسلم وجهه لله، يعني جعله سالماً لله تعالى خالصاً له.

فقه الحياة أو الأحكام:

يثبت الله تعالى بهذه الآيات صدق النبوة وصحة رسالة الرسول ﷺ، وذلك بالقرآن الذي أنزله على قلب نبيه، مشتملاً على وجوه عديدة من الإعجاز.

منها: أنه يبين لبني إسرائيل الموجودين حال نزوله ما اختلفوا فيه، لو أخذوا به، وذلك ما حرّفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام.

ومنها: أن القرآن هادٍ من الضلالة إلى الحق والاستقامة والرشاد، ورحمة لمن صدَّق به بما اشتمل عليه من الأدلة العقلية على التوحيد والبعث والنبوة وشرح صفات الله تعالى ونعوت جلاله، وبما انطوى عليه نظمه من سمو الفصاحة والبلاغة، حتى عجز البشر عن معارضته، مما يدل على أنه كلام الله المعجز الدال على صدق الرسالة النبوية.

ثم ذكر الله تعالى دليل عدله، فهو سبحانه يقضي بين بني إسرائيل وغيرهم فيما اختلفوا فيه في الآخرة، فيجازي المحق والمبطل، وهو العزيز أي المنيع الغالب الذي لا يردّ أمره، العليم الذي لا يخفى عليه شيء.

ثم أمر الله تعالى نبيه بالتوكل على الله، أي تفويض أمره إليه واعتماده عليه، فإنه ناصره؛ لأنه على الحق المبين، أي الظاهر، ولأن هؤلاء الكفار أشبه بالموتى لتركهم التدبر، فلا حسّ لهم ولا عقل، وبمنزلة الصم عن قبول المواعظ، فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون، وكالعميان الذين لا يميزون طريقهم، فهم تائهون حائرون، كما قال سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧١] .

ثم ذكر الله تعالى قاعدة عامة في مسيرة الدعوة للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي ليس في وسعك خلق الإيمان في قلوبهم، وما تسمع إلا المستعد لقبول الحق، المهيأ للإيمان بآيات الله، المخلوق للسعادة، فهم مخلصون في التوحيد. أما الكافر المعاند المعرض عن آيات ربه فلا أمل في إيمانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٦-٩٧] .

من أمارات القيامة ومقدماتها

- ١ -

إخراج دابة الأرض وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله أمام ربهم

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

القراءات:

﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (إنَّ الناس).

الإعراب:

﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ ﴿أَنَّ﴾ بالفتح: إما في موضع نصب مفعول به لـ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي تخبرهم، أي تخبرهم أن الناس، وإما في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر، أي تكلمهم بأن الناس، و﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ في موضع نصب متعلق بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ أي كانوا لا يوقنون بآياتنا. ومن قرأ بالكسر: «إن» فعلى الابتداء والاستئناف.

البلاغة:

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه أسلوب التوبيخ والتأنيب.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فيه ما يسمى في علم البديع بالاحتباك، وهو أن يحذف من أوله ما أثبت في آخره وبالعكس، وبيانه هنا: جعلنا الليل مظلماً ليسكنوا فيه، والنهار مبصراً ليتصرفوا فيه، فحذف «مظلماً» لدلالة ﴿مُبْصِرًا﴾ عليه، وحذف «ليتصرفوا فيه» لدلالة ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي إذا دنا أو قرب وقوع معنى القول وهو ما وعدوا به من البعث والعذاب الذي ينزل بالكفار ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كائناً حياً يدب على الأرض، وهو الجسَّاسة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ تنبئهم وتخبرهم ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي إن أكثر الناس كانوا لا يؤمنون بآيات الله الدالة على مجيء الساعة، والله أعلم بحقيقة تلك الدابة، ولعلها إنسان عادي، والمهم الإخبار عن تكذيب الجم الغفير من الناس بوقوع القيامة.

﴿وَيَوْمَ﴾ أي واذكر يوم القيامة ﴿نَحْشُرُ﴾ نجمع ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من للتبعيض ﴿فَوْجًا﴾ جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ من للتبين، وهم الرؤساء المتبعون ﴿يُوزَعُونَ﴾ يجمعون بمنع أولهم وإيقافه من أجل آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف المناقشة والحساب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ مكان الحساب أو المحشر ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ أنبيائي ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال، أي أكذبتم بآياتي بادي الرأي، ولم تتأملوا بحقيقتها، ولم تنظروا نظراً يحيط علمكم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب، فمعنى: لم تحيطوا بها علماً: لم تدركوا حقيقة كنهها. والواو للعطف، أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحققها؟ أي النظرة السطحية لها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أم أي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك، وهو استفهام للتبكيت، إذ لم يفعلوا غير

التكذيب من الجهل، وأما: فيه إدغام «ما» الاستفهامية بـ «ذا» الموصول، أي ما الذي كنتم تعملون فيما أمرتم به؟

﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ حلّ بهم العذاب، وهو كبُّهم في النار بعد ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بسبب ظلمهم، وهو الشرك والتكذيب بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ باعتذار إذ لا حجة لهم ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ألم يعلموا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ خلقنا ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ ليستريحوا فيه ويهدؤوا ﴿مُبْصِرًا﴾ يبصر فيه بضوئه أسباب المعيشة ليتصرفوا فيه، وجعل الإبصار للنهار وهو لأهله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ دلالات على قدرة الله تعالى، وهي تدل على الأمور الثلاثة: التوحيد والحشر وبعثة الرسل ﴿لِّقَوْمٍ﴾ خصوا بالذكر لانتفاعهم بها في الإيمان؛ لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص لا يكون إلا بقدرة قاهرة، وإن من قدر على إبدال الظلمة بالنور من مادة واحدة قدر على إبدال الموت بالحياة من مواد الأبدان.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى الدلائل على كمال قدرته وكمال علمه، وفرع على ذلك القول بإمكان البعث والحشر والنشر، ثم أوضح كون القرآن معجزاً، ونبّه بإعجازه على إثبات نبوة محمد ﷺ، أردف ما سبق ببيان مقدمات قيام القيامة، وهي إما كالعلامة للقيامة كإخراج دابة الأرض، وإما أن تقع عند قيام القيامة كنفخ الصور.

وإنما أخر تعالى الكلام على علامات القيامة عن إثبات النبوة؛ لأن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بقول النبي الصادق.

التفسير والبيان:

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ

كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي إنه في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، واستحقاقهم العذاب الموعود به، وذلك قرب مجيء الساعة، يخرج الله للناس دابة من الأرض تحدثهم أن أكثر الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون.

ولعل تلك الدابة هي إنسان كما قال بعض المفسرين الجدد، لوصفها بالكلام؛ ولأن كل ما يدب على الأرض هو دابة.

وسميت تلك الدابة في الآثار بالجسَّاسة، وورد في شأنها أحاديث آحاد، منها ما رواه مسلم وأهل السنن عن حذيفة بن أُسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن، تسوق أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتُقيل معهم حيث قالوا».

وأما موضع خروجها فهو: سئل النبي ﷺ: من أين تخرج الدابة؟ فقال: «من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى، يعني المسجد الحرام»[1].

وبعد ذكر العلامة الأولى لقيام الساعة ذكر تعالى العلامة الثانية وهي: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي ويوم نجمع يوم القيامة جماعة من رؤساء كل أمة من الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله، ونحبس أولهم على آخرهم، ليجتمعوا في موقف الحشر والحساب،

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٥ وما بعدها.

حتى إذا جُمعوا ووقفوا بين يدي الله عز وجل للحساب والنقاش، فيقول الله لهم توبيخاً وتبكيتاً: أكذبتم بآياتي الدالة على لقاء هذا اليوم، غير ناظرين بما يحيطكم علماً بحقيقة الآيات، وإذا لم تتأملوا فيها، فبماذا كنتم تشغلون أنفسكم أو تعملون فيها من تصديق أو تكذيب؟ فقوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بمعنى: بل ماذا كنتم تعملون؟!

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي وحينئذ يحل العذاب بأولئك المكذبين بآيات الله بسبب ظلمهم، أي تكذيبهم وكفرهم، فيشغلهم عن النطق والاعتذار، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٣٥].

ثم ذكر الله تعالى دليل التوحيد والحشر والنبوة، فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المكذبون بآياتنا أنا خلقنا الليل للسكن والنوم والراحة والقرار بعد عناء التعب في النهار، وخلقنا النهار منيراً مشرقاً للتصرف أو التقلب في المعايش والمكاسب والأسفار والتجارات وغيرها من شؤونهم التي يحتاجونها، إن في ذلك الخلق والإيجاد لدلالات على قدرة الله على البعث بعد الموت، للجزاء والحساب، وعلى توحيده، لقوم يصدقون بالله ورسله.

فمن تأمل في تعاقب الليل والنهار والانتقال من حال شبيهة بالموت إلى حال الحركة والحياة، أدرك أن القيامة كائنة لا محالة، وأن الله سيبعث من في القبور.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن مفاجآت يوم القيامة وأهوالها كثيرة وغريبة ومذهلة، فمن مقدماتها:

إخراج دابة من الأرض عند استحقاق العذاب تخبر بأن أكثر الناس كانوا لا يصدقون بآيات الله. جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض» .

واختلف المفسرون في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً، قال القرطبي: أول الأقوال أنه فصيل ناقة صالح عليه السلام، وهو أصحها - والله أعلم - لما ذكر أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذِكْرُها القرية - يعني مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً، ثم تخرج خَرْجة أخرى دون ذلك، فيفشو ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة، خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب، فارفضَّ الناس منها شتّى ومعاً..» الحديث.

وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قوله: «وهي ترغو» والرغاء إنما هو للإبل؛ وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب، فانفتح له حَجَر، فدخل في جوفه، ثم انطبق عليه، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل[1].

ثم ذكر الله تعالى بعض الأمور الواقعة بعد قيام القيامة وهو حشر زمرة وجماعة من كل أمة، ممن يكذب بالقرآن وبالأدلة على الحق، فهم يوزعون أي يُدْفَعون ويساقون إلى موضع الحساب، وقال قتادة: أي يُردّ أولهم على آخرهم، حتى إذا حضروا الموقف قال الله: أكذبتم بآياتي التي أنزلتها على

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٣٥

رسلي، وبالآيات التي أقمتها دليلاً على توحيدي، ولم تعلموا بحقيقتها، وإنما أعرضتم عنها مكذبين جاهلين غير مستدلين؟ ثم يقول لهم تقريعاً وتوبيخاً: ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا ما فيها.

ولكن وجب العذاب عليهم بظلمهم أي بشركهم، فهم لا ينطقون، أي ليس لهم عذر ولا حجة.

ثم أقام الله تعالى دليلاً على البعث والتوحيد والنبوة مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر، وهو خلق الليل للنوم والاستقرار، وخلق النهار المنير المشرق الذي يبصر فيه الناس الأشياء للحركة ونشاط الحياة وسعي الرزق، إن في ذلك لدلالات على قدرة الله وتوحيده وإمكانه الحشر لقوم يؤمنون بالله. أما وجه دلالته على التوحيد فهو أن التقليب من النور إلى الظلمة ومن الظلمة إلى النور بدقة متناهية لا يحصل إلا بقدرة قاهرة عالية. وأما وجه دلالته على الحشر فلأنه لما ثبتت قدرة الله تعالى على هذا التقليب فهو قادر على القلب من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة، وأما وجه دلالته على النبوة فلأنه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع الناس، وفي بعثة الأنبياء والرسل إلى الناس منافع عظيمة، فما المانع من بعثتهم إلى الناس لتحصيل تلك المنافع؟

- ٢ -

النفخ في الصور وتسيير الجبال

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَتَوْهُ﴾: قرئ:

١- (أَتوه) وهي قراءة حفص، وحمزة، وخلف.

٢- (آتوه) وهي قراءة الباقين.

﴿تَحْسَبُهَا﴾: قرئ:

١- (تَحْسَبُها) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (تَحْسِبها)وهي قراءة الباقين.

﴿تَفْعَلُونَ﴾

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يفعلون).

﴿فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾: قرئ:

١- (فزعِ يَوْمَئِذ) وهي قراءة نافع.

٢- (فزعِ يومِئِذ) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر.

٣- (فزعٍ يومَئِذ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ﴾ ﴿وَيَوۡمَ﴾ منصوب بفعل مقدر، تقديره: اذكر يوم ينفخ.

﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر؛ لأن ما قبله يدل أنه تعالى صنع ذلك، فكأنه قال: صنع صنعاً الله، ثم أضاف المصدر إلى الفاعل.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ ﴿مَن﴾ شرطية مبتدأ، و﴿فَلَهُۥ﴾ الجواب، خبر المبتدأ.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ من قرأ «فزع» بالتنوين، كان (يوم) منصوباً بالمصدر، أو بـ﴿ءَامِنُونَ﴾ تقديره: وهم آمنون يومئذ من فزع؛ ومن قرأ بغير تنوين كان (يوم) مجروراً بالإضافة، كقوله تعالى: ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: ٧٠/ ١١]. أي إنه في حالة إضافة «فزع» تكسر ميم «يومئذ» وتفتح، وفي حال تنوين «فزع» تفتح ميم «يومئذ» .

البلاغة:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بينهما طباق.

﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ تشبيه بليغ، أي تمر كمرِّ السحاب في السرعة، حذفت فيه الأداة ووجه الشبه.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلصُّورِ﴾ البوق الذي ينفخ فيه، والمقصود هنا: النفخة الأولى من إسرافيل ﴿فَفَزِعَ﴾ خاف، والمراد هنا الخوف الشديد المفضي إلى الموت من الهول، وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ ألا يفزع بأن

ثبَّت قلبه، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وعن ابن عباس: هم الشهداء إذ هم أحياء عند ربهم يرزقون ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ حاضرون الموقف بعد النفخة الثانية، أو راجعون إلى أمره، وتنوين ﴿وَكُلٌّ﴾ عوض عن المضاف إليه، أي وكلهم بعد إحيائهم يوم القيامة أتوه ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين، والتعبير بـ ﴿أَتَوْهُ﴾ بالماضي لتحقق وقوعه.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ تبصرها وقت النفخة ﴿تَحْسَبُهَا﴾ تظنها ﴿جَامِدَةً﴾ ثابتة في مكانها لعظمها ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي في السرعة؛ لأن الأشياء الكبار إذا تحركت في سَمْت واحد، فلا تكاد تتبين حركتها. وهنا شبهها بالسحب التي تسيرها الرياح ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، أضيف إلى فاعله بعد حذف عامله، تقديره: صنع الله ذلك صنعاً ﴿أَتْقَنَ﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ عالم بظواهر الأفعال وبواطنها، فيجازيهم عليها.

﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي له ثواب بسببها وليس هذا للتفضيل، إذ لا فعل خير منها، وفي آية أخرى: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٠]. ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ الفزع هنا: الخوف من العذاب، وهم: أي الفاعلون الحسنة وأما الفزع الأول في قوله ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهو مالا يخلو عنه أحد عنه الإحساس بشدة تقع، وهول يفجأ من رعب وهيبة، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ الإشراك بالله والمعاصي ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي ألقيت منكوسة، ويجوز أن يراد بالوجوه أنفسهم، وذكرت لأنها موضع الشرف من الحواس، فغيرها من باب أولى ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ما تجزون إلا جزاء عملكم من الشرك والمعاصي. وهذا القول المستفهم به للتبكيت.

المناسبة:

بعد ذكر العلامة الأولى لقيام القيامة وهي خروج الدابة للكلام والحديث، ذكر الله تعالى علامتين أخريين لقيام القيامة وهما النفخ في الصور، وتسيير الجبال، ثم ذكر أحوال المكلفين يوم القيامة وأنهم قسمان: المطيعون الأبرار الذين يعملون الحسنات، فيثابون خيراً منها ويأمنون الفزع من العذاب، والعصاة الأشقياء الذين يعملون السيئات، فيكبُّون على وجوههم في النار، جزاء عملهم.

التفسير والبيان:

العلامة الثانية - نفخ الصور:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي اذكر أيها الرسول للناس هول يوم نفخة الفزع في الصور، وهو كما جاء في الحديث: قرن ينفخ فيه، إذ يخاف جميع من في السماوات ومن في الأرض خوفاً شديداً، يؤدي بهم إلى الموت إلا من شاء ربك، بأن ثبت قلبه فلا يخاف، وهم بعض الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وقيل: هم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يُرْزَقون.

وهناك نفختان: نفخة الفزع في هذه الآية وهي النفخة الأولى، ونفخة الصعق (أي الموت) المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٨] والنفخة الثانية: نفخة البعث التي في تتمة الآية السابقة ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٥١] .

وفي حديث الصور: إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ

فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السماوات ومن في الأرض.

فالنفخ إذن مرتان: مرة ليموت الكل إلا من شاء الله، ومرة ليحيي الكل للحساب، ومن استثني أولاً يموت بعد النفخة الأولى وقبل الثانية.

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أي وكل واحد من الخلائق يأتون إلى الموقف بين يدي الله للسؤال والحساب أذلاء صاغرين، صَغار ذل إن كانوا كفاراً، وصَغار هيبة وخشية إن كانوا مؤمنين، لا يتخلف أحد عن أمر ربه، كما قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٣] وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٢] وقال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٥] وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤٣] .

العلامة الثالثة - تسيير الجبال:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي وتنظر إلى الجبال فتراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تزول بسرعة عن أماكنها، وتسير كما يسير الغمام بتأثير الرياح؛ لأن الجسم الكبير إذا تحرك برتابة لا تكاد حركته تبين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٩-١٠] وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٧] وقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ٢٠] وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٥-١٠٧] .

وتسيير الجبال - وإن ذُكت عند النفخة الأولى - يحدث بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق، ليشاهدها أهل المحشر، فيبدل الله الأرض والسماوات، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ

﴿ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٨] . وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على دوران الأرض حول الشمس بسرعة فائقة، لكن الظاهر أن ذلك في الآخرة؛ لأن الكلام هنا عن يوم القيامة.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي ذلك الصنع هو فعل الله بقدرته العظيمة، الذي أحكم كل شيء، وأودع فيه من الحكمة ما أودع.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا علة النفخ في الصور والبعث للحساب والجزاء، أي إن الله تعالى عليم بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

ثم بيَّن الله تعالى حال المكلفين السعداء والأشقياء بعد قيام القيامة فقال:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي من جاء مؤمناً بالله وحده لا شريك له، عاملاً الصالحات، فله على ذلك الثواب الجزيل عند ربه في جنات النعيم، يأمن من الفزع الأكبر، وهو الخوف من عذاب القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٣] وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤١/٤٠] وقال عز وجل: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٤/٣٧] .

والحسنة: الإيمان والعمل الصالح، وقال ابن عباس والنخعي وقتادة: هي لا إله إلا الله. ﴿خَيْرٌ﴾ هنا ليس أفعل تفضيل، فليس شيء خيراً من لا إله إلا الله، كما قال عكرمة، وإنما المراد مضاعفة الثواب ودوامه؛ لأن العمل ينقضي، والثواب يدوم، فالخير: الثواب، وقيل: للتفضيل، أي ثواب الله خير من عمل العبيد وقوله. و﴿مِّن﴾ لابتداء الغاية أي له خير من الخيور، مبدؤه ونشوؤه منها أي من جهة هذه الحسنة. وقد رتب الله على مجيء المكلف بالحسنة شيئين: الثواب والأمن من العذاب.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٠﴾ أي ومن أشرك بالله وارتكب المعاصي، ومن لقي الله مسيئاً لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته، كل بحسبه، فيلقى في النار، ويقال لهم أي للكفار والعصاة: هل هذا إلا جزاء عملكم في الدنيا من شرك ومعصية؟

ويلاحظ أن هذه الآيات كلها في قمة البلاغة والفصاحة والإيجاز المفيد معاني عديدة متلاحقة، قال الزمخشري: فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن تنظيمه وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانة تفسيره، وأخذ بعضه بحُجزة بعض، كأنما أُفرغ إفراغاً واحداً، ولأمر ما أعجز القوي، وأخرس الشَّقاشق[١].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ- إن نفخ إسرافيل في الصور نفخة مرعبة وهي النفخة الأولى ونفخة الصعق يموت من رُعبها الخلائق كلهم إلا من شاء ربك من الملائكة أو الناس. وهي العلامة الثانية لقيام القيامة.

قال القرطبي: والصحيح في الصور: أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل. قال مجاهد: كهيئة البوق. والصحيح في النفخ في الصور أنهما نفختان، لا ثلاث، وأن نفخة الفزع إنما ترجع إلى نفخة الصعق؛ لأن الأمرين لازمان لهما، أي فزعوا فزعاً ماتوا منه، ثم تأتي نفخة البعث وهي النفخة الثانية التي يحيا بها العباد ليجتمعوا في أرض الجزاء[٢].

---

(١) الكشاف: ٢/ ٤٦٣، والشقاشق: الخطباء الماهرون في الكلام، جمع شِقْشِقة وهي في الأصل لهاة البعير.

(٢) تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٤٠

ولا يتخلف أحد من الخلائق من عهد آدم إلى قيام الساعة عن المثول حياً أمام الله تعالى؛ لقوله سبحانه: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أي ذليلين صاغرين.

٢- وبعد قيام القيامة وبعد النفخة الثانية عند حشر الخلائق يحدث تسيير الجبال من أماكنها، ثم تتلاشى وتتبدد كالعهن، أي الصوف المندوف. يقال: إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة، ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه؛ فأول الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعهن المنفوش، وذلك إذا صارت السماء كالمُهْل (أي الزيت المذاب) وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج: ٧٠/٨-٩] . والحال الثالثة: أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن. والحال الرابعة: أن تنسف، والحال الخامسة: أن الرياح ترفعها على وجه الأرض، فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، والحال السادسة: أن تكون سراباً[(١)].

٣- إن تغيير معالم الأرض من جبال وغيرها، وتبديد السماوات وغير ذلك من فعل الله الذي أتقن بصنعه كل شيء، وأودع فيه من الحكمة ما أودع.

٤- الناس صنفان يوم القيامة: سعداء وأشقياء، فالسعداء: هم المؤمنون الذين عملوا الأعمال الصالحة، وهؤلاء لهم الثواب الجزيل، والأمن من عذاب الله. والأشقياء: هم الكفار والمشركون والعصاة الذين ارتكبوا في الدنيا السيئات، وهؤلاء يطرحون في النار على وجوههم، ويقال لهم: هل هذا إلا جزاء أعمالكم؟

والثواب الممنوح من الله للسعداء وهو الخير اسم جنس، فسر بمضاعفته بعشرة أمثاله في آية أخرى، فإن الله تعالى يعطي بالحسنة الواحدة عشراً، أما

---

(١) المرجع السابق: ٢٤٢-٢٤٣

جزاء السيئة فلا يضاعف فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٠] .

الاشتغال بعبادة الله وحمده وتلاوة القرآن

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ ۖ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿تَعْمَلُونَ﴾ : قرئ:

١- (تعملون) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (يعملون) وهي قراءة الباقين.

المفردات اللغوية:

﴿هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ مكة، وتخصيصها بهذه الإضافة: إضافة ﴿رَبَّ﴾ إليها تشريف لها وتعظيم لشأنها .﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي الله الذي جعلها حرماً أمناً لا يسفك فيها دم الإنسان، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد صيدها، ولا يختلى خلاها (عشبها الرطب) وذلك من نعم الله على قريش حيث رفع عن بلدهم العذاب والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب، وقرئ: التي حرمها.

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ أي له تعالى كل شيء خلقاً وملكاً، فهو ربه وخالقه ومالكه. ﴿مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ لله بتوحيده، أي المنقادين الثابتين على ملة الإسلام. ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي وأن أواظب على تلاوته لينكشف لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً، وأتلوه أيضاً عليكم تلاوة الداعية إلى الإيمان. ﴿لِنَفۡسِهِۦ﴾ لأجلها، فإن ثواب اهتدائه له. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ﴿فَقُلۡ﴾ له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ المخوفين قومهم من عذاب الله، فليس علي إلا التبليغ.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة النبوة أو على ما علمني ووفقني للعمل به. ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ يريكم آياته القاهرة في الدنيا كوقعة بدر، أو في الآخرة، فتعرفون أنها آيات الله، ولكن حين لا تنفعكم المعرفة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي إنما يمهلهم لوقتهم، فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته عن أعمالكم.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أحوال المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة، وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب، أمر رسوله بهذه الخاتمة اللطيفة بأن يقول للمشركين هذه المقالة، مبيناً لهم أنه قد أتم أمر الدعوة، وقد كملت، ولم يبق عليه إلا الاشتغال بعبادة الله وحده لا شريك له، وبحمده وشكره على نعمه العظمى، وبتلاوة القرآن، أي إن مهمة إعلان الدعوة من جانبه انتهت، وبقي عليهم التفكير في الاستجابة لهذه الدعوة، وتدبر آي القرآن التي تكفي في إرشادهم، وإنها إن لم تفدهم فقد أفادته، فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها، فإني مصرٌّ عليها، غير مرتاب فيها.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي قل لهم أيها الرسول: إنما أمرت أن أعبد رب مكة التي حرمها على الناس، فجعلها شرعاً وقدراً حَرَماً آمناً، لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد شجرها، ولا ينفّر طيرُها، ولا يُخوَّف فيها خائف، يجبى إليها ثمرات الدنيا من كل ناحية.

وخص مكة بالذكر تشريفاً لها؛ لأن أول بيت وضع للعبادة كان فيها، كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١٠٦/٣-٤] . وفي هذا توبيخ لأهل مكة على ترك عبادة الله، والاتجاه نحو عبادة الأصنام.

ونظير الآية: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ [يونس: ١٠/١٠٤] .

وقد أبان النبي ﷺ مظاهر تحريم مكة، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَد شوكه، ولا يُنفَّرُ صيده، ولا يُلْتَقط لُقطته إلا من عَرَّفها، ولا يُختلى خلاها» أي عشبها الرطب.

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ أي له تعالى كل شيء خَلْقاً وملكاً وتصرفاً، دون أي شريك، وهذا من عطف العام على الخاص، أي هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه، لا إله إلا هو.

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي وأمرني ربي أن أكون من الموحّدين، المخلصين، المنقادين لأمره، المطيعين له.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي وأمرني ربي أن أتلو القرآن على الناس، وأن أتلوه وحدي ليل نهار، لتتكشف لي أسراره، وأتعرف دائماً على أدلة الكون المودعة في آياته، فيزداد إيماني، وتشرق نفسي.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فمن اهتدى إلى الحق والإيمان فإنما يهتدي لأجل نفسه، ومن آمن برسالتي واتبعني فقد رشد، وأمن عذاب ربه.

﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي ومن ضل وأخطأ طريق الحق والإيمان والرشاد، وكذب بدعوتي وبما جاءني من عند الله وهو القرآن، فعليه وزر ضلاله، وإنما أنا من المنذرين المخوفين قومهم عذاب الله، وليس علي إلا الإنذار والتبليغ، وقد أديت المهمة وأبلغتكم ما يوحى إلي، وخلصت من العهدة، وحسابكم على الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٠] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١١/ ١٢] .

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي وقل أيها الرسول: لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، ولله الحمد على ما أنعم علي من نعمة النبوة وعلى ما علّمني ووفقني لتحمل أعباء الرسالة والعمل بما أنزل علي، وإنه سبحانه سيريكم آياته الدالة على عظمته وحكمته وقدرته وأمارات عذابه وسخطه، ويتبين لكم صدق دعوتي، فتعرفون كل ذلك، ولكن حين لا ينفعكم الإيمان.

ونظير الآية: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٥٣] .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما الله بغافل عما يعمله المشركون وغيرهم، بل هو شهيد على كل شيء، ولكن يؤخر عذابهم إلى أجل على وفق إرادته وحكمته، وهذا تقرير لما سبق من الوعد والوعيد، وتبشير للنبي بأن الله ناصره ومخزي أعدائه الكافرين.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس لا يَغْتَرَنَّ أحدكم بالله، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والْخَرْدلة والذرَّة» . وروى أيضاً عن عمر بن عبد العزيز قال: فلو كان الله مُغْفلاً شيئاً لأغفل ما تُعْفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أُمر النبي ﷺ ومثله أمته في هذه الآيات بأوامر ثلاثة هي:

١ً- تخصيص الله وحده بالعبادة دون اتخاذ شريك له، ووصف الله نفسه بأمرين:

أحدهما - أنه رب هذه البلدة أي مكة، واختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحب بلاده إليه وأكرمها عليه، وأشار إليها إشارة تعظيم لها، دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه.

وقد حرمها لتحريمه فيها أشياء على من يحج، ولأن اللاجئ إليها آمن، ولأنه لا ينتهك حرمتها إلا ظالم، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها.

والثاني - ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً، فهو خالق لجميع النعم، ومالك جميع من في الكون، ومتصرف بملكه كما يشاء، جلَّ جلاله.

٢ً- أن يكون من المسلمين: أي المنقادين لأمره، الموحِّدين له.

٣ً- أن يتلو القرآن، أي يقرأه لنفسه وعلى الناس لتبليغهم إياه. فمن اهتدى في هذه الأصول الثلاثة المقررة في هذه السورة وهي التوحيد والحشر والنبوة فله ثواب هدايته، ومنفعة اهتدائه راجعة إليه، ومن ضل أو انحرف عن هذه الأصول، فما على الرسول ﷺ إلا البلاغ المبين، وما هو إلا رسول منذر من جملة المنذرين، أي المخوفين قومهم من العذاب.

ثم ختم تعالى السورة بهذا التوجيه الحميد لرسوله ﷺ ولكل مؤمن وهو أن يحمد الله على نعمه وعلى هدايته، والله تعالى سيُري خلقه آياته في أنفسهم وفي غيرهم، فيعرفون بها دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسهم وفي السماوات وفي الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢٠-٢١] .

والله شهيد على كل شيء، وليس هو بغافل عما يعمله الخلائق أجمعون، فيجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القصص

مكية وهي ثمانٍ وثمانون آية

تسميتها:

سميت سورة (القصص) لما فيها من البيان العجيب لقصة موسى عليه السلام من حين ولادته إلى حين رسالته، التي يتضح فيها أحداث جسام، برز فيها لطف الله بالمؤمنين وخذلانه الكافرين. ثم ذكر فيها قارون من قوم موسى المشابهة للقصة الأولى في تقويض أركان الطغيان، طغيان السلطة عند فرعون، وطغيان المال عند قارون.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لسورتي النمل والشعراء في أنها تفصيل لما أوجز فيهما من قصة موسى عليه السلام، مبتدئاً ببيان استعلاء فرعون وظلمه، وذبحه أبناء بني إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته في اليم، خوفاً عليه من الذبح، ثم انتشال فرعون له وتربيته في قصره عنده إلى سن الشباب، حيث حدثت حادثة قتله القبطي، التي استوجبت فراره من مصر إلى مدين، وزواجه بابنة شعيب عليه السلام، ثم مناجاته ربه وبعثه إياه رسولاً، وما تبع ذلك.

كذلك فصلت هذه السورة موقف القرآن من توبيخ المشركين على إنكارهم يوم القيامة، من خلال الإخبار بإهلاك الكثيرين من أهل القرى بسبب ظلمهم، والتساؤل عن شركاء الله يوم القيامة وما يدور بينهم وبين عبدتهم من

نقاش انتهى بتبرئهم من عبادتهم، وإيراد الأدلة المتضافرة لإثبات قدرة الله على الخلق والإيجاد والبعث والإعدام.

كما أن هناك ربطاً من وجه آخر بين سورتي النمل والقصص، فقد أوجز هنا ما فُصِّل في السورة المتقدمة من إهلاك قوم صالح وقوم لوط، ومن بيان مصير من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة.

ما اشتملت عليه السورة:

تلتقي هذه السورة مع ما سبقها من سورتي الشعراء والنمل في بيان أصول العقيدة: التوحيد والرسالة والبعث في ثنايا قصص الأنبياء، وإيضاح الأدلة المثبتة لهذه الأصول في قضايا الكون وعجائبه البديعة ونظمه الفريدة.

وكان الطابع الغالب على هذه السورة تبيان قصة موسى مع فرعون التي تمثل الصراع بين طغيان القوي وضعف الضعيف، لكن الأول على الباطل والثاني على الحق، وأعوان الباطل هم جند الشيطان وأعوان الحق هم جند الرحمن.

كان فرعون معتمداً على سلطانه وقوته وثروته، فطغى وبغى، واستعبد شعب بني إسرائيل، وزاد في غلوه أنه ذبح الأبناء، واستحيا النساء، وادعى الربوبية ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨/٢٨] وأفسد في الأرض.

واستوجب ذبح الأطفال إلقاء موسى في اليم، والتقاط آل فرعون له، ثم رده إلى أمه، ثم تربيته في قصر فرعون، إلى أن بلغ أشده وصار رشيداً قوياً، فقتل قبطياً قتلاً خطأ، فهرب من مصر إلى أرض مدين، فتزوج بابنة شعيب عليه السلام، ومكث راعياً ماشيته عشر سنين، ثم عاد إلى مصر، فناجى ربه في الطور، وأيده الله بمعجزات أهمها معجزة العصا واليد، فبلغ رسالة ربه، لكن كذبه فرعون وقومه علواً واستكباراً، فأغرقهم الله في البحر.

وذلك شبيه بإنكار قريش نبوة الرسول محمد ﷺ مع ما جاءهم به من الحق، فوصفوه بالسحر المفترى، وتنكروا للإيمان برسالته بأعذار واهية، فأنذرهم القرآن بعذاب مماثل لقوم فرعون، وأبان لهم أن الله لا يعذب قوماً إلا بعد إرسال رسول إليهم، وأن الرسول باختيار الله تعالى لا بحسب أهواء المشركين، وأن آلهتهم المزعومة ستتبرأ من عبادتهم يوم القيامة، وأن الله هو الإله الواحد الذي لا شريك له، وأنه القادر على بعث الأموات، كما قدر على بدء الخلق، وإيجاد تعاقب الليل والنهار. وسيشهد الأنبياء على أممهم بتبليغ رسالات ربهم، وقد آمن جماعة من أهل الكتاب، وسيعطون أجرهم مرتين، وأن الهداية بيد الله تعالى، لا بيد رسوله، فلن يتمكن من هداية من أحب.

وأعقب ذلك بقصة مشابهة هي قصة قارون من قوم موسى واعتماده على طغيان الثروة والمال كاعتماد فرعون على طغيان السلطة والحكم، فكان مصيره أشأم من مصير فرعون وهو الخسف به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه وما كان من المنتصرين.

وكل من خبر القصتين برهان قاطع على صحة نبوة محمد ﷺ؛ لأنه لم يكن حاضراً معهم، ولم يتعلم ذلك من معلم.

وختمت القصتان بإعلان مبادئ:

أولها - أن ثواب الآخرة يكون للذين لا يريدون علواً في الأرض أو فساداً.

وثانيها - أن الإيمان بالله وباليوم الآخر هو طريق السعادة الموجب لمضاعفة الحسنات ومقابلة السيئات بجزاء واحد، وتحقيق النصر لرسول الله ﷺ على أعدائه، وعودته إلى مكة فاتحاً بعد تهجيره منها.

وثالثها- بيان نهاية العالم كله وهي الهلاك الشامل، وانفراد الله تعالى بالبقاء والدوام، والحكم والحساب، ورجوع البشر كافة إليه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ونحوها: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٦-٢٧].

قصة موسى عليه السلام

- ١ -

نصرة المستضعفين

﴿طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ويَرى فرعونُ وهامانُ وجنودُهما).

الإعراب:

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ ﴿أَهْلَهَا﴾ و﴿شِيَعًا﴾ مفعولا ﴿وَجَعَلَ﴾؛ لأنه بمعنى (صيَّر).

﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ الجملة حال من فاعل﴿وَجَعَلَ﴾ أو صفة ﴿شِيَعًا﴾ أو استئناف كلام جديد. و﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بدل منه.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ الهاء والميم وأئمة مفعولا (جعل) لأنه بمعنى (صيَّر).

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ فرعون وما عطف عليه: مفعول أول لـ ﴿وَنُرِيَ﴾ وهو من رؤية البصر، وهو في الأصل يتعدى إلى مفعول واحد، فلما تعدى بالهمزة صار متعدياً إلى مفعولين، والمفعول الثاني هو: ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

البلاغة:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب لبعد مرتبة القرآن في الكمال.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا﴾ ﴿وَنُرِيدُ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار تلك الصورة في الذهن؛ لأن ذلك معطوف على جملة﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من حيث إنهما واقعان تفسيراً للنبأ. وإرادة ا لمنة بخلاصهم من فرعون هي في المستقبل، فلا يمنع ذلك إرادة استضعافهم في الماضي، ولما كانت الإرادة الأولى قريبة الوقوع من الثانية جعلت كالمقارنة لها.

المفردات اللغوية:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ تقرأ: طا، سين، ميم، بمد السين والميم وإدغام النون في الميم. وهذه الحروف المقطعة وأمثالها كما بينا مراراً للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية، فكون العرب أساطين البيان، وفرسان الفصاحة والبلاغة، عجزوا عن معارضته، دليل على أنه فوق مستوى البشر. وأنه من لدن حكيم حميد، إله الكون أجمعين .﴿تِلْكَ﴾ هذه الآيات .﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإضافة بينهما بمعنى (من) .﴿ٱلْمُبِينِ﴾ المظهر الحق من الباطل.

﴿نَتْلُوا﴾ نقرؤه بقراءة جبريل، ويجوز أن يكون بمعنى (ننزله) مجازاً .﴿نَبَإِ﴾

خبر مهم، ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ معناه بعض نبئهما .﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الصدق. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأجلهم، وخص المؤمنون؛ لأنهم المنتفعون به .﴿عَلَا﴾ تجبر واستكبر، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر: استئناف مبين لذلك البعض، أي بعض خبر موسى وفرعون .﴿شِيَعًا﴾ فرقاً وأصنافاً يستخدمهم في أعماله من بناء وحفر وحرث ونحو ذلك من مشاق الأعمال، ويؤلب بعضهم على بعض، زارعاً بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتفقوا .﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ يجعلهم ضعفاء مقهورين. وهم بنو إسرائيل .﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ المولودين .﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ يبقي نساءهم أحياء، وسبب هذا الفعل أن كاهناً قال لفرعون: يولد مولود في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يده، وذلك كان من غاية حمقه، فإنه لو صدّق لم يندفع الأمر بالقتل، وإن كذب فما الداعي لما فعل؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالقتل وغيره، فاجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد .﴿أَن نَّمُنَّ﴾ نتفضل عليهم بإنقاذهم من بأسه. ﴿أَئِمَّةً﴾ قادة يقتدى بهم في الخير في أمر الدين والدنيا .﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ملك فرعون وقومه﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر والشام، والتمكين: يراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها .﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزير فرعون .﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ يخافون من المولود الذي يذهب ملكهم على يديه.

التفسير والبيان:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ بيّنت المراد بهذه الحروف في المفردات.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أي هذه آيات من الكتاب الواضح الجلي الكاشف لحقائق أمور الدين، وما كان وما يكون.

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ أي

نذكر لك الأمر على ما كان عليه حقاً وصدقاً كأنك تشاهد، وكأنك حاضر، من أجل قوم يصدقون برسالتك وبما أنزل إليك من ربك، فتطمئن به قلوبهم، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣].

وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة شيئاً أو بعضاً من قصة موسى وفرعون، للعبرة والعظة، وإقامة الدليل على صدق نبوة محمد ﷺ، وأن هذا القرآن العظيم وحي يوحى، وليس من وضع البشر.

وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أن القرآن للناس أجمعين للإشارة إلى أن الانتفاع به لا يكون إلا لمن صدق بأنه كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إن فرعون ملك مصر تجبر في أرضها واستكبر، وبغى وطغى وقهر أهلها.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي جعل أبناء مصر فرقاً وأحزاباً مختلفة، وسخر كل طائفة في مصالحه العمرانية والزراعية وغير ذلك من أمور دولته، وبذر بينهم بذور الفتنة والعداوة والبغضاء، حتى لا يتفقوا، أخذاً بسياسة المستعمر: «فرِّق تسد».

وهذا مضاد لسياسة الإسلام - بالمعنى العام - والهدي الإلهي كله القائم على التأليف والتجميع على قلب واحد، وإشاعة روح المحبة والتسامح والود والوئام والصفاء بين الرعية، وهذا في الواقع هو المبدأ الأمثل الذي يريح الحاكم، ويقوّي الأمة، ويبني أمجادها، ويحقق لها الانتصارات المتلاحقة.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي يجعل جماعة منهم أذلة مقهورين، وهم بنو إسرائيل. ومظاهر الاستضعاف هي:

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي يقتل مواليدهم الذكور، ويُبقي إناثهم أحياء، إهانة لهم واحتقاراً، وخوفاً من وجود غلام منهم كان فرعون

وأهل مملكته قد تخوفوا من ظهور غلام منهم يكون سبب هلاكهم وذهاب دولتهم على يديه؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه، أو قال المنجّمون له ذلك، أو رأى رؤيا، فعبِّرت كذلك.

قال الزجّاج: العجب من حمقه، لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبر، فيقتل بلا ذنب، وينشر الرعب والإرهاب بلا مسوغ، وهذا شأن الظلمة العتاة الذين يستبد القلق والاضطراب في نفوسهم، فيرتكبون مثل هذه الفظائع. ولو شعروا يوماً أو أكثر بالطمأنينة والراحة، ونشر عليهم الإيمان أجنحته وظلاله الوادعة، لعاشوا في استقرار وأمان، ولم يعيثوا في الأرض فساداً ولما احتاجوا إلى مثل هذا العسف والظلم المؤذن بدمارهم.

وبعد أن ذكر تعالى هذه الصفات الخمس الذميمة للعتاة وهي الاستعلاء في الأرض، والاستضعاف، وقتل الأبناء، وإبقاء الإناث، والإفساد، ذكر في مقابلها خصائص خمساً للمستضعفين من بني إسرائيل وهي: إنقاذهم من الظلم، وجعلهم القادة بعد فرعون وقومه، وجعلهم ورثة مصر والشام، وجعل السلطة لهم فيها، وإظهار ما كان يحذره فرعون وهامان وجنودهما من دمارهم وذهاب ملكهم على يد بني إسرائيل، فقال تعالى:

أ- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وأردنا التفضل والإنعام على المستضعفين من بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وأذلهم بتخليصهم من بأسه، وإنقاذهم من ظلمه.

وتساءل الزمخشري بقوله: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله تعالى المن عليهم، وإذا أراد الله شيئاً كان، ولم يتوقف إلى وقت آخر؟ ثم أجاب عنه بأنه

لما كانت منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم.

٢- ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي ونجعلهم قادة وولاة وحكاماً متقدمين في الدين والدنيا.

٣- ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ الذين يرثون ملك فرعون وأرضه وما في يده، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧/٧] وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء: ٥٩/٢٦].

٤- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي نجعل لهم السلطة وإنفاذ الأمر وإطلاق الأيدي في أرض مصر والشام.

٥- ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي نجعلهم يبصرون ما كانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل. وقد أنفذ الله أمره، وحقق حكمه، بأن جعل دمار فرعون وقومه على يد من رباه وأنشأه على فراشه وفي داره، وعلى سفرته وطعامه بعد أن جعله الله رسولاً وأنزل عليه التوراة؛ ليعلم أن رب السماوات والأرض هو القاهر الغالب على أمره، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

والواضح أن هذه الخصائص تكون ما دام بنو إسرائيل عاملين بأصل شريعتهم وبكتابهم المنزل غير المبدل ولا المحرف، والذي فقد ولم يعد له وجود، ومضمون التوراة في الوضع الأصلي يلتقي مع مضمون القرآن، فإذا ما انحرفوا عن العقيدة الصحيحة والشريعة المنزلة، زالت عنهم هذه الخصائص.

فقه الحياة أو الأحكام:

تبين من الآيات ما يأتي:

١- القرآن العظيم أبان الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وقصص الأنبياء، ونبوة محمد ﷺ، ولا ينتفع من هديه إلا القوم المصدقون به، الذين يعلمون أنه من عند الله.

٢- يجب اجتناب الاستعلاء في الأرض، والتعزز بكثرة الأتباع، وهما من سيرة فرعون وقارون. وكانت قصتهما حجة على مشركي قريش وأمثالهم، فكما أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، فكذلك قرابة قريش لمحمد ﷺ.

٣- كان علو فرعون وتجبره من كفره، وكانت ممارسات ظلمه وعتوه كثيرة متنوعة، فكان يستذل طائفة من بني إسرائيل، يذبح أطفالهم الذكور، ويترك الإناث أحياء، إهانة لهم واحتقاراً، وكان من البغاة المفسدين في أرض دولته. والظلم والكبرياء سبيل الدمار والهلاك، فأهلكه الله، ونجّى بني إسرائيل من العسف والطغيان.

٤- كافأ الله المستضعفين من بني إسرائيل، وشأنه دائماً الرفق بالضعفاء، فأنقذهم من بأس فرعون، وجعلهم ولاة وملوكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٥/ ٢٠] ، وورّثهم ملك فرعون فسكنوا مساكن القبط المصريين، كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٧] ، وأقدرهم على أرض مصر والشام وأهلها، فاستولوا عليها، وأراد أن يري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يخافون من تدمير ملكهم على يد مولود من بني إسرائيل، فلم يُفده قتل الألوف من الأولاد الأبرياء، وتحقق مراد الله تعالى، فهو النافذ الحكم والسلطان على الإطلاق.

- ٢ -

إلقاء موسى في اليم بعد ولادته وإرضاعه والبشارة بنبوته

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿وَحَزَنًا﴾: قرئ:

١- (وَحُزْناً) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٢- (وحَزَناً) - بفتح الحاء، وهي لغة قريش - وهي قراءة باقي السبعة.

﴿ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ﴾:

وقف بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

الإعراب:

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ﴾ اللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ يسميها البصريون لام العاقبة، أي كان عاقبة التقاطهم العداوة والحزن، وإن لم يكن التقاطهم له لهما. ويسميها الكوفيون لام الصيرورة، أي صار لهم عدواً وحزناً، وإن التقطوه لغيرهما.

﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ﴾ إما خبر مبتدأ محذوف، أي هو قرة عين، وإما مبتدأ، وخبره: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ الجملة حال من الملتقطين.

﴿إِن كَادَتۡ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي إنها.

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ إما جمع شدّة كنعمة وأنعُم، وإما جمع شَدّ، نحو قدّ وأقُدّ، وإما واحد مفرد، وليس في الأسماء المفردة ما هو على وزن أفعُل إلا «أصبُع» و «آجُر» و «أيُمن» وآنُك: هو الرصاص المذاب الخالص.

البلاغة:

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عبر بالجملة الاسمية عن الفعلية: سنرده ونجعله، للاعتناء بالبشارة؛ لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ استعارة، شبه ما ألقى في قلبها من الصبر بربط الشيء خشية ضياعه، مستعيراً لفظ الربط للصبر.

﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ خاطبت امرأة فرعون زوجها بصيغة الجمع بدل صيغة المفرد «لا تقتله» للتعظيم.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توافق الفواصل من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ وحي إلهام، مثل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ١٦/ ٦٨] أو وحي منام. ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمكنك إخفاؤه. ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يُحسّ به أحد. ﴿ٱلْيَمِّ﴾ البحر أي النيل. ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ غرقه. ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ لفراقه، والخوف: غم لتوقع مكروه في المستقبل، والحزن: غم يحدث بسبب مكروه حصل. ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب بحيث تأمنين عليه. ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بشارة بالرسالة والنبوة. فأرضعته ثلاثة أشهر، ولما ألح فرعون في طلب المواليد وأرسل الجواسيس للبحث، وضعته في تابوت مطلي بالقار من الداخل، وألقته في بحر النيل ليلاً. ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ الالتقاط: أخذ الشيء فجأة من غير طلب له ولا إرداة. أي التقط أعوان فرعون التابوت صبيحة الليل، ووضعوه بين يديه، ففتحه وأخرج موسى منه. ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ في عاقبة الأمر. ﴿عَدُوًّا﴾ ينقض لهم جذور تدينهم. ﴿وَحَزَنًا﴾ يزيل ملكهم، وحَزَن: اسم فاعل من حزن كأحزن، وقرئ «حُزْناً».

﴿وَهَـٰمَـٰنَ﴾ وزير فرعون. ﴿خَـٰطِـِٔينَ﴾ آثمين عاصين، من الخطيئة وهي هنا الشرك، مأخوذ من خطئ: تعمد الخطأ. أما أخطأ: فمعناه لم يصب، بغير تعمد. ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وقد همَّ مع أعوانه بقتله. ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ أي هو قرة عين، أي مصدر فرح وسرور، يقال: قرَّت به العين، أي فرحت وسُرّت. ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خطاب بلفظ الجمع للتعظيم. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أو نتبناه. فإنه أهل له. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي والحال أنهم لا يشعرون بعاقبة أمرهم معه، وأنهم مخطئون في التقاطه وفي طمع النفع منه.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي خالياً من العقل، لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون عدو بني إسرائيل، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٣] أي لا عقول فيها. ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي لتظهر بأنه ابنها. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر، أي سكّناه وثبتناه. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بوعد الله. وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ دل عليه ما قبله.

﴿قُصِّيهِ﴾ اقتفي أثره وتتبعي خبره حتى تعلمي مصيره. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي أبصرته عن بُعْد اختلاساً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يدرون أنها أخته وأنها ترقبه. ﴿عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ قبل رده إلى أمه، أي منعناه أن يرتضع من المرضعات، فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المحضرة له. ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي يتكفلون أو يضمنون إرضاعه والقيام بشؤونه لأجلكم. ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته. ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائه. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حينئذ بفراقه. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لتعلم علم مشاهدة أن وعد الله برده إليها صدق. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون بهذا الوعد، ولا بأن هذه أخته وهذه أمه، فمكث عندها إلى أن فطمته، ثم تربى عند فرعون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غاية نموه، وهو مفرد جاء على وزن الجمع، وبلوغ الأشد: من ثلاثين إلى أربعين سنة، فإن العقل يكمل حينئذ. ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ اكتملت أو نضجت قواه الجسدية والعقلية ببلوغ أربعين سنة. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حكمة ونبوة. ﴿وَعِلْمًا﴾ فقهاً في الدين. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزيناه نجزي المحسنين لأنفسهم.

التفسير والبيان:

بعد بيان منة الله على بني إسرائيل بإنقاذهم من بأس فرعون في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ ابتدأ تعالى بذكر أوائل نعمه عليهم فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي وألهمنا أم موسى إرضاعه ما أمكنها إخفاؤه عن العدو، فأرضعته ثلاثة أو أربعة أشهر كما يقال.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ أي فإذا خفت عليه من القتل بسبب سماع أحد من الجيران صوته، فألقيه في بحر النيل، ولكن لا تخافي عليه حينئذ من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض جواسيس فرعون الذين يبحثون عن الولدان، وغير ذلك من المخاوف، ولا تحزني لفراقه. وهكذا طمأنها الحق تعالى عن مخاوفها وهواجسها الجديدة بعد إلقائه في البحر، بإلقاء الأمان والسكينة في قلبها؛ لأن عناية الله ورعايته تحوط بأنبيائه ورسله منذ بدء الحمل وفي عهد الطفولة.

وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً، ومهدت فيه مهداً، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وألقته في النيل، فذهب مع الماء واحتمله على سطحه، حتى مرّ به على دار فرعون، فالتقطه الجواري وذهبن به إلى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، فلما كشفت عنه، أوقع الله محبته في قلبها، فآثرت الإبقاء عليه، ولم تزل تكلم فرعون حتى تركه لها.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي إنا سنرده عليك لتكوني أنت المرضعة له، وسنجعله نبياً مرسلاً إلى أهل مصر والشام.

وقد جمعت هذه الآية الواحدة بين أمرين ونهيين، وخبرين وبشارتين والأمران: هما أرضعيه وألقيه، والنهيان: هما ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾، والخبران: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، والبشارتان: في ضمن الخبرين، وهما الرد والجعل من المرسلين.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي فأخذه أهل فرعون، لتكون عاقبة أمره أن يكون عدواً لهم بمجاهدته بمخالفة دينهم، وموقعاً لهم في الحزن بإغراقهم وزوال ملكهم.

ولام ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة، وليست لام التعليل؛ لأنهم لم يريدوا قطعاً بالتقاطه ذلك، ولكن الله جعل دمارهم بما صنعت أيديهم، فالتقطوه وربوه، ليكون في نهاية أمره سبباً لمأساتهم وتحقق ما توقعوه من زوال ملكهم. قال الرازي: واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن هذه اللام هي لام التعليل، وعلى سبيل المجاز دون الحقيقة؛ لأن مقصود الشيء وغرضه يؤول إليه أمره، فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول إليه الشيء على سبيل التشبيه، فإن اتخاذه عدواً لم يكن سبب التقاطهم له، ولكن شبهت المحبة والتبني بالسبب الذي يؤدي إلى الفعل، ويفعل الفعل لأجله، كاستعارة الأسد للرجل الشجاع.

وسبب ذلك على يد موسى عليه السلام هو ما قاله تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي إن هؤلاء كانوا مذنبين مجرمين، فعاقبهم الله بأن ربّى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم، فهو من الخطيئة أي الإثم، ويصح أن يكون من الخطأ فإنهم كانوا مخطئين في كل شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم. قال الحسن البصري: معنى ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ ليس من الخطيئة، بل المعنى: وهم لا يشعرون أنه الذي يذهب بملكهم.

أما جمهور المفسرين فقالوا: معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، فعاقبهم الله تعالى بأن ربَّى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم، كما ذكرنا.

وأما سبب عدم قتله فهو تشفع امرأة فرعون له، فقال تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أي قالت زوجة فرعون له: هو قرة عين لنا أي يكون لنا سلوى، وتقرُّ به عيوننا، وتفرح به نفوسنا، فلا تقتلوه؛ لأن الله تعالى ألقى عليه المحبة، فكان يحبه كل من شاهده عليه السلام، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٢٠/٣٨-٣٩].

وكما هو مصدر سرور وسكن وسلوى قد يكون نافعاً:

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لعله يكون سبباً للنفع والخير، لما رأيت فيه من مخايل اليمن وأمارات النجابة، أو نتخذه ولداً ونتبناه، لما يتمتع به من الوسامة والجمال، ولم يكن لها ولد من فرعون، فحقق الله أملها بأن هداها به وأسكنها الجنة بسببه، ولكن لا يشعر فرعون وقومه أن هلاكهم بسببه وعلى يده، وأنه سيظهر على يديه من الحكمة والحجة ومعجزة النبوة ما سيكون سبباً في تكذيبهم له، مما يؤدي إلى هلاكهم، فالله تعالى وحده عالم الغيب والشهادة، ينصر رسله، ويؤيد دينه، ويخذل أعداءه، ليكون ذلك عبرة وعظة للمؤمن والكافر.

وإذا كان الفرح غمر قلب آسية امرأة فرعون، فإن الوساوس والهواجس ألمت بقلب أمه، فقال تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي أصبح فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر فارغاً من كل شيء من شواغل الدنيا إلا من موسى، كما أنه طار عقلها، وسيطر عليها الخوف والفزع، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، وكادت من شدة حزنها وأسفها أن تظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها أنها أمه، لولا أن الله ثبّتها وصبرها، لتكون من المصدقين الواثقين بوعد الله برده إليها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

والخلاصة: لولا تثبيتُ الله قلبها وتصبيره إياها لكشفت أمرها، وباحت بسرها، وأظهرت أنه ابنُها، بحكم العاطفة والشفقة، فألهمها الله أن تتعرف خبره بأخته:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ أي وقالت أم موسى لابنتها الكبيرة التي تعي ما يقال لها: تتبعي أثره، وتعرفي خبره، واطلبي شأنه من نواحي البلد، فخرجت لذلك، فهداها الله لمقرّ وجوده في بيت فرعون، وأبصرته عن بُعْد أو من بعيد، وهم لا يحسون بأنها تتعقبه، وتتعرف حاله، وأنها أخته.

وتتابعه عناية الله ويسوقه القدر إلى إرجاعه لمهد أمه، فقال تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾؟ أي ومنعنا موسى أن يرضع ثدياً غير ثدي أمه قبل رده إلى أمه وقبل مجيء أخته، لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه، والتحريم: استعارة للمنع؛ لأن من حَرُم عليه الشيء فقد مُنعه. فقالت أخته لما رأت ارتباكهم واهتمامهم برضاعه: أتريدون أن أدلكم على أهل بيت يتكفلون بشأنه وإرضاعه وتربيته، وهم حافظون له، وناصحون، يعنون بخدمته والمحافظة عليه؟

قال ابن عباس: فلما قالت ذلك، أخذوها وشكّوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك، ورجاء منفعته، أي عطائه، فلما قالت لهم ذلك، وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديها، فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنت إليها، وأعطتها عطاء جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها.

ثم سألتها آسية أن تقيم عندها، فترضعه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً، ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلات والكُسا والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، في عز وجاه ورزق دارّ[1].

جاء في الحديث: «مَثَل الذي يعمل ويحتسب في صَنْعته الخير كمثل أم موسى، ترضع ولدها، وتأخذ أجرها».

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فأرجعناه إلى أمه بعد التقاط آل فرعون له، من أجل أن تقر عينها بابنها وتسرّ بوجوده لديها وسلامته عندها، ولا تحزن عليه بفراقه، ولتتيقن أن وعد الله فيما وعدها من رده إليها حق لا شك فيه حين قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن رسولاً، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً من كمال الأخلاق.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة في الدنيا والآخرة، فربما كان الأمر كريهاً إلى النفوس في الظاهر، محمود العاقبة في الحقيقة ونفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦] وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/١٩].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي ولما اكتملت قواه الجسدية والعقلية آتيناه النبوة وفقه الدين وعلم الشريعة،

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٨٢.

مثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه نجزي المحسنين على إحسانهم، وقد رجح الرازي أن المراد بالحكم هنا الحكمة والعلم، لا النبوة[١].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- قد يطلق الوحي على الإلهام؛ لأن الوحي لا يكون إلا لنبي، وقد أجمع العلماء على أن أم موسى وأم عيسى لم تكن واحدة منهما نبية، وإنما ذلك من قبيل الإلهام، كإلهام النحل اتخاذ البيوت.

وقد ألهم الله أم موسى بعد ولادته أن ترضعه، فإذا خافت عليه من القتل ألقته في البحر، دون خوف عليه من الغرق ولا حزن على فراقه، فإن الله تكفل برده إليها وبجعله من الأنبياء المرسلين إلى أهل مصر.

٢ً- قد يقصد الإنسان شيئاً ويحدث شيء آخر، فإن أهل فرعون التقطوا موسى الصغير ليكون لهم قرّة عين، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدواً وحزناً، ولله في خلقه شؤون.

٣ً- كان إنقاذ موسى من البحر سبباً في إسعاد الناس برسالته وإنزال التوراة عليه، وهداية آسية امرأة فرعون على الإيمان بالله تعالى، بعد أن أقنعت زوجها فرعون بإبقائه وعدم قتله رجاء أن يكون مصدر نفع لهم أو أن يتبنوه، علماً بأنها كانت لاتلد، فاستوهبت موسى من فرعون، فوهبه لها، وكان فرعون لمّا رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه، قالوا له: إن غلاماً من بني إسرائيل يفسد ملكك؛ فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال، فرأى أنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً، فولد هارون في عام الاستحياء (إبقاء الأولاد)

---

(١) تفسير الرازي: ٢٤/ ٢٣٢

وولد موسى في عام الذبح. يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرأت فيه صبياً صغيراً، فرحمته وأحبته، فقالت لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾.

٤ً- لا يشعر الناس بتدبير الله وتخطيطه، وقد تكرر ذلك المعنى في الآيات فقال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه، ثم كرر تعالى ذلك في الآية [١١] ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٥ً- هجمت الوساوس والمخاوف والهواجس على قلب أم موسى، وطار عقلها لوقوع ابنها في يد فرعون عدو الإسرائيليين، وقاربت أن تظهر أمره لولا أن ثبّتها الله وصبّرها وملأ قلبها بالإيمان والاطمئنان والسكينة، لتكون من المصدقين بوعد الله حين قال لها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

٦ً- كان لأخت موسى الذكية الحصيفة مريم بنت عمران كاسم مريم أم عيسى عليه السلام دور طيب ناجح في إقناع حاشية فرعون وامرأته بمن يقبل ثديها من النساء. لحاجتها إلى عطاء الملك، وطيبها وطيب رائحتها، دون أن يشعروا أنها أخته؛ لأنها كانت تمشي على ساحل البحر، حتى رأتهم قد أخذوه، فأرشدتهم بلباقة إلى أهل بيت يكفلونه، وهم للملك ناصحون، يحرصون على مسرّته ويطمعون في عطائه.

٧ً- إن تدبير الله الخفي الذي لا يصلح غيره في أي شيء أشد نفاذاً وأنجح خطة من تدبير البشر، فقد منع موسى الطفل من الارتضاع من قبل مجيء أمه وأخته، ثم رده إليها، وفاء بوعده لها، وكان قد عطف الله قلب العدو عليه، ولتعلم أن وعد الله حق، أي لتعلم وقوعه، فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون.

٨ً - لم يؤت الله النبوة لأحد غير يحيى وعيسى عليهما السلام قبل بلوغ سن الأربعين الذي تكتمل فيه القوى العقلية والجسمية، وتحقيق هذا في شأن

موسى، فإنه لما بلغ أشده، أي غاية نموه، ونضج وبلغ أربعين سنة آتاه الله النبوة، والحكمة قبل النبوة والعلم والفقه في الدين، يروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة.

وكما جزى الله موسى على طاعته وصبره على أمر ربه، وجزى أم موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدّقت بوعد الله، فرد ولدها إليها وهي آمنة، ووهب له العقل والحكمة والنبوة، كذلك يجزي كل محسن.

الخلاصة: إن هذا الفصل من قصة موسى عليه السلام بيان لما أنعم الله عليه في صغره من إنجائه من القتل والغرق في النيل، وما أنعم عليه في كبره من إيتائه العلم والحكمة والنبوة والرسالة إلى بني إسرائيل والمصريين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٢٠/٣٧-٤٠].

- ٣ -

قتل المصري خطأ وخروجه من مصر

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

الإعراب:

﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أراد بالجملة حكاية حال كانت فيما مضى، كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨/١٨] فأعمل اسم الفاعل، وإن كان للماضي، على حكاية الحال. وقوله: ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي من أعدائه، وعدو: يصلح للواحد والجمع.

﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ خبر أصبح المنصوب، ويجوز أن يكون ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ خبرها، و﴿خَآئِفًا﴾ حال منصوب. ﴿ٱلَّذِى﴾ مبتدأ مرفوع، وخبره إما ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ وإما ﴿فَإِذَا﴾ ويستصرخه في موضع نصب على الحال.

﴿يَسۡعَىٰ﴾ صفة رجل، أو حال منه إذا جعل: من أقصى المدينة صفة له.

البلاغة:

﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ استعطاف.

﴿جَبَّارٗا﴾ ﴿لَغَوِيّٞ﴾ ﴿مُّبِينٞ﴾ صيغ مبالغة على وزن فعَّال وفعيل. وكذلك﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ بينهما طباق أي بين «جبار» وهو المفسد في الأرض وبين كلمة ﴿ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ التأكيد بإن واللام ليناسب مقتضى الحال، ليجد موسى مخرجاً.

المفردات اللغوية:

﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ﴾ أي دخل موسى مصر آتياً من قصر فرعون، وقيل: منف مدينة فرعون، أو عين شمس من نواحي مصر .﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ أي في وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعونه فيه، قيل: كان وقت القيلولة، أو بين العشاءين .﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ إسرائيلي، أي من حزبه وجماعته الذين شايعوه وتابعوه في الدين، وهم بنو إسرائيل .﴿وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ﴾ قبطي، أي من مخالفيه في الدين، وهم القِبْط .﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾ طلب منه الغوث والنصرة والإعانة، ولذلك عدِّي بِعَلى، وقرئ: فاستعانه .﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ فضرب القبطي بجُمع كفه أي بيده، وكان شديد القوة والبطش، وقرئ: فلكزه، أي فضرب به صدره. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ قتله خطأ، فأنهى حياته، ولم يكن قصد قتله، ودفنه في الرمل.

﴿هَٰذَا﴾ أي قتله .﴿مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ أي من تزيينه الذي هيج غضبي. ولا يقدح ذلك في عصمته؛ وسماه ظلماً، واستغفر منه، لاستعظام الصغائر،

بل وكان ذلك قبل النبوة في عهد الشباب، في سن دون الثلاثين؛ لأنه أوحي إليه في سن الأربعين بعد زواجه بابنة شعيب في مدين، ورعيه الماشية عشر سنوات . ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ لابن آدم . ﴿مُّضِلٌّ﴾ موقع في الضلال والخطأ . ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ﴾ موسى نادماً . ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتله . ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ فاستر ذنبي. ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ باستغفاره . ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده . ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم . ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أي بحق إنعامك علي بالمغفرة اعصمني فهو استعطاف، أو هو قَسَم محذوف الجواب، أي أقسم بإنعامك علي بالمغفرة وغيرها لأتوبن . ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي فلن أكون معيناً لمن أجرم بعد هذه إن عصمتني.

﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ ينتظر ما يناله من أذى أي استقادة أو قَوَد (قصاص). ﴿ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ طلب نصره وعونه . ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيث به على قبطي آخر. ﴿لَغَوِىٌّ﴾ ضال . ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّن الغواية . ﴿فَلَمَّآ أَنْ﴾ زائدة . ﴿يَبْطِشَ﴾ يضرب بسطوة وقوة وصولة . ﴿بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والمستغيث به . ﴿قَالَ﴾ القبطي المصري، أو قال الإسرائيلي المستغيث؛ لأنه سماه غوياً، فظن أنه يبطش به . ﴿إِن تُرِيدُ﴾ ما تريد . ﴿جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تتطاول على الناس ولا تنظر العواقب . ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ يبغون الإصلاح بين الناس، فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن. ولما قال هذا سمع القبطي، وانتشر الحديث وبلغ الخبر إلى فرعون وملئه، فعلم أن القاتل موسى، فأخبر فرعون بذلك، فأمر فرعون الذبّاحين بقتل موسى، فهموا بقتله.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ هو مؤمن آل فرعون . ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ آخرها أو من أبعد جهاتها . ﴿يَسْعَىٰ﴾ يسرع في مشيه من طريق أقرب من طريقهم . ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ أشراف قوم فرعون . ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يتشاورون فيك، وسميت المشاورة ائتماراً؛ لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر به . ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من

المدينة .﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ في الأمر بالخروج. واللام للبيان، وليس صلة للناصحين لأن معمول الصلة لا يتقدم الموصول .﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يتلفّت يَمْنة ويَسْرة.

المناسبة:

بعد بيان ما أنعم الله به على موسى عليه السلام من إنجائه صغيراً من الذبح على يد فرعون، وإيتائه الحكمة والعلم كبيراً تهيئة للنبوة، ذكر ما أنعم به عليه من الخروج آمناً من مصر بعد قتله قبطياً مصرياً، كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين.

التفسير والبيان:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي ودخل موسى المدينة التي كان يسكنها فرعون، وهي قرية على بُعْد فرسخين من مصر، هي - كما قال الضحاك - عين شمس، وذلك في وقت لا يتوقع دخوله فيها، وهو إما وقت القيلولة في نصف النهار وقت الظهيرة والناس نيام، أو ما بين المغرب والعشاء.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ﴾ أي فوجد موسى في تلك المدينة رجلين يتضاربان ويتنازعان، أحدهما إسرائيلي من حزبه وجماعته، والآخر قبطي مصري مخالف لموسى في العقيدة والدين، وهو طباخ فرعون، كان قد طلب منه أن يحمل حطباً للمطبخ فأبى، فطلب الإسرائيلي من موسى النجدة والعون على عدوه القبطي، فضربه موسى بيده، فقضى عليه، أي كان الضرب مفضياً إلى الموت، وواراه التراب، دون أن يعلم بذلك أحد إلا الرجل العبراني الذي نصره موسى.

ثم ندم موسى على ما فعل، فقال: هذا الحادث من تزيين الشيطان وإغرائه.

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي إن الشيطان عدو للإنسان، مضل له أي موقع له في الضلال والخطأ، بيِّن العداوة والإضلال، ثم تاب من فعله فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ أي قال موسى: يارب، إني ظلمت نفسي بهذا الفعل، وهو قتل نفس بريئة، فاستر لي ذنبي، ولا تؤاخذني بما جنت يدي، فإني أتوب إليك، وأندم على فعلي.

وقد عدّ ذلك ذنباً، لأن القتل لا يحل أصلاً، وذلك معروف من شرائع الأنبياء المتقدمين. قال النقاش: لم يقتله عن عمد مريداً للقتل، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه، وإن هذا كان قبل النبوة.

روى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق! ما أَسْأَلَكُم عن الصغيرة، وأركَبَكُم للكبيرة! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا - وأومأ بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ، فقال الله عز وجل: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ » [طه: ٢٠/٤٠] .

﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي فعفا عنه وقبل توبته، إنه تعالى الستار لذنوب عباده المنيبين إليه، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة والإنابة، فشكر موسى ربه:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي قال موسى: يا رب اعصمني من الخطأ بحق ما أنعمت علي من المعرفة والحكمة والتوحيد، ومن الجاه والعز والنعمة، فلن أكون إن عصمتني معيناً لمن ظلم وأجرم وأشرك. أو أقسم بإنعامك علي بهذه النعم الكثيرة لأتوبن، ولن أناصر المشركين.

قال القشيري: ولم يقل لما أنعمت علي من المغفرة؛ لأن هذا قبل الوحي، وما كان عالماً بأن الله غفر له ذلك القتل.

وذكر الماوردي وغيره أن الإنعام بالمغفرة أو الهداية. قال القرطبي: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ يدل على المغفرة، والله أعلم.

وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون؛ وإما بمظاهرة من أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له قتله.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١/ ١١٣].

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي فصار موسى بعد حادثة قتل القبطي المصري خائفاً من أن يظهر أنه هو القاتل، فيطلب به، وصار يتلفت ويتوقع أن يقتل بسبب جنايته، فسار في بعض الطرق متخفياً مستتراً، فإذا ذلك الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على المصري، يطلب منه العون والغوث على مصري آخر، فقال له موسى: إنك ظاهر الغواية، كثير الفساد والشر والضلال.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ أي فلما أراد موسى زجر عدوهما وهو القبطي، قال له مستنكراً مستهجناً: أتريد الإقدام على قتلي كما قتلت نفساً البارحة، وقد كان عرف القصة من الإسرائيلي، قال الرازي: والظاهر هذا الوجه؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ فهذا القول إذن منه، لا من غيره، وأيضاً فقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يليق إلا بأن يكون قولاً للكافر.

وقال بعضهم: لما خاطب موسى الإسرائيلي بأنه غوي مبين، ورآه على غضب، ظن - لما همَّ بالبطش - أنه يريده، لخوره وضعفه وذلته، فقال هذا

القول، وصار ذلك سبباً لظهور القتل ومزيد الخوف؛ لأنه لم يكن يعلم بحادثة الأمس غير هذا العبري، فلما سمعها ذلك القبطي، نقلها إلى فرعون، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى.

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي ما تريد يا موسى إلا أن تكون قتّالاً بطاشاً، مستعلياً، كثير الأذى في الأرض، دون أن تنظر في العواقب، ولا تريد أن تكون من أهل الإصلاح الذين يفصلون في خصومات الناس بالحسنى والحكمة، ولو كان أحد الخصوم من ذوي القربى أو العشيرة الواحدة.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢٠)﴾ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون، يخفي إيمانه عن الناس، من أبعد مكان في المدينة، يسرع ليخبر موسى بما دبره القوم من سوء له، وقال: يا موسى، إن فرعون وأشراف دولته يتشاورون فيك، ويدبرون مؤامرة لقتلك، فاخرج بسرعة من البلد، إني لك ناصح أمين، ووصف بالرجولة لسلوكه طريقاً أقرب من طريق المبعوثين وراء موسى.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فخرج موسى من مدينة فرعون خائفاً على نفسه يتلفَّت، ويترقب متابعة أحد له.

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي قال موسى في هذه المحنة الشديدة: رب نجني من هؤلاء الظالمين: فرعون وملئه، فاستجاب الله دعاءه ونجاه ووصل إلى مدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٢٠/ ٤٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ- وقوع حادثة قتل خطأ غير عمد من موسى عليه السلام.

٢ً- ندم موسى عليه السلام على ذلك الوَكْز (الضرب بجُمْع الكف مجموعاً كعقد ثلاثة وسبعين) ونسب الفعل إلى الشيطان، وقال: رب، إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، فغفر له، وحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه، قال قتادة: عرف والله المخرج فاستغفر؛ ثم لم يزل عليه السلام يعدِّد ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غفر له، حتى إنه في القيامة يقول: إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها. وكان ذلك القتل قبل النبوة، كما عرفنا.

والقتل الخطأ ذنب، بدليل إيجاب الكفارة عليه في شرعنا، ولأنه لا يخلو عن إهمال أو تقصير أو تجاوز الحدود المألوفة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ﴾ [النساء: ٤/ ٩٢] .

٣ً- كان من توابع توبة موسى عليه السلام من فعله أنه أقسم بما أنعم الله عليه ألا يظاهر ولا يعاون مجرماً.

ويصح أن يكون قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ استعطافاً كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة أو غيرها من النعم كالمعرفة والحكمة والتوحيد، فلن أكون إن عصمتني ظهيراً (معيناً) للمجرمين.

٤ً- دلت آية ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة. قال عطاء: فلا يحل لأحد أن يعين ظالماً، ولا يكتب له، ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين. وفي الحديث: «يُنادي منادٍ يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة، حتى من لاقَ لهم دواة، أو بَرَى لهم قلماً؟ فيُجمعون في تابوت من حديد، فيُرمى به في جهنم» . وفي حديث آخر رواه الديلمي عن معاذ: «من مشى مع ظالم فقد أجرم» ويروى أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «من مشى مع مظلوم ليعينه على

مظلمته، ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزلّ فيه الأقدام، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه، أزلّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَض فيه الأقدام» .

٥ً- دل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ على أن الخوف غريزة في النفس البشرية، وإن كان المرء قوياً كموسى عليه السلام، كما أن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه، وهو أيضاً سبيل الأمان، وكان خوفه من الملاحقة والطلب، فقد يؤخذ غِرَّة على حين غفلة.

٦ً- يوصف الشرير بأنه غوي (خائب) مبين، ويوصف القاتل بأنه جبار، أي قتَّال، قال عكرمة والشعبي: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين بغير حق، والجبار: الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولايدفع بالتي هي أحسن.

٧ً- إن الإيمان رابطة وثيقة بين المؤمنين، لذا بادر مؤمن آل فرعون وهو حزقيل بن صبور، ابن عم فرعون إلى إخبار موسى عليه السلام بمكيدة فرعون وملئه له، وأنهم يتشاورون في قتله بالقبطي الذي قتله بالأمس، ونصحه بالخروج مسرعاً من مدينة فرعون أو من مصر.

٨ً- شأن المؤمن دائماً أن يلجأ إلى الله تعالى، فقد خرج موسى عليه السلام من مصر، خائفاً يترقب الطلب، قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فنجاه الله ووصل إلى بلاد مدين.

- ٤ -

ذهاب موسى عليه السلام إلى أرض مدين وزواجه بابنة شعيب عليه السلام

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾

القراءات:

﴿رَبِّي أَن﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ربيَ أن).

﴿دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ﴾: قرئ:

١- (دونهِمِ) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (دونهُمُ) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (دونهِمُ) وهي قراءة الباقين.

﴿يُصْدِرَ﴾:

وقرأ أبو عمرو، وابن عامر (تصدُر).

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾:

وقرأ ابن عامر (يا أبتَ).

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾:

وقرأ نافع (إنيَ أُريد).

﴿هَٰتَيْنِ﴾:

وقرأ ابن كثير (هاتَيْنِّ).

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن﴾:

وقرأ نافع (ستجدنيَ إن).

الإعراب:

﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ ﴿يُصْدِرَ﴾ بالضم: مضارع فعل رباعي، والمفعول محذوف، أي حتى يصدر الرعاء إبلهم ومواشيهم، وقرئ بالفتح على أنه مضارع فعل ثلاثي.

﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ﴿مَا﴾ مصدرية، أي أجر سقيك لنا، وليست موصولة؛ لأنها لو كانت موصولة، كان المعنيُّ بها الماء، والأجر على السقي أو العمل لا على الماء أو العين.

﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من

﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ وعامله﴿فَجَآءَتْهُ﴾ و﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في موضع نصب على الحال من ضمير﴿تَمْشِى﴾ وعامله﴿تَمْشِى﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ أي تأجرني نفسك في ثماني سنوات، ﴿ثَمَٰنِىَ﴾ منصوب على الظرف.

﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ أي: منصوب بـ ﴿قَضَيْتُ﴾ وما: زائدة، و﴿ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ مجرور بالإضافة، وتقديره: أيّ الأجلين قضيتُ، و﴿قَضَيْتُ﴾ مجزوم بـ﴿أَيَّمَا﴾ وَفَاء ﴿فَلَا﴾ مع ما بعده مجزوم لأنه جواب الشرط، والجملة: في موضع نصب مفعول﴿قَالَ﴾

﴿ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ استعطاف وترحم.

﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿تَوَجَّهَ﴾ قصد بوجهه﴿تِلْقَآءَ﴾ تجاه ﴿مَدْيَنَ﴾ قرية شعيب على مسيرة ثمانية أيام من مصر، وسميت باسم مدين بن إبراهيم ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي قال ذلك توكلاً على الله وحسن ظن به، لأنه لم يكن يعرف طريقها، وسواء السبيل: الطريق الأقوم، والطريق الوسط إليها، وكان هناك ثلاث طرق، فأخذ في أوسطها ﴿وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وصل إلى بئر فيها كانوا يستقون منها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جماعة كثيرة من الناس مختلفين، يسقون مواشيهم.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ سواهم ﴿تَذُودَانِ﴾ تمنعان وتطردان أغنامهما عن

الماء، خوفاً من السقاة الأقوياء ﴿قَالَ﴾ موسى لهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما شأنكما لا تسقيان مع هؤلاء؟ ﴿يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء، وحينئذ نسقي خوف الزحام ومزاحمة الرجال، يقال: صدر عن الماء مقابل ورد: انصرف عنه، وقرئ: يَصْدر الرعاء أي يرجعون من سقيهم، والرعاء: جمع راعٍ ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر أن يسقي.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مواشيهما من بئر أخرى بقربهما، رحمة عليهما، بأن رفع حجراً عنها لا يرفعه إلا عشرة أنفس أو سبعة، بالرغم من تعبه وجوعه وجرح قدمه. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ انصرف ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ظل شجرة كانت هناك، هروباً من شدة الشمس، وكان جائعاً﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير، ويطلق على الطعام، كما في الآية، وعلى المال كما في آية﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٠] وعلى القوة كما في آية﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٤٤/٣٧] وعلى العبادة كما في آية﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٢١/٧٣] ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج.

فرجعتا إلى أبيهما في زمن أقل مما كانتا ترجعان فيه، فسألهما عن ذلك، فأخبرتاه بمن سقى لهما، فقال لإحداهما: ادعيه لي ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي شدة حياء، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال، أي مستحيية متخفرة، قيل: كانت الصغرى منهما، وقيل: الكبرى، واسمها صفوراء أو صفراء، وهي التي تزوجها موسى﴿لِيَجْزِيَكَ﴾ ليكافئك أو ليثيبك ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ جزاء سقيك لنا. وقد أجابها موسى ليتبرك برؤية الشيخ، ويستظهر بمعرفته، لا طمعاً في الأجر، بل روي أنه لما جاءه قدم إليه طعاماً، فامتنع عنه، وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، أو لا نطلب على عمل خير عوضاً، فأجابه شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، أو قال: لا، عادتي وعادة آبائي نقري الضيف، ونطعم الطعام. علماً بأن من فعل معروفاً، فأهدي إليه شيء، لم يحرم أخذه.

﴿وَقَصَّ﴾ روى له القصة وأخبره بحاله﴿ٱلْقَصَصَ﴾ مصدر بمعنى الحديث المقصوص أي المخبر به، من قتله القبطي، وقصدهم قتله، وخوفه من فرعون ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فرعون وقومه؛ إذ لا سلطان له على مدين.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ التي استدعته الكبرى أو الصغرى ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتخذه أجيراً يرعى غنماً بدلنا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فإنها أخبرته عن رفعه حجر البئر، وعن قوله لها أثناء السير: امشي خلفي، وقابل حياءها بحياء، فلما جاءته وعلم بها، صوَّب رأسه فلم يرفعه. والجملة تعليل جامع، يجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار. وللمبالغة فيه جعل خيراً اسماً، وذكر الفعل بلفظ الماضي، للدلالة على أنه أمين مجرب معروف.

﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ الكبرى أو الصغرى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ تكون أجيراً لي أو تأجر نفسك مني في رعي غنمي ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ سنين، جمع حجة أي سنة ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ رعي عشر سنين ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ التمام﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ باشتراط العشر﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ للتبرك﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة.

﴿قَالَ﴾ موسى﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قلته ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ أي ذلك الذي عاهدتني فيه قائم بيننا لا نخرج عليه ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أطولهما وأقصرهما للرعي ﴿قَضَيْتُ﴾ وفيتك إياه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ بطلب الزيادة عليه، أو فلا مجاوزة للحد، أي فكما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثماني ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي على ما نقول أنا وأنت حفيظ أو شاهد، فتم العقد بذلك.

المناسبة:

بعد أن تمالأ فرعون وقومه على قتل موسى، وأخبره مؤمن من آل فرعون بما عزموا عليه، ونصحه بالخروج من مصر، فخرج متجهاً إلى أرض مدين،

ماشياً برعاية الله وهدايته الطريق، للنسب الذي بين الإسرائيليين وبين أهل مدين؛ لأن مدين من ولد إبراهيم، والإسرائيليون من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وهناك تزوج بابنة شعيب عليه السلام، ثم عاد إلى مصر بعد أن أوتي النبوة في الطريق.

التفسير والبيان:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)﴾ أي لما اتجه موسى جهة مدين تاركاً مدينة فرعون؛ لأنه كما بينا وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة؛ لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وهو كان من بني إسرائيل، لكن لما لم يكن عالماً بالطريق، اعتمد على فضل الله تعالى، قائلاً: ربِّ اهدني الطريق الأقوم، فامتن الله عليه، وهداه إلى الصراط المستقيم، واختار الطريق الوسط من بين ثلاث طرق، وكان يسأل الناس عن كيفية الطريق، بحكم العادة. قال ابن إسحاق: خرج من مصر إلى مدين بغير زاد ولا ظهر (أي راحلة) وبينهما مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر. ومدين: شمال خليج العقبة في بلاد فلسطين.

وكانت أحداث مدين كما يلي:

أ- حال الرعاء على الماء: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ أي ولما وصل إلى مدين، وورد ماءها، وكان لها بئر يردُه رعاة الماشية، فوجد جماعة من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم، ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تمنعان غنمهما من ورود الماء مع الرعاة الآخرين، لئلا يؤذيا وتختلط أغنامهما مع غيرها، فلما رآهما موسى عليه السلام رقّ لهما ورحمهما، فسألهما: ما شأنكما وما خبركما لا تردان الماء مع هؤلاء؟ قالتا: لا نسقي غنمنا، أي لا نتمكن من

سقي الغنم إلا بعد فراغ هؤلاء القوم من السقي، وأبونا شيخ كبير هَرِم لا يستطيع الرعي والسقي بنفسه، مما ألجأنا إلى الحال التي ترى. وهذا شأن الضعيف مع القوي دائماً، يشرب القوي أولاً من الماء الصافي، ويشرب الضعيف بقية الماء. وفي هذا اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتهما.

٢- السقي للمرأتين والمناجاة: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي فسقى غنمهما لأجلهما من بئر مغطاة بصخرة، لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، كما روى ابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم أعاد الصخرة على البئر، ثم انزوى إلى ظل شجرة للراحة، فناجى ربه قائلاً: إني لمحتاج إلى الخير القليل أو الكثير وهو الطعام، لدفع غائلة الجوع، وإنما عدى فقيراً باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب.

وفيه دلالة على أنه سقى لهما في حر من الشمس، وعلى كمال قوة موسى عليه السلام، وعلى أنه رغم نعومة عيشه في بلاط فرعون كان مخشوشناً جَلْداً صابراً.

قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شِقّ تَمْرة.

٣- الفرج بعد الشدة: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما استغرب وسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه

السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، فجاءت إحداهما تمشي مشي الحرائر، مستحيية، متخمرة بخمارها، ساترة وجهها بثوبها، ليست جريئة على الرجال، فقالت في أدب وحياء وخَفَر: إن أبي يطلبك ليكافئك على إحسانك لنا، ويعطيك أجر سقيك لغنمنا.

واختلف العلماء في تعيين الأب من هو، والجمهور - أو المشهور عند كثير من العلماء - على أن الداعي أباهما هو شعيب عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهما ابنتاه[1]. وليس في ذلك شيء يأباه الدين كما قال الرازي.

وقد أجابها موسى عليه السلام للتبرك بالشيخ، لا طلباً للأجرة، روي أنها لما قالت ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾ كره ذلك، ولما قدم إليه الطعام امتنع، وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا، ولا نأخذ على المعروف ثمناً، حتى قال شعيب عليه السلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، وهذا فضلاً عن أن الضرورات تبيح المحظورات.

وتبع موسى المرأة إلى منزل أبيها، وطلب منها أن تسيرخلفه كيلا ينظر إليها، وأن ترشده إلى الطريق، وهي خلفه، وهذا من أدب الرجال الذين أعدهم الله للنبوة.

٤- حديث الأمان مع الشيخ الكبير: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فلما جاء موسى إلى الشيخ، وأخبره عن قصته مع فرعون وقومه في كفرهم وطغيانهم، وظلمهم بني إسرائيل، وتآمرهم على قتله وسبب خروجه من بلده مصر، قال له: لا تخف واطمئن وطب نفساً، فإنك نجوت من سطوة الظالمين، وخرجت من مملكتهم، ولا سلطان لهم في بلادنا، فاطمأن موسى وهدأت نفسه من القلق.

(١) البحر المحيط ٧/ ١١٤، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٤.

٥ً- طلب البنت استئجار القوي الأمين: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ أي قالت إحدى ابنتي الشيخ الكبير التي ذهبت تدعوه لأبيها: يا أبت استأجره لرعي هذه الغنم، فإن خير مستأجر هو؛ لأنه القوي على حفظ الماشية والقيام بشؤونها، المؤتمن الذي لا تخاف خيانته.

وصفته بأفضل صفات الأجير: القوة في القيام بالأمر، والأمانة في حفظ الشيء. ومصدر هاتين الصفتين ما شاهدت من حاله، قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلَّا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف عليَّ الطريق، فاحذفي لي بحصاة أَعْلَمُ بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

٦ً- مصاهرة موسى لشعيب: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي إن شعيب اقتنع بأن موسى رجل قوي أمين، فقال له: أُريد مصاهرتك وتزويجك إحدى هاتين البنتين، فاختر ما تشاء، وهما صفوريا وليا، والمهر: أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين، فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية.

ولا أشاقك بعد ذلك بشيء من المناقشة في الوقت أو غيره، وستجدني صالحاً على العموم، ومن ذلك حسن المعاملة، ولين الجانب، وإنما قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ للتبرك والاتكال على توفيق الله ومعونته.

فأجابه موسى بقوله:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي قال موسى لحميه: الأمر على ما قلت، لي الخيار في إحدى البنتين، وفي إحدى المدتين: ثماني أو عشر سنين، كل واحد على ما شرط على نفسه، فإن أتممت عشراً فمن عندي، وإن قضيت ثمانياً فقد برئت من العهد، وخرجت من الشرط، فلا حرج علي من اختيار إحدى المدتين، وليس لك أن تطالبني بزيادة عليهما، وإن كان المهيأ للنبوة سيختار الأكمل، وإن كان مباحاً غير لازم، وقد فعل موسى عليه السلام أكمل الأجلين.

روى ابن جرير وغيره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبريل، أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما»[1] هو المعاهدة التي حدثت بين موسى وشعيب عليهما السلام.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي أطول الأجلين الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثمان. وقوله: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي لا يعتدي أحد على آخر في طلب الزيادة.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي والله حفيظ أو شاهد على ما ألزم كل واحد نفسه به للآخر. والوكيل في الأصل: الذي وكل إليه الأمر، ولما استعمل الوكيل في معنى الشاهد عدّي بعلى. وهذا من قول موسى، وقيل: هو من قول شعيب والد المرأة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أً- انتقل موسى عليه السلام ماشياً من مصر إلى مدين شمال خليج العقبة بفلسطين مدة ثماني ليال.

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٦

٢ً- ليس سقي ابنتي شعيب عليه السلام الماشية بمحظور في الدين، ولا يأباه الدين والمروءة جرياً على عادة العرب وأحوالهم.

٣ً- لم يذق موسى عليه السلام طعاماً في طريقه إلى مدين سبعة أيام، حتى التصق بطنه بظهره، فلجأ إلى الدعاء تعريضاً، ولم يصرح بالسؤال، وإنما طلب إنزال أي خير قليل أو كثير، فدل هذا الكلام على الحاجة إلى الطعام أو إلى غيره، إلا أن المفسرين حملوا هذا الكلام على الطعام. قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، واخضر لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. وفي هذا إشعار بهوان الدنيا على الله.

٤ً- إن سقي موسى عليه السلام ماشية المرأتين اللتين عجلتا بالذهاب إلى أبيهما كان سبباً في دعوته وتناوله الطعام عند شعيب عليه السلام، وإجابة لدعائه ومناجاته ربه.

وبالرغم من حاجته إلى الطعام قال موسى: لا آكل، إنّا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً، فقال شعيب: ليس هذا عوض السقي، ولكن عادتي وعادة آبائي قِرى الضيف، وإطعام الطعام، فحينئذ أكل موسى عليه السلام.

٥ً- دل قوله: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أن سلطان الحكام كان محصوراً في إقليم معين، فكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون.

٦ً- دل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ على مشروعية الإجارة، وهي فعلاً كانت مشروعة في كل ملة، لحاجة الناس إليها، وتحقيق مصالحهم بها.

٧ً- قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ فيه دليل على جواز عرض الولي

ابنته على الرجل لخطبتها، وهذه سنة شائعة قديمة، فقد عرض صالح مدين ابنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الواهبة نفسها على النبي ﷺ، أخرج البخاري والنسائي عن ابن عمر قال: «لما تأيمت حفصة من حُذَافة بن خُنيس السهمي قال عمر لعثمان: إن شئت أُنكحك حفصة بنت عمر» وكذلك قال لأبي بكر، لكنهما امتنعا لأن النبي ﷺ ذكرها بخير، فلم يفشيا سره، وفهما أنه يريد الزواج بها.

٨ً- قوله: ﴿أُنكِحَكَ﴾ دليل على أن النكاح إلى الولي، لا للمرأة؛ لأن صالح مدين تولاه، وهو رأي جمهور العلماء، وخالف في ذلك أبو حنيفة، كما تقدم في تفسير آيات النكاح.

٩ً- والآية تدل أيضاً على أن للأب أن يزوّج ابنته البكر البالغ من غير استئمار، وهو قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها أحد إلا برضاها؛ لأنها بلغت حد التكليف، فأما إذا كانت صغيرة، فإنه يزوجها بغير رضاها؛ لأنه لا إذن لها ولا رضا؛ بغير خلاف.

١٠ً- استدل الشافعية بآية: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح فقط، وقال المالكية: ينعقد النكاح بكل لفظ. وقال أبو حنيفة: ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد، بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية، فكذلك النكاح، والذي خص به النبي ﷺ كون الزواج بلا مهر، لا الزواج بلفظ الهبة.

١١ً- قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾ عرض للزواج، لا عقد، لأنه لو كان عقداً لعين المعقود عليها له.

١٢ً- قال مكيّ: في هذه الآية خصائص في النكاح، منها أنه لم يعين الزوجة، ولا حدَّ أول الأمد، وجعل المهر إجارة، ودخل ولم ينقد شيئاً.

أما التعيين فالواقع أنه تم في اتفاق آخر، وإنما عرض الأمر مجملاً، وعيّن بعد ذلك.

وأما ذكر أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه، بل هو مسكوت عنه، فإما أنهما اتفقا عليه، وإلا فهو من أول وقت العقد.

وأما الزواج بمنفعة الإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر أقره شرعنا، بدليل ما روى الأئمة من الزواج على شيء من القرآن، وفي بعض طرقه: «فعلِّمْها عشرين آية وهي امرأتك» .

وللعلماء فيه ثلاثة أقوال: كرهه مالك، ومنعه ابن القاسم، والحنفية، وأجازه ابن حبيب والشافعية والحنابلة، بدليل هذه الآية.

وأما قول مكي: دخل ولم ينقد، ففيه خلاف، منعه ابن القاسم، فليس للزوج الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار، وأجازه متأخرو المالكية؛ لأن تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب.

١٣ً- دلت الآية على اجتماع عقدين هما الإجارة والزواج، وقد أجازه ابن العربي المالكي على الصحيح؛ لأن الآية تدل عليه، وقد قال مالك: النكاح أشبه شيء بالبيوع، فأي فرق بين إجارة وبيع، أو بين بيع ونكاح[1]. ومنعه ابن القاسم في المشهور، وقال: لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده؛ لاختلاف مقاصدهما، كسائر العقود المتباينة.

١٤ً- يدل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ على جواز ذكر الخدمة مطلقاً، دون بيان نوع العمل، مع بيان الأجل فقط، وقد أجازه مالك وقال: إنه جائز ويحمل على العرف. فلم يكن لصالح مدين إلا رعي الغنم. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يجوز حتى يسمى نوع العمل؛ لأنه مجهول.

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٤

١٥ً- أجمع العلماء على جواز استئجار الراعي شهوراً معلومة، بأجرة معلومة، لرعاية غنم معدودة. فإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت الإجارة عند المالكية عملاً بالعرف. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تجوز لجهالتها.

١٦ً- دلت آية: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ على مذهب الأوزاعي فيما إذا قال: بعتك هذا بعشرة نقداً، أو بعشرين نسيئة، أنه يصح ويختار المشتري، فبأيهما أخذ يصح، وحمل الحديث المروي في سنن أبي داود: «من باع بيعتين فله أوكسُهما أو الربا» على هذا المذهب.

١٧ً- استدل الحنابلة بهذه الآية المتقدمة على صحة استئجار الأجير بطعامه وكسوته، ويؤيدهم ما رواه ابن ماجه في السنن عن عتبة بن المنذر السُّلَمي قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقرأ طسم، حتى إذا بلغ قصة موسى قال: «إن موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه»[١].

١٨ً- قال مالك: وليس على الراعي ضمان، وهو مصدَّق فيما هلك أو سرق؛ لأنه أمين كالوكيل، ولا ضمان عليه فيما تلف عليه باجتهاده، إن كان من أهل الصلاح، وممن يعلم إشفاقه على المال، ولصاحب المال تضمينه إن كان من أهل الفسوق والفساد.

١٩ً- روى عُيَيْنة بن حِصْن أن رسول الله ﷺ قال: «أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه».

والإجارة بالعوض المجهول كشيء مما تلده الغنم لا تجوز، فإن ولادة الغنم غير معلومة؛ لأن النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة نهى عن الغَرَر، وروى البزار بسند ضعيف عن أبي هريرة أنه ﷺ نهى عن المضامين والملاقيح.

---

(١) لكن فيه راوياً ضعيف الرواية عند الأئمة هو مسلمة بن علي الخشني الدمشقي البلاطي.

والمضامين: ما في بطون الإناث، والملاقيح: ما في أصلاب الفحول. على أن راشد بن مَعْمَر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع. وقال ابن سيرين وعطاء: ينسج الثوب بنصيب منه، وبه قال أحمد.

٢٠ً- الكفاءة في النكاح معتبرة، واختلف العلماء هل في الدِّين والمال والحسب أو في بعض ذلك؟ والصحيح لدى المالكية جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣] . وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عرياناً، فأنكحه ابنته لما تحقق من دينه، ورأى من حاله، وأعرض عما سوى ذلك.

٢١ً- إذا اشترط ولي المرأة لنفسه شيئاً، فقد اختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده، ولا يدخل في يد المرأة على قولين: أحدهما - أنه جائز، والآخر - لا يجوز، فهو حلوان وزيادة على المهر، وهو حرام.

ويؤيد الرأي الأول ما جرى من شعيب حيث اشترط لنفسه إجارة الرعي ثماني سنين، وترك المهر مفوضاً، ونكاح التفويض جائز، ويجب حينئذ مهر المثل.

٢٢ً- يكتب في العقود الشروط المتفق عليها، ثم يقال: وتطوع بكذا، فينفذ الشرط على حدة، ويترك الطوع لتنفيذه مختاراً على حدة. وهذا ما فعله شعيب حيث ذكر اشتراط الإجارة ثماني سنين، وترك التطوع لموسى، وهو سنتان أخريان إن شاء.

٢٣ً- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فيه جعل الإشهاد عليهما في الزواج بالله تعالى، ولم يشهد شعيب وموسى عليهما أحداً من الخلق، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في الزواج على قولين:

أحدهما - وهو قول الجمهور: أنه لا ينعقد الزواج إلا بشاهدين.

والثاني - قال مالك: إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد معاوضة، فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرْقُ ما بين النكاح والسفاح: الدُّفُّ.

- ٥ -

عودة موسى عليه السلام إلى مصر ونبوته

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

القراءات:

﴿لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾:

وقرأ حمزة (لأهلِهُ امكثوا).

﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾، ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾، ﴿إِنِّيٓ أَنَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ، لعليَ، إنيَ).

﴿جَذۡوَةٖ﴾: قرئ:

١- (جَذْوَة) وهي قراءة عاصم.

٢- (جُذْوَة) وهي قراءة حمزة، وخلف.

٣- (جِذْوَة) وهي قراءة الباقين.

﴿ٱلرَّهْبِ﴾: قرئ:

١- (الرُّهْب) وهي قراءة ابن عامر وحمزة، والكسائي.

٢- (الرَّهْب) وهي قراءة حفص.

٣- (الرَّهَب) وهي قراءة الباقين.

﴿فَذَانِكَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (فَذَانِّك).

الإعراب:

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ﴿أَن﴾ مفسرة لا مخففة في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: بأن يا موسى.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ﴿تَهْتَزُّ﴾ جملة فعلية، في موضع الحال من الهاء والألف في ﴿رَءَاهَا﴾ أي مهتزة مشبهة جاناً. ﴿وَلَّىٰ﴾: أصله (وَلَّي) فتحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبها ألفاً، وهو جواب «لمّا» . و﴿مُدْبِرًا﴾ حال من ضمير﴿وَلَّىٰ﴾ وعامله ﴿وَلَّىٰ﴾. و﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير﴿وَلَّىٰ﴾ وهو العامل فيها أيضاً.

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ﴾ مبتدأ وخبر، وذان: تثنية ذا، قرئ بتخفيف النون وتشديدها، والتشديد عوض عن حذف ألف ذا التي كانت في الواحد.

البلاغة:

﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ تشبيه مرسل مجمل، حذف فيه وجه الشبه، فصار مجملاً.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ كناية، كنى بالجناح عن اليد؛ لأنها للإنسان كالجناح للطائر.

المفردات اللغوية:

﴿قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أتم المدة المحددة المتفق عليها بينهما، وهو رعيه عشر سنين ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦ﴾ زوجته بإذن أبيها نحو مصر، روي أنه قضى أقصى الأجلين، ثم عزم على الرجوع ﴿ءَانَسَ﴾ أبصر من بعيد ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ من الجهة التي تلي الطور؛ وهو اسم لجبل في سينا ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق، وكان قد أخطأها ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ جمرة ملتهبة أو عود غليظ في رأسه نار ﴿تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون.

﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ﴾ من جانب ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ لموسى ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ المكان الذي بارك الله فيه لموسى لسماعه كلام الله فيها ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ بدل الاشتمال؛ لأنها كانت نابتة على الشاطئ، وهي شجرة عناب أو عليق أو عوسج ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي يا موسى ﴿تَهْتَزُّ﴾ تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ الجانّ: الحية الصغيرة التي توجد في الدور ولا تؤذي، أي تشبه الحية في الهيئة والجثة، أو السرعة، أو الجني في سرعة الحركة وعظمة الخلقة ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أدبر هارباً منهزماً منها من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي نودي يا موسى ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لدي المرسلون.

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ أي أدخلها في طوق قميصك وأخرجها ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي عيب كبرص ونحوه ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ يديك المبسوطتين تتقي بهما الحية كالخائف الفزع ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ الخوف الحاصل من إضاءة اليد، بأن تدخلها في جيبك (فتحة القميص من جهة الرأس) وعبر عن اليد بالجناح؛ لأنها للإنسان كالجناح للطائر.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ أي العصا واليد ﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾ دليلان مرسلان، أو حجتان﴿فَٰسِقِينَ﴾ خارجين على حدود الله، فكانوا أحقاء بأن يرسل إليهم.

المناسبة:

بعد أن أتم موسى عليه السلام أوفى الأجلين، عزم على العودة إلى مصر، لزيارة أقاربه، وبينا هو في الطريق، وكانت الليلة باردة شاتية، أبصر من ناحية جبل الطور ناراً، فطلب من أهله المكث في مكانهم، ليحضر لهم جذوة نار، فناداه ربه، وآتاه النبوة والرسالة.

التفسير والبيان:

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ أي فلما أكمل الأجلين وأتمهما وهو رعي غنم شعيب عشر سنين، وهذا مستفاد أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ أي الأكمل منهما، وأن ذلك الإيناس حصل عقيب مجموع الأمرين، وليس فقط عقيب أحدهما، وهو قضاء الأجل.

وسار إلى ما يريد مع أهله أي زوجته، أبصر ناراً تضيء على بُعد من ناحية جبل الطور، فطلب من أهله المكوث في مكانهم حتى يذهب إلى النار، فيأتي من أهلها بخبر الطريق أو بقطعة أو شعلة من النار ليستدفئوا بها من البرد،

وذلك لأنه سار في ليلة مظلمة مطيرة باردة، وكان قد أخطأ الطريق، وكان موسى منفرداً مع أهله.

وخاطب أهله بقوله: ﴿امْكُثُوا﴾ بصيغة الجمع للتعظيم، وقوله: ﴿بِخَبَرٍ﴾ فيه دلالة على أنه ضل الطريق، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ فيه دلالة على البرد.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)﴾ أي فلما وصل إلى مكان وجود النار التي رآها من بعيد، ناداه ربه من جانب الوادي الأيمن، أي عن يمين موسى من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٤٤] مما يدل على أنه قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه.

ناداه ربه في البقعة المباركة من ناحية الشجرة: يا موسى، إني أنا الله رب العالمين، إني أنا ربك فاخلع نعليك، إنك بالوادي المقدس طوى، أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

ووصف البقعة بكونها مباركة؛ لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة، وتكليم الله تعالى إياه. ومن الأولى: ﴿مِن شَاطِئِ﴾ والثانية: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ لابتداء الغاية، أي أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة.

وقد خلق الله تعالى في موسى أثناء ذلك علماً يقينياً بأن ذلك الكلام هو كلام الله، وسمع الكلام القديم من الله تعالى، لا من الشجرة، على رأي أبي الحسن الأشعري، وسمع الصوت والحرف المخلوق في الشجرة والمسموع منها، على رأي أبي منصور الماتريدي.

ثم أيده بمعجزتين هما:

أولاً -﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ونودي بأن ألق عصاك التي في يدك، فألقاها فصارت حية تسعى، فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جان من الحيات أو ثعبان، لسرعةِ حركتها، أو شبهها بالجانّ من حيث الاهتزاز والحركة، لا من حيث المقدار، ولَّى هارباً ولم يرجع ولم يلتفت إلى ما وراءه؛ لأن طبع البشر ينفر من ذلك.

فهدَّأ الحق تعالى رَوْعه قائلاً:

﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ أي يا موسى ارجع إلى مكانك أو مقامك الأول، ولا تخف من الحية أو الثعبان، فأنت آمن من كل سوء.

ثانياً - ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي أدخل يدك في جيب أو فتحة قميصك العليا من جهة الرأس، ثم أخرجها، تخرج تتلألأ، ولها شعاع، كأنها قطعة قمر، من غير عيب ولا برص فيها.

وإزالة لخوفه من الآيتين المعجزتين السابقتين قال تعالى له:

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي وضع يدك على صدرك، يذهب عنك ما تجده من الخوف، فكان إذا خاف من شيء ضم إليه يده، فإذا فعل ذلك ذهب ما طرأ عليه من الخوف. وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي من أجل الرهب.

وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخيفه، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة سبحانه.

قال ابن عباس: كل خائف إذا وضع يده على صدره، زال خوفه. ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي فتلك الآيتان المعجزتان وهما إلقاء العصا وجعلها حية تسعى، وإدخال يدك في جيبك، فتخرج بيضاء من غير سوء، هما دائماً دليلان قاطعان واضحان على قدرة الله وصحة نبوتك، يؤيدانك في رسالتك إلى فرعون وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، إنهم قوم خارجون على طاعة الله، مخالفون لأمره ودينه، فكانوا جديرين بإرسالك إليهم مؤيداً بهاتين المعجزتين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الآتي:

١- يسير المهيَّؤون للنبوة بتوجيه وإلهام من الله تعالى، فلما انتهى موسى من الوفاء بما عاهد عليه شعيب من رعي غنمه مهراً للزواج بابنته، اتجه عائداً مع زوجته إلى مصر، في ليلة ظلماء شاتية باردة، مشياً من دون راحلة في الإياب كما كان الحال في الذهاب من مصر إلى مدين، وكان قد أتم أكمل الأجلين، عملاً بخلق النبوة، وأخذاً بالأكمل، كما ثبت في الخبر عن نبينا عليه السلام.

وفي أثناء الطريق الذي أخطأه وفي شدة البرد التي ألمت به وبأهله رأى ناراً من بعيد، فطلب من أهله المقام في المكان الذي وقفا فيه، وبادر إلى الإتيان بشعلة نار أو قطعة جمر للتدفئة، وللسؤال من أهل النار عن الطريق.

٢- دل قوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء، لما له عليها من فضل القوامة وزيادة الدرجة، إلا أن يلتزم لها أمراً، فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به شروط الزواج.

٣- كان ترائي النار استدعاء من رب الكون لمائدة تكليم رب العزة وإيتائه النبوة والرسالة، وهنيئاً لموسى عليه السلام بتلك الدعوة التي هي أكرم

وأشرف دعوة على الإطلاق، إذ صار بضيافتها كليم الله، ورسول رب العالمين إلى عظيم الطغاة فرعون وحاشيته.

٤ً- ناداه ربه بكلام لطيف في بقعة مباركة من شاطئ الوادي المقدس الأيمن: على يمين موسى، طوى من ناحية شجرة، على الجانب الغربي اتجاهاً، من جبل الطور، وكان مطلع النداء التعريف بالمنادي: إني أنا الله رب العالمين. وهذا نفي لربوبية غيره سبحانه.

فصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل، لا من رسله؛ لأنه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة، وقد أمر بها بعد هذا الكلام وهو: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ أي من المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وقوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

٥ً- أيده الله بمعجزتي العصا واليد، فخاف منهما لأول وهلة، ثم هدَّأ الله روعه، وسكَّن خوفه، وأعاده بعد الهرب إلى ساحة المناجاة مع ربه، وجعل له علاجاً للخوف بضم يده إلى صدره، وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون، وإما من الثعبان، فأوحى الله له: إذا هالك أمر يدك وشعاعها، فأدخلها في جيبك واردها إليه تعد كما كانت.

٦ً- قدمنا قول ابن عباس: ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب. وهكذا تكون مِحَنُ الأنبياء عليهم السلام دائماً فرجاً ومخرجاً للأمة. وبه تبين الهدف من قوله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ وهو خروج اليد بيضاء، ومن قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ وهو إخفاء الرهب.

وقد تساءل الزمخشري ثم الرازي بقوله: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد

الموضعين مضموماً: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ وفي الآخر مضموماً إليه: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ والجواب أن المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه اليد اليسرى، وكل من اليدين جناح[1].

- ٦ -

نبوة هارون وتكذيب فرعون

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾

القراءات:

﴿مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾: قرئ:

١- (معيَ رِدْءاً يُصدِّقُني) وهي قراءة حفص.

٢- (معيْ رِداً يصدِّقْني) وهي قراءة نافع.

٣- (معيْ رِدَءاً يصدِّقُني) وهي قراءة حمزة.

٤- (معيْ رِدْءاً يصدِّقْني) وهي قراءة الباقين.

(١) الكشاف: ٤٧٣/٢، تفسير الرازي: ٢٤٧/٢٤ وما بعدها.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أخاف).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾:

وقرأ ابن كثير (قال موسى).

﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ربيَ أعلم).

﴿وَمَن تَكُونُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ومن يكون).

الإعراب:

﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بالرفع وصف لـ﴿رِدۡءًا﴾. وقرئ بالجزم على أنه جواب الأمر بتقدير حرف الشرط، أو على أن جزم القاف لكثرة الحركات، كقولهم في: عضد: عضْد، والوجه الأول أوجه.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا، أو متعلق بـ﴿وَنَجۡعَلُ﴾ أي نسلطكما بها.

﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ حال ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الهاء: ضمير الأمر والشأن.

البلاغة:

﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ ﴿يُكَذِّبُونِ﴾ بينهما طباق.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ مجاز مرسل عن التقوية، من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب؛ لأن شد العضد يستلزم شد اليد، وشد اليد مستلزم للقوة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ هو القبطي (المصري، الفرعوني) ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي به ﴿أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أبين ﴿رِدْءًا﴾ معيناً ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بتوضيح ما قلته، وتقرير الحجة وإقامة الأدلة. ومجادلة المشركين وتزييف الشبهة.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك به ونعينك به، والعضد: ما بين المرفق إلى الكتف ﴿سُلْطَانًا﴾ غلبة وتفوقاً أو حجة قوية ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بسوء﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿مُّفْتَرًى﴾ مختلق ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي كائناً في أيامهم ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ أي عالم يعلم أني محق وأنتم مبطلون والضمير في ﴿عِندِهِۦ﴾ عائد للرب ﴿وَمَن﴾ معطوف على ﴿مِنْ﴾ المتقدمة ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ العاقبة المحمودة في الآخرة، والمراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها الأصلية هي الجنة؛ لأن الدنيا خلقت جسراً للآخرة، والمقصود منها بالذات: هو الثواب والعقاب ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن العاقبة في الآخرة، والظالمون: الكافرون.

المناسبة:

بعد أن قال الله سبحانه: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ علم موسى عليه السلام أنه يذهب بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه، فطلب من الله تعالى ما يقوي قلبه، ويزيل خوفه من فرعون، فيرسل معه أخاه هارون وزيراً، فأجابه الله إلى طلبه.

وكان الرسولان موسى وهارون محاجين فرعون في الربوبية بحجة ساطعة، فلم يكن منه إلا المكابرة والعناد، والافتراء والاتهام الزائف بأن المعجزتين سحر مختلق.

التفسير والبيان:

لما أمر الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون، الذي خرج من ديار مصر فراراً منه، وخوفاً من سطوته:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ أي قال موسى: يا ربّ كيف أذهب إلى فرعون وقومه، وقد قتلت منهم فرعونياً، فأخاف إذا رأوني أن يقتلوني ثأراً منهم.

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ أي إن أخي هاورن أفصح لساناً مني، وأحسن بياناً بسبب ما في لساني من لَثْغة أو عُقْدة من حين الصغر حين تناولت الجمرة، لما خيرت بينها وبين التمرة، فوضعتها على لساني، فحصل فيه شدة في التعبير، فاجعل معي هارون أخي رسولاً وزيراً ومعيناً يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل، ويوضح البراهين والأدلة، ويفنّد الشبهات المثارة من قبل هؤلاء الجاحدين، وإني أخاف أن يكذبوني في رسالتي. ونظير الآية: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٢٧-٣٢].

فأجابه الله تعالى إلى طلبه:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي قال الرب لموسى: سنقويك ونعزّز جانبك بأخيك الذي سألت أن يكون نبياً معك، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٣٦] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٥٣] ونجعل لكما حجة قاهرة، وغلبة ظاهرة على عدوكما، فلا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما، بسبب إبلاغكما آيات الله تعالى.

قال بعض السلف عن طلب موسى بعثة أخيه هارون: ليس أحد أعظم مِنَّةً على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام، فإنه شفع فيه، حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٩] وقال السدي: إن نبيين وآيتين أقوى من نبي واحد وآية واحدة.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي اذهبا بآياتنا، أو نجعل لكما سلطاناً، أي نسلطكما بآياتنا، أو لا يصلون إليكما أي تمتنعون منهم بآياتنا، أنت يا موسى وأخوك ومن آمن بكما وتبعكما في رسالتكما الغالبون بالحجة والبرهان؛ لأن حزب الله دائماً هم الغالبون.

وتعليق الآيات بالسلطان يجعل انقلاب العصا حية معجزة، ومانعاً أيضاً من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهارون عليهما السلام، ولذا يجوز الوقوف على ﴿إِلَيْكُمَاۚ﴾ ويكون في الكلام تقديم وتأخير، كما يجوز الوصل.

ثم أبان تعالى موقف فرعون من محاجة موسى وهارون فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي حين عرض موسى وهارون على فرعون وملئه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة الواضحة والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره، قالوا: ما هذا إلا سحر مفتعل مصنوع، مكذوب موضوع، وما سمعنا بما تدعونا إليه من عبادة الله وحده لا شريك له في أيام الأسلاف، وما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى.

وهذا مجرد تمسك بالتقليد الذي لا دليل على صحة العمل به، فأجابهم موسى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي أجاب موسى فرعون وملأه بقوله: ربي الله الذي لا إله غيره الذي خلق كل شيء ويعلم غيب السماوات والأرض أعلم مني ومنكم بالمحق من المبطل، وبمن جاء بالحق الداعي إلى الرشاد، وأهّله للفلاح الأعظم، ومن الذي له العاقبة المحمودة في الدنيا بالنصر والظفر والتأييد، وفي الآخرة بالثواب والرحمة والرضوان كقوله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ، جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٢-٢٣] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٢] ، وسيفصل بيني وبينكم، إنه لا يفلح المشركون بالله عز وجل، ولا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع، بل يكونون على ضد ذلك.

وفي الآية أسلوب أدبي رفيع من الخطاب والجدل والمناظرة، فهو لم يعلن أنه المحق وغيره المبطل الضال، وإنما ردد ذلك ليجعل للعقل في النقاش دوراً في الحكم النهائي وتغليب الأصح الأصوب، وهذا كقوله ﷺ للمشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٤] .

كما أن نهاية الآية زجر لهم عن العناد الذي ظهر منهم، وإيماء بأنهم خاسرون في هذا الجدال، وسيكون لهم الخيبة والفشل في المستقبل.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً- ضرورة التسلح بمختلف القوى المادية والمعنوية عند لقاء العدو، فقد طلب موسى من ربه تأييده بأخيه هارون، ليكون له عوناً ووزيراً، ومدافعاً ومبيناً حجج الله وبيِّناته في دعوة فرعون وقومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فإنه إذا لم يكن له وزير ولامعين لا يكادون يفقهون عنه، وربما تعرَّض لأذى، فيدفعه عنه.

٢ً- إن السؤال المنطقي والدعاء المناسب للحال مستجاب متحقق، لذا أجاب الله طلب موسى عليه السلام، وقال له: سنقويك بأخيك، ونجعل لكما حجة وبرهاناً، فلا يصلون إليكما بالأذى، وتمتنعان منهم بآياتنا، فأنتما وأتباعكما الغالبون عليهم بآياتنا، أي سائر المعجزات.

٣ً- لقد أعمى فرعون وقومه إدراك الحق، فتمسكوا بالمكابرة والعناد،

واعتصموا بتقليد الآباء والأسلاف الذي لا حجة ولا دليل عليه، وهذا مذموم عقلاً وعادة، لذا قالوا: ما هذه المعجزات إلا سحر مكذوب مفترى، ولم نسمع بدعوة التوحيد والتخلي عن الإشراك في التاريخ الغابر، ولا قيمة لتلك الحجج العقلية التي أوردها موسى لإثبات توحيد الله تعالى!!..

٤- لابد من استعمال الحكمة في الإجابة والجدال والمناظرة للسلاطين والحكام الجبابرة، كفرعون الطاغية، توقياً من الأذى، وتأملاً في اللين، والإذعان للحق، لذا كان جواب موسى حكيماً حين أعلن أن الله أعلم بمن جاء بالرشاد من عنده سبحانه، ومن المستحق لدار الجزاء، وإنه لا يظفر الظالمون أنفسهم بالشرك والكفر والمعصية بشيء عند الله وفي الآخرة.

- ٧ -

محاجة فرعون في ربوبية الله تعالى وعاقبة عناده مع قومه

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

القراءات:

﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ﴾:

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وخلف (لعليَ أطلع).

﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾:

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وخلف (لا يَرْجِعون).

الإعراب:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب من أربعة أوجه: إما لأنه مفعول به توسعاً، كأنه قال: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وإما معطوف بالنصب على موضع الجار والمجرور وهو: ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ وإما منصوب بما دل عليه قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ لأن الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول، وإما منصوب على الظرف بالمقبوحين، أي وهم من المقبوحين يوم القيامة.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ كلها منصوبات على الحال من ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾

البلاغة:

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ قال الزمخشري (٢/ ٤٧٧): ولم يقل: اطبخ لي الآجرّ؛ لأنه أول من عمل الآجرّ، فهو يعلمه الصنعة، ولأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة. وأمر هامان - وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين - منادى باسمه بيا في وسط الكلام: دليل التعظيم والتجبر.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ تشبيه بليغ، حذفت فيه أداة الشبه ووجه الشبه، أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس.

المفردات اللغوية:

﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ﴾ وزير فرعون﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فاصنع لي الآجرّ أي الطوب، قال عمر رضي الله عنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور

المشيدة بالآجرّ: ما علمت أن أحداً بنى بالآجر غير فرعون ﴿صَرْحًا﴾ قصراً عالياً ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أصعد وأرتقي، ثم أنظر إليه وأوقف عليه، كأنه توهم أنه لو كان، لكان جسماً في السماء يمكن الترقي إليه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ادعائه إلهاً آخر وأنه رسول.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغير استحقاق ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالنشور ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ طرحناهم ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾ في البحر المالح، فغرقوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حين صاروا إلى الهلاك. وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ قال البيضاوي: فيه تفخيم لشأن الآخذ، واستحقار للمأخوذين، كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف، وطرحهم في اليم.

﴿أَئِمَّةً﴾ قادة، قدوة للضلال ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يدعون إلى موجبات النار من الكفر والمعاصي ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿لَعْنَةً﴾ طرداً عن الرحمة، وخزياً ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ المطرودين المبعدين المخزيين.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هنا التوراة ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنواراً للقلوب في عصرهم، تبصر بها الحقائق، وتميز بين الحق والباطل ﴿وَهُدًى﴾ إلى الشرائع التي هي سبيل الله تعالى ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به؛ لأنهم لو عملوا بالتوراة لنالوا رحمة الله ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون بما في ذلك الكتاب من المواعظ.

المناسبة:

قوبل موسى وهارون في دعوتهما القوية إلى توحيد الله تعالى بكفرين عظيمين:

الأول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ أي نفي إله غيره، وادعاء ألوهية نفسه.

والثاني: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي محاولة الصعود والارتقاء إلى السماء لرؤية إله موسى. وكل من الأمرين جهل وعتو وطغيان واستكبار، فكانت عاقبته الغرق في الدنيا، والطرد من رحمة الله في الآخرة.

وفي مقابل هذا الكفر آتى الله موسى التوراة نوراً وهدى ورحمة.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ أي وقال فرعون الطاغية الجبار ملك مصر: يا أيها القوم، لم أعلم بوجود إله غيري، أي إن إله موسى غير موجود، وإنما أنا الإله، كما قال تعالى في آية أخرى حاكياً عنه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٢-٢٦] . دعا قومه إلى الاعتراف بألوهيته، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٤] .

وليس قصده من ادعاء الألوهية كما أبان الرازي[1] كونه خالقاً السماوات والأرض، وإنما وجوب تعظيمه وعبادته، أي عبادة الملك صاحب السلطة والنفوذ المطلق والانقياد التام لأوامره. وهذا من إغراءات الحكم والسلطان، وغرور الملك والعظمة.

(١) تفسيره المعروف بالتفسير الكبير: ٢٤/ ٢٥٣.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي فاصنع لي يا هامان الوزير آجرّاً، تبني لي به قصراً عالياً جداً، شامخاً في الفضاء حتى أصعد به وأرتقي إلى السماء، فأشاهد إله موسى الذي يعبده، توهماً منه أنه جسم كالأجسام المادية الأخرى. وإني لأعتقد أنه كاذب في قوله: إن هناك رباً آخر غيري، كما في آية أخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٣٦-٣٧].

وقد أراد فرعون بادعاء الألوهية وبناء أعلى صرح في زمانه التلبيس والترويج على الناس، والإظهار لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون. ثم ذكر الله تعالى سبب غروره وعناده فقال:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي لقد طغى فرعون وقومه وأتباعه وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد، ولا حساب ولا عقاب، وكل من توهم ذلك هان عليه الطغيان والاستكبار والاستعلاء في الأرض، ولم يعلموا أن الله رقيب عليهم ومجازيهم بما يستحقون، لذا أبان تعالى عقابهم العاجل في الدنيا بعد تهديدهم بعقاب الآخرة فقال:

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد، فانظر أيها المتأمل في قدرة الله وعظمته وآياته كيف كان مصير هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم، وكفروا بربهم، وادعى كبيرهم الألوهية من دون الله.

ثم ذكر الله تعالى ما يوجب مضاعفة عذابهم فقال:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي وجعلنا فرعون وأشراف قومه قادة ضلال في تكذيب الرسل وإنكار وجود الإله الصانع، فلم يكتفوا بضلال أنفسهم، بل قاموا بإضلال غيرهم، فاستحقوا جزاءين: جزاء الضلال والإضلال، ولا أمل لهم في النجاة ونصرة الشفعاء، فهم يوم القيامة لا نصير ولا شفيع لهم ينصرهم من بأس الله ويدفع عنهم عذاب الله، فاجتمع عليهم خزي الدنيا وذل الآخرة، كما قال:

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي وألزمناهم بصفة دائمة في الدنيا لعنة وخزياً وغضباً على ألسنة المؤمنين والأنبياء المرسلين، كما أنهم يوم القيامة من المطرودين المبعدين عن رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ١١/ ٩٩].

وأما موسى وجند الإيمان بعد إغراق فرعون وقومه، فلهم نور التوراة:

﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لقد أنعم الله على عبده ورسوله موسى الكليم عليه السلام بإنزال التوراة بعدما أهلك فرعون وقومه ومن تقدمهم من قوم نوح وهود وصالح ولوط، ليكون ذلك الكتاب مصدر إشعاع للحياة وأنواراً للقلوب، يميز به بين الحق والباطل، وهداية من الضلال والعمى، ورحمة لمن آمن به، وإرشاداً إلى العمل الصالح، لعل الناس يتذكرون به ويتعظون ويهتدون بسببه.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مُسخوا قردة بعد موسى، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الآية».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١- نفي فرعون ألوهية الله عز وجل وادعاؤه الألوهية، قال ابن عباس: كان بين قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وبين قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أربعون سنة، وكذب عدو الله، بل علم أن له ثَمَّ ربّاً هو خالقه وخالق قومه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥] و[الزمر: ٣٩/٣٨].

٢- بناء أعلى صرح شامخ للصعود إلى الله ورؤيته، فخاب وضل وخسر.

٣- تعاظم فرعون وجنوده عن الإيمان بموسى ظلماً وعدواناً دون أن تكون لهم حجة تدفع ما جاء به موسى، وتوهموا أنه لا معاد ولا بعث. ويقابل الاستكبار بالباطل الاستكبار بالحق الذي هو لله تعالى، فهو المتكبر في الحقيقة، المبالغ في كبرياء الشأن، قال النبي ﷺ فيما حكى عن ربه فيما رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة وابن عباس: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار، ولا أبالي» .

٤- بالرغم من أن فرعون وقومه كانوا عارفين بوجود إله هو الله تعالى، كما تبين إلا أنهم كانوا ينكرون البعث: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فلأجل ذلك تمردوا وطغوا.

٥- كان عقابهم في الدنيا الإغراق في البحر المالح وهو البحر الأحمر، في صبيحة يوم واحد، بل في دقائق معدودة، وإلزامهم اللعن أي البعد عن الخير، وفي الآخرة هم من المطرودين، المبعدين عن رحمة الله، الممقوتين.

٦- لهم عقاب مضاعف؛ إذ كانوا في ضلال وأئمة ضلال ودعاة إلى عمل

أهل النار، وزعماء كفر، يدعون الناس إلى الكفر ويتبعونهم فيه، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أشد وأكثر، جاء في الحديث النبوي الذي رواه مالك وأحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي عن أبي هريرة وجرير بن عبد الله البَجَلي: «من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» .

٧ً- البقاء للأصلح، فقد نجى الله موسى وقومه، وأنزل عليه التوراة مناراً للحق وتبصراً به، وهدى من الضلالة إلى الرشاد، ورحمة للمؤمنين بها، لعل الناس يتعظون ويرجعون إلى ربهم من قريب، ويذكرون هذه النعمة، فيؤمنوا في الدنيا، ويثقوا بثواب الله في الآخرة. قال يحيى بن سلّام: هو أول كتاب - يعني التوراة - نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام.

وكان إنزال التوراة بعد إهلاك القرون الأولى (الأمم الماضية المكذبة) مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وقيل: من بعد إغراق فرعون وقومه وخسف الأرض بقارون، ولعل ذلك إشعار بشدة الحاجة إليها، فإن إهلاك القرون الأولى دليل على اندراس معالم شرائعها، وحاجة الناس إلى تشريع جديد ينظم لهم شؤون حياتهم.

الحاجة إلى إرسال الرسل وبعثة محمد ﷺ

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

القراءات:

﴿أَنشَأْنَا﴾:

وقرأ السوسي، ووقفاً حمزة (أنشانا).

الإعراب:

﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ خبر ثان لـ﴿كُنتَ﴾.

﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ﴿رَّحْمَةً﴾: إما منصوب على المصدر، وإما مفعول لأجله، أي ولكن فعل ذلك لأجل الرحمة، وإما خبر كان مقدرة، أي ولكن كان رحمة من ربك.

البلاغة:

﴿أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ مجاز عقلي، أريد به: أمماً في تلك الأزمنة، والعلاقة زمانية.

﴿تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ جناس اشتقاق. وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ حذف منه الجواب لدلالة السياق عليه، أي ولولا خشية وقوع المصيبة بهم ما أرسلناك يا محمد رسولاً إليهم، فهو إيجاز بالحذف.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مجاز مرسل، من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل، أريد به بما كسبوا؛ لأن أكثر الأعمال تزاول بالأيدي.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا كُنتَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أي ما كنت حاضراً ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي بجانب الجبل أو الوادي أو المكان الغربي من موسى حين المناجاة، فإنه كان في شق الغرب من مقام موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي أمر الرسالة إلى فرعون وقومه، والمعنى: كلفناه وعهدنا إليه بالرسالة أمراً ونهياً ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الحاضرين لما حدث، فتعلمه وتخبر به.

﴿أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أوجدنا أمماً مختلفة من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي بَعُد الأمد وطال عمرهم، فنسوا العهود، وحرّفت الأخبار، وتغيرت الشرائع، واندرست العلوم، وانقطع الوحي. وحذف المستدرك بعد ﴿وَلَٰكِن﴾ وأقام سببه مقامه وتقديره: فجئنا بك رسولاً، وأوحينا إليك خبر موسى وغيره ﴿ثَاوِيًا﴾ مقيماً، يقال: ثوى بالمكان يثوي به: أقام ﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تقرأ عليهم آياتنا التي فيها قصتهم، فتخبر بها بعد معرفتها ﴿كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك ومخبرين لك بها، أي أرسلناك بالرسالة المتضمنة أخبار المتقدمين.

﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ جبل الطور ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ حين نادينا موسى أن خذ الكتاب بقوة ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي ولكن علمناك وأرسلناك رحمة من ربك ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ هم أهل مكة وغيرهم ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون

﴿وَلَوْلَآ﴾ الأولى امتناعية ﴿مُّصِيبَةٌ﴾ عقوبة أو عذاب في الدنيا والآخرة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما كسبوا من الكفر والمعاصي ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ﴾ أي هلا، وهي تحضيضية، تفيد الحث على حدوث ما بعدها ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾ المرسل بها، وجواب لولا محذوف، أي لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم، لما أرسلناك رسولاً. والمراد أن إرسال النبي محمد ﷺ وكل رسول قبله كان لقطع أعذار الناس، وإبطال احتجاجهم بعدم الإعلام والتبليغ.

المناسبة:

بعد أن قص الله تعالى قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه وما تضمنه من غرائب الأحداث والعبر، وأوحى الله تعالى بجميع تلك الأخبار إلى نبيه محمد ﷺ، ذكّره بإنعامه عليه بذلك وبما خصه من المغيبات التي لا يعلمها، لا هو ولا قومه، وأبان الحاجة إلى رسالته، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وكل ذلك برهان على أن القرآن وحي من عند الله، وعلى نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بالغيوب الماضية وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب.

التفسير والبيان:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي وما كنت يا محمد حاضراً بجانب المكان أو الجبل الغربي - غرب موقف موسى حين كلم الله موسى، وأوحى إليه أمر الرسالة، وأعطاه ألواح التوراة، وألزمه العهد، وما كنت من الحاضرين لذلك، فتعلمه وتخبر به.

ولكنا أعلمناك بخبره ليكون برهاناً على نبوتك، إذ تخبر بأخبار الماضين كأنها واقعة أمامك، وأنت أمي لا تقرأ ولا تكتب، مما يدل على كون ذلك الإخبار بوحي من عند الله تعالى، ثم بين سبب ذلك الإخبار:

﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي والسبب الداعي إلى الإخبار عن الماضين وإنزال الوحي مجدداً في القرآن الكريم وجود أمم كثيرة من

بعد موسى، بَعُد بها الأمد، وطال عليها العهد، فاندرست العلوم، وتغيرت الشرائع، ونسي الناس حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين، فجئنا بك يا محمد رسولاً تجدد العهد الإلهي، وتبين للناس رسالة الله إليهم، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: ٥/١٩].

والآية تنبيه على المعجزة، إذ الإخبار عن قصة مضى عليها مئات السنوات، دون مشاهدة ولا حضور لأحداثها، دليل واضح على نبوة المخبر، وهو رسول الله ﷺ. وتلا ذلك مؤيدات أخرى مشابهة:

١- ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ أي وما كنت مقيماً بين قوم شعيب في مدين، تقرأ عليهم آياتنا المنزلة، حين أخبرتَ عن النبي شعيب عليه السلام وما قال لقومه وما ردوا عليه، ولكن - ذات الجلالة - نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك للناس رسولاً، وأيدناك بهذه الآيات المعجزات، لتكون برهاناً على صحة نبوتك وصدق رسالتك، ولولا خبر الوحي ما علمت بذلك ولا أخبرت أحداً بشيء.

٢- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ أي وما كنت يا محمد أيضاً بجانب جبل الطور حين مناداة موسى وتكليمه ومناجاته، حتى تعرف تفاصيل الخبر وتحدث به الناس. وهذا شبيه بقوله المتقدم: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ ولكنه ورد بصيغة أخرى أخص مما سبق وهو النداء، أي مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه[١].

(١) الظاهر أن الله تعالى كلم موسى مرتين: مرة حين البعثة، ومرة حين اختار سبعين رجلاً من شيوخ بني إسرائيل للميقات ليظهروا توبتهم من عبادة العجل، ولما كلمه الله وهم يسمعون كلام الله تمردوا وعصوا وقالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾.

ولكن علمناك وأخبرناك وأنزلنا عليك القرآن المتضمن تلك الأخبار وغيرها، وأرسلناك رحمة مهداة منه بك وبالعباد المرسل إليهم، لتنذر قوماً هم العرب لم ينذروا قبل، بأس الله وعذابه إن لم يؤمنوا به، وظلوا على وثنيتهم وضلالهم، لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل، فيصيروا من أهل السعادة.

والثابت تاريخياً أنه لم يأت إلى العرب رسول بعد إسماعيل عليه السلام، وأما رسالة موسى وعيسى فكانت خاصة ببني إسرائيل فقط.

ثم صرح الله تعالى بسبب إرسال النبي محمد ﷺ فقال:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي ولولا قول الناس ومنهم العرب إذا أصابتهم مصيبة العذاب على كفرهم: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يبين لنا صحة الاعتقاد أو التوحيد، ونظامك الشرعي للحياة، فنؤمن بك رباً واحداً، ونعمل بشريعتك، ما أرسلناك للناس رسولاً، ولكنا بعثناك رسولاً نذيراً تقيم عليهم الحجة، وتبلغهم رسالة ربهم في العقيدة والأخلاق ودستور الحياة، وتقطع عذرهم وتبطل حجتهم بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥] وقال سبحانه: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٦-١٥٧]. وهذا كله من رحمة الله بعباده ألا يعذب إنساناً إلا بعد بيان، ولا يعاقب إلا بعد تكليف وإرسال رسول.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات موضوعين:

الأول - إقامة بعض الأدلة على كون القرآن موحى به من عند الله وعلى صحة نبوة النبي محمد ﷺ: وهي الإخبار عن أحوال الأنبياء المتقدمين وقصصهم مع أقوامهم. وخص بالذكر قصتين: هما أولاً - مناجاة الله موسى وتكليمه في جبل الطور في المكان الغربي من موقف موسى في الوادي المقدس طوى، حيث بعثه رسولاً، وأنزل عليه ألواح التوراة، وثانياً - قصة شعيب مع قومه أهل مدين.

ولولا الإخبار القرآني بذلك، ما علم بالخبر محمد ﷺ وقومه العرب ومنهم أهل مكة، وإنما فعل تعالى ذلك رحمة منه برسوله ﷺ وبعباده، لينذرهم بها، وينذر العرب الذين لم يشاهدوا تلك الأخبار.

الثاني - بيان الحكمة من إرسال النبي محمد ﷺ بل وكل الرسل: وهي تبليغ شريعة الله ووحيه، وتصحيح العقيدة، وإعلان كلمة التوحيد، حتى لا يبقى لهم عذر بالجهل بالأحكام أو الاعتقاد بعد بلوغ خبر الرسل لهم، وإكمال البيان، وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبداً إلا بعد إكمال البيان وإقامة الحجة وبعثة الرسل.

وهذا يدل على مبلغ الحاجة الداعية إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

تكذيب أهل مكة بالقرآن وبرسالة النبي ﷺ

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

القراءات:

﴿سِحْرَانِ﴾: قرئ:

١- (سحران) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي.

٢- (ساحران) وهي قراءة الباقين.

البلاغة:

﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ ﴿لَوْلَا﴾ هنا: أي هلا للتحضيض، لا لامتناع الوجود.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ﴾ يراد بالأمر هنا التعجيز.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي الأمر الحق وهو القرآن المنزل على محمد الرسول المؤيد بالمعجزات .﴿لَوْلَا أُوتِيَ﴾ هلا .﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من الآيات كاليد البيضاء والعصا وغيرهما والكتاب جملة واحدة .﴿أَوَلَمْ

يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي أولم يكفر أمثالهم من بني جنسهم في الرأي والمذهب، وهم كفرة زمان موسى، وكان فرعون عربياً من أبناء عاد. ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ أي القرآن والتوراة، وقرئ: ساحران، أي موسى وهارون أو موسى ومحمد. ﴿تَظَاهَرَا﴾ تعاونا وتناصرا. ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي من النبيين والكتابين. ﴿كَافِرُونَ﴾ جاحدون.

﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ من الكتابين، وهو يؤيد أن المراد بالساحرين: موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿صَادِقِينَ﴾ في قولكم: إنا ساحران مختلفان، ويراد بذلك الإلزام والتبكيت . ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي لدعائك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، فحذف المفعول للعلم به، ولأن فعل الاستجابة يعدّى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي، فإذا عدّي إليه حذف الدعاء غالباً، والمراد: فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به .﴿يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في كفرهم، إذ لو اتبعوا حجة لأتوا بها .﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهام بمعنى النفي .﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ في موضع الحال للتأكيد، أو التقييد، فإن هوى النفس قد يوافق الحق .﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى .﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال ليتصل التذكير، فنزل القرآن منجماً مفرقاً يتصل بعضه ببعض، ويتبع نزول الكتب المتقدمة .﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون فيؤمنوا ويطيعوا.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى عن كفار مكة وغيرهم أنهم عند الخوف من المصيبة قالوا: هلا أرسلت إلينا رسولاً، فنتّبع آياتك، بيّن أنه بعد إرسال الرسول محمد ﷺ إلى أهل مكة قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى من قبل، فكفروا وكذبوا بالقرآن وبرسالة محمد، وتعلقوا بشبهة قبل البعثة وبعد البعثة، مما

يدل على أنه لا قصد لهم سوى الزيغ والعناد، لذا طلبوا معجزات مادية كمعجزات موسى كاليد والعصا، وقد كفر أمثالهم المعاندون قبلهم بما جاء به موسى من المعجزات، ووصفوه بالسحر، فإن استطاعوا الإتيان بكتاب آخر غير كتابي موسى ومحمد، فليأتوا به، وما أنزل القرآن منجماً إلا لتجديد الذكرى والعبرة.

التفسير والبيان:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أي حينما جاء الحق من عند الله وهو القرآن المنزل على رسول الله، قال أهل مكة الذين لم يأتهم رسول من قبل، على وجه التعنت والعناد والتمادي في الكفر والجهل والضلال: هلا أوتي محمد مثلما أوتي موسى قبله من المعجزات والآيات الكثيرة مثل العصا واليد وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى وانفجار الماء من الحجر، ونحو ذلك من الآيات الباهرة التي أجراها الله على يدي موسى حجةً وبرهاناً له على فرعون وقومه وبني إسرائيل.

ولكن هذا مجرد عناد ومكابرة وتهرب من الإيمان:

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي أولم يكفر أمثالهم من البشر المعاندين بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة، وهم الذين كفروا في زمان موسى بما جاء به، فهذا شأن المكابرين المعاندين دائماً.

﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي قال هؤلاء القوم المشركون في مكة: القرآن والتوراة سحران، ومحمد وموسى ساحران، تعاونا على التدجيل والتضليل، وصدَّق كلٌ منهما الآخر، وإنا بكلٍّ منهما كافرون، لا نصدق بما جاءا به.

فتحداهم الله بأن يأتوا بكتاب آخر أهدى للبشر:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي قل يا محمد لقومك: ائتوا بكتاب آخر من عند الله أصلح لهداية البشر من التوراة والقرآن، وأكثر نفعاً وهداية، لكي أتبعه مع غيري، إن كنتم صادقين فيما تقولون أو تدّعون، وتدافعون به الحق، وتعارضون به من الباطل. وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق، ولم يفعلوا ما كلفتهم به من الإيمان بالقرآن وبرسالتك، فاعلم أنهم في عقائدهم الباطلة يتبعون أهواءهم بلا دليل ولا حجة، فهم جماعة أهواء.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى﴾ أي وليس هناك أشد ضلالاً عن طريق الهدى والرشاد ممن سار مع هواه، وانقاد لشهواته بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، ولم يقم له دليل صائب عن الله، وهذا دليل على بطلان أو فساد التقليد في العقائد، وأنه لابدّ من الحجة والاستدلال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إن الله لا يوفق للحق والرشاد الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والعصيان، وتكذيب الرسل، واتّباع الأهواء. وهذا عام يتناول كل كافر.

وأما حكمة إنزال القرآن منجماً فهي:

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي ولقد أتبعنا بعض القرآن بعضاً في النزول لقريش، حسبما تقتضي الحكمة، وتدل عليه المصلحة، ويلائم كل عصر وأوان، لعلهم وأمثالهم من البشر يتعظون ويتنبهون إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، فيؤمنوا بالقرآن وبمن أنزله وبمن أُنزل عليه، وهو مصدِّقٌ لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ً- إن خطة الكفار واحدة في كل زمان، دأبهم المكابرة والعناد والإنكار، وطلب المعجزات المادية والمحسوسة، فإنه بالرغم من حدوثها لن يؤمنوا؛ لأن المكذب بمعجزة واحدة مكذب بكل المعجزات.

وإذا نزل على محمد ﷺ مثل معجزات موسى عليه السلام كانقلاب العصا حية، واليد البيضاء، وفلق البحر، وتظليل الغمام، وانفجار الحجر بالماء، وإنزال المنّ والسلوى، وكتابة الألواح في التوراة، وتكليم الله له، وإنزال القرآن جملة واحدة كالتوراة، إذا نزل مثل ذلك فهم معتصمون بالكفر مقيمون عليه.

٢ً- إن حجة الكفار في تكذيب كتب الله ورسله واحدة أيضاً، وهي الاتهام بأن تلك الكتب سحر مختلق، وأولئك الرسل سحرة مبطلون، بل إنهم متواطئون على السحر والتدجيل، كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

٣ً- إن اليهود علّموا المشركين أن يقولوا لمحمد ﷺ: لولا أُوتيت مثل ما أُوتي موسى. فإنه أُوتي التوراة دفعة واحدة: وهؤلاء اليهود الذين توارثوا الكفر هم الذين كفروا بما جاء به موسى من قبل، فقالوا في موسى وهارون: هما ساحران، فقلدهم كفار قريش وقالوا عن موسى ومحمد مثل ذلك القول، واتفق الفريقان على الكفر بكلٍّ من التوراة والإنجيل والقرآن، وعلى الكفر بموسى وعيسى ومحمد على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

٤ً- يقابل التحدي والعناد بتحدٍّ أشد منه، فإذا كفرتم معاشر اليهود والمشركين بكتب الله المنزلة على رسله، فأحضروا كتاباً أهدى منها يتبعه

الناس، ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر، ومسوغاً لما أنتم عليه، إن كنتم صادقين في أن تلك الكتب سحر مفترى، وقد مهر اليهود والعرب بالسحر.

٥ً- إذا لم يؤمن الناس بهذا القرآن ولم يأتوا بكتاب من عند الله، فهم أهل ضلال وأهواء، يتبعون ما تملي عليهم شهواتهم وآراؤهم الخاصة وشياطينهم، دون حجة لهم ولا دليل.

٦ً- لا أحد أضل ممن سار مع هواه، فهو ظالم، والله لا يوفق الظالمين للخير، وهداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين.

٧ً- لقد تتابع إنزال الكتب من عند الله، وإرسال الرسل، وأخبار الأنبياء بعضها ببعض، كتاباً بعد كتاب، ورسولاً بعد رسول، وخبراً بعد خبر، وتتابع أيضاً نزول القرآن منجماً مقسطاً بحسب الوقائع والمناسبات، وعلى وفق الحكمة والمصلحة، ليستمر صوت التذكير والتنبيه، وتتجدد الدعوة إلى الإيمان حالاً بعد حال، وزماناً إثر زمان.

ثم خلد الله صوت الحق الإلهي بهذا القرآن، وجعله ذكرى متجددة دائمة للأجيال، بما تكفل له من الصون والحفظ عن التغيير والتبديل، والتحريف والتصحيف، وبما اشتمل عليه من التنوع في الأسلوب والخطاب وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ونصائح ومواعظ، إرادة أن يتذكر الناس به فيؤمنوا به ويعملوا بموجبه، فيفلحوا، ويقلعوا عن اتباع الأديان الباطلة المنسوخة، وعن الأهواء والشهوات البائدة الفارغة، والوثنية البدائية المنافية لكرامة الإنسان، والمصادمة للعقل البشري السوي.

٨ً- لا يقبل التقليد في العقائد، وإنما لابدّ من غرس العقيدة بالحجة والبرهان.

٩ً- نبه القرآن بتحدي العرب وغيرهم الإتيان بمثله على عجز محاكاته على

الدوام، وأنه كتاب موحى به من عند الله تعالى، فهو حجة الله على خلقه إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤١-٤٢].

١٠- تنطق الآيات جملةً وتفصيلاً بالدلالة على نبوة النبي محمد ﷺ.

إيمان طوائف من أهل الكتاب بالقرآن

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي قبل القرآن. بدليل قوله الآتي: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي صدقنا بأنه كلام الله تعالى. ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين خاضعين لله تعالى. ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بإيمانهم بالكتابين: كتابهم والقرآن. ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بصبرهم على العمل بهما. ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يدفعون. ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي بالطاعة المعصية، لقوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذرّ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها». ﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون.

﴿ٱللَّغْوَ﴾ هو الساقط من القول، والمقصود به هنا الشتم والأذى من الكفار. ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ تكرماً. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلام متاركة لهم وتوديع أو دعاء لهم بالسلامة عما هم فيه. ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريدها، ولا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل، فنعاملكم بالمثل.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٢):

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب، منهم رفاعة - يعني أباه - إلى النبي ﷺ، فآمنوا فأوذوا، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. وأخرج أيضاً عن قتادة قال: كنا نتحدث أنها نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على الحق، حتى بعث الله محمداً ﷺ، فآمنوا به، منهم سلمان الفارسي وعبد الله بن سلام.

وقال سعيد بن جُبَيْر: نزلت هذه الآية في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون، وأسلموا[١].

وعلى كل حال، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المناسبة:

بعد أن أقام الله تعالى الدليل على أن القرآن وحي من عند الله، وعلى صحة نبوة محمد ﷺ، أكد ذلك بأن جماعات من أهل الكتاب الذين آمنوا بالله وحده قبل نزول القرآن، أسلموا وآمنوا بمحمد ﷺ، حين اقتنعوا بصدقه وصحة ما أنزل عليه، فكان غير أهل الكتاب أولى بالإيمان أو الإسلام.

التفسير والبيان:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ أي إن جماعة من علماء أهل الكتاب الأولياء الأصفياء، من اليهود والنصارى، الذين عاصروا

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٣

النبي محمد ﷺ، آمنوا بالقرآن، لمطابقته لأصول كتبهم المتقدمة، وبشارة تلك الكتب بمحمد وتطابق الأوصاف عليه. فقوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي قبل القرآن. و﴿هُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن أو بمحمد ﷺ أو بهما معاً يصدِّقون.

وللآية نظائر كثيرة منها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢١]، ومنها: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٩]، ومنها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٧-١٠٨].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي وإذا قرئ عليهم القرآن، قالوا: صدقنا به، وآمنا بأنه الكلام الحق الصدق الثقة من ربِّنا، وكنا مصدقين بالله مسلمين له أي موحدين، مخلصين لله، مستجيبين له، من قبل نزول هذا القرآن، أو من قبل بعثة محمد ﷺ.

وهذا دليل على قدم إيمانهم، لما وجدوه في كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدم النبي محمد ﷺ، فمدحهم تعالى بهذا المدح العظيم وقال:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي إن هؤلاء المتصفين بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول وهو كتابهم، ثم بالثاني وهو القرآن لهم ثواب مضاعف مرتين، جزاء صبرهم وثباتهم على الإيمانين، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس، فإنهم لم يأبهوا بإيذاء قومهم.

ونظير الآية: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٨]، وورد في الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ يؤتَوْنَ أجرَهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدَّى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أَمَة، فأدَّبها، فأحسن تأديبها، ثم أعتقها فتزوجها».

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: إني لَتَحْتَ راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً وقال فيما قال: «من أسلم من أهل الكتاب، فله أجره مرتين، وله مالنا، وعليه ما علينا» .

وبعد أن مدحهم الله تعالى بالإيمان أولاً، أثنى عليهم بالطاعات البدنية في قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ثم بالطاعات المالية في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ثم باشتغالهم بالطاعات والأفعال والأخلاق الحسنة في قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ فقال:

- ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون السيئة بالحسنة، فلا يقابلون السيئ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون.

- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون من رزق الله الحلال في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم، ويؤدون الزكاة المفروضة، والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات.

- ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى﴾ أي وإذا سمعوا من المشركين أو غيرهم لغو الكلام وهو الساقط من القول من أذى وتعيير وسبّ وشتم وتكذيب، أعرضوا عن أهله، ولم يخالطوهم ولما يعاشروهم، بل كانوا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٢] .

وقالوا إذا سَفِه عليهم سفيه، وكلَّمهم بما لا يليق: لنا أعمالنا فنحن المسؤولون عنها ثواباً وعقاباً، ولكم أعمالكم عليكم تبعاتها، لا نرد عليكم، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع، أو سلمكم الله مما أنتم فيه، لا نريد اتباع طريق الجاهلين ولا نحبها ولا نصاحب أهلها، ونؤثر الكلام الطيب، ولا نقابل الكلام القبيح بمثله. ونظير الآية: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٣] قال الحسن رحمه الله عن كلمة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ : هذه الكلمة تحية بين المؤمنين، وعلامة الاحتمال من الجاهلين.

روى محمد بن إسحاق في سيرته: أنه قدم على رسول الله ﷺ، وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن.

فلما سمعوا القرآن، فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيَّبكم الله من رَكْب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال: ما نعلم ركباً أحمق منكم.

فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً.

ويقال: إن هؤلاء النفر النصارى من أهل نجران[1].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

أ- إذا كان الإيمان بالله صحيحاً منسجماً مع الوحي الثابت الصحيح، سَهُل التقاء رافدي الإيمان، وتيسر الدمج بين الإيمانين، إن تجرد الإنسان عن العصبية والهوى، والمصلحة الذاتية، والنفع المادي. وهذا ما تحقق لجماعة من أهل الكتاب من بني إسرائيل، آمنوا بالله ربّاً واحداً لا شريك له قبل القرآن

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٤، وهو مروي عن عروة بن الزبير.

بمقتضى كتابهم السماوي، ثم آمنوا بالقرآن، لمطابقته مع أصل ذلك الكتاب المتقدم، وهؤلاء كعبد الله بن سَلام وسلمان الفارسي، ومن أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية نفر أقبلوا من الشام، وكانوا أئمة النصارى، منهم بحيرا الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع. وقيل: أكثر من ذلك.

٢ً- هؤلاء المؤمنون بالقرآن من أهل الكتاب يضاعف لهم الثواب أو الأجر مرتين: مرة لإيمانهم بكتابهم، ومرة لإيمانهم بالقرآن بسبب صبرهم على الأذى الذي يلقونه من الكفار.

٣ً- المؤمن الكامل الإيمان شأنه الاشتغال بمرضاة الله تعالى، فيبادر إلى الطاعات البدنية والمالية، ويتحلى بالخلق الفاضل، وقد وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بأنهم يقابلون السيئة بالحسنة، أي بالاحتمال والعفو والصفح والكلام الحسن، وهذا من مكارم الأخلاق؛ وينفقون من أموالهم في الطاعات والقربات، فيحسنون إلى البائسين والمعوزين، وفي ذلك حضّ على الصدقات؛ ويعرضون عن لغو الكلام، فلا يتكلمون بالكلام القبيح، وإنما ينطقون دائماً بالكلام الطيب، فإذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم، أعرضوا عنه، أي لم يشتغلوا به، قال ﷺ لمعاذ في حديث أبي ذر المتقدم والمروي أيضاً عن معاذ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» ومن الخلق الحسن: دفع المكروه والأذى، والصبر على الجفا، بالإعراض عنه ولين الحديث. وهذا مؤيد لمعنى الآية: ﴿وَقَالُوٓاْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي سلام متاركة ومفارقة، لنا ديننا ولكم دينكم، فهذا ليس من التحية في شيء.

ولا نبتغي الجاهلين، أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة، ولا نرغب في مصاحبتهم، ولا نودّ معاشرتهم، ولا نجازيهم بالباطل على باطلهم.

الرد على شبهات المشركين

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

القراءات:

﴿يُجْبَىٰٓ﴾:

وقرأ نافع (تُجبى).

﴿فِىٓ أُمِّهَا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي وصلاً (في إِمِّها).

﴿تَعْقِلُونَ﴾:

وقرأ أبو عمرو (يعقلون).

الإعراب:

﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ مفعول لأجله.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ﴿وَكَمْ﴾: منصوبة بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ منصوب بحذف حرف الجر، أي بطرت في معيشتها، ولا يجوز نصبه على التمييز، لأن التمييز لا يكون إلا نكرة، ومعيشتها: معرفة.

البلاغة:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ بينهما طباق السلب.

﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ مجاز عقلي، نسب الأمن إلى الحرم، وهو لأهله، وعلاقته المكانية.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أورد الكلام بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته، أي لا تقدر أن تدخله في الإسلام. ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فيدخله في الإسلام، والهداية نوعان: الدلالة والإرشاد إلى الخير، والتوفيق بعد توافر أصل الهداية. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ عالم بالمستعدين للهداية. ﴿وَقَالُوا﴾ أي قريش. ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ ننتزع منها بسرعة، أي نخرج من البلاد. ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ أو لم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن من الإغارة والقتل، بحرمة البيت الذي فيه ويتناحر العرب حوله، وهم آمنون فيه. ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ﴾ يحمل إليه ويجمع فيه، جبى الماء: جمعه، والجابية: الحوض العظيم. ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من كل مكان. ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ رزقاً لهم من عندنا. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما نقوله حق، فهم جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا. والمعنى المراد: فإذا كان هذا حالهم، وهم عبدة الأصنام، فكيف نعرّضهم للخوف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد؟

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي كم من أهل قرية كانت حالهم كحالكم في الأمن وخفض العيش حتى أشروا، فدمر الله عليهم وخرب ديارهم. فقوله: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ من البطر: وهو الأشر وقلة احتمال النعمة، والمراد من بطرت: بغت وتجبرت ولم ترع حق الله في زمن معيشتها. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لم تسكن إلا فترات قليلة للمارة يوماً أو بعضه، من شؤم معاصيهم. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم؛ إذ لم يخلفهم أحد في ديارهم وتصرفاتهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما كانت عادته. ﴿أُمِّهَا﴾ أصلها وعاصمتها (قصبتها) وأعظمها.

﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة. ﴿ظَالِمُونَ﴾ بتكذيب الرسل والعتو في الكفر. ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾من أسباب الدنيا. ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي تتمتعون وتتزينون به أيام حياتكم ثم يفنى. ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي ثوابه. ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك؛ لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أدوم وأبدي. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تتفكرون، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وقرئ (يَعْقِلُونَ) وهو أبلغ في الموعظة. ﴿وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعداً بالجنة، فإن حسن الوعد بحسن الموعود. ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ مدركه لا محالة، لامتناع الخلف في الوعد، ولذلك عطفه بالفاء المتضمنة معنى السببية.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذي يزول عن قريب، ويختلط بالآلام والمتاعب. ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب والعذاب بالنار، وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو الرتبة. والمراد بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ﴾ المؤمن، وبقوله: ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ﴾ الكافر، أي لا تساوي بينهما، وهذه الآية كالنتيجة التي قبلها، ولذلك رتب عليها بالفاء.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٦):

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾: أخرج مسلم وعبد بن حميد والترمذي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل: لا إله إلا الله، أشهد لك يوم القيامة»، قال: لولا أن تعيرني نساء قريش، يقلن: إنه حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وأخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعيد بن رافع قال: سألت ابن عمر عن هذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي جهل وأبي طالب؟ قال: نعم.

نزول الآية (٥٧):

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾: أخرج ابن جرير عن ابن عباس: أن أناساً من قريش قالوا للنبي ﷺ: إن نتبعك تخطفنا الناس، فنزلت.

وأخرج النسائي عن ابن عباس أن الحارث بن عثمان بن عامر بن نوفل بن عبد مناف هو الذي قال ذلك، وعبارته - كما في البيضاوي -: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب - وإنما نحن أَكَلة رأس، أي قليلو العدد - أن يتخطفونا من أرضنا، فنزل قوله تعالى: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية.

نزول الآية (٦١):

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾: أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ الآية، قال: نزلت في النبي ﷺ وفي أبي جهل بن هشام، وأخرج عن وجه آخرعنها: أنها نزلت في حمزة وأبي جهل.

المناسبة:

بعد بيان إيمان طوائف من أهل الكتاب، ذكر الله تعالى شبهة المشركين في امتناعهم عن الإيمان، ثم رد عليها بأجوبة ثلاثة، مفتتحاً الكلام بتقرير أن الهداية للدين وهي هداية التوفيق هي لله تعالى لا لرسوله، وأثبت له في الآية أخرى هي ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٤٢/٥٢] هداية الدلالة والإرشاد والبيان.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية من أحببت هدايته هداية توفيق، فليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، والله هو الذي يستطيع هداية من يشاء هداية توفيق وشرح صدر، بأن يقذف نوراً في قلبه، فيحيا به، كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتٗا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورٗا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٦/١٢٢] وله الحكمة البالغة، وربّك هو العالم بالمستعدين للهداية، فيهديهم؛ لأنهم مستحقون لها، وعالم أيضاً بالمستعدين للغواية، فلا يهديهم: لأنهم لا يستحقونها. والمراد بالآية تسلية الرسول ﷺ في عدم تمكنه من هداية قومه.

ويلاحظ أنه لا دلالة في ظاهر هذه الآية على كفر أبي طالب، لكن الثابت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، كما بينت، قال الزجاج: أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب، وذلك أن أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني عبد مناف، أطيعوا محمداً وصدقوه، تفلحوا وترشدوا فقال ﷺ: «يا عم، تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك! قال: فما تريد يابن أخي؟ قال: أريد منك كلمة واحدة، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول: لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله تعالى، قال: يا ابن

أخي، قد علمت أنك صادق، ولكني أكره أن يقال: جزع عند الموت، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبَّة بعدي لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق، لما أرى من شدة وجدك ونصحك، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ: عبد المطلب، وهاشم، وعبد مناف» . قال القرطبي: والصواب أن يقال: أجمع جل المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ، وهو نص البخاري ومسلم.

ونظير الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٣] .

والخلاصة: إن الهداية - كما ذكر الرازي - بمعنى الإلجاء والقسر غير جائز؛ لأن ذلك قبيح من الله تعالى في حق المكلف، وفعل القبيح مستلزم للجهل أو الحاجة، وهما محالان، ومستلزم المحال محال، فذلك محال من الله تعالى، والمحال لا يجوز تعليقه في المشيئة[١].

ثم أخبر الله تعالى عن شبهة المشركين في عدم إيمانهم بالنبي ﷺ، واعتذارهم بعذر واهٍ، فقال:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ أي قال المشركون: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا ما حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، ويخرجونا من ديارنا.

فأجاب الله تعالى عن شبهتهم بثلاثة أجوبة:

أ- تأمين الحرم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ

(١) تفسير الرازي: ٢٥/٣

﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي إن هذا الاعتذار كذب وباطل؛ لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين، وحرم آمن معظّم منذ وجد، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم إن أسلموا واتبعوا الحق؟

ومن خصائص الحرم المكي: أنه يحمل إليه من سائر الثمار في كل البلدان، كما تحمل إليه أصناف المتاجر والأمتعة، تفضلاً بالرزق من عند الله، ولكن أكثرهم جهلة لا يَفْطُنون[1] لما فيه الخير والسعادة، ولا يتفكرون ليعلموا الأحق بالعبادة، ويقلعوا عن عبادة ما سواه.

٢- التذكير بإهلاك الأمم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي ليعلم هؤلاء المعتذرون من أهل مكة عن الإيمان خوفاً من زوال النعم أن عدم الإيمان هو الذي يزيل النعم، فكثيراً ما أهلك الله من القرى أي أهلها التي أبت الإيمان، وكفرت، وبغت وطغت وأشرت، وجحدت بأنعم الله وأرزاقه المغدقة، فأصبحت مساكنهم خاوية على عروشها، لا يسكن فيها أحد إلا لمدة قليلة، يبيت فيها المارة يوماً أو بعض يوم، وأصبح الوارث هو الله؛ لأنها رجعت خراباً ليس فيها أحد يخلفهم فيها. ويقال للشيء الذي ترك بلا مالك: إنه ميراث الله؛ لأنه المالك الحقيقي للكون، والباقي بعد فناء خلقه

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١١٢].

ثم أخبر تعالى عن عدله في إنزال العقاب، فقال:

---

(١) فَطَن للشيء يفطُن بالضم فطنة، وفَطِن - بالكسر - فِطنة أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي وما كانت عادة ربك وسنته أن يهلك المدن والقرى بأهلها حتى يرسل في أصلها وعاصمتها وأكبرها رسولاً يبين لهم الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وأحقيته بالعبادة، حتى لا يبقى لهم حجة بالجهل ولا عذر بعدم معرفة الحق، فيهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم، ولا يهلك أهل القرى أو أحداً من خلقه إلا وهم ظالمون أنفسهم بتكذيب الرسل وجحود الآيات.

وهذا دليل على عدل الله في خلقه، فلا عقاب إلا بعد بيان، ولا إهلاك مع إيمان، وإنما العقاب والهلاك حال الظلم واجتراح المعاصي، واقتراف المنكرات والآثام التي أكبرها الشرك بالله تعالى.

وللآية نظائر كثيرة منها: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥/١٧].

وفي الآية دليل على أن النبي الأمي وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى (مكة) رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم، كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٢/ ٧] وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨] وقال عز وجل﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٩].

٣- التدين أو الإيمان لا يضيع منافع الدنيا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي إن الدنيا وما فيها من زينة وزخرف ومتاع فانية حقيرة بالنسبة لما أعده الله لعباده الصالحين من المنافع والنعم في الدار الآخرة، فكل ما أعطيتم أيها الناس من أموال وأولاد وزينة وزخارف، فهو مجرد متاع مؤقت وزينة زائلة، لا يجدي عند الله شيئاً، وهو زائل وزهيد إذا قيس بنعم الآخرة، فنعيم الآخرة باقٍ دائم

خير في ذاته من متاع الدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٦] وقال سبحانه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٨] وقال عز وجل: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٦-١٧] وقال رسول الله ﷺ في الحديث الثابت: «والله، ما الحياةُ الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِس أحدُكم أُصبعه في اليمِّ، فلينظر ماذا يرجع إليه»!!

أفلا يعقل ويتفكر من يُقدِّم الدنيا على الآخرة، أفلا يتدبر من يؤثر الفاني على الباقي!! ألا فليفكر الإنسان في اختيار ما هو الخير الدائم له، ويترك الشر الذي يصيبه بالأذى.

ثم أكَّد الله تعالى ذلك المعنى فقال:

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ أي فليقارن الإنسان ليعلم ترجيح ما عند الله وتفضيله على زينة الدنيا، وكيفية المقارنة: أفمن هو مؤمن بكتاب الله مصدق بوعد الله وثوابه على صالح الأعمال بالجنة وجزيل النعيم، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل، ثم يصير أمره يوم القيامة من المعذبين في نار جهنم؟!

فقولهم: إنا تركنا الدين خشية فوات منافع الدنيا خطأ وقول غير سديد؛ لأن الدين لا يفوت تلك المنافع، فهي حقيرة في ميزان الله، وإنما يكون إيثار الدنيا مفوتاً لمنافع الآخرة، وسبباً أيضاً للعقاب الدائم في الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يلي:

أً- يخص الله تعالى بعض خلقه بخلق الهداية ومعرفة طريق الجنة، ويمنع

بعضهم منها، ولا يسأل عما يفعل. وليس معنى الهداية والضلال القسر والإلجاء عليهما فذلك غير جائز شرعاً وعقلاً، وهو قبيح من الله تعالى في حق الإنسان المكلف بالتكاليف الشرعية.

ولقد بان من سبب النزول الثابت في الصحيحين أن أبا طالب مات على غير الإيمان، والله أعلم.

٢- الله تعالى هو المختص بعلم الغيب، فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي.

٣- قال مشركو مكة للنبي ﷺ معتمدين على شبهة واهية وتعلل مرفوض أو عذر غير واقعي ولا منطقي: إنا لنعلم أن قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك، ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا (مكة) لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم. قال ابن عباس: قائل ذلك من قريش الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي.

٤- أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بأجوبة ثلاثة:

الأول - أنه سبحانه جعل حرم مكة ذا أمن، فكانت العرب في الجاهلية يغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فقد أمَّنهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوهم، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم، فما الذي يمنعهم من الإيمان بعد توافر الأمان؟!

ومن مزايا الحرم المكي بعد الأمن أنه يجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد، فضلاً ورزقاً من عند الله، ولكن أكثر المكيين لا يعقلون، أي هم غافلون عن الاستدلال، وأن من رزقهم وأمَّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم.

وخلاصة هذا الجواب: إنه تعالى لما جعل الحرم آمناً، وأكثر فيه الرزق

حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى، مقبلين على عبادة الأوثان، فلا حرج في إيمانهم؛ إذ لو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى.

فهذا رد أول على تعللهم بترك الإيمان.

الثاني - بعد أن بيَّن تعالى ما خص به أهل مكة من النعم، أتبعه ببيان ما أنزله على الأمم الماضية بنعم الدنيا بسبب تكذيب الرسل، فإذا وهموا أنه لو آمنوا لقاتلتهم العرب، فذلك وَهْم باطل؛ لأن الخوف في ترك الإيمان أكثر.

فكم من قوم كفروا، ثم حلّ بهم الدمار، ولما قالوا: إنا لا نؤمن خوفاً من زوال نعمة الدنيا، بيَّن الله تعالى لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه النعم، لا الإقدام على الإيمان. والدليل أنه تعالى أهلك كثيراً من الأقوام بسبب البطر وهو ألا يُحفظ حق الله تعالى في الغنى، فأصبحت مساكنهم غير مسكونة بعد إهلاك أهلها إلا قليلاً من السكنى أو سكوناً قليلاً، فلم يسكنها إلا المسافرون أو المارة بالطريق يوماً أو بعض يوم، وكان الله هو الوارث لها بعد هلاك أهلها.

ومن المعلوم أنه إذا لم يبق للشيء مالك معين قيل: إنه ميراث الله؛ لأنه الباقي بعد فناء خلقه.

ثم أوضح الله تعالى سنته في الإهلاك: وهي أنه لم تكن عادة الله أو سنته أن يهلك القرى الكافرة، حتى يبعث في عاصمتها وأعظمها رسولاً، كما أرسل إلى أهل مكة محمداً ﷺ، ثم لم يهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لظلمهم ولإصرارهم على الكفر بعد إعذارهم وإنذارهم. وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم.

والخلاصة: إن إهلاكهم لا يكون إلا بأمرين:

استحقاقهم الإهلاك بظلمهم، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة، والإلزام ببعثة الرسل.

الثالث - إن قول أهل مكة: تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا خطأ عظيم؛ لأن ما يتمتعون به مدة حياتهم زائل، وما عند الله خير وأبقى، أي أفضل وأدوم، أفلا تعقلون أن الباقي أفضل من الفاني؟!

أما إنه خير: فلأن المنافع في الآخرة أعظم، ولأنها خالصة عن الشوائب، أما منافع الدنيا فمشوبة بالمضار، بل المضار فيها أكثر.

وأما إنها أبقى: فلأنها دائمة غير منقطعة، ومنافع الدنيا منقطعة، وإذا قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً، ثم إن نصيب كل واحد من منافع الآخرة إذا قورن بمنافع الدنيا كلها يعدُّ كالذرة بالقياس إلى البحر.

وهل يعقل التسوية بين الموعود وعداً حسناً وهو الجنة وما فيها من الثواب والممتع بمتع الدنيا، أي الذي أعطي منها بعض ما أراد، ثم يوم القيامة كان من المحضرين في النار. قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. وقال الثعلبي: وبالجملة، فإنها نزلت في كل كافر مُتِّع في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله، وله في الآخرة الجنة.

والخلاصة: تترجح منافع الآخرة على منافع الدنيا بأمرين: الدوام والبقاء، وعدم العقاب، أما منافع الدنيا فهي إلى انقطاع وفناء، ويحصل بعدها العقاب الدائم إذا لم تقترن بطاعة الله.

٥ً - دلَّ قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ على أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا، كان خارجاً عن حد العقل السليم.

واستدل الشافعي رحمه الله بهذا القول على أن من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس، صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى؛ لأن أعقل الناس من أعطى القليل، وأخذ الكثير، وما هم إلا المشتغلون بطاعة الله تعالى.

تقريع المشركين يوم القيامة بأسئلة ثلاثة

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ حذف مفعولا الفعل: ﴿تَزْعُمُونَ﴾، أي تزعمونهم شركائي.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ خبر المبتدأ الثاني، أي: هؤلاء هم الذين أغوينا.

﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَا﴾: إما نافية، وإما مصدرية، أي تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا، والوجه الأول أوجه.

البلاغة:

﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ استفهام على سبيل التهكم والسخرية.

﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ تشبيه مرسل.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية، وقلب، وتضمين، استعير العمى لعدم الاهتداء، فهم لا يهتدون للأنباء، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم، وأصله: فعموا عن الأنباء، وضُمِّن معنى الخفاء فعدي بـ (على).

المفردات اللغوية:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بفعل محذوف: اذكر، أو معطوف على: يوم القيامة في الآية السابقة (٦١) .﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحذف المفعولان لدلالة الكلام عليهما .﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب وثبت مقتضى القول وحصل مؤداه، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٣] وغيره من آيات الوعيد، أي ثبت القول عليهم بدخول النار، وهم رؤساء الضلالة.

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ قال صاحب الكشاف: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي أضللنا: صفة المبتدأ. و﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾ الخبر، وكاف ﴿كَمَا﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: أغويناهم، فغووا غياً، مثل ما غوينا، يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا، ولم نكرههم على الغي؛ لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً، لا قسراً وإلجاء، فلا فرق إذن بين غينا وغيهم، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر، والغواية: الضلال .﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم أي من عبادتهم إيانا .﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، أي ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم.

﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي الأصنام الذين تزعمون أنهم شركاء لله .﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي فلم يجيبوا دعاءهم، لعجزهم عن الإجابة والنصرة .﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أبصروه هم .﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ في الدنيا، لما رأوه في الآخرة.

﴿فَعَمِيَتْ﴾ خفيت. ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ الأخبار والحجج التي تنجيهم. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة، لم يجدوا خبراً لهم فيه نجاة، أي فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم، وأصله: فعموا عن الأنباء، لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يأتي من خارج. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك. ﴿وَءَامَنَ﴾ صدق بتوحيد الله. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدى الفرائض، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح. ﴿مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ الناجحين عند الله، وعسى: تحقيق على عادة الكرام، أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح.

المناسبة:

بعد بيان كون التمتع في الدنيا بزخارفها دون طاعة الله وشكره على نعمه سبباً في عذاب الكافر يوم القيامة، أبان الله تعالى حالة الإهانة والتقريع للمشركين أو الكافرين حين يسألهم الله تعالى يوم القيامة ثلاثة أسئلة يحارون في الجواب عنها، وهي السؤال عن آلهتهم التي عبدوها في الدنيا، وعن دعوتهم لها، وعما أجابوا به الرسل الذين دعوهم إلى الإيمان بربهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة بحيث يناديهم ويسألهم عن ثلاثة أشياء:

الأول - السؤال عن نصرة الآلهة المزعومة: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم ينادي الحق تعالى هؤلاء المشركين، فيقول لهم: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا من الملائكة والجن والكواكب والأصنام والأنداد والأشخاص، وتزعمون أنهم

شركائي، هل يشفعون لكم، وهل ينصرونكم أو ينتصرون؟ والمقصود من السؤال الإهانة والتحقير، والتقريع والتنديد، فلا جواب لديهم؛ لأنهم عرفوا يوم القيامة بطلان ما كانوا عليه، وأدركوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة.

ونظير الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤] .

ثم ذكر جواب أئمة الضلال ودعاة الكفر، فقال:

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ أي قال رؤساء الضلال والدعاة إلى الكفر الذين ثبت عليهم مقتضى القول وتحقق فيهم مؤداه ولزمهم الوعيد، بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٣] : ربنا هؤلاء الأتباع الذين آثروا الكفر على الإيمان كان غيهم باختيارهم، كما أن غينا باختيارنا، فإن إغواءنا وإضلالنا لهم ما ألجأهم إلى الغواية والضلال قسراً وإكراهاً، بل كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد والأعمال. والمراد أن تبعة غيهم عليهم لا علينا.

ونحن نتبرأ إليك منهم، ومن عقائدهم وأعمالهم، ومما اختاروه من الكفر والعصيان، وهم في الحقيقة ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شياطينهم، فالمعبودون شهدوا أنهم أغووا الأتباع فاتبعوهم، ثم تبرؤوا من عبادتهم.

وذلك كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾ [مريم: ١٩/ ٨١-٨٢] وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا

بعبادتهم كافرين ﴿٦﴾ [الأحقاف: ٤٦/٥-٦] وقال عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢/١٦٦] .

السؤال الثاني - السؤال عن جواب الآلهة لدفع العذاب: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي وقيل للمشركين بالله: ادعوا شركاءكم آلهتكم ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون في الدار الدنيا، فدعوهم لفرط الحيرة والدهشة، فلم يجيبوهم عجزاً منهم عن الجواب، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، ودّوا حين عاينوا العذاب المحدق لهم لو أنهم كانوا من المهتدين المؤمنين في الدنيا. وعلى هذا جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي ودّوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون.

ونظير الآية: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ١٨/٥٢-٥٣] .

والقصد من هذا السؤال التوبيخ والتقريع وكشفهم أمام الناس، بدعائهم من لا نفع له ولا فائدة ترتجى منه، فهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة في النصرة، وأن العذاب مقرر لهم ثابت عليهم. وفي ذلك ردع وزجر عن الشرك وخرافاته في الدنيا.

السؤال الثالث - السؤال عن التوحيد وإجابة الأنبياء: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ ؟ أي واذكر يوم ينادي الله تعالى المشركين لمعرفة جوابهم للمرسلين إليهم، وكيف كان حالهم معهم، وعن التوحيد الذي دعوا إليه، وهذا كما يُسأل العبد في قبره: من ربُّك، ومن نبيُّك، وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر

فيقول: هاه هاه لا أدري، فلا جواب له يوم القيامة غير السكوت. وفي هذا إثبات النبوات، وإعلان التوحيد، والبراءة عن الآلهة المزعومة من أصنام وغيرها.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي فخفيت عليهم الحجج، وعموا عن أوجه الدفاع عن أنفسهم يوم القيامة، ولم يجدوا بداً من السكوت، ولا يسأل بعضهم بعضاً كما يسأل الناس في المشكلات، لما اعتراهم من الدهشة والذهول، ولتساوي الناس جميعاً في عمى الأنباء عنهم والعجز عن الجواب، حتى الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩/٥] فما ظنك بهؤلاء الضُّلال؟! وسميت حججهم أنباء (أخباراً) لأنها أخبار يخبرونها.

وبعد بيان الصورة القاتمة لحال هؤلاء المشركين وتوبيخهم، ذكر الله تعالى حال التائبين ترغيباً في التوبة والبراءة عن الكفر، فقال:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي فأما الذين تابوا من المشركين، وصدقوا بالله وتوحيده، وأخلصوا العبادة له، وآمنوا بنبيه محمد ﷺ، وعملوا الأعمال الصالحة في الدنيا من فرائض وغيرها، فهم ناجون فائزون برضوان الله ونعيمه في الجنة يوم القيامة. وعسى من الله على سبيل التحقق، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة، وأما من العبد فتوقع وترج أن يفلح ويفوز بما طلب.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات تنبيهاً وإنذاراً مسبقاً، وتوبيخاً، وزجراً عن الكفر، كي يتدارك الإنسان أمره في الدنيا، كيلا يفاجأ بالمصير المشؤوم يوم القيامة.

وفيها تفنيد لمزاعم الكفار في شفاعة الآلهة المختلقة، ونصرتها لعابديها في عالم الحساب في الآخرة.

ففي التساؤل الأول تتبدد الآمال، وتزول الرجاءات، وتنقطع الأطماع، فلا يجد العابدون فائدة في نصرة الشركاء وشفاعتهم لهم، ويتبرأ بعضهم من بعض، فالشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرؤون ممن قبل منهم، وتقع الكارثة، ويبهت المجرمون الكافرون، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧/٤٣] .

وفي التساؤل الثاني تشتد الحيرة وتسيطر الدهشة، فيستغيث الكفار بآلهتهم التي عبدوها في الدنيا لتنصرهم وتدفع عنهم عذاب يوم القيامة، فلا يجدون جواباً لاستغاثتهم، ولا صدى لدعائهم، ولا ينتفعون أصلاً بهم، وودُّوا حين رأوا العذاب محدقاً بهم لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إلى الإيمان بالله تعالى والعمل بكتابه وبما جاء به رسوله.

وفي التساؤل الثالث وهو الأمر الحاسم يطلب منهم الجواب عما أجابوا به رسل الله وأنبياءه الكرام لما بلغوهم رسالات ربهم، ولكنهم يسكتون بسبب الحيرة والهول واستيلاء الدهشة عن الجواب، وتخفى عليهم الحجج، فلا يجدون حجة لهم يوم القيامة، ولا يتمكنون من سؤال بعضهم بعضاً عن الحجج؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم، وأخرس ألسنتهم، إذ كل ما يقولونه باطل محض لا خير فيه. وفي هذا إثبات التوحيد والنبوة.

وأمام هذه الصورة الكئيبة والحالة المفجعة، فتح الله أمام أولئك المشركين الكفار باب الأمل بالفوز والفلاح وإحراز السعادة، وهو باب التوبة، وطريق أهل الحق والإيمان، وحكَم سبحانه أنه بالرغم من سوء حال المشركين الماضية في الدنيا لو تابوا من الشرك، وصدقوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الصالحات بأداء الفرائض والإكثار من النوافل، لكانوا

بالتأكيد من جانب الله من الفائزين بالسعادة، فإن «عسى» من الله واجبة، ومن جانبهم على طريق الأمل والرجاء وتوقع النجاة والفوز.

وفي هذا ترغيب في التوبة والتخلص من ظلمة الكفر، وضلال الشرك، وإعمال الفكر في طريق العودة إلى الله إيماناً بوجوده ووحدانيته، وتصديقاً بالكتب والرسل والبعث، ومبادرة إلى القيام بالتكاليف الإلهية.

صاحب الحق المطلق
في الاختيار المستحق للحمد والعبادة

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾

الإعراب:

﴿مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾: ﴿مَا﴾ الأولى: اسم موصول بمعنى الذي، في موضع نصب مفعول به لـ ﴿يَخْلُقُ﴾. و﴿مَا﴾ الثانية: نافية لا موضع لها من الإعراب.

البلاغة:

﴿تُكِنُّ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾ ﴿الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ بين كلٍّ طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ فيه إثبات حرية الخلق والاختيار لله عز وجل، دون موجب عليه ولا مانع له. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ فيه نفي

الاختيار عن المشركين وغيرهم، والخِيَرة: هي الاختيار باصطفاء بعض الأشياء وترك بعض ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيهاً لله أن ينازعه أحد في اختياره. ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تخفي أو تسرُّ قلوبهم من الكفر وعداوة الرسول ﷺ والحقد عليه وغير ذلك. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون بألسنتهم من الطعن في الرسول ﷺ وغيره. ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحد يستحقها إلا هو. ﴿فِي الْأُولَىٰ﴾ الدنيا. ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ الجنة. ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في كل شيء دون مشاركة أحد. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالنشور.

المناسبة:

بعد توبيخ المشركين على اتخاذ الشركاء ودعوتهم للشفاعة والنصرة، أبان الله تعالى أنه هو صاحب الاختيار المطلق في تعيين الشفعاء، لا المشركون، وكذا في اصطفاء بعض المخلوقات للرسالة والنبوة وتمييزهم عن غيرهم، فكان اختيار المشركين جهلاً وغباءً وضلالاً. وسبب كون الاختيار لله: أنه العالم بالخفايا والظواهر، وأنه لإنعامه المستحق للعبادة، فلا يستحقها إلا هو، وأنه صاحب القضاء النافذ في كل شيء، وأن إليه المرجع والمآب للسؤال والحساب.

التفسير والبيان:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ أي أنه تعالى يخبر أنه المنفرد بالخلق والاختيار دون منازع ولا معقب، والمعنى: ربك يا محمد وكل سامع صاحب الحق المطلق في خلق ما يشاء، واختيار ما يريد، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه، يختار أقواماً لأداء الرسالة، ويصطفي من الملائكة والناس رسلاً لأداء المهمة، ويمنح الحق في الشفاعة لمن يريد، يميز بعض مخلوقاته على بعض.

وليس للمشركين ولا لغيرهم أن يختاروا شيئاً، فيقولوا مثلاً: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٣١] أي إما على الوليد بن المغيرة أو على عروة بن مسعود الثقفي شيخ الطائف. فقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ نافية على الصحيح كما نقل ابن عباس وغيره، ولأن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا نزَّه تعالى نفسه في منازعة أحد في سلطانه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً لله وتقديساً وتعالياً عن إشراك المشركين، وعن أن ينازعه أحد في اختياره وخلقه من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إلى الله تعالى، ليس لأحد فيه شركة ومنازعة.

ثم بيَّن الله تعالى كون اختياره مبنياً على علم ثابت صحيح فقال:

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي وربك أيها العبد المخلوق يعلم ما تخفيه صدورهم وما تنطوي عليه ضمائرهم وسرائرهم من الكيد لرسول الله ﷺ وعداوته، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق، كما قال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٣/١٠]

وهذا العلم الشامل المطلق صادر ممن له خصائص الألوهية وكونه الإله الفرد الصمد، فقال:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو المنفرد بالألوهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار غيره، فهو العليم بكل شيء القادر على كل شيء.

وفيه تنبيه على كونه قادراً على كل الممكنات، عالماً بكل المعلومات، منزهاً عن النقائص والآفات، لذا كان هو المستحق للحمد والشكر كما قال:

﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي إنه تعالى وحده المستحق للحمد والشكر، والعبادة، المحمود في جميع ما يفعله في الدنيا والآخرة؛ لأنه بعدله وحكمته يمنح النعم ويفيض الخير على مخلوقاته.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وهو تعالى له القضاء النافذ في كل شيء، فلا معقِّب لحكمه، وهو القاهر فوق عباده، الرحيم اللطيف الخبير، وإليه ترجع جميع الخلائق يوم القيامة، فيجزي كل عامل بعمله من خير أو شر، ولا يخفى عليه منهم خافية في الأرض ولا في السماء.

وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة، ونهاية تقوية القلب للمطيعين، فلا يخل بميزان العدل، يجازي المحسنين على طاعتهم، ويعاقب العصاة على عصيانهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي

١ - الاختيار إلى الله تعالى في الشفعاء، لا إلى المشركين.

٢ - الخلق أو الاختيار لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٦] .

روى الترمذي عن أبي بكر رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان إذا أراد أمراً قال: اللهم خِرْ لي واختر لي» وروى ابن السني مرفوعاً عن أنس أن النبي ﷺ قال له: «يا أنس، إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات، ثم انظر إلى ما يسبق قلبك، فإن الخير فيه» .

ومن هنا شرعت صلاة الاستخارة، بأن يتوضأ ويصلي ركعتين يقرأ في الأولى بعد الفاتحة (الكافرون) وفي الثانية (الإخلاص). وروى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: «كان النبي ﷺ يعلِّمنا الاستخارة في الأمور كلِّها، كما يعلِّمنا السورة من القرآن، يقول: إذا همَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين غير الفريضة، ثم ليقل:

اللهم إني أستخيرك بعِلْمك، وأستقدِرُك بقدرتك، وأسألك من فضلِك العظيم، فإنك تقدِرُ ولا أقدر، وتعلمُ ولا أعلمُ، وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدُرْه لي ويسّره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدُر لي الخير حيث كان، ثم رضني به» قال: ويسمي حاجته. قال العلماء: وينبغي له أن يفرِّغ قلبه من جميع الخواطر، حتى لا يكون مائلاً إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله، فإن وجد انشراحاً وسروراً وارتياحاً فالأمر خير، وإن وجد انقباضاً وضيقاً، فالأمر شر.

٣ً - إن اختيار الملائكة والرسل لأداء الرسالة إلى الله، فهو يصطفي منهم ما يشاء على وفق الحكمة والمصلحة والعلم الشامل، وليس ذلك لأحد من الناس، كما تبادر إلى بعض المشركين أن تكون الرسالة لأحد زعيمين قويين في المال والأولاد والسلطة والنفوذ: إما الوليد بن المغيرة، وإما عروة بن مسعود، كما تقدم بيانه.

٤ً - تقدس وتمجد الله عن إشراك المشركين.

٥ً - الله تعالى عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء.

٦ً - الله جل جلاله هو المنفرد بالألوهية والوحدانية، وجميع المحامد له، ولا حكم إلا إليه، وإليه المرجع والمصير.

أدلة العظمة والسلطان الإلهي وتأكيد تقريع المشركين

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

القراءات:

﴿بِضِيَآءٍ﴾:

وقرأ قنبل (بضئاء).

الإعراب:

﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي في الليل، ولم يقل: لتسكنوا فيهما؛ لأن السكون إنما يكون بالليل لا بالنهار، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي في النهار؛ لأن الابتغاء للرزق إنما يكون بالنهار في العرف والعادة.

البلاغة:

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ وكذا﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ﴾؟ استفهام للتبكيت والتوبيخ.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لف ونشر مرتب، ذكر الليل والنهار، ثم أعاد السكن إلى الليل، وابتغاء الرزق إلى النهار بالترتيب.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ﴾ لأهل مكة وغيرهم. ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿سَرْمَدًا﴾ دائماً متصلاً متتابعاً. ﴿بِضِيَآءٍ﴾ نهار تطلبون فيه المعيشة. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ذلك سماع تدبر وتفهم واستبصار، فترجعوا عن الإشراك. ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ تستقرون وتستريحون فيه من متاعب الأشغال. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ والإشراك، فترجعوا عنه. وقدم السمع لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر.

﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ في الليل. ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا الرزق من فضل الله في النهار بأنواع المكاسب. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ اذكر يوم. ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به؛ أو إن الأول لتقرير فساد آرائهم، والثاني لبيان أنه لم يكن عن سند أو دليل، وإنما كان محض تَشَه وهوى. ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أخرجنا. ﴿شَهِيدًا﴾ هو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه. ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم. ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحة ما قلتم من الإشراك وما كنتم تدينون به. ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ حينئذ. ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي في الألوهية، لا يشاركه فيها أحد. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب عنهم غيبة الضائع، أو تاه. ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الباطل وهو أن معه شريكاً آخر، تعالى عن ذلك.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أنه الخالق المختار، وسفَّه آراء المشركين في عبادتهم غير

الله، وبعد أن أبان أنه المستحق للحمد على ما تفضل به من النعم، أردفه بإيراد بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه وهي النعم التي لا يقدر عليها سواه، لتذكير الناس بما يجب عليهم من الحمد له، وشكر المنعم المتفضل به. ثم كرر قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ على جهة الإبلاغ والتأكيد، ثم ذكر شهادة نبي كل أمة على أعمالهم في الدنيا، زيادة في الغم وإثباتاً للجرم.

التفسير والبيان:

يمتن الله على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما فقال:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾؟ أي قل أيها الرسول للمشركين بالله: أخبروني إن جعل الله وقتكم كله ظلاماً، فجعل الليل عليكم دائماً متتابعاً إلى يوم القيامة، فيحصل لكم السأم والضجر والضرر، كالمناطق القطبية التي يكون فيها الزمن كله ليلاً لمدة ستة أشهر، ثم يكون مثلها نهاراً، فمن الإله غير الله الذي يتمكن من الإتيان بضياء النهار، أفلا تسمعون ذلك سماع تدبر وتفهم وتفكر، فتقلعوا عن الإشراك بالله؛ لأن كل من سوى الله عاجز عن ذلك وغيره؟ ثم ذكر العكس فقال:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾؟ أي وقل لهم أيضاً أيها الرسول: أخبروني إن جعل الله زمنكم كله نهاراً، فجعل النهار دائماً متصلاً إلى يوم القيامة دون أن يعقبه ليل، فتتعب الأبدان وتكل الأجسام من كثرة الحركات والأشغال، فمن ذلك الإله غير الله يستطيع الإتيان بليل تستقرون وتستريحون فيه من عناء التعب، أفلا تبصرون هذه الظاهرة والحقيقة الدالة على القدرة الإلهية التامة، فتعلموا أن المستحق للعبادة والتأليه هو الله المنعم بهذه النعم؟

- ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي ومن رحمته بكم أيها الخلق تعاقب الليل والنهار وتفاوتهما، فجعل لكم الليل ظلاماً للراحة والسكن والاستقرار وهدوء النفس من عناء العمل النهاري، وجعل لكم النهار مضيئاً لتبصروا فيه منافعكم، وتحصلون فيه معايشكم، وتنتقلوا فيه بالأسفار من بلد لآخر، ويمتلئ بالحركات والأشغال، بحثاً عن موارد الرزق، وقضاء الحاجات بأنس ومتعة لا يتوافران في العمل الليلي، فتشكروا الله بأنواع العبادات ليلاً ونهاراً على ما أنعم به عليكم من هذه النعم دون أن يشاركه فيها شريك؟

دلَّ هذا بحق على أن تعاقب الليل والنهار من أعظم النعم على المخلوقات، بل ومن البراهين الدالة على كمال القدرة الإلهية، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٢] ونحو ذلك من الآيات الكثيرة. وهذا التعاقب لأغراض ثلاثة: أن تسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر، وهو النهار، ولإرادة شكركم على المنفعتين معاً.

ويلاحظ أنه تعالى قرن قوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ بالليل، لمناسبته له، ففي سكون الليل وظلامه يكون إعمال السمع أفيد، ففيه يدرك الإنسان ما لا يدركه بالبصر من منافع وفوائد. ثم قرن قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بالنهار، لمناسبته له، ففي ضوء النهار يكون إعمال البصر أوقع، ففيه يدرك الإنسان بعينه من المنافع والفوائد والعظات ما لا يدركه السمع أثناء الضجة والحركة، وعلى هذا كان التذييل بما هو الأليق بكل من الليل والنهار.

وأما سبب التذييل بكل منهما فهو الحث على الانتفاع بما يسمعون ويبصرون تأملاً وتدبراً، فلما لم ينتفعوا بالسمع والبصر نزّلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر.

ثم أعاد الله تعالى النداء لمن عبد مع الله إلهاً آخر على رؤوس الأشهاد على سبيل التوبيخ والتقريع فقال:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾؟ أي واذكر أيها الرسول للمشركين يوم يناديهم ربك، فيقول لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون في دار الدنيا أنهم شركائي، ليخلِّصوكم مما أنتم فيه.

والقصد من تأكيد هذا النداء مرة ثانية التنبيه على أنه لا شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك به، كما أنه لا شيء أدعى لمرضاته من توحيده تعالى.

قال القرطبي: والمناداة هنا ليست من الله؛ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٤] لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكّتهم، ويقيم الحجة عليهم مقام الحساب[١].

ويترتب على هذا النداء التوبيخي زيادة غمهم وفرط حزنهم وألمهم، وقد أكد ذلك بالإشهاد عليهم، ليعلم أن التقصير منهم، فيكون ذلك زائداً في غمهم، فقال:

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي وأخرجنا أو أحضرنا من كل أمة شاهداً عليهم وهو نبيهم أو رسولهم، كما قال تعالى: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٩] وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٤١] فكل رسول يشهد على قومه بأعمالهم في الدنيا، ويشهد محمد ﷺ على الأنبياء جميعاً.

وقلنا لهم: أحضروا برهانكم على صحة ما ادعيتموه من أن لله شريكاً، فلم

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٠٩

يتمكنوا ولم يجيبوا، وعلموا علم اليقين حينئذ أن الحق في الألوهية لله وحده، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ولا شريك له في ملكه وسلطانه، وذهب عنهم أو تبدد باطلهم وافتراؤهم، وتضليلهم وكذبهم الذي كان منهم في الدنيا بنسبة الشريك لله، فلم ينفعهم شيئاً، كما غابت عنهم آلهتهم غيبة الشيء الضائع، فلم ينفعوهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

١ً - إن تعاقب الليل والنهار دليل على عظمة الله وقوة سلطانه وتوحيده، وهو أيضاً نعمة ورحمة بالمخلوقات جميعاً من إنسان وحيوان ونبات وجماد، أما بالنسبة للإنسان ففي الليل دعة وهدوء، وسكون وراحة من عناء العمل، وفي النهار حركة وعمل وتكسب وطلب لرزق الله تعالى.

وتلك النعمة تستوجب الشكر، وتستحق حمد الله على الدوام، ويكون الشكر بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل.

٢ً - تتكرر مناداة الآلهة المزعومة من أصنام وغيرها أمام الله تعالى يوم القيامة، ففي المرة الأولى لا يستجيبون، فتظهر حيرة أتباعهم وعابديهم، وفي المرة الأخرى يسكتون، وذلك كله توبيخ وتقريع للمشركين وزيادة خزي وتحقير أمام الخلائق قاطبة.

٣ً - يزاد غم المشركين وتتضاعف حسرتهم وكمدهم وألمهم حين يشهد عليهم بأعمالهم نبيهم المبعوث إليهم في الدنيا لدعوتهم إلى توحيد الله وعبادته، ويطلب منهم إحضار حجتهم على صحة أو صدق ادعائهم، ولكنهم يعجزون، ويدركون إدراكاً جازماً أن الأنبياء صادقون فيما جاؤوا به، وأن الله وحده هو الإله الحق، ويذهب عنهم ويبطل كل ما كانوا يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة أخرى تعبد.

قصة قارون

- ١ -

بغيه على قوم موسى واغتراره بماله

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

القراءات:

﴿عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ﴾:

وقرأ نافع، وقنبل، وأبو عمرو (عنديَ أو لم).

﴿ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: قرئ:

١- (ذنوبهِمِ) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (ذنوبهُمُ) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (ذنوبهِمُ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ ﴿مَآ﴾ اسم موصول بمعنى الذي في موضع نصب

بـ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ وصلته: ﴿إِنَّ﴾ وما عملت فيه. وكسرت﴿إِنَّ﴾ لأنها متى وقعت في موضع يصلح اسماً وفعلاً، كانت مكسورة، والاسم الموصول يدخل على الجملة الاسمية والجملة الفعلية. و﴿أُوْلِي﴾ واحدها (ذو) من غير لفظها.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ في موضع الحال.

البلاغة:

﴿لَا تَفْرَحْ﴾ ﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ وكذا﴿ٱلْفَسَادَ﴾ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بين كلٍ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿قَٰرُونَ﴾ هو قارون بن يَصْهر بن قاهَث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام. ﴿مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابن عمه؛ لأن موسى هو ابن عمران بن قاهَث، وكان أيضاً ابن خالته، وممن آمن به. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تكبر عليهم وتجبر بكثرة المال وظلمهم وطلب أن يكونوا تحت أمره. ﴿ٱلْكُنُوزِ﴾ جمع كنز: وهو المال المدخر، يقال: كنز المال: جمعه وادخره. ﴿مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ﴾ تثقل خزائنه أي صناديقه، جمع مفتح، أو مقاليده، أي مفاتيحه جمع مفتح وهو ما يفتح به. ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ الجماعة الكثيرة. ﴿أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ أصحاب الشدة. ﴿قَوْمُهُۥ﴾ المؤمنون من بني إسرائيل. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بكثرة المال، أي لا تبطر وتتمسك بالدنيا دون الآخرة.

﴿وَٱبْتَغِ﴾ اطلب. ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من المال. ﴿ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ أي ثوابها، بأن تنفقه في طاعة الله. ﴿وَلَا تَنسَ﴾ تترك ترك المنسي. ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي حظك منها بأن تأخذ منها ما يكفيك أو أن تعمل فيها للآخرة. ﴿وَأَحْسِن﴾ للناس بالصدقة. ﴿وَلَا تَبْغِ﴾ تطلب. ﴿ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأمر يكون علة للظلم والبغي أي بعمل المعاصي. ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي يعاقبهم.

﴿أُوتِيتُهُ﴾ أي المال. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ أي معرفة مني ومهارة في اكتساب المال، قيل: إنه علم التجارة. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الأمم. ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال. ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤال استعلام، فإنه تعالى مطلع عليها، معاقبهم عليها لا محالة.

المناسبة:

بعد تقريع المشركين وتوبيخهم، ذكر الله تعالى قصة قارون لبيان عاقبة الكافرين والمتجبرين في الدنيا والآخرة، فقد أُهلك قارون بالخسف والزلزلة، وهو في الآخرة كالمشركين من أهل النار.

أضواء من التاريخ على قصة قارون:

عرفنا أن قارون هو ابن يصْهُر بن قاهَث جدّ موسى، فهو ابن عمه، وقال ابن عباس: وكان أيضاً ابن خالته. وكان يسمى المنوِّر لحسن صورته، وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم، فنافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله.

فهو رجل من بني إسرائيل، آتاه الله مالاً كثيراً، حتى إن مفاتيح خزائنه كان تنوء بحملها عصبة من الرجال. نصحه أهل الوعظ والإرشاد من قومه بالبعد عن البطر والتجبر والإفساد في الأرض، وأن يستعمل ماله في مرضاة الله، مع الانتفاع ببعضه في مصالح الدنيا بقدر الكفاية، وألا ينفقه فيما يغضب الله تعالى، حتى لا يتعرض لزوال النعمة، فأبى الامتثال لنصح الناصحين، وقال في ماله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ والظاهر أنه جمعه بما لديه من ذكاء وخبرة في شؤون التجارة، ولكنه غفل عن بطش الله بالمتجبرين من أمثاله في الأمم الغابرة الذين كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعاً للمال.

وقد استبد به الكبر والخيلاء أن كان يخرج في موكب مهيب وزينة فاخرة

باهرة، فافتتن بعض الناس بمظاهره، وتمنّوا أن يؤتوا مثله من المال، فقال لهم أهل العلم والبصر والحكمة: لا تفتتنوا به ولا تطمعوا، فثواب الله خير للمؤمن الذي يعمل الصالحات، فكان عاقبة طغيانه وظلمه وجحوده نعمة الله أن خسف الله به وبداره الأرض، دون أن يجد له نصيراً أو معيناً.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي إن قارون الذي أصبح مضرب المثل والغنى والثروة والظلم والعتو كان من بني إسرائيل، فتجبر وتكبر بكثرة ماله، وتجاوز الحد في ظلمهم، وطلب منهم أن يكونوا تحت إمرته، مع أنه قريبهم:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّد

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي وأعطيناه من الأموال النقدية والعينية المدخرة التي يثقل بحمل مفاتيح خزائنها العصبة (الجماعة الكثيرة) القوية من الناس. قال ابن عباس: إن مفاتيح خزائنه كان يحملها أربعون رجلاً من الأقوياء.

فنصحه الوعاظ بمواعظ خمس قائلين:

١ - ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي قال له جماعة من بني إسرائيل من النصحاء، حينما أظهر التفاخر والتعالي: لا تبطر ولا تفرح بما أنت فيه من المال، فإن الله لا يحب الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، ولا يستعدون للآخرة، أي يبغضهم ويعاقبهم، كقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٣].

٢ - ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي استعمل ما وهبك الله

من هذا المال الجزيل، والنعمة الطائلة، في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القُرُبات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، فإن الدنيا مزرعة الآخرة.

٣ - ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تترك حظك من لذات الدنيا التي أباحها الله من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والزواج، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزَوْرك (زوارك) عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. وهذه هي وسطية الإسلام في الحياة، قال ابن عمر: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

٤ -﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأحسن إلى خلقه كما أحسن الرب إليك، وهذا أمر بالإحسان مطلقاً بعد الأمر بالإحسان بالمال، ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه، وحسن اللقاء، وحسن السمعة، أي إنه جمع بين الإحسان المادي، والإحسان الأدبي أو الخلقي.

٥ -﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تقصد الإفساد في الأرض بالظلم والبغي والإساءة إلى الناس، فإن الله يعاقب المفسدين، ويمنعهم رحمته وعونه ووده.

ولكن قارون أبى النصح فقال:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ أي قال قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير: أنا لا أحتاج لما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال، لعلمه بأني أستحقه، ولمعرفتي وخبرتي بكيفية جمعه، فأنا له أهل، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٩] أي على علم من الله بي، وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٤١/ ٥٠] أي هذا أستحقه.

فأجابه الله بقوله:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي أو لم يدر في جملة ما عنده من الدراية والعلم حتى لا يغترّ بكثرة ماله وقوته أنه قد كان من هو أكثر منه مالاً، وما كان ذلك منا عن محبة له، أو أنه أهل له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولا يسأل المجرمون عن كثرة ذنوبهم، أي إذا عاقب الله تعالى المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن أنواع ذنوبهم ومقدارها؛ لأنه تعالى عالم بكل المعلومات، فلا حاجة به إلى السؤال. فالمراد بذلك سؤال الاستفسار والاستعلام، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٣] ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٣] وسؤال الاستعتاب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٨٤]. ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٣٥-٣٦].

ونظير الآية: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٣٩].

ولا يتنافى هذا مع سؤالهم في وقت آخر سؤال توبيخ وإهانة، كما في قوله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٢-٩٣].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - البغي مرتعه وخيم، والظلم مؤذن بخراب العمران والديار.

٢ً - إن كثرة المال محنة وبلاء، وسبب للطغيان والفساد.

٣ً - الجاهل الذي لا علم لديه، أو علمه ناقص هو الذي يغترُّ بماله، ويبطر عند النعمة، فإن الله تعالى يعاقب الأشرين البطرين الذين لا يشكرون نعمة الله تعالى عليهم.

٤ً - إن أصول الحضارة الإسلامية أربعة: العمل الصالح ابتغاء ثواب الآخرة، وعمارة الدنيا بإتقان دون أن تستولي على مشاعر الإنسان، والإحسان إلى الناس إحساناً مادياً ومعنوياً أو خلقياً، وقمع الفساد والعصيان والخراب.

فمن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة، لا في التجبر والبغي، وألا يضيع عمره في غير العمل الصالح في دنياه؛ إذ الآخرة هي التي يعمل لها، فنصيب الإنسان: عمره وعمله الصالح فيها، بأن يطيع الله ويعبده كما أنعم عليه، وألا يعمل بالمعاصي والإفساد، فإن الله يجازي المفسدين.

٥ً - الله تعالى مصدر الخير والرزق، وما العبد إلا وسيلة، يجب عليه أن يعمل ويكتسب، والله هو الرازق الميسر له أسباب الرزق، المانح له الثراء والمال، فيكون هو المستحق للشكر على تلك النعمة.

فمن الغباء والجهل أن ينسب الإنسان الخير والفضل لنفسه ومواهبه، أو يدعي أنه الحقيق الجدير بما أعطي، أو ينخدع بأن ما أعطيه دليل على محبة الله ورضاه عنه، فقد يكون العطاء فتنة واستدراجاً، وليس قرينة الرضا والمودة.

لذا كان اغترار قارون بكثرة ماله، وادعاؤه أنه أهل له عبثاً باطلاً.

٦ً - أهلك الله كثيراً من الأمم الخالية الكافرة، وهم أشد قوة من قارون، وأكثر جمعاً للمال منه، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم.

٧ً - لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم سؤال استعلام واستعتاب، فالله عليم بكل شيء، ولا يقبل اعتذارهم ولا عتبهم، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ كما بيّنا.

- ٢ -

بعض مظاهر بغي قارون وكبريائه

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

القراءات:

﴿لَخَسَفَ بِنَا ۖ﴾: قرئ:

١- (لَخَسَفَ بنا) وهي قراءة حفص.

٢- (لَخُسِفَ بنا) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أراد: وقال الذين، فحذف الواو كما حذفت من قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٢] أي ورابعهم.

﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ «وي»: منفصلة من «كأن» بمعنى أعجب، وهي كلمة يقولها المتندم إذا أظهر ندامته. وكأن الله: بلفظ التشبيه، لكن ليس بمعنى التشبيه، أي إن الله.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ أن مخففة من الثقيلة من غير عوض، وإن كانت قد دخلت على الفعل، وتقديره: لولا أن الأمر والشأن منَّ الله علينا لخسف بنا. وقرئ (لَخُسف) و(خُسْفَ) و(لا يُخْسَفُ بنا). فعلى القراءة الأولى: معناه: (لخسف الله بنا) والجار والمجرور في موضع نصب بالفعل، وعلى القراءة الثانية: الجار والمجرور في موضع رفع، لقيامه مقام نائب الفعل، وعلى القراءة الثالثة حذفت الكسرة تخفيفاً، والقراءة الرابعة كقراءة (لَخُسف بنا) للبناء للمجهول.

البلاغة:

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ تأكيد الجملة بإن واللام؛ لأن السامع شاك متردد.

﴿تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ كناية، كنَّى عن الزمن الماضي القريب بلفظ (الأمس).

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَخَرَجَ﴾ قارون ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ في موكب مهيب يتبعه الركبان متحلين بملابس الذهب والحرير على خيول وبغال متحلية، وكانوا أربعة آلاف. (يا) للتنبيه﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ في الدنيا، تمنوا مثله، لا عينه حذراً من الحسد، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ﴾ لصاحب نصيب﴿عَظِيمٍ﴾ وافٍ في الدنيا ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بأحوال الآخرة وما وعد الله فيها، فالمراد بالعلم: علم الدين وأحوال المتقين﴿وَيْلَكُمْ﴾ الويل: الهلاك أو العذاب، والمراد هنا: الزجر عما لا ينبغي﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة بالجنة﴿خَيْرٌ﴾ مما أوتي قارون في الدنيا ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي لا يتلقى الجنة المثاب بها﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات وعن المعاصي.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ أي بقارون، وخسف: غار في الأرض، والمراد: جعلنا عاليها سافلها ﴿فِئَةٍ﴾ جماعة أعوان ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره، بأن يمنعوا عنه الهلاك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ المتمنعين من عذاب الله تعالى﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ من قريب ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي ألم تر أن الله، وكلمة «وي» اسم فعل بمعنى أتعجب، وكأنَّ: للتشبيه في الأصل، وليس المراد بها هنا التشبيه، وإنما المراد: بل إن الله﴿يَبْسُطُ﴾ يمدُّ ويعطي ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق ويقتر بمقتضى مشيئته، لا لكرامة تقتضي البسط، ولا لهوان يوجب القبض.

المناسبة:

هذا فصل آخر من قصة قارون، فبعد أن ذكر الله تعالى بغيه على بني إسرائيل وتجبره عليهم، أعقبه ببيان بعض مظاهر بغيه وكبريائه، فقام باستعراض عظمته وقوته وأبهته، تعالياً على الناس، وإذلالاً للنفوس، وكسراً للقلوب، فعاقبه الله بالخسف والزلزال، وأصبح المعجبون بحاله متعجبين مما حلَّ به، وأدركوا أن الإمداد بالرزق الإلهي لا لكرامة ومنزلة للإنسان عند الله، كما أن حجب الرزق لا لهوان وسخط.

التفسير والبيان:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي فخرج قارون يوماً على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى حاشيته، بقصد التعالي على الناس، وإظهار العظمة والأبهة. قال الرازي: وليس في القرآن إلا هذا القدر[1]، يعني أن وصف الزينة كما يذكر بعض المفسرين لا دليل عليه.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي فلما خرج في مظاهر الأبهة كان طبيعياً أن يفتتن بعض

(١) تفسير الرازي: ٢٥/ ١٧

الناس به، وهم السُّذَّج والجهال الذين يريدون الحياة الدنيا، ويميلون إلى زخارفها وزينتها، فتمنوا أن لو كان لهم مثل ما أُعطي، وقالوا: يا ليت لنا من الأموال والثروات والأوضاع ما لقارون، لنتمتع بها مثله، فإنه ذو نصيب وافر من الدنيا. وهذه نزعة جِبِلِّيَّة في الإنسان، فهو دائماً يطمع في السعة واليسار: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ١٠٠/٨].

وفي مقابلة هذا الفريق يوجد فريق آخر هم أهل الحكمة والعلم وبعد النظر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي وقال علماء الدين وأهل العلم النافع: ويلكم أي انزجروا وارتدعوا عن هذه التمنيات والأقوال، فإن جزاء الله ومثوبته لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون وما تتمنون، ولكن لا يتلقى الجنة أو المثوبة ولا يوفق لها إلا الصابرون على الطاعات وعن المعاصي، الراغبون في الدار الآخرة، الراضون بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار، المترفعون عن محبة الدنيا، وذلك كما جاء في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾» [السجدة: ١٧/٣٢].

ثم ذكر تعالى عقاب قارون فقال:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي بعد أن اختال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم، زلزلنا به وبداره الأرض، فابتلعته وغاب فيها جزاء بطره وعتوه، كما ثبت في صحيح البخاري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجرُّ إزاره، إذ خَسَف الله به، فهو يتجلجلُ في الأرض إلى يوم القيامة».

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا حاشيته، ولا دفعوا عنه نقمة الله ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصراً لها، فأصبح لا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

ولا داعي لبيان أسباب الخسف المروية في التفاسير، فإنها كما ذكر الرازي في أكثر الأمر متعارضة مضطربة، والأولى طرحها، والاكتفاء بما دلَّ عليه نص القرآن، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب[1].

وحينئذ ظهرت العبرة للمعتبر، وتبين المفتونون بما قال قارون حقيقة الأمر:

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي صار الذين رأوه في زينته وتمنوا في الماضي القريب أن يكونوا مثله يقولون: ألم تر أن الله يمدُّ الرزق لمن يشاء من خلقه ويضيقه على من يشاء، وليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسِّع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، كما جاء في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قَسَم بينكم أخلاقكم كما قَسَم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب».

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي لولا لطف الله بنا، وإحسانه إلينا، لخسف بنا الأرض، كما خسف بقارون؛ لأنا وددنا أن نكون مثله، وألم تر أن الله لا يحقق الفوز والنجاح للكافرين به، المكذبين رسله، المنكرين ثواب الله وعقابه في الآخرة، مثل قارون.

(١) تفسير الرازي: ٢٥/ ١٨

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - لقد استبد البغي والغرور والبطر والكبر بقارون، فتعالى على قومه بني إسرائيل، وأراد إظهار أبهته وعظمته أمامهم، فخرج عليهم في يوم عيد في موكب مهيب مزدان بمتاع الحياة الدنيا من الثياب والتجمل والدواب.

٢ً - انقسم الناس في شأن قارون بعد هذا الاستعراض فريقين: فريق ينبهر بسطحيات الأمور، فأعجب بهذا المظهر، وتمنى أن يكون مثل قارون في الثروة والمال والعزة والجاه، وهؤلاء هم الماديون في كل زمان.

وفريق نوَّر الله بصيرته، ولم يغتر بمظاهر الدنيا وزخارفها، وإنما نظر إلى الحقائق، وأدرك أن الدنيا فانية، وأن السعادة بالفوز في الآخرة، وهؤلاء هم العلماء المؤمنون العارفون بمصير العالم والإنسان وهم أحبار بني إسرائيل، فقالوا لأصحابهم الفريق الأول: ويلكم (كلمة زجر) ثواب الله أي الجنة ونعيمها خير من مال قارون وجاهه، وهي لمن آمن وعمل الأعمال الصالحة، ولا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله. ويلاحظ أن الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يراد به الجنة؛ لأنها المعنية بقوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾

٣ً - كان عقاب قارون في الدنيا الخسف به وبداره الأرض، فأصبح كأن لم يكن، وله في الآخرة عذاب النار، ولم يكن له في الحالين جماعة ينصرونه ويمنعونه من عذاب الله، وما كان من المنتصرين الممتنعين من العذاب.

٤ً - إن في ذلك لعبرةً للمتأمل، فقد ندم الذين تمنوا أن يكونوا مثله، وتنبهوا إلى حقيقة الأمر، وتعجبوا من تعجيل العقاب، وأدركوا أن سعة الرزق ليست دليلاً على رضوان الله، كما أن تقتير الرزق ليس علامة على سخط الله، وحمدوا الله على فضله ورحمته وعصمته من مثل ما كان عليه قارون

من البغي والبطر وما نزل به من العقاب، وأيقنوا أن لا فلاح ولا فوز عند الله للكافرين به، المكذبين رسله، الجاحدين نعمته.

٥ - إن عاقبة الكبر والتعالي وخيمة، وإن الاعتزاز بالأموال والأوصاف نذير سوء، ذكر الحافظ محمد بن المنذر في كتاب «العجائب الغريبة» عن نوفل ابن مساحق قال: رأيت شاباً في مسجد نجران، فجعلت أنظر إليه، وأتعجب من طوله وتمامه وجماله، فقال: مالك تنظر إلي؟ فقلت: أتعجب من جمالك وكمالك. فقال: إن الله ليعجب مني، قال: فما زال ينقص حتى صار بطول الشبر، فأخذه بعض قرابته في كمه، وذهب به.

وهذا واضح اليوم حين يفترس السرطان جسد الإنسان، فيتآكل عظمه من الداخل تدريجياً، ويضمر ويصيبه الهزال الشديد، حتى يصبح قَزَماً صغيراً، ثم يموت.

- ٣ -

محل الجزاء ومقداره والعبرة من قصة قارون

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

الإعراب:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ، و﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾: إما خبر، فيكون قوله تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ في موضع نصب على الحال أو في موضع رفع خبر بعد خبر، وإما عطف بيان، فيكون قوله: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ خبر المبتدأ.

البلاغة:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ بينهما مقابلة.

﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وضع الظاهر وهو السيئات موضع الضمير أي «عملوها» تهجيناً لحالهم، بتكرير إسناد السيئة لهم.

المفردات اللغوية:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ أي الجنة، وتلك: إشارة تعظيم، كأنه قال: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها ﴿عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قهراً وتكبراً وغلبة ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ ظلماً على الناس، كما أراد فرعون وقارون ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المصير المحمود ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عقاب الله أو ما لا يرضاه الله، بفعل الطاعات.

﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الفعلة الطيبة ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتاً وقدراً ووصفاً ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ الفعلة المنكرة الخبيثة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا مثل ما كانوا يعملون، فحذف المثل، وأقام مقامه: ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مبالغة في المماثلة.

المناسبة:

بعد بيان قول أهل العلم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أبان الله تعالى محل هذا الجزاء وهو الدار الآخرة، وجعله للمؤمنين المتقين المتواضعين الذين لا يتكبرون على الناس ولا يفسدون فيهم، بظلمهم وأكل حقوقهم، ثم بيَّن بعدئذ مقدار ذلك الجزاء الذي يحصل لهم: وهو أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، فأكثر، فضلاً من الله ورحمة، وجزاء السيئة مثلها، لطفاً من الله وعدلاً. وذلك كله عبرة بقصة قارون المتجبر المتكبر الباغي.

التفسير والبيان:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي

إن الدار الآخرة ونعيمها الدائم الذي لا يحول ولا يزول، ولا عناء فيه ولا مشقة، يجعلها ربك لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم بغير حق، ولا فساداً بأخذ أموالهم بغير حق. ولم يعلق الوعد بالنعيم بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما. وقال: ﴿تِلْكَ﴾ على جهة التعظيم للجنة والتفخيم لشأنها، يعني تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها.

قال علي رضي الله عنه - فيما رواه ابن جرير عنه -: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ الآية. قال ابن كثير: وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«إنه أُوحِيَ إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» .

وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل، فهذا لا بأس به، فقد ثبت - فيما روى مسلم وأبو داود - أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْر: بطَرُ الحق، وغَمْط الناس» .

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي والمصير المحمود وهو الجنة لمن اتقى عذاب الله وخاف عقابه، بعمل الطاعات، وترك المحظورات المحرَّمات، ولم يكن كفرعون الطاغية الجبار الكافر بالله، ولا كقارون الباغية الفاجر المكذب رسل الله، الذي يريد الفساد في الأرض والاستعلاء.

ثم بين الله تعالى حال الجزاء على الأعمال فقال:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي من جاء بالخصلة الحسنة يوم القيامة، فله خير منها ذاتاً ومقداراً وصفة، فثواب الله خير من حسنة العبد، الله يضاعفه أضعافاً كثيراً، فضلاً من الله ورحمةً وإحساناً.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ومن أتى بالفعلة القبيحة المنكرة شرعاً وعقلاً وعرفاً صحيحاً مقبولاً، فلا يجزى عليها إلا مثلها رحمةً وعدلاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٩٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الآتي:

١ - الجنة ونعيمها والعاقبة المحمودة للمؤمنين المتقين المتواضعين الذين لايقصدون رفعةً وتكبراً على الإيمان والمؤمنين، ولا فساداً بعمل المعاصي وأخذ المال بغير حق، وذلك من لم يكن مثل فرعون وقارون. وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يردد هذه الآية حتى قبض.

وقوله: ﴿عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ دليل على أن كل واحد من العلوّ والفساد مقصود، لا مجموعهما. والعلو: الرفعة والتكبر. والفساد: يعم كل أنواع الشر.

٢ - من أتى بالخصلة الحسنة، ومنها: لا إله إلا الله، فله خير منها، ومن جاء بالفعلة السيئة، ومنها الشرك فيعاقب بما يليق بعمله.

وهذا من فضل الله العظيم ورحمته بالناس أنه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والله يضاعف لمن يشاء.

قصص النبي ﷺ وأصحابه مع قومه

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، ووقفاً حمزة (القران).

﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ربيَ أعلم).

الإعراب:

﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ﴾ ﴿مَن﴾: في موضع نصب بفعل مقدر دل عليه﴿أَعْلَمُ﴾ وتقديره: يعلم من جاء بالهدى، كقوله: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٧] أي يعلم من يضل، ووجب التقدير لامتناع الإضافة.

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ ﴿وَجْهَهُۥ﴾: مستثنى منصوب. ويجوز فيه الرفع على الصفة، وتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى غير، مثل: قام القوم إلا زيد، بالرفع على الوصف، كقولهم: قام القوم غير زيد، وكقول الشاعر:

وكـــل أخ مـــفـــارقُـــه أخـــوه لـعــمــرُ أبـيك إلا الــفـرقـدان

أي غيرَ الفرقدين.

البلاغة:

﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ مجاز مرسل، من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل، أي ذاته المقدسة.

المفردات اللغوية:

﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أنزله عليك، وأوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي بلدة مكة، فكأن الله تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظافراً منتصراً، علماً بأن السورة مكية. وقيل: المعاد: هو المقام المحمود الذي وعده ربه أن يبعثه فيه يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة.

﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عالم، و﴿مَن﴾ منتصب بفعل يفسره: أعلم، أي فالنبي هو الجائي بالهدى، جواباً لقول كفار مكة: إنك في ضلال، والحقيقة أنهم في ضلال ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ أي لكن ألقي إليك رحمة من ربك، أي لأجل الترحم ﴿ظَهِيرًا﴾ معيناً وناصراً ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ على دينهم الذي دعوك إليه، بمداراتهم، والتحمل منهم، والإجابة إلى طلبهم.

﴿يَصُدُّنَّكَ﴾ أصله: ولا يصدونك، حذفت نون الرفع للجازم، والواو الفاعل؛ لالتقائها مع النون الساكنة﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي عن قراءتها والعمل بها. ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي لا ترجع إليهم في ذلك ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي وادع الناس إلى توحيده وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بإعانتهم، علماً بأنه لم يؤثر الجازم في الفعل لبنائه ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ تعبد﴿هَالِكٌ﴾معدوم ﴿إِلَّا

﴿وَجْهَهُۥ﴾ إلا ذاته ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ النشور من قبوركم.

سبب النزول:

نزول الآية (٨٥):

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة، فبلغ الجُحْفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾

وقال مقاتل: إنه ﷺ خرج من الغار - غار ثور حين الهجرة - وسار في غير الطريق، مخافة الطلَب، فلما أمن رجع إلى الطريق، ونزل بالجُحْفة بين مكة والمدينة، وعرف الطريق إلى مكة، واشتاق إليها، وذكر مولده ومولد أبيه، فنزل جبريل عليه السلام، وقال له: تشتاق إلى بلدك ومولدك؟ فقال ﷺ: نعم، فقال جبريل عليه السلام: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يعني إلى مكة ظاهراً عليهم. قال الرازي: وهذا المعنى أقرب؛ لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه، وفارقه وحصل العود، وذلك لا يليق إلا بمكة، وإن كان سائر الوجوه محتملاً، لكن ذلك أقرب[١].

المناسبة:

قال الرازي أيضاً: ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة، واستقصى في ذلك، شرح له ما يتصل بأحواله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[٢].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٥/ ٢١

(٢) المرجع والمكان السابق.

وهذا يعني أن الله تعالى بعد أن قصَّ في هذه السورة على رسوله قصص موسى مع فرعون، وقصص قارون مع قومه بني إسرائيل، وبيَّن هلاك كل من الطاغيتين، أعقبه بذكر قصص النبي ﷺ وأصحابه مع قومه، وإخراجهم أو تهجيرهم إياه من مكة، ثم عوده إليها ظافراً منتصراً، متابعاً دعوته إلى عبادة الله وتوحيده.

التفسير والبيان

يأمر الله رسوله بإبلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ويخبره بأنه سيرده إلى معاد فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ أي إن الله الذي أوجب عليك العمل بالقرآن وافترض عليك أداءه إلى الناس، لرادّك إلى بلدك الحبيب: مكة فاتحاً ظافراً منتصراً، بعد خروجك منها مهاجراً. وكان هذا هو الفتح الأعظم الذي تم به الاستيلاء على معقل الكفر والوثنية، وتحطيم الأصنام المنصوبة حول الكعبة المشرفة.

وهو وعد صادق منجز من الله لرسوله، حينما كان في مكة في طريقه إلى المدينة، فاطمأن لذلك وهدأت نفسه، قال المحققون: وهذا أحد ما يدل على نبوته: لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر، فيكون معجزاً.

ولما وعد الله تعالى رسوله الرد إلى معاد أمره أن يقول للمشركين (كفار مكة) توبيخاً لهم حينما اتهموه بأنه في ضلال القول الآتي

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي قل أيها الرسول لمن خالفك وكذبك من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم: الله تعالى العالم البصير الذي يعلم الغيب والشهادة هو عالم بالمهتدي مني ومنكم، وعالم بالضال ضلالاً بيناً ظاهراً، وعالم بمن جاء بالهدى - يعني

نفسه ﷺ - وهو القرآن، وبما يستحقه من الثواب في معاده وإعزازه بالإعادة إلى مكة، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، فينصر المؤمن، ويخذل الكافر.

ثم قال تعالى مذكراً نبيه نعمته العظيمة عليه وعلى الناس إذ أرسله إليهم:

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي وما كنت أيها النبي تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل إليك، وأن القرآن ينزل على قلبك، فتعلم به أخبار الماضين، وتعرف منه دستور الحياة، وتشريع المجتمع الذي فيه سعادتهم ونجاتهم، ولكن إنما أنزل ربك الوحي عليك وألقى عليك الكتاب، رحمةً منه بك وبالعباد بسببك. وبناء عليه كلفه ربه بأمور خمسة هي:

١- ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فلا تكن معيناً للكفار بأي حال، ولكن فارقهم وخالفهم، وكن عوناً للمسلمين، والله مؤيدك وحافظك.

٢- ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين، ولا تتأثر بهم ولا لمخالفتهم لك، ولا تركن إلى قولهم، فيصدُّوك عن اتباع آيات الله المنزلة إليك، وبتليغها للناس، فإن الله معك، ومؤيد دينك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧] .

٣-﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي وادع إلى عبادة ربك وحده لا شريك له، وبلّغ دينه، وأعلن رسالته دون تردد ولا خوف ولا تمهل. وهذا أمر بالصدع أو الجهر بالدعوة، وفيه تشدد بدعوة الكفار والمشركين، ولكن في مظلة الأمن والسلام، والمهادنة والموادعة.

٤-﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي واحذر أن تكون مع الذين أشركوا

بربهم، فجعلوا له شريكاً ونداً، فتكون من الهالكين؛ لأن من رضي بطريقتهم كان منهم.

وهذا النهي عن مظاهرة المشركين ونحو ذلك من باب إلهاب الحماس، وتهييج العاطفة، وإثارة الغيرة على استقلال دين التوحيد وعبادة الله.

ثم فسر ذلك بقوله:

٥-﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي ولا تعبد مع الله إلهاً آخر، ولا تدع في أي عمل من الأعمال إلهاً غير الله؛ لأنه لا تليق العبادة إلا له، ولا جدوى في الدعاء لغيره، ولا تنبغي الألوهية إلا لعظمته، ولا معبود يستحق العبادة سواه، كما قال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩/٧٣] أي فاتخذه وكيلاً في أمورك، وهو نعم الوكيل.

وهذا وإن كان واجباً على الكل، إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصاً لأجل التعظيم.

ثم بيّن الله تعالى صفات الألوهية التي تفرد بها فقال:

أولاً - ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي كل من في الوجود فانٍ إلا ذات الله المقدسة، فهو الدائم الباقي، الحي القيوم، الذي يميت الخلائق ولا يموت، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٢٦-٢٧] . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد:

ألا كـلُّ شيء مـا خـلا الله بـاطـل»

ومقتضى هذا أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس، فإنه الأول والآخر، الذي هو قبل كل شيء، وبعد كل شيء.

ثانياً - ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي له الملك والتصرف والقضاء النافذ في الخلق، ولا معقب لحكمه.

ثالثاً - ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي مصير جميع الخلائق إليه، فإليه ترجعون يوم معادكم، فيجزيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١- ختم الله تعالى سورة القصص ببشارة نبيه محمد ﷺ برده إلى مكة، قاهراً لأعدائه، فاتحاً البلد الحرام، مكسراً الأصنام، معلناً انتهاء عهد الشرك والوثنية، رافعاً راية التوحيد إلى الأبد بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وهذا إشارة إلى الهجرة وإلى فتح مكة أيضاً.

٢- يستخدم القرآن أحياناً أسلوب اللين والحكمة وإثارة الانتباه والتفكير في حقيقة دعوة الإسلام، فلا يحسم الأمر ليترك سبيلاً للمناقشة والأخذ والرد، وهذا من فنون السياسة الرفيعة المستوى، لذا أمر الله نبيه أن يقول: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي قل لكفار مكة وأمثالهم إذا قالوا: إنك لفي ضلال مبين: ربي هو العالم بالمهتدي والضال: أنا أم أنتم.

٣- لا علم لأحد، ولا علم لرسوله أن الله تعالى يرسله نبياً رسولاً إلى الخلق أجمعين، وينزل عليه القرآن نوراً وهدىً ونبراساً ودستوراً للحياة وتشريعاً خالداً صالحاً على الدوام للإنسانية جمعاء.

ولكن رحمة الله برسوله وبعباده اقتضت إرسال الرسول، وإنزال القرآن حكماً عدلاً وقولاً فصلاً.

٤ً- كُلّف الرسول ﷺ بخمسة أمور: ألا يكون عوناً ولا مساعداً للكافرين في جميع الأحوال، وأن يمضي في تبليغ رسالة ربه وأمره وشأنه دون أن تمنعه أقوال الكفار وكذبهم وأذاهم عن مواصلة الطريق في الدعوة إلى الله، وأن يعلن الدعوة إلى توحيد الله، وألا يكون مع المشركين؛ لأن من رضي بطريقتهم كان منهم، وألا يعبد مع الله إلهاً غيره، فإنه لا إله إلا هو، وهذا نفي لكل معبود وإثبات لعبادة الله تعالى.

٥ً- وصف الحق تعالى نفسه بصفات ثلاث: هي كل شيء في الوجود هالك فانٍ غير الله تعالى، وله الحكم النافذ في الدنيا والآخرة، وكل المخلوقات راجعة إليه للحساب والجزاء على الأعمال خيرها وشرها.

وهذا يعني: ليس كل شيء هالكاً من غير رجوع، بل كل شيء هالك، وله رجوع إلى الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ العَنْكَبُوتِ

مكية وهي تسعٌ وستون آية

تسميتها:

سميت سورة العنكبوت؛ لأن الله تعالى شبَّه الذين اتخذوا الأصنام وغيرها آلهة بالعنكبوت التي اتخذت بيتاً ضعيفاً واهناً، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [الآية: ٤١] .

موضوعها:

موضوع السورة كسائر السور المكية تقرير أصول العقيدة وهي الوحدانية، والرسالة والبعث والجزاء، وتثبيت الإيمان في القلوب في جميع الأحوال، وبخاصة وقت الابتلاء والمحنة، فافتتحت بالإخبار عن فتنة الإنسان، وختمت بالحديث عن هداية المجاهدين نفوسهم إلى أقوم السبل ونصرة الله لهم.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها في بيان أمثلة واقعية من الصراع بين الحق والباطل، وبين الضعف والقهر، وبين أثر الصمود والصبر على الإيمان وأثر الانسلاخ منه، ففي سورة القصص ذكر الله تعالى استعلاء فرعون وجبروته، وتفريقه الناس شيعاً، واستضعافه بني إسرائيل بذبح أبنائهم واستحياء

نسائهم، ونجاة موسى عليه السلام مع قومه، ونصره على الطغاة وإغراقهم، كما ذكر الله قصة قارون الباغية وعقابه بالخسف.

وفي هذه السورة ذكر الله قصة المسلمين في مكة الذين فتنهم المشركون عن دينهم، وعذبوهم على الإيمان بنحو أقل من تعذيب فرعون بني إسرائيل، حثاً لهم على قوة التحمل والصبر، وتسلية لهم بما وقع لمن قبلهم، ثم ذكر نجاة نوح عليه السلام في سفينته مع جند الإيمان، وإغراق قومه الذين كذبوه.

كما أن بين السورتين تشابهاً في الإشارة إلى موضوع الهجرة، ففي خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ وفي خاتمة هذه السورة الإشارة إلى هجرة المؤمنين: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٥٦] .

وكذلك يوجد ارتباط بين السورتين في تحديد الغاية والغرض، ففي سورة القصص بيان العاقبة المحمودة للمتقين المتواضعين: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٢٨/٨٣] وفي هذه السورة تقرير العاقبة الحسنة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٥٨] .

ثم إنه تعالى لما قال في آخر السورة المتقدمة: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وأعقبه بما يبطل قول منكري الحشر: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ رد في مطلع هذه السورة على منكري الحشر القائلين: لا فائدة في التكاليف إذ لا مرجع بعد الهلاك والزوال، ومضمون الرد أن للتكليف فائدة وهي أن يثيب الله الشكور ويعذب الكفور.

مشتملات السورة:

اشتملت هذه السورة على ما يأتي:

١ً- إعلان اختبار المؤمنين على الشدائد والمحن في الدنيا، وبيان فائدة جهاد النفس، ومعرفة مدى صلابة الإيمان وقت الشدة، فالمؤمن هو المجاهد الصابر الذي لا يلين أمام الأحداث الجسام، ويظل ثابت العهد كالطود الشامخ دون أن يتزحزح عن إيمانه وعقيدته، وأما مهتز الإيمان أو المنافق، فيُظهر الإيمان أحياناً، ولكنه لا يتحمل الأذى في سبيل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وحينئذ يعلم الله المؤمنين علم انكشاف وإظهار كما يعلم المنافقين، لكنه سبحانه عالم بذلك سلفاً.

٢ً- الحديث عن محنة الأنبياء التي هي أشد وأصعب من محنة المؤمنين، فقد قص الله على رسوله وعلى المؤمنين قصة نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وهود، وصالح، وموسى، وهارون، ليعلموا أن الله نصرهم، وأهلك أقوامهم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٠].

٣ً- محاجة المشركين بضرب الأمثال لهم تقريعاً وتوبيخاً، ومحاجة أهل الكتاب بالحسنة واللين والحكمة.

٤ً- إثبات نبوة محمد ﷺ بمعجزة إنزال القرآن عليه علماً بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وتفنيد بعض شبهات المشركين في نبوته، واستعجالهم العذاب المحقق نزوله بهم.

٥ً- الإذن للمؤمنين بالهجرة من ديارهم فراراً بدينهم من الفتن، وترغيبهم بالصبر، وإبعاد خوف الموت عن نفوسهم؛ فإن الموت محقق في كل مكان وزمان، وتبشيرهم بالعاقبة الحسنة إذا عملوا الصالحات، وزهدوا في الدنيا؛ لأن الدار الآخرة هي دار الحياة الباقية الحقة.

٦ً- اعتراف المشركين بأن الله هو خالق السماوات والأرض وأنه هو الرازق، وأنه كاشف الضر والمنجي من المخاطر، وذلك يتضمن الحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية في هذا الكون الفسيح.

٧ً- الامتنان على أهل مكة بإقامتهم في الحرم الامن، مع خوف من حولهم، ثم كفرهم بهذه النعمة وغيرها بالإشراك بالله، وتكذيب رسوله، وهو غاية الظلم.

٨ً- بيان جزاء المؤمنين الذين صبروا أمام المحن والشدائد، وجاهدوا في سبيل الله بالنفس والمال، واجتازوا المحنة بأمان وسلام.

اختبار الناس وجزاؤهم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

الإعراب:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾: منصوب بـ ﴿حَسِبَ﴾ سدَّ مسد مفعوليها. و ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾: في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، أي أن يقولوا.

﴿يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ﴿مَا﴾: إما في موضع رفع بمعنى: ساء الشيء أو الحكم حكمهم، وإما في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون.

البلاغة:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار.

﴿صَدَقُوا۟﴾ ﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ بينهما طباق.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ﴾ التأكيد بإن واللام؛ لأن المخاطب منكر.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعيل.

المفردات اللغوية:

﴿الٓمٓ ①﴾ هذه الحروف الهجائية تنبيه على إعجاز القرآن، ووقوع الاستفهام بعدها دليل على استقلالها بنفسها ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ أظن الناس، والاستفهام إنكاري، وتدخل (حَسِبَ) على الجملة للدلالة على جهة ثبوتها ﴿أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي أحسبوا تركهم غير مفتونين، لقولهم: آمنا، بل يمتحنهم الله بمشاق التكاليف، كالهجرة والجهاد ومقاومة الشهوات والقيام بالطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، ليتميز المخلص من المنافق، والثابت في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر عليه عوالي الدرجات، فإن مجرد الإيمان لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يختبرون ويمتحنون بما يتبين به حقيقة إيمانهم بالتعرض للشدائد.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي إن ذلك سنة قديمة، جارية في الأمم كلها، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي ليظهرن صدقهم وكذب المكذبين، وينوط به ثوابهم وعقابهم، وهذا تعلق حالي وعلم مشاهدة يتميز به الفريقان، ولا ينافي تعلق علم الله القديم بكل شيء، فهو عالم بما خلق قبل الخلق.

﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفر والمعاصي، فإن العمل يعم أفعال القلوب

والأعضاء ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ يفوتونا فلا ننتقم منهم، أي الفوت عن الجزاء على مساويهم ﴿سَآءَ﴾ بئس الحكم هذا ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ الذي يحكمونه، أي قبح حكمهم أنهم يهربون منا .﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي يأمل ويطمع في لقائه وثوابه وجزائه في الجنة، وقيل: يخاف لقاءه: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾ أي فإن الوقت المحدد للقائه أو هو الموت لجاءٍ لا محالة، فليستعد له ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم.

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على الطاعة والكف عن الشهوات، وبذل جهده في مقاومة الأعداء بالنفس أو المال﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ﴾ فإن منفعة جهاده له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عن الإنس والجن والملائكة، وعن عبادتهم، فلا حاجة به إلى طاعتهم، وإنما كلف عباده رحمة بهم ومراعاة لصلاحهم ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعمل الصالحات فيسقط عقابها بثواب الحسنات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهو الصالحات، و﴿أَحْسَنَ﴾ إما بمعناه أو بمعنى حسن، وهو منصوب بنزع الخافض: الباء، والمعنى لنجزينهم بأحسن جزاء لأعمالهم، وهو أن يجازي الحسنة الواحدة بالعشر وزيادة.

سبب النزول:

روي أنها نزلت في ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين، وقيل: في عمار، وقد عذب في الله، أخرج ابن سعد عن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي في قوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ الآية قال: أنزلت في أناس كانوا بمكة، وقد أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا، فخرجوا عامدين إلى المدينة، فتبعهم المشركون،

فردوهم، فنزلت فيهم هذه الآية، فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا، فقالوا: نخرج، فإن اتَّبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل، ومنهم من نجا، فأنزل الله فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١١٠].

وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن قتادة قال: أنزلت ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ في أناس من أهل مكة خرجوا، يريدون النبي ﷺ، فعرض لهم المشركون، فرجعوا، فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم، فقتل من قتل، وخلص من خلص، فنزل القرآن: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[العنكبوت: ٢٩/ ٦٩].

وقال مقاتل: نزلت في مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب، كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله، فقال النبي ﷺ يومئذ: «سيد الشهداء مِهْجَع، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة» فجزع عليه أبواه وامرأته، فنزلت: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ الآية.

التفسير والبيان:

﴿الم ﴿١﴾﴾ هذه الحروف المقطعة بدئ بها لتنبيه السامع وطلب إصغائه وإشعاره بإعجاز القرآن الدال على كونه كلام الله الحكيم الخبير.

وقد لاحظ الرازي[١] أن كل سورة في أوائلها حروف التهجي بدئت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن، كأوائل سورة البقرة ﴿الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وآل عمران ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ

(١) تفسير الرازي: ٢٥/ ٢٦ وما بعدها.

﴿ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ والأعراف ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ويس ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ وص ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ وق ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾، والحواميم (غافر أو المؤمن، وفصلت أو السجدة، والشورى) إلا ثلاث سور: سورة مريم والعنكبوت، والروم.

وقد حصل التنبيه في القرآن بغير حروف التهجي التي لا يفهم معناها، كقوله تعالى في أول سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ وفي أول سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وفي أول سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾

والسبب في بدء هذه السورة بهذه الحروف، وليس فيها الابتداء بالقرآن أو الكتاب هو الإشارة إلى مبدأ التكليف، وجميع التكاليف فيها ثقل على النفس، فبدئ بحروف التنبيه للفت النظر إلى خطورة ما يلقى بعدها.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ أي أظنَّ الناس بعد خلقهم أن يتركوا بغير اختبار بمجرد قولهم: آمنا بالله ورسله، وهم لا يمتحنون بمشاق التكاليف كالهجرة والجهاد في سبيل الله، ومقاومة الشهوات، ووظائف الطاعات والفرائض المالية والبدنية من صلاة وصيام وحج وزكاة ونحوها، والتعرض للمصائب في الأنفس والأموال والثمرات، ليتميز المؤمن المخلص من المنافق، والراسخ في الدين من المضطرب فيه، ونجازي كل واحد بحسب عمله.

وهذا استفهام إنكار، معناه أن الله تعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة، زيد له في البلاء».

ونظير هذه الآية قوله. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٢] وقوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٤].

وقد بينت أن هذه الآية نزلت في بعض المؤمنين في مكة، الذين كان كفار قريش يعذبونهم على الإسلام ويؤذونهم بأشد أنواع الإيذاء، كعمار بن ياسر وأمه سُمَيَّة وأبيه ياسر، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وسلَمة بن هشام.

ويظهر أن التعرض للأذى باقٍ في أمة محمد ﷺ ما دام هناك إسلام يمثل جوهر الحق، وعقيدة صحيحة تتحدى تيارات الإلحاد والكفر والعلمانية وأوضار الوثنية في كل أنحاء الأرض، وما دام قرآن مجيد يحافظ على وجود المسلمين، ويتلى في كل مكان. ولن تفلح قوى الشر في إخفات صوت الإسلام، ودفن صرح التدين، وتصفية جند الإيمان بالله عز وجل، قال ابن عطية: وهذه الآية، وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر، لأن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك.

وليس الافتتان والإيذاء بدعاً بين المسلمين، وإنما هو سنة الله الدائمة في خلقه في الماضي والحاضر والمستقبل، لذا قال تعالى تسلية لهم: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ أي وتالله لقد امتحنا واختبرنا المؤمنين السابقين، بل والأنبياء القدامى بأنواع عديدة من الشدة والمشقة والضرر، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٦].

والهدف من الاختبار أن يعلم الله علم ظهور وانكشاف، أي يظهر الذين صدقوا في دعوى الإيمان، ممن هو كاذب في قوله ودعواه، وسيجازي كل واحد بما قدَّم. والله يعلم سلفاً ما كان وما يكون وما لم يكن، ولو كان كيف يكون، بإجماع أهل السنة والجماعة، لذا قال ابن عباس في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: إلا لنرى؛ لأن الرؤية تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.

ويلاحظ أنه قال في حق المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ بصيغة الفعل، أي وجد منهم الصدق، وقال في حق الكافرين: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل الدالة على الثبات والدوام. هذا فضلاً عن أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة.

وقد ورد في السنة الصحيحة أخبار ونماذج من تعذيب المؤمنين قبل الإسلام، روى البخاري وأبو داود والنسائي عن خبَّاب بن الأرتّ قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسِّد بُرْدة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال:

قد كان من قَبْلكم يؤخذُ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمِنْشَار فيوضعُ على رأسه، فيجعلُ نصفين، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه، فما يصرفه ذلك عن دينه، والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: «دخلت على النبي ﷺ، وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه، فوجدت حَرَّه بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدّها عليك!! قال: إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء، ويُضعَّف لنا الأجر، قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء، قلت: ثم

من؟ قال: ثم الصالحون أن كان أحده ليُبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباء يحُوبها[١]، وأن كان أحدهم ليفرح بالبلاء، كما يفرحُ أحدكم بالرخاء» .

والخلاصة: إن الحياة ميدان كفاح وجهاد وشقاء وعناء، وكلما عظمت المسؤولية عظم قدر المسؤول، وكلما أهملت المسؤولية أو التبعة أهمل المسؤول، فالتكليف دليل التكريم، وهو رمز الشخصية وإثبات الذات، ولا طعم للحياة دون عمل وتكليف؛ لأن لذة الحياة ومتعتها أن يعمل الإنسان لغاية وهدف معين، وإلا كان الأمر عبثاً موقعاً في السأم والحيرة، فالحمد لله على التكليف، والشكر له على الابتلاء والاختبار، ليتميز العامل من العابث، والملتزم المتقن من المتسيب الذي لا يبالي بشيء.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ أي بل أظن الذين يقترفون المعاصي أن يفوتونا فلانجازيهم؟ لن يفلتوا من عذابنا، بئس ما يظنون، وبئس الحكم ما حكموا بأن يعصوا ويخالفوا أمر الله، ولا يعاقبون، إنه حكم مغلوط سَيِّئ رديء، يتنافى مع مقتضى العقل والشرع والعدل.

قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة، وأبا جهل والأسود، والعاص بن هشام، وعتبة والوليد بن عتبة، وعقبة ابن أبي مُعَيط، وحنظلة بن أبي سفيان، والعاص بن وائل.

وبعد بيان أن من ترك التكليف عُذّب، بيّن سبحانه أن من آمن بالآخرة وعمل لها، يجد ثواب عمله فقال:

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ أي من كان يتوقع الخير ويطمع ويأمل في ثواب الله الجزيل في الدار الآخرة،

(١) وفي الجامع الصغير للسيوطي: «يجوبها» أي يخرقها ويقطعها، وهو أولى.

ويعمل صالحاً، فإن الله سيحقق له رجاءه، ويوفيه عملاً كاملاً غير منقوص، فإن وقت البعث والحياة الثانية بالحشر كائن لا محالة، والله سميع الدعاء وجميع أقوال عباده لا يخفى عليه منهم شيء، عليم بصير بكل الكائنات، يعلم عقائدهم وأعمالهم، ويجازي كل واحد بما عمل، وهذا دليل على تأكد حصول الوعد والوعيد، وحث على المبادرة بالعمل الصالح الذي يصدق الرجاء ويحقق الأمل ويكتسب به القربة عند الله والزلفى.

وأجل الله: يمكن أن يكون المراد به الموت، ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بعد الحشر.

وقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ﴾ شرط وجزاء، والمراد وعد المطيع بما يعِده من الثواب، فمن كان يرجو لقاء الله، فإن أجل الله لآت بثوابه، يثاب على طاعته عنده، ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً على وجه يثاب هو.

لكن نفع التكليف للمكلف لا لله تعالى:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ أي ومن جاهد نفسه وهواه، فأدى ما أمر الله به وانتهى عما نهى عنه، فإن ثمرة جهاده تعود له، ونفع عمله لنفسه لا لغيره، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١/٤٦] ، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧] فإن الله غني عن أفعال عباده وجميع خلقه من الإنس والجن.

ونوع جزاء المطيع هو:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ أي إنه تعالى مع غناه عن الخلائق جميعهم، فإنه يجازي أحسن الجزاء الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا صالح الأعمال، بأداء

الفرائض وفعل الخيرات، من مواساة البائسين وإغاثة المظلومين، ودعم أمتهم بالنفس والنفيس، وأحسن الجزاء: هو أنه يكفر عنهم أسوأ الذين عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب على الواحد منها بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ٤٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً- الدنيا دار ابتلاء واختبار وتكليف بالشاق من الأعمال، فلا يكفي مجرد إعلان الإيمان بالله تعالى ورسوله، بل لابدّ من الابتلاء بأنواع المصائب، وألوان الطاعات؛ لأن المقصد الأسمى من العبادة محبة الله، كما ورد في الخبر الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبَّه» فإن قال الإنسان: آمنت بالله بلسانه، فقد ادعى محبة الله في الجنان، فاحتاج إلى شهود تصدقه، وأداء الطاعات والقربات، واجتناب المحظورات شهود عيان للتصديق.

ويكون الابتلاء سبيلاً للرقي من أول الدرجات إلى أعلى الدرجات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١] وقال سبحانه: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ﴾ [النساء: ٤/ ٩٥].

٢ً- الابتلاء سنة الله في خلقه، وعادته في عباده، فقد ابتلى الله الماضين كإبراهيم الخليل ألقي في النار، وكيحيى الحصور الذي قتل، وكقوم نشروا بالمناشير في دين الله، فلم يرجعوا عنه، كما تقدم بيانه، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون وقومه، كما ابتلوا بقارون، وأصابهم الجهد الشديد، وابتلى المؤمنون بعيسى بمن كذبه وأعرض عنه، وهمَّ بقتله، وهم اليهود وحكام عصره.

٣ً- الهدف من الابتلاء إظهار صدق الصادقين في إيمانهم وتبيّنه في واقع الأمر، وكشف كذب الكاذبين الذين يدّعون الإيمان بالله، وهم كافرون به.

٤ً- لن يفلت الكافرون والمجرمون والعصاة من العقاب، فإن ظنوا الإفلات، فبئس الحكم حكمهم.

٥ً- لابدّ من أن يجازى المحسن بإحسانه يوم القيامة.

٦ً- هذه الحقائق الثلاث المتقدمة وهي اختبار المؤمن بالفتن، وعقاب العاصي على العمل، وجزاء المحسن الذي يطمع في لقاء ربه، حاصلة لا شك فيها، ولكن من جاهد في الدين، وصبر على قتال الكفار، وأعمال الطاعات، فإنما يسعى لنفسه، ويكون ثواب ذلك كله له، ولا يرجع إلى الله شيء من النفع، ومن أهمل جهاد نفسه، ولم يؤد طاعة ربه، ولم يتجنب الحرام، فإنما يسيء لنفسه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤١/٤٦] ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٧/٧].

والله غني عن أعمال عباده، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية.

٧ً- إن نوع جزاء العمل الصالح لا مثيل له في الدنيا عند أحد من الخلائق، فإن الله تعالى يغطي السيئات بالمغفرة، ويضاعف الحسنات وثواب الطاعات، ولا يهمل شيئاً منها مهما قلّ، وإنما يقدره على أحسن وجه وأكمله، ويجازي الذين صدقوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات بأحسن أعمالهم.

٨ً- الآيات في الجملة تعرِّف بحقائق الدنيا، فهي قائمة على الابتلاء والاختبار، وتشحذ العزائم لزرع العمل الصالح في الدنيا، وتؤكد أن يوم الجزاء قريب الحصول، لإقامة العدل بين المحسن والمسيء، وتبين أن العمل الصالح خير للإنسان نفسه لا لغيره، والله غني عن العالمين.

٩ً- دلت آية ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ

﴿٦﴾ على وجوب إكثار العبد من العمل الصالح وإتقانه له؛ لأن من علم أن الله يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه، وإذا علم أن نفعه له، ومقدّر بقدر عمله، يكثر منه.

١٠ً- الجزاء على العمل بحكم الوعد لا بالاستحقاق. وتدل الآية المتقدمة على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله؛ لأنه ليس هناك سلطان أعلى من الله يوجب شيئاً عليه، والعبد أدنى منه، وتدل أيضاً على أن الله ليس في مكان معين، وليس على العرش على الخصوص، لأن العرش من مخلوقات الله، والله غني عنهم.

١١ً- في هذه الآية أيضاً بشارة وإنذار، أما الإنذار فلأن الله إذا كان غنياً عن العالمين، فلو أهلك عباده فلا شيء عليه لغناه عنهم، وهذا يوجب الخوف العظيم، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنياً، فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده، لا شيء عليه؛ لاستغنائه عنه، وهذا يوجب الرجاء التام.

١٢ً- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يدل على أن الأعمال مغايرة للإيمان؛ لأن العطف يفيد التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه.

والإيمان: التصديق بالله ورسوله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر خيره وشره. والعمل الصالح: كل ما أمر الله به، فيصير صالحاً بأمره، ولو نهى عنه لما كان صالحاً، ولا بقاء للعمل الصالح إلا إذا كان لوجه الله الباقي حتى يبقى، وما لا يكون لوجهه لا يبقى، لا بنفسه لأنه عرض زائل، ولا بالعامل؛ لأنه ميت هالك، ولا بالمعمول له؛ لأن غير الله فانٍ، فالعمل الصالح: هو الذي أتى به المكلف مخلصاً لله.

والنية: شرط في الصالحات من الأعمال، وهي قصد الإيقاع لله. والعمل الصالح: لا يرتفع إلا بالكلم الطيب وهو الإيمان، فالعمل من غير المؤمن لا يقبل.

وقد ذكر الله في الآية نوعين من أعمال العبد: الإيمان والعمل الصالح، وذكر في مقابلتهما من أفعال الله أمرين: تكفير السيئات وهو في مقابلة الإيمان، والجزاء بالأحسن وهو في مقابلة العمل الصالح.

وهذا كما قال الرازي يقتضي أموراً ثلاثة:

الأول - المؤمن لا يخلد في النار؛ لأنه بإيمانه تكفر سيئاته، فلا يخلد في النار.

الثاني - الجزاء الأحسن المذكور هنا غير الجنة؛ لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة، ولا يبعد أن يكون الجزاء الأحسن هو رؤية الله عز وجل.

الثالث - الإيمان يستر قبح الذنوب في الدنيا، فيستر الله عيوبه في الآخرة، والعمل الصالح يحسِّن حالة صاحبه في الدنيا، فيجزى الجزاء الأحسن في العقبى، والإيمان لا يبطله العصيان، بل هو يغلب المعاصي ويسترها، ويحمل صاحبها على الندم[1].

١٣- أجمل الله حال المسيء بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إشارة إلى التعذيب، وحال المحسن بقوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ ثم فصل حال المحسن بآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه، وفضله أعم من عدله.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٥/ ٣٤

صلابة المكلفين ومظاهر فتنة المؤمنين وتهديد الكافرين والمنافقين

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

الإعراب:

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فيه حذف الجار والمجرور، أي ولنحمل خطاياكم عنكم.

البلاغة:

﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تشبيه مرسل مجمل، حذف منه وجه الشبه، فهو مجمل.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ استعارة، شبه الذنوب بالأثقال؛ لأنها تثقل الإنسان معنوياً.

المفردات اللغوية:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أمرنا، وصى بمعنى أمر معنى وتصرفاً .﴿حُسْنًا﴾ أي

بأن يفعل معهم حُسْناً، أي فعلاً ذا حسن بأن يبرهما، أو هو الحسن نفسه مبالغة، كأنه في ذاته حسن لفرط حسنه، وقرئ: حَسَناً وإحساناً. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي ما ليس لك بإشراكه علم، أو ما ليس لك بألوهيته علم، أي معلوم، كأنه قال: لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم، عبر عن نفي الألوهية بنفي العلم بها إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في الإشراك إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك، فأجازيكم حق الجزاء، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيكم به.

﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم، وهم الأنبياء والأولياء، بأن نحشرهم معهم. ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي بأن عذبهم الكفرة على الإيمان. ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أذاهم له في الصرف عن الإيمان. ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في صرف المؤمنين عن الكفر، فيطيعهم فينافق. ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ اللام لام القسم، ومجيء النصر بالفتح للمؤمنين والغنيمة. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ حذفت منه نون الرفع، ليقولونن لتوالي النونات، وحذفت الواو: ضمير الجمع لالتقاء الساكنين. ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدين والإيمان، فأشركونا في الغنيمة. ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي بما في قلوبهم من الإخلاص والنفاق؟ بلى.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدقوا بقلوبهم. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، فيجازي الفريقين، واللام في الفعلين: لام قسم. ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ طريقنا الذي نسلكه في ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي عنكم في اتباعنا، إن كانت لكم خطايا، والأمر بمعنى الخبر. ﴿مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من الأولى: للتبيين، والثانية: مزيدة، والتقدير: وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم. ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ أوزارهم أو ذنوبهم التي اقترفتها أنفسهم. ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي ذنوباً أخرى معها لما تسببوا بالإضلال وحمل الآخرين على المعاصي، من غير أن ينقص من أثقال من تبعهم

شيء ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الأباطيل التي أضلوا بها.

سبب النزول:

نزول الآية (٨):

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: روى مسلم وأحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن سعد بن أبي وقاص قال: قالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾

وتوضيح ذلك في رواية الترمذي: أن الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه حَمْنة بنت أبي سفيان لما أسلم، وكان من السابقين الأولين، وكان باراً بأُمِّه، قالت له: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت، فتتعيَّر بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يوماً وليلة، لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل، فأصبحت وقد جَهَدت، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أماه، لو كانت لك مئة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني، فكلي إن شئت، وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية، آمراً بالبر بالوالدين والإحسان إليهما، وعدم طاعتهما في الشرك به.

وقال ابن عباس في آية ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾: نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه، وقد فعلت أمه مثل ذلك. وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة؛ إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صديق.

نزول الآية (١٠):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: نزلت في المنافقين. قال مجاهد: نزلت

في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله ومصيبة في أنفسهم افتتنوا.

وقال الضحاك: نزلت في أناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا رجعوا إلى الشرك.

وقال ابن عباس: نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون عن الدين فارتدُّوا، والذين نزلت فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٤/٩٧][1]. وقيل: نزلت في عياش بن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذي وضرب فارتد، وكان عذبه أبو جهل والحارث، وكانا أخوين لأمه، ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه.

نزول الآية (١٢):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال مجاهد: إن الآية نزلت في كفار قريش قالوا لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فاتبعونا، فإن كان عليكم إثم فعلينا.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى حسن التكاليف وثواب الآتي بها تحريضاً للمكلف على الطاعة، ذكر أن الإتيان بها واجب ولو كان بمخالفة الوالدين اللذين يجب الإحسان إليهما والطاعة، فلا يكون ذلك مانعاً من الإيمان ورفض الشرك ومقاومة معصية الله تعالى.

ثم ذكر أن العامل بالصالحات يدخله الله في زمرة الأنبياء والأولياء.

وبعد أن أبان الله تعالى حال صنفين من المكلفين: المؤمن حسن الاعتقاد

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ١٩٦.

والعمل، والكافر المجاهر بكفره وعناده في قوله وعناده في قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أردف ذلك ببيان حال الصنف الثالث وهم المنافقون بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

ثم ذكر الله تعالى محاولات الكفار في فتنة المؤمنين عن دينهم، دعوتهم بالرفق واللين إلى الشرك، ومساومتهم واستعدادهم تحمل تبعات ذنوب المؤمنين إن كانت.

التفسير والبيان:

تشتمل الآيات على موضوعات ثلاثة: التمسك بالتوحيد ولو بمخالفة أمر الأبوين رغم الأمر بالإحسان إليهما، وأقسام المكلفين الثلاثة، وبعض مظاهر الفتنة عن الدين.

الموضوع الأول:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ أي لقد أمرنا العباد بالإحسان إلى الوالدين ببرهما قولاً وفعلاً؛ لأنهما سبب وجوده، كما قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٢٣-٢٤] . ونكّر كلمة ﴿حُسْنًا﴾ ليدل على الكمال.

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، فإنه وإن حرصا على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فلا تطعهما في ذلك، في دعوتهما إلى الاعتقاد فيما

ليس معلوماً لك؛ إذ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والحاكم عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». وإذا كان لا يصح اتباع ما ليس معلوماً ثبوته، فلا يجوز اتباع ما علم بطلانه بالأولى، وهذا دليل على أن متابعتهم في الكفر لا تجوز.

والسبب مرجعكم جميعاً إلي يوم القيامة، المؤمن والكافر، والبار بوالديه والعاق لهما، فأجازيكم على أعمالكم، المحسن بإحسانه وصبره على دينه، والمسيء بإساءته، لذا قال محرضاً على الصلاح والإيمان:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي وإن الذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا ما أمرهم به ربهم، فأصلحوا نفوسهم، وأدوا فرائضهم، لنحشرنهم في زمرة الصالحين: الأنبياء والأولياء، لا في زمرة الوالدين المشركين، وإن كانا أقرب الناس إليه في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب حباً دينياً.

والسبب في إعادة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بيان حال الهادي هنا بعد بيان حال المهتدي قبل ذلك، بدليل أنه قال أولاً: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ ثم قال ثانياً هنا: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ والصالحون هم الهداة؛ لأنه مرتبة الأنبياء، ولهذا قال كثير من الأنبياء: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠١] و[الشعراء: ٢٦/ ٨٣]. كما أنه تعالى ذكر أولاً حال الضال بقوله ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ ثم هدد المضل بقوله: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم﴾ فصار البيان المتقدم لقسمين من المكلفين: المهتدي والضال، والبيان المتأخر لقسمين آخرين هما: الهادي والمضل[1].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٥/ ٣٦.

الموضوع الثاني:

حال المنافقين ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي ويوجد فريق من الناس، هم قوم من المكذبين المنافقين الذين يقولون بألسنتهم: صدقنا بوجود الله ووحدانيته، ولكن لم يثبت الإيمان في قلوبهم، بدليل أنه إذا نزلت بهم محنة وفتنة في الدنيا، فآذاهم المشركون لأجل إيمانهم بالله، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام، وكان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف المؤمنين عن الكفر.

وهكذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ٢٢/١١] .

وهذا دليل على أن التخلي عن الإيمان سهل على المنافق؛ لأنه لم يخالط الإيمان شغاف قلبه، وإنما كان مجرد ترداد على اللسان، لمصالح دنيوية، فإذا تعرض لأدنى أنواع الأذى، ترك الله بنفسه، أما المؤمن الصادق الإيمان فلا يتزحزح عن إيمانه القلبي مهما تعرض لأنواع الأذى، فإن أكره على الردة أمكنه مجاراة المكره باللسان، مع اطمئنان قلبه بالإيمان، فلا يترك الله بحال.

قال الزجاج: ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله. روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أوذيت في الله وما يُؤْذَى أحد، ولقد أُخِفْت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثالثة، وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال» .

ثم تحدث الله تعالى عن انتهازية المنافقين ونفعيتهم فقال:

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي

﴿صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ولئن تحقق نصر قريب من ربك يا محمد بالفتح والغنيمة لقال هؤلاء المنافقون: إنا كنا معكم ردءاً وإخواناً لكم في الدين، نناصركم على الأعداء، كما أخبر تعالى عنهم في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٤/ ١٤١].

ثم رد الله عليهم وكشف أمرهم متوعداً مبيناً لهم أنه لا تخفى عليه أوضاعهم فقال﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم من الإيمان والنفاق، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان؟ بلى، إن الله عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، فيعلم المؤمن الحق والمنافق الكاذب.

ثم ذكر الله تعالى أنهم معرّضون للاختبار فقال:

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ أي وليختبرن الناس بالسراء والضراء، ليتميز المؤمنون من المنافقين، فيعرف من يطيع الله في كل حال، ومن يعصيه وقت الشدة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٣١] وقال سبحانه بعد وقعة أُحد التي كانت محك اختبار وامتحان: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٩].

ويلاحظ أنه تعالى حكم هنا على ما في القلب، فيعلم إيمان المؤمن وهو التصديق، ونفاق المنافق وهو صدقه في قوله باللسان: الله واحد، وأما فيما سبق فقال: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ ليميز بين المؤمن القائل بأن الله واحد، وبين الكافر الكاذب في قوله: الله أكثر من واحد، فكان هناك قسمان: صادق وكاذب، وهنا قسم واحد وهو صادق.

الموضوع الثالث:

محاولات فتنة المسلمين عن دينهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَـٰيَـٰكُمۡ﴾ أي وقال كفار قريش لمن آمن منهم واتبع الهدى بعد بيان أحوال الناس الثلاثة: المؤمن والكافر والمنافق: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا، وأما آثامكم إن كانت لكم آثام ووجد حساب فعلينا وفي رقابنا، كما يقول القائل الجاهل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي. وهذه محاولة فتنة وإغراء للمسلمين على ترك دينهم بالرفق واللين. وقوله: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾ صيغة أمر من الشخص لنفسه، ولكن يراد بها الخبر، والمعنى شرط وجزاء، أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم، كما يقول الواحد: ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء، فليس هو في الحقيقة أمر طلب.

فرد الله عليهم تكذيباً لهم:

﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنۡ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ﴾ أي وإنهم لا يتحملون شيئاً من ذنوبهم وأوزارهم، وإنهم لكاذبون فيما قالوه: إنهم يحملون عنهم الخطايا، فهم لا يحملون شيئاً؛ لأنه لا يحمل أحد وزر أحد، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ [فاطر: ٣٥/١٨] وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ [المعارج: ٧٠/١٠-١١] وقال جل وعز: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ٦/١٦٤] .

ثم أخبر الله تعالى عن عاقبة هذا القول، فقال:

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝١٣﴾ أي إن دعاة الكفر والضلال هؤلاء ليحملن يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزار غيرهم الذين أضلوهم من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أتباعهم شيئاً، كما قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [النحل: ١٦/٢٥] . وكما جاء في

الحديث الصحيح: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»[١] وفي الصحيح أيضاً: «ما قُتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها؛ لأنه أول من سنَّ القتل» وثبت أيضاً: «من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء»[٢].

وسوف يسألون يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبون ويختلفون من البهتان في الدنيا، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا، وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم تبق له حسنة، أخذ من سيئاتهم، فطرح عليه».

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

أً- بالرغم من وجوب أو افتراض بر الأبوين اللذين كانا سبباً في وجود الإنسان وتربيته والإنفاق عليه، فإنه لا يجوز إطاعتهما فيما يدعوان الولد إلى الشرك والعصيان؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فلا يجوز متابعتهم في الكفر.

لذا كان قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيداً في طاعة الوالدين في معنى الكفر، وأنه تعالى سيجازي كل إنسان بما عمل، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة.

٢ً- كرر الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ لتحريك النفوس إلى نيل مراتب الصالحين: وهم الذين بلغوا نهاية الصلاح وأبعد غاياته، من الأنبياء والأولياء، وإذا وصل المؤمن إلى تلك المرتبة حظي بالثمرة المرجوة وهي الجنة.

٣ً- ينكشف أمر النفاق وشأن المنافقين وقت المحنة، فإذا قال المنافق: آمنت بالله، ولم يؤمن قلبه، ثم تعرض لأذى أو مصاب، ارتد على عقبيه، وترك الإسلام إلى الكفر، جاعلاً أذى الناس في الدنيا كعذاب الله في الآخرة، وما أفسد هذا القياس؟! وتراه يجزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية في الله تعالى.

وإذا تحقق نصر للمؤمنين بالفتح والغنائم طالب هؤلاء المرتدون بنصيب منها قائلين: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون، وهم كاذبون.

٤ً- حاول الكفار فتنة المسلمين عن دينهم بالرفق واللين والإغراء، ليبينوا أنهم بكثرتهم على الحق، والمسلمون على باطل، وأظهروا استعدادهم لتحمل أوزار المسلمين يوم القيامة، وهم في الحقيقة والواقع كاذبون فيما يقولون، فإنهم لا يتحملون شيئاً من أوزار غيرهم. وإنما على العكس يتحملون الإثم مضاعفاً: إثم أنفسهم وإثم إضلالهم غيرهم، فهم دعاة كفر وضلالة، ويسألون يوم القيامة عن افترائهم بأن لا خطيئة في الكفر، وأن لا حشر وأنهم يتحملون خطايا غيرهم، ويقال لهم حينئذ: لم افتريتم ذلك؟!

قصة نوح عليه السلام مع قومه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

الإعراب:

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾: منصوب على الظرف، و﴿خَمْسِينَ عَامًا﴾: منصوب على الاستثناء.

البلاغة:

﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ تفنن في التعبير، فلم يقل: إلا خمسين سنة، تحاشياً للتكرار المنافي للبلاغة، إلا إذا كان لغرض كالتفخيم أو التهويل، مثل: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ [القارعة: ١٠١/١-٢].

المفردات اللغوية:

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أي مكث في قومه يدعوهم إلى توحيد الله تسع مئة وخمسين سنة، فكذبوه. روي أنه بعث على رأس أربعين، ودعا قومه تسع مئة وخمسين، وعاش بعد الطوفان ستين. قال البيضاوي: ولعل اختيار هذه العبارة للدلالة على كمال العدد، فإن تسع مئة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ طوفان الماء، والطوفان في الأصل: اسم لما طاف بكثرة من سيل أو ظلام أو موت أو غيرها. ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ بالكفر. ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾ أي نوحاً. ﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي الذين أركبهم معه من أولاده

وأتباعه المؤمنين، وكانوا ثمانين، أو ثمانية وسبعين، نصفهم ذكور ونصفهم إناث. ﴿ءَايَةً﴾ عبرة، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لمن بعدهم من الناس إن عصوا رسله، يتعظون ويستدلون بها.

المناسبة:

بعد بيان التكليف وأقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم ووعيد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم، ذكر الله تعالى قصة أطول الأنبياء عمراً نوح عليه السلام الذي دعا قومه إلى توحيد الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يؤمن معه إلا قليل.

ثم أتبع ذلك بذكر قصص أنبياء آخرين: إبراهيم، ولوط وهود وشعيب وصالح، لبيان عاقبة الله في المكذبين من المكلفين، وإيناساً لرسول الله ﷺ وتثبيته على ما يكابده من أذى الكفرة، وعبرة لمن يعتبر، وتأكيداً لما في بداية السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أي تالله لقد أرسلنا نوحاً عليه السلام، وهو أول نبي أرسل إلى قومه الذين كانوا كفاراً، لا يؤمنون بالله، وإنما يعبدون الأصنام، فاستمر مقيماً معهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، والإيمان بيوم القيامة، فلم يؤمنوا بدعوته، وكذبوه، وما آمن معه منهم إلا قليل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح: ٧١/ ٥-٦] ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٧١/ ٢١].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة، لم يفدهم

البلاغ والإنذار، فأغرقهم الله بالطوفان، وهم ظالمون أنفسهم بالكفر، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم، فإن الأمر بيد الله تعالى، وإليه ترجع الأمور.

فإن نوحاً لبث ألف سنة تقريباً في دعوة قومه إلى الإيمان بالله، ولم يؤمن من قومه إلا قليل، وصبر وما ضجر، فأنت أولى بالصبر. وكان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر، ومع ذلك ما نجوا، فلا يغتروا فإن العذاب يلحقهم.

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي فأنجينا نوحاً والذين آمنوا معه بركوب السفينة التي أوحى الله إليه كيفية صنعها، ثم سارت في البحر، حتى استقرت على جبل الجودي، وغرق الكفار جميعاً بطوفان الماء، وجعل ربك سفينة نوح تذكرة لنعمة الله على خلقه كيف أنجاهم من الطوفان، وعبرة وعظة يتأمل بها من يأتي بعدهم من الناس، كيف يعاقب الله من عصوا رسله وكذبوا بأنبيائه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/١١-١٢]. والضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ﴾ عائد إلى السفينة المذكورة.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذا عرض موجز جداً لقصة نوح مع قومه، فصلت في مواضع أخرى كثيرة من القرآن الكريم. وقد دلت مع هذا الإيجاز على العظة المؤثرة منها، فإنها ذُكرت تسلية للنبي ﷺ لما أسف على إعراض قومه عن دعوته، فأخبره الله تعالى بأن الأنبياء قبلك ابتلوا بالكفار من أقوامهم فصبروا، وخص نوحاً بالذكر أولاً؛ لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض، بعد أن امتلأت كفراً، وأنه لم يلق نبي من قومه ما لقي نوح عليه السلام، كما تقدم في سورة هود.

روى ابن عساكر عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أول نبي أرسل نوح»،

واختلف في عمره، قال الحسن البصري: لما أتى ملك الموت نوحاً ليقبض روحه قال: يا نوح كم عشت في الدنيا؟ قال: ثلاث مئة قبل أن أبعث، وألف سنة إلا خمسين عاماً في قومي، وثلاث مئة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان، قال مَلك الموت: فكيف وجدت الدنيا؟ قال نوح: مثل دار لها بابان، دخلت من هذا، وخرجت من هذا.

وبالرغم من هذه المدة الطويلة في الدعوة إلى توحيد الله، لم يؤمن برسالة نوح عليه السلام إلا فئة قليلة.

وظهر في القصة بنحو ملحوظ مصير المؤمنين ومصير الكافرين، أما الأوائل فقد نجاهم الله في السفينة التي كان نوح قد صنعها، فركبوا فيها ونجوا من الغرق، وأما الكافرون المكذبون فقد أغرقهم الله جميعاً، وجعل الله السفينة أو العقوبة أو النجاة عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ.

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

- ١ -

الأدلة على الأصول الثلاثة: الوحدانية والرسالة والبعث

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (أولم تروا).

﴿النَّشْأَةَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (النَّشَاءَة).

الإعراب:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ منصوب عطفاً على نوح في آية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

﴿قَوۡمِهِۦ﴾ أي وأرسلنا إبراهيم، أو عطفاً على هاء ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ أو منصوب بتقدير فعل، تقديره: واذكر إبراهيم، والعامل في ﴿إِذۡ قَالَ﴾ وهو العامل في ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ فهو على الأول ظرف لأرسلنا.

﴿إِفۡكًاۚ﴾ إما مصدر نحو كذب ولعب وإما صفة لفعل أي خلقاً ذا إفك وباطل.

﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا﴾ يحتمل كونه مصدراً بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم، وأن يراد المرزوق، وتنكيره للتعميم.

البلاغة:

﴿يُبۡدِئُ﴾ و﴿يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿وَيَرۡحَمُ﴾ بين كلٍّ طباق.

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أسلوب الإطناب للتشنيع عليهم في عبادة الأوثان.

﴿يَسِيرٞ﴾ و﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بينهما جناس ناقص غير تام.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ التصريح باسم الله هنا بعد إضماره في قوله ﴿بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة، وأن من عرف بالقدرة على الإبداء يحكم له بالقدرة على الإعادة، لأنها أهون.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱتَّقُوهُۖ﴾ خافوا عقابه .﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مما أنتم عليه من عبادة الأصنام .﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الخير من غيره وتميزون ما هو شر مما هو خير .﴿أَوۡثَٰنًا﴾ جمع وثن: وهو ما اتخذ من جص أو حجر، والصنم: ما كان من معدن كنحاس وغيره، والتمثال: ما هو مثال لكائن حي. ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ تقولون كذباً في تسميتها آلهة، وادعاء شفاعتها عند الله، وأنها شركاء لله، وهو دليل على شرّ ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل لا حقيقة له.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا يقدرون أن يرزقوكم، وهو دليل ثانٍ على شر ما هم عليه، من حيث إن تلك الأوثان لا تجدي شيئاً .﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ اطلبوه منه، فإنه المالك له .﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ متوسلين إلى مطالبكم بعبادته، شاكرين له نعمه ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي مستعدين للقائه بالعبادة والشكر، فإنكم راجعون إليه.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أي تكذبوني. ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي من قبلي من الرسل، فلم يضرهم تكذيبهم، وإنما ضرّ أنفسهم، حيث تسبب لما حلّ بهم من العذاب، فكذا تكذيبكم .﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إلا البلاغ البيِّن الذي زال معه الشك.

وهذه الآية: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ وما بعدها إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ من جملة قصة إبراهيم، ويحتمل أن يكون المذكور اعتراضاً، بذكر شأن النبي ﷺ وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم، وهو توسط بين طرفي قصة، من حيث إن مساقها لتسلية الرسول ﷺ والترويح عنه بأن أباه خليل الله مُني بنحو ما مُني به من شرك القوم وتكذيبهم، وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم في قومه.

﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ أي يخلقهم ابتداء من مادة وغيرها .﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ يعيد الخلق بعد الموت كما بدأهم .﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخلق والإعادة. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء، فكيف ينكرون الثاني؟ ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ لمن كان قبلكم وأماتهم، على اختلاف الأجناس والأحوال .﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ هي إعادة الخلق مرة أخرى، بعد النشأة الأولى التي هي الإبداء، فإنه والإعادة نشأتان، من حيث إن كلاً منهما اختراع وإخراج من العدم، فالنشأة: الخلق والإيجاد .﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه البدء والإعادة؛ لأن قدرته لذاته وكل الممكنات بالنسبة إلى ذاته سواء، فيقدر على النشأة الأخرى، كما قدر على النشأة الأولى.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمته. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي تُردُّون بعد موتكم. ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم عن إدراككم، أي جاعلين الله عاجزاً. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا تفوتونه أينما كنتم، سواء بالتواري في الأرض أو التحصن في السماء. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غيره. ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ قريب، أو متولي الأمر يمنعكم منه. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معين، ينصركم من عذابه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلائل وحدانيته أو بكتبه. ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بالبعث. ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة، فعبر عنه بالماضي لتحقق الوقوع والمبالغة فيه. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم بكفرهم.

المناسبة:

بعد الانتهاء من بيان قصة نوح أبي البشر الثاني عليه السلام، أورد الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء وإمام الحنفاء، بقصد عرض نماذج من سير الأنبياء للنبي ﷺ ليتأسى بهم ويسلو عما أهمه من إعراض قومه عن دعوته، كما بيّنت.

التفسير والبيان:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك حين دعا إبراهيم عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في السر والعلن، واتقاء عذابه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، فإذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر فيهما، إن كنتم ذوي إدراك وعلم، تميزون به بين الخير والشر، وتفعلون ما ينفعكم.

فقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ معناه: أخلصوا له العبادة والخوف. ثم أقام

إبراهيم لقومه دليلين على التوحيد وعلى فساد ما هم عليه، وشر ما يسيرون عليه، فقال:

الدليل الأول:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي إن الأصنام التي تعبدونها من غير الله، ما هي إلا أشياء مصنوعة من جص أو حجر، صنعتموها بأيديكم، فلا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء، فسميتموها آلهة، وادعيتم أنها تشفع لكم عند ربكم، وإنما هي مخلوقة أمثالكم، فأنتم تكذبون حين تصفونها بأنها آلهة.

فقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ معناه: تختلقون الإفك أي الكذب والباطل، بتسمية الأوثان آلهة، وشركاء لله، أو شفعاء إليه.

الدليل الثاني:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي إن تلك الأوثان التي تعبدونها من غير الله، لا تقدر أن تجلب لكم رزقاً أبداً قليلاً أو كثيراً، فكيف تعبدونها؟!

﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي فاطلبوا الرزق من عند الله، لا من عند غيره من الأوثان ونحوها، فإن غيره لا يملك شيئاً، تدركوا ما تطلبون، فكلوا من رزق الله، واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم من مزيد الفضل، واستعدوا للقائه، فإليه ترجعون يوم القيامة، وتسألون عما أنتم عليه من عبادة غيره، ويجازي كل عامل بعمله.

ثم أقام إبراهيم دليلاً على الرسالة، فقال:

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ أي وإن تكذبوني في رسالتي، فلا تضروني أبداً، فإن الأمم السابقة كذبوا رسلهم، ولكن بلغكم ما حلّ بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، فأضروا أنفسهم بذلك، وما المطلوب الواجب على الرسول إلا أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء، وعلى الله الحساب.

فقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ معناه: لا واجب عليه إلا التبليغ، وهو ذكر المسائل والأوامر المنزلة من عند الله، والإنابة: وهي إقامة البرهان على ما جاء به.

وبعد بيان الأصل الأول والاستدلال عليه وهو التوحيد، والإشارة إلى الأصل الثاني وهو الرسالة، شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر أو البعث والنشور، وهذه الأصول الثلاثة متلازمة لا يكاد ينفصل ذكر بعضها عن بعض في البيان الإلهي، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ أي أو لم يشاهدوا كيفية بدء الخلق؟ فإن الله خلق أنفسهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، وزودهم بالقدرة الجسدية وبطاقات المعرفة من السمع والبصر والفؤاد، فإن الذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه، يسير لديه، بل هو أهون عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠/٢٧].

وبعد إثبات المعاد بالدليل المشاهد في الأنفس، لفت الله تعالى النظر إلى آياته في الآفاق، فقال:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ قل يا محمد: سيروا أيها المنكرون

للبعث في الأرض، فانظروا كيف بدأ الله خلق السماوات وما فيها من الكواكب النيِّرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من جبال ومهاد ووديان وبراري وقفار، وأشجار وأثمار، وأنهار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار. وذلك كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٤١/٥٣] وقوله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٥٢/٣٥-٣٦] .

هذا هو المتفرد بالخلق، وذلك دليل على وجوده، ومن قدر على الخلق قدر على الإعادة وإنشاء النشأة الآخرة يوم القيامة، فإن الله قدير على كل شيء، ومنه البدء والإعادة، وقد عبر أولاً بلفظ المستقبل ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ للدلالة على القدرة المستمرة، ثم عبّر بلفظ الماضي ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ للعلم بما بدأ.

ويلاحظ أنه تعالى قال أولاً ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ بصيغة الاستفهام. ثم قال: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بصيغة الأمر، لأن الآية الأولى إشارة إلى العلم الحدسي: وهو الحاصل من غير طلب، والآية الثانية إشارة إلى العلم الفكري الحاصل بالتفكير والطلب، أي سيِّروا فكركم في الأرض، وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة على أنفسكم، لتعلموا بدء الخلق.

ثم ذكر الله تعالى ما يكون بعد الإعادة فقال:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي إن الله هو الحاكم المتصرف يعذب من يشاء منكم من الكفار والعصاة، ويرحم من يشاء من عباده فضلاً منه ورحمة، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقِّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، فله الخلق والأمر، وإليه تردون يوم القيامة بعد الموت مهما طال الأمد، فيحاسب الخلائق على ما قدموا، وحسابه حق وعدل؛ لأنه

المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السُّنن: «إن الله لو عذَّب أهل سماواته، وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم». وتقديم التعذيب في البيان على الرحمة، مع أن الرحمة سابقة كما في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة: «سبقت رحمتي غضبي» لأنه ذكر الكفار أولاً، ولمناسبته التهديد السابق بقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾. وإعادة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ بعد قوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للدلالة على أن التعذيب والرحمة وإن تأخرا، فلابد من حصولهما، فإن إليه الإياب وعليه الحساب، وعنده يدخر الثواب والعقاب.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي وما أنتم أيها البشر بجاعلين الله عاجزاً عن إدراككم في أرضه وسمائه، فلا يعجزه أحد من أهل السماوات والأرض، ولا يقدر على الهرب من قضائه، بل هو القاهر فوق عباده، وليس لكم من غير الله ولي يلي أموركم ويحفظكم ويرعاكم، ولا معين ناصر ينصركم ويمنعكم من عذابه إن عذبكم.

وبعد الإفاضة في بيان هذه الأدلة على المعاد، والقدرة الإلهية الفائقة التصور، والتوحيد هدد كل مخالف وتوعد على كافر، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله أي بدلائل وحدانيته وما أنزله على رسله من البراهين المرشدة إلى ذلك، وكفروا بالمعاد ولقاء الله في الآخرة، أولئك لا نصيب لهم من رحمة الله، بسبب كفرهم، ولهم عذاب مؤلم موجع شديد في الدنيا والآخرة، كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٨٧].

وتكرار ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ في الآية للدلالة على أن كل واحد من اليأس والعذاب

لا يوجد إلا في الكفار، وقد أضاف اليأس إليهم بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ﴾ فلو طمعوا بالرحمة لأنزلها عليهم، ثم إنه تعالى أضاف الرحمة لنفسه ﴿رَّحْمَتِي﴾ لبيان عمومها لهم ولزومها له، ولم يضف العذاب لنفسه لتخصيصه بالكفار.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً- كانت دعوة إبراهيم كدعوة جميع الأنبياء عليهم السلام إلى عبادة الله (أي إفراده بالعبادة) وتوحيده واتقاء عذابه بفعل أوامره وترك معاصيه. وقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى التوحيد؛ لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره، فقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إثبات الإله، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ نفي الغير.

٢ً- إن الوثنيين يعبدون أصناماً من صنع أيديهم ويختلقون الكذب بجعل تلك الأصنام شركاء لله شفعاء عنده، مع أنها لا تملك ضرّاً ولا نفعاً، ولا تقدر على جلب الرزق لأحد، إنما الرازق الذي يطلب منه الرزق هو الله وحده، فيجب على العباد أن يسألوه وحده دون غيره؛ لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور: إما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته، وإما لكونه نافعاً في الحال أو في المستقبل، وإما لكونه مخوفاً منه، فقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها، وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل، وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ معناه اعبدوه لكونه مرجعاً يتوقع الخير منه. وقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ تهديد.

٣ً- الله تعالى هو بادئ الخلق، خلق الإنسان والحيوان والنبات والثمار، فتحيا ثم تفنى، ثم يعيدها، ويهلك الإنسان، ثم يعيده إلى الحياة مرة أخرى يوم القيامة؛ لأن القادر على الإبداء والإيجاد هو القادر على الإعادة، وذلك هيِّن يسير على الله؛ لأنه إذا أراد أمراً قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. وبإيراد آية ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ تكون الآيات دالة على الأصول الثلاثة: التوحيد، والرسالة بقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ والحشر.

٤ً- إن آفاق الكون سمائه وأرضه خلقها الله تعالى، وهو الذي يعيد الخلق مرة أخرى؛ لأنه القادر على كل شيء، وهذا يفيد كون الإعادة أمراً مقدوراً، وذلك كافٍ في إمكان الإعادة، وهو تقرير لكون الأمر يسيراً على الله تعالى.

٥ً- الله سبحانه هو الحاكم المتصرف يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقِّب لحكمه، يعذِّبُ من يشاء تعذيبه بعدله وحكمته وهو تعذيب أهل التكذيب، ويرحم من يشاء رحمته بفضله، وهو رحمة المؤمنين، والجميع عائدون إليه، محاسبون أمامه، ولا يعجزه أحد في السماء والأرض، وهذا كله لتخويف العاصي وتفريح المؤمن.

٦ً- ليس لأحد سوى الله من ولي يتولى أمره حفظاً وعناية ورعاية، ولا من ناصر معين يعينه على التخلص من الشدائد.

٧ً- إن الذين كفروا بالقرآن، أو بما أقامه الله من أدلة وأعلام على وجوده وتوحيده وقدرته لا نصيب لهم في الآخرة من رحمة الله تعالى، فهم أيسوا من الرحمة وقد ذكَّر الكفار بالله هنا بعد بيان أصلي التوحيد والإعادة وتهديد من خالف.

٨ً- دلّ قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، لأن الرسول إذا بلَّغ شيئاً ولم يبيّنه، فإنه لم يأت البلاغ المبين، فلا يكون آتياً بما عليه.

-٢-

جواب قوم إبراهيم له وإيمان لوط به وتعداد النعم عليه

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾: قرئ:

١- (مودةُ بَينِكُم) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، والكسائي.

٢- (مودةَ بينِكُم) وهي قراءة حفص، وحمزة.

٣- (مودةً بينَكُم) وهي قراءة الباقين.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وماواكم).

﴿رَبِّىٓ إِنَّهُۥ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (ربيَ إنه).

﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾

وقرأ نافع (النبوءة).

الإعراب:

﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم﴾ ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة، و﴿أَوۡثَٰنًا﴾ مفعول ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾ واقتصر على مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ﴾. و﴿مَّوَدَّةَ﴾ مفعول لأجله، أي إنما اتخذتم الأوثان للمودة فيما بينكم. ويجوز أن تكون (ما) في ﴿إِنَّمَا﴾ اسماً موصولاً بمعنى الذي في موضع نصب لأنها اسم (إن) وصلته ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾ والعائد محذوف تقديره: اتخذتموهم، وهو المفعول الأول لـ ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾ والمفعول الثاني ﴿أَوۡثَٰنًا﴾ و﴿مَّوَدَّةَ﴾ مرفوع خبر (إن). ومن نون ﴿مَّوَدَّةَ﴾ نصب ﴿بَيۡنِكُمۡ﴾ على الظرف، والعامل فيه ﴿مَّوَدَّةَ﴾. و﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ظرف للمودة أيضاً، وجاز أن يتعلق بها ظرفان لاختلافهما؛ لأن أحدهما ظرف مكان والآخر ظرف زمان.

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف مقدر، أي: وإنه صالح في الآخرة لمن الصالحين، أو متعلق بـ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ على رأي بعضهم، فإنه نزلها منزلة الألف واللام التي للتعريف، لا بمعنى التي للذين.

البلاغة:

﴿أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ على طريقة أسلوب الإيجاز، أي حرقوه في النار، وكذا ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي ففعلوا فأنجاه الله من النار.

المفردات اللغوية:

﴿جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ قوم إبراهيم له .﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ كان ذلك قول بعضهم،

لكن لما قيل فيهم أو رضي به الباقون، أسند إلى كلهم. ﴿حَرِّقُوهُ﴾ احرقوه. ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فقذفوه في النار، فأنجاه الله منها، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في إنجائه منها. ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ هي حفظه من أذى النار، وإخمادها مع عظمها في زمان يسير، وإنشاء روض مكانها. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون بتوحيد الله وقدرته؛ لأنهم المنتفعون بها.

﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا في اللقاء على عبادتها. ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يتبرأ القادة من الأتباع. ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يلعن الأتباع القادة. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ مصيركم جميعاً. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ صدق بإبراهيم ﴿لُوطٌ﴾ هو ابن أخي إبراهيم واسمه هاران، أو ابن أخته وأول من آمن به. ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم. ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي مهاجر من قومي إلى حيث أمرني ربي بالهجرة. فهجر قومه وهاجر من سواد العراق إلى الشام فنزل فلسطين، ونزل لوط سدوم. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه الذي يمنعني من أعدائي. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي. ﴿إِسْحَٰقَ﴾ هو الابن الثاني لإبراهيم بعد إسماعيل. ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق وحفيد إبراهيم فكان نافلة بعد أن أيس من الولادة من عجوز عقيم (عاقر). ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته. ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به الجنس، ليتناول الكتب الأربعة، وهي: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

﴿أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ الرزق الواسع، والمنزل المريح، والزوجة الصالحة، والثناء الجميل بين أهل الأديان جميعاً. ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي في زمرة الكاملين في الصلاح. والصالح لغة: الباقي على ما ينبغي، يقال: طعام صالح، أي باقٍ على حال حسنة.

التفسير والبيان:

بعد أن أقام إبراهيم عليه السلام لقومه الأدلة والبراهين على توحيد الله والرسالة والبعث أو الحشر، وأمرهم بعبادة الله تعالى، وندد بعبادة الأوثان، لم يجدوا جواباً له على كفرهم وعنادهم ومكابرتهم إلا اللجوء إلى استعمال القوة، كما هو شأن المحجوج المغلوب على أمره المعتمد على جاهه وقوة ملكه، وهذا ما حكاه تعالى عنهم قائلاً: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي لم يجد قوم إبراهيم جواباً له على مطالبتهم بعبادة الله واتقاء عذابه إلا أن قال كبراؤهم ورؤساؤهم: اقتلوه، أو احرقوه بالنار تحريقاً شديداً، فأضرموا النار وألقوه فيها، فأنجاه الله وسلمه منها، وجعلها برداً وسلاماً عليه، لحفظه له وعصمته إياه. إن في ذلك الإنجاء لإبراهيم من النار لدلالات على وجود الله وقدرته لقوم يصدقون بالله إذا ظهرت لهم الأدلة والحجج.

إنه مثل السوء ومدعاة العجب، يدعوهم إبراهيم عليه السلام إلى الخير، ويرشدهم إلى الحق والهدى، فيلقى في النار للتخلص منه، ولكن الله أكبر وأقدر من كيد الشر وقوتهم، فإنه جعل النار المحرقة غير مؤثرة فيه، وإنما صيَّرها برداً وسلاماً عليه.

وقد وصف الله في آيات أخرى هذا التقابل بين الفعلين، فقال: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩٧-٩٨]، وقال سبحانه: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٦٨-٧٠].

ثم ذكر الله تعالى جواب إبراهيم لقومه بعد النجاة من النار:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾

أي قال إبراهيم لقومه مقرعاً لهم، وموبخاً على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان: إنما اتخذتم هذه الأوثان لتجتمعوا على عبادتها، ولتتوادوا بينكم، وتقووا الصداقة والألفة بين بعضكم بعضاً في حياتكم الدنيا، كاتفاق أهل المذاهب والأهواء على رابطة بينهم تكون سبب تجمعهم وتآلفهم، ولكن تلك الأوثان لا تعقل ولا تنفع ولا تضر، إنما يكون اتخاذكم هذا لتحصيل المودة لكم في الدنيا فقط.

وستكون حالهم من التنافر والتباعد في الآخرة نقيض ذلك، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ أي ثم تنعكس هذه الحال يوم القيامة، فتنقلب هذه الصداقة والمودة بغضاً وحقداً وعداوة، فيتبرأ القادة من الأتباع، ويلعن الأتباع القادة، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨/٧] ، وقال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧/٤٣] ثم يكون مصيرُكم إلى النار، ولن تجدوا حينئذٍ ناصراً ينصركم، ولا منقذاً ينقذكم من عذاب الله تعالى.

هذا حال الكافرين، أما المؤمنون فبخلاف ذلك، يتصافون ويصفحون، ويعفو بعضهم عن بعض، كما ورد في بعض الأحاديث.

ثم ذكر تعالى أنه لم يؤمن بإبراهيم ولم يصدق بما رأى إلا لوط فقال: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ أي فلما نجا إبراهيم سليماً من النار آمن به لوط، وصدق بنبوته، ولوط: هو ابن أخي إبراهيم، وهو لوط بن هاران بن آزر، ولم يؤمن به من قومه سواه وسارَّة امرأةُ إبراهيم الخليل.

وقال إبراهيم: إني مهاجر من دياركم، متجه إلى حيث أمرني ربي بالهجرة، وقد هاجر من سواد العراق إلى حرَّان، ثم فلسطين ونزل لوط بلدة سدوم.

وعلة الهجرة هي كما قال:

إن ربي هو العزيز في ملكه الغالب على أمره، الذي يمنعني من أعدائي، وينصرني عليهم، الحكيم في تدبير شؤون خلقه، فلا يأمر إلا بما فيه الصلاح.

فقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ يعود الضمير إلى إبراهيم؛ لأنه المكني عنه بقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي من قومه. ويحتمل عود الضمير إلى ﴿لُوطٌ﴾ لأنه أقرب المذكورين.

ثم عدّد تعالى نعمه على إبراهيم في الدنيا والآخرة لإخلاصه لربه، فقال:

١- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي ووهبنا إلى إبراهيم بعد إسماعيل في حال الكِبَر إسحاق، وكذا من نسله يعقوب نافلة حفيداً له، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ١٩/٤٩] ، وقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٢١/٧٢] .

وفي الصحيحين: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» .

٢- ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي وجعلنا في ذرية إبراهيم النبوة، فكان الأنبياء كلهم بعد إبراهيم من ذريته، ولم يوجد نبي بعده إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم، مبشراً بالنبي العربي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق.

وآتيناه الكتاب، فكانت التوراة منزلة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد، وكلهم من نسله.

٣- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الذرية والأموال والزوجة الصالحة والثناء الحسن، فجميع أهل الأديان يحبونه ويتولونه، قال عكرمة: أهل الملل كلها تدعيه وتقول: هو منا.

٤- ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وإنه يحشر في الآخرة في زمرة الكاملين في الصلاح الذين لهم الدرجات العلا.

وبهذا جمع الله تعالى له بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١- أثبت إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه أصول الدين الثلاثة: وهي وحدانية الله، وصحة الرسالة أو النبوة، والبعث والحشر، وأقام البرهان الدامغ على ذلك، فكان جوابهم النابع من تمكن الكفر والعناد والمكابرة هو: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثم اتفقوا على تحريقه، وهو قتل بالنار أشد نكايةً وتعذيباً وتشفياً من القتل العادي.

٢- حشد قوم إبراهيم الجموع العظيمة، وجمعوا الأحطاب الكبيرة، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لهبها إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم، فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوه فيها، فأنجاه الله وسلَّمه، وجعلها عليه برداً وسلاماً، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩/٢١] . أما كيفية استبراد النار فهو أمر معجز، والمعجز خارق للعادة، والله قادر على كل شيء، بسلب خاصية الحرارة عن النار.

لهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً؛ فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، فاجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

٣ً- إن في إنجاء إبراهيم من النار العظيمة، حتى لم تحرقه بعد ما أُلقي فيها، لآيات للمؤمنين بالله ورسله. وجَمَعَ الآيات هنا؛ لأن الإنجاء من النار، وجعلها برداً وسلاماً، ولم يحترق بالنار إلا الحبل الذي أوثقوه به، وغير ذلك، مجموع آيات. وخص الآيات بالمؤمنين؛ لأنه لا يصدق بذلك إلا المؤمنون، وفيه بشارة المؤمنين بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة.

أما في قصة نوح فقال: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ للدلالة على اتخاذ السفينة وقت الحاجة وصونها عن المهلكات، فهي آية واحدة، وجعلها للعالمين علامة ظاهرة لبقائها أعواماً حتى مرّ عليها الناس، ورأوها، فعلم بها كل أحد، وليس المؤمنين فقط.

٤ً- بالرغم من إلقاء إبراهيم في النار، عاد إلى لوم الكفار وبيان فساد ما هم عليه وخطئه، وتمسكهم بالتقليد الأعمى، فقال: إنكم اتخذتم عبادة الأوثان لإيجاد نوع من التوادد والترابط والتواصل فيما بينكم، كالتوافق الذي يحدث بين أهل مذهب معين.

غير أن تلك الروابط واهية غير موثقة، فهي رابطة في الدنيا فقط، ثم تنقطع وتتلاشى في عالم الآخرة، فيقع التباغض والتلاعن والتعادي بينكم يوم القيامة، فتتبرأ الأوثان من عُبَّادها، والرؤساء من الأتباع، ويلعن الأتباع رؤساءهم، ويكون مأوى الجميع نار جهنم.

٥ً- ليست نار الآخرة كالنار التي أنجى الله منها إبراهيم ونصره، فإن الكفار في النار، وليس لهم شافع ولا ناصر دافع، ينصرهم ويمنع عنهم عذاب الله تعالى.

٦ً- لوط عليه السلام أوّل من صدق إبراهيم عليه السلام حين رأى النار عليه برداً وسلاماً، وتلك معجزة. قال ابن إسحاق: آمن لوط بإبراهيم، وكان ابن أخيه، وآمنت به سارّة، وكانت بنت عمه.

٧ً- بعد أن بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه، وحصل اليأس الكلي بعد وجود الآية الكبرى، وهي نجاته من النار، ولم يؤمنوا، وجبت المهاجرة؛ لأن الهادي إذا هدى ولم ينتفعوا، فبقاؤه فيهم عبث ولا جدوى فيه، لذا هاجر من أرض بابل ونزل بفلسطين، وهو ابن خمس وسبعين سنة، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارّة، وهو أول من هاجر من أرض الكفر.

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه - كما روى البيهقي - أول من هاجر بأهله إلى الحبشة في الهجرة الأولى، بعد لوط.

٨ً- أكرم الله تعالى إبراهيم الخليل بعد هجرته، فمنَّ عليه بالأولاد، فوهب له إسحاق ولداً، ويعقوب ولد ولد، من بعد إسماعيل، وجعل في ذريته النبوة، والكتاب، فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه، وأنزل الكتب الأربعة المعروفة على أناس من ذريته، فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده، والزبور على داود من ولد إسحاق بن إبراهيم، والقرآن (أو الفرقان) على محمد ﷺ من نسل إسماعيل بن إبراهيم، وآتاه أجره في الدنيا باجتماع أهل الملل عليه، وجعله في الآخرة في زمرة الصالحين.

وكل هذا حثّ على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في الصبر على الدين الحق.

قصة لوط عليه السلام مع قومه

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ ..﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ : قرئ:

١- (إنكم لتأتون.. أئِنكم لتأتون)، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص.

٢- (أئنكم لتأتون.. أئنكم لتأتون)، وهي قراءة الباقين.

﴿رُسُلُنَآ﴾ :

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ : قرئ:

١- (لنُنْجِيَنَّه) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (لنُنَجِّيَنَّه) وهي قراءة الباقين.

﴿مُنَجُّوكَ﴾ : قرئ:

١- (مُنَجُّوك) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص.

٢- (مُنْجُوك) وهي قراءة الباقين.

﴿مُنزِلُونَ﴾ :

وقرأ ابن عامر (مُنَزِّلون).

الإعراب:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ﴾ إما منصوب بالعطف على هاء (أَنْجَيْناهُ) أو عطفاً على(نوح) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً، أو منصوب بفعل مقدر، أي واذكر لوطاً، وعامل (إذا) هو العامل في (لوط) والأولى عطفه على (إبراهيم).

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ كاف ﴿مُنَجُّوكَ﴾ في موضع جرّ بالإضافة. و﴿وَأَهْلَكَ﴾ منصوب بفعل مقدر، أي وننجي أهلك.

البلاغة:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ تأكيد بعد مؤكدات، وإطناب بتكرار فعل ﴿لَتَأْتُونَ﴾ لتقبيح عملهم وتوبيخهم.

﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استهزاء وسخرية، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما سبق، أي إن كنت صادقاً فائتنا به.

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ التنكير لإفادة التهويل، أي عذاباً عظيماً شديداً.

﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ ﴿ظَـٰلِمِينَ﴾ ﴿ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ وكذا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ توافق الفواصل

المفردات اللغوية:

﴿وَلُوطًا﴾ أي واذكر ﴿ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة التي تنفر منها النفوس الكريمة، وهي إتيان أدبار الرجال .﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ استئناف مقرر لفاحشتها من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع السليمة .﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الإنس والجن .﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ الطريق على المارة، بالقتل وأخذ المال أو الفاحشة، حتى انقطعت الطرق .﴿فِى نَادِيكُمُ﴾ مجالسكم الخاصة أو متحدثكم .﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ الأمر المخالف للشرع، المنفر للطبع السليم كفعل قوم لوط وأنواع الفحش .﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في استقباح الفاحشة وأن العذاب نازل بفاعليه.

﴿ٱنصُرْنِى﴾ في إنزال العذاب .﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ العاصين بإتيان الرجال أو بابتداع الفاحشة، فاستجاب الله دعاءه.

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بإسحاق ويعقوب بعده .﴿هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ هي سدوم، قرية لوط .﴿ظَـٰلِمِينَ﴾ كافرين .﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الملائكة الرسل. ﴿ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب .﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء .﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم؛ لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف، فخاف عليهم قومه، فأعلموه أنهم رسل ربه. وضاق ذَرْعه أي قصرت طاقته أو قدرته، وضده: طال ذرعه وذراعه، ورَحْب الذارع: إذا كان قادراً على الشيء؛ لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع .﴿رِجْزًا﴾ عذاباً شديداً، سمي بذلك؛ لأنه يقلق المعذِّب، من قوله: ارتجز أو ارتجس أي اضطرب .﴿بِمَا كَانُوا۟

﴿يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم .﴿ءَايَةً بَيِّنَةً﴾ ظاهرة، وهي آثار خرابها. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون أو يستعملون عقولهم في الاستبصار.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله قصة إبراهيم ذكر قصة لوط عليهما السلام؛ لأنه كان معاصراً له في زمن إبراهيم، ولم يذكر في قصته هنا دعوته إلى التوحيد كسائر الأنبياء، وإنما اقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة، وذكر ذلك عنه في موضع آخر حيث قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [هود: ١١/٧٨] و[الشعراء: ٢٦/ ١٦٣] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحجر: ١٥/٦٩] وكان قد أتى به إبراهيم وسبقه إليه. واختص لوط بالمنع من عمل قومه الفاحش، فلما يئس من ردعهم وتطهرهم من فاحشتهم، استنصر بربه، فاستجاب له وأهلك قومه، ونجاه مع من آمن به بسبب فحشهم وكفرهم بالله وبرسوله وقطعهم الطرق.

التفسير والبيان:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك للعبرة والعظة قصة نبي الله لوط عليه السلام حين أرسله الله إلى أهل قرية «سدوم» فأنكر عليهم صنيعهم وقبيح أعمالهم التي ابتدعوها، وقال منكراً عليهم أو محذراً أو موبخاً ومقرعاً لهم: أتأتون الفعلة الفاحشة المتناهية في القبح شرعاً وطبعاً سليماً؟

ثم كرر الإنكار عليهم ووضح تلك الفاحشة فقال:

١- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾؟ أي تأتون الذكران بشهوة كإتيان النساء، ما سبقكم أحد قبلكم من بني آدم إلى هذه الفعلة.

٢- ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي تقفون في طريق الناس، وتتعرضون للمارة بقتلهم وأخذ أموالهم وفعل الفاحشة بهم.

٣ً- ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي وتفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسكم الخاصة، دون أن ينكر بعضكم على بعض شيئاً من ذلك فهم ذوو أخلاق سوء. والنادي: المجلس.

روى الإمام أحمد والترمذي والطبراني والبيهقي وابن جرير وابن أبي حاتم عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ فقال: «يخذفون[1] أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» .

وروي عن ابن عباس قال: إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتم بعضهم بعضاً، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون، ويلعبون بالنَّرْد والشِّطْرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش، ويطرِّفون أصابعهم بالحنّاء، وتتشبه الرجال بلباس النساء، والنساء بلباس الرجال، ويضربون المكوس[2] على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله، وهم أول من ظهر على أيديهم فعل قوم لوط والسِّحاق.

وفسر مجاهد المنكر: بأنه الصفير، ولعب الحمام، والجُلَاهِق[3] والسؤال في المجلس، وحل أزرار القباء.

فكان جوابهم:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فما كان جوابهم بعد نهيم عن الفاحشة وغيرها إلا قولهم

(١) الحذف أو الخذف: الرمي بالحصى.

(٢) رسوم المروز الظالمة.

(٣) كعلابط البندق الذي يرمى به.

بسبب كفرهم واستهزائهم وعنادهم: عجل علينا العذاب الذي توعدنا به إن كنت صادقاً فيما تهددنا به. وهذا كان في بداية وعظه لهم، فلما ألح عليهم في الإنكار قالوا كما جاء في آية أخرى: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٢].

ولما يئس لوط من استجابة قومه طلب من الله النصرة عليهم فقال:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)﴾ أي قال لوط داعياً: رب انصرني على هؤلاء القوم المفسدين في الأرض بإبتداع الفاحشة.

ومن المعلوم أنه ما طلب نبي من الأنبياء هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم، كما قال نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح: ٧١/ ٢٧] أي لا مصلحة ولا خير يرتجى فيهم لا حالاً، ولا مآلاً في المستقبل.

فاستجاب الله دعاءه، وبعث ملائكة العذاب لنصرته:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١)﴾ أي بعث الله ملائكة، فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للأضياف، فلما رأى أنه لا رغبة لهم في الطعام خاف منهم، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بولد صالح من امرأته «سارة» وهو إسحاق، ومن بعده يعقوب، ثم أخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط؛ لأنهم قوم ظالمون أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسولهم وتماديهم في الفساد والفحش.

فأخذ إبراهيم يدافع، لعلهم يمهلونهم، ولعل الله يهديهم، وأشفق على ابن أخيه لوط، فقال:

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا

ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ أي قال إبراهيم مشفقاً على لوط: إن في القرية لوطاً، وهو غير ظالم، وهو رسول، فقالت الملائكة الرسل: نحن أعلم منك بمن فيها من المؤمنين والكافرين، وإنا لننجي لوطاً وأهله وأتباعه المؤمنين به من الهلاك إلا امرأته، فهي من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئ القوم على كفرهم وبغيهم وخبائثهم.

ثم قدموا على لوط فدخلوا عليه في صورة شبان حسان، فلما رآهم ضاق بهم، كما حكى تعالى:

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي ولما جاءت الملائكة الرسل إلى لوط على صورة بشر حسان الوجوه، اغتم بأمرهم، وخاف عليهم من قومه، فقالوا له معرضين بحالهم: لا تخف علينا، ولا تحزن بما نفعله بقومك الأخباث، وإنا جئنا لتعذيبهم، وإنا منجّوك وأتباعك المؤمنين من العذاب، إلا امرأتك، فإنها من الهالكين؛ لتواطئها معهم على الفساد، فكانت تدلهم على ضيوفه، وكانت تدافع عنهم، وترضى بأفعالهم.

ثم وصفوا العذاب بقولهم: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي إننا سننزل على أهل قرية «سدوم» عذاباً شديداً عظيماً من السماء، تضطرب له نفوسهم، بسبب فسقهم.

وكان العذاب هو الزلزلة التي خسفت بهم الأرض، وصار مكان قريتهم بحيرة لوط (البحر الميت) فاقتلع جبريل عليه السلام قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل الله الحميم وحجارة من سجيل منضود، مسوّمة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي ولقد تركنا من القرية بعض آثار منازلهم الخربة أو أخبارهم علامة ظاهرة واضحة، وعبرة أو عظة لقوم يتدبرون ويستبصرون بعقولهم الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/١٣٧-١٣٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآية ما يأتي:

١- أنكر نبي الله لوط على قومه الذين أرسل إليهم في «سدوم» إنكاراً شديداً مع التوبيخ والتحذير فعل ثلاثة أمور: ارتكاب الفاحشة (فعل قوم لوط) وقطع الطريق لأخذ الأموال والفاحشة والاستغناء عن النساء، وفعل المخازي في مجالسهم الخاصة.

٢- لقد قابل القوم هذا الإنكار بالاستهزاء والعناد والتكذيب واللجاج، فطلبوا إنزال العذاب الذي يهددهم به إن كان صادقاً فيما يقول ظناً منهم أن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه، ثم هددوه في آية أخرى بالطرد والإخراج من قريتهم.

٣- تدل الآية على وجوب الحد في اللواطة؛ لأنها فاحشة كالزنى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ١٧/٣٢] واشتراكهما في الفاحشة يناسب الزجر عنه، فما شرع زاجراً في الزنى، يشرع زاجراً في اللواطة. وهذا وإن كان قياساً إلا أن علة القياس مستفادة من الآية، فتكون منصوصاً عليها، والقياس المنصوص العلة متفق على العمل به.

٤- ما طلب نبي هلاك قوم إلا إذا يئس من هدايتهم، وعلم أن عدمهم خير من وجودهم، لذا دعا لوط عليه السلام ربه أن ينصره على القوم المفسدين، فأجاب الله دعاءه.

٥ً- إذا نزل العذاب بقوم نَجَّى الله الصالحين المؤمنين منهم كما نَجَّى لوطاً وأهله الذين اتبعوه، وأهلك الظالمين المفسدين مرتكبي الفاحشة كما فعل بقوم لوط وامرأته التي كانت راضية بأفعالهم، وتدلهم على ضيوف لوط، فكان حكمها حكمهم؛ لأن الدال على الشر كفاعله، كما أن الدال على الخير كفاعله.

٦ً- ترك الله تعالى بعض آثار منازلهم الخربة للعبرة والعظة لمن يتأمل من العقلاء بمصير الظالمين ومآل الكافرين في الدنيا، ولعذاب الله أشد وأنكى في الآخرة.

٧ً- اشتملت مهمة الملائكة الرسل في ضيافة إبراهيم أمرين:

الأول - البشارة التي هي أثر الرحمة، والإنذار بالإهلاك الذي هو أثر الغضب، ورحمته تعالى سبقت غضبه، فقدم البشارة على الإنذار.

الثاني - لم يعلل الملائكة البشرى بشيء، فلم يقولوا مثلاً: لأنك رسول مخلص أو لأنك مؤمن، أو لأنك عادل، وعللوا الإهلاك بقولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ لأن صاحب الفضل المطلق لا يكون فضله بعوض، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم.

قصص شعيب وهود وصالح وموسى عليهم السلام مع أقوامهم

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَثَمُودَا۟﴾: قرئ:

١- (وثمودَ) ممنوعة من الصرف، وهي قراءة حفص، وحمزة، ووقفا بالدال.

٢- (وثموداً) مصروفة، وهي قراءة الباقين. ووقفوا بالألف المبدلة من التنوين.

الإعراب:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ﴿مَدْيَنَ﴾: ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. و﴿شُعَيْبًا﴾: منصوب بفعل مقدر، تقديره: أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً. ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ عطف على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في آية ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ أو منصوب بفعل مقدر، تقديره: وأهلكنا عاداً وثموداً، بدلالة: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ لأنه في معنى الإهلاك، وكلمة ﴿وَثَمُودَاْ﴾ هنا مصروف لأنه اسم للحي، وورد في مكان آخر ممنوعاً من الصرف؛ لأنه بمعنى القبيلة.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ﴾ كلها أسماء منصوبة بالعطف على ﴿وَعَادًا﴾ في جميع الأوجه التي ذكرت، ولا ينصرف للعجمة والتعريف (العلمية).

البلاغة:

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ تقديم المفعول للاهتمام به، وفي الآية إجمال ثم تفصيل.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين، وأصلها: أبو القبيلة. ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ افعلوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر، فأقيم المسبب مقام السبب. وقيل: إنه من الرجاء بمعنى الخوف، أي واخشوا يوم القيامة. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ لاتفسدوا من عَثِي: أفسد، ومفسدين حال مؤكدة لعاملها. ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، وقيل: صيحة جبريل؛ لأن القلوب ترجف بها. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين، أي ماتوا.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ أي وأهلكنا. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ أي تبين لكم بعض مساكنهم، أو إهلاكهم من جهة مساكنهم بالحجر واليمن إذا نظرتم إليها عند مروركم بها، فكانت قبيلة عاد تسكن الأحقاف قرب اليمن، وثمود تسكن الحِجْر قرب وادي القُرى. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ

﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السوي، سبيل الحق الذي بيَّن الرسل لهم. ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ ذوي بصائر، متمكنين من النظر والاستبصار، ولكنهم لم يفعلوا.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي وأهلكنا، وتقديم قارون لشرف نسبه ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الحجج الواضحات. ﴿سَٰبِقِينَ﴾ فائتين عذابنا غير مدرَكين، بل أدركهم أمر الله، مأخوذ من سبق طالبه: إذا فاته.

﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين. ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي عاقبنا بذنبه. ﴿حَاصِبٗا﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباء، كقوم لوط، يقال: حصبه يحصبه: إذا رماه بالحصباء: وهي الحجارة الصغيرة. ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ الصرخة الشديدة، كمدين وثمود. ﴿مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كقارون. ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ فيعذبهم بغير ذنب. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بارتكاب الذنب والتعرض للعذاب.

المناسبة:

بعد أن قص الله تعالى قصص نوح وإبراهيم ولوط، أردفه بقصص شعيب وهود وصالح وموسى بإيجاز، لفائدة العظة والاعتبار بأحوال هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم.

ويلاحظ أن هذه القصص هنا ذكر فيها القوم جرياً على الأصل أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم، ولأن قوم شعيب وهود وصالح كان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس، فجرى الكلام على أصله، مثلما ذكر قارون وفرعون وهامان؛ لاشتهارهم بالطغيان. أما قوم نوح وإبراهيم ولوط فلم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها، فعرفوا بالنبي فقيل: قوم نوح وقوم لوط.

التفسير والبيان:

قصة شعيب:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي وأرسلنا إلى مدين نبي الله شعيباً الذي كان من أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده، وإخلاص العبادة له، وفعل ما يرجون به ثواب اليوم الآخر، والخوف من بأس الله ونقمته يوم القيامة، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، والبغي على أهلها، بإنقاص المكيال والميزان، وقطع الطريق على الناس، وغير ذلك من المعاصي التي تجب التوبة منها، وأخطرها الكفر بالله ورسوله، كما قال:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي فقابلوه بالتكذيب والعناد، والإصرار على الكفر والعصيان، فأهلكهم الله بزلزلة (رجفة) عظيمة، قوضت أركان ديارهم، وصيحة هزت جنبات نفوسهم، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم، أدى إلى إماتتهم، فأصبحوا في ديارهم ميتين لا حَرَاك بهم، ألقي بعضهم على بعض.

وقد تقدم بيان قصتهم في سور: الأعراف، وهود، والشعراء.

قصة هود وصالح:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي وأهلكنا عاداً قوم هود عليه السلام الذين كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قريبة من حضرموت في بلاد اليمن، وأهلكنا ثمود قوم صالح عليه السلام الذين كانوا يسكنون الحِجْر قريباً من وادي القُرى، بين الحجاز والشام، ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم، وكانت العرب تعرف مساكنهم جيداً، وتمر عليهم كثيراً.

فأنتم يا أهل مكة ويا مشركي العرب قد تبين لكم إهلاكهم من آثار مساكنهم، واطلعتم على معالم عذابهم، فإن الشيطان قد زين لهم أعمالهم من عبادة غير الله، وكفرهم بربهم، واقترافهم المعاصي، وصدهم الناس عن الدين الحق والسبيل الأقوم، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستبصار، فلا عذر لهم في ترك الإيمان بربهم، إلا أنهم لم ينتفعوا بطاقات فكرهم ونظرهم في عواقب الأمور.

أفلا يكون جديراً بكم أن تتعظوا بهؤلاء، فالعاقل من اتعظ بغيره؟!

قصة موسى:

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي وأهلكنا أيضاً قارون صاحب الأموال الوفيرة والكنوز العظيمة، وفرعون ملك مصر في زمن موسى، ووزيره هامان. وكان موسى قد جاءهم من عند ربه بالحجج الواضحات الدالة على صدق رسالته، فاستكبروا في الأرض وأبوا تصديقه والإيمان به، وكذبوه وكفروا بالله تعالى وبرسوله، وكانوا خاطئين آثمين عالين مفسدين، ولكنهم لم يكونوا فائتين الله، ولا هاربين من عذابه، بل أدركهم أمر الله وبطشه، فإنه القادر القاهر العزيز الغالب.

أنواع عقوبات الأقوام المكذبين:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي فلقي كل قوم ما يناسبه من العقاب، وأهلكهم الله بسبب تكذيبهم الرسل، وكانت عقوباتهم أربعة أنواع:

١- الريح العاصفة: أرسل الله على بعضهم كقوم عاد حاصباً، أي ريحاً صرصراً باردة عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل الحصباء (الحجارة الصغيرة) فتلقى عليهم، وتقتلعهم من الأرض، وترفعهم إلى عنان السماء، ثم تصرعهم على الأرض، فيصبحون جثثاً هامدة، وذلك لكفرهم وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ٤١/١٥] ؟!

٢- الصيحة: وأرسل الله على قوم ثمود الصيحة (أو الرجفة) حين أصروا على كفرهم فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم، وهددوا نبي الله صالحاً عليه السلام ومن آمن معه وتوعدهم بالإخراج والرجم، فجاءتهم صيحة أخمدت أصواتهم وحركاتهم، ومثلهم أهل مدين.

٣- الخسف: عاقب الله قارون الذي طغى وبغى، وعتا وعصى الرب الأعلى، وتكبر وتجبر واختال في مشيته، فخسف به وبداره الأرض، ليكون عبرة لكل عاتٍ جبار.

٤- الإغراق: أغرق الله قوم نوح بالطوفان لكفرهم وعبادتهم الأصنام، كما أغرق فرعون وهامان وجنودهما في صبيحة يوم واحد، فلم ينج منهم أحد.

وكل عقوبة مما ذكر كانت جزاءً وفاقاً على ظلمهم وآثامهم، وليس ظلماً لهم، كما قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي وما كان ينبغي لله أن يظلمهم أبداً فيما فعل بهم، ولكنه أهلكهم بذنوبهم وبظلمهم أنفسهم وكفرهم بالله ربهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

هناك سبب مشترك في عقاب الأمم المتقدمة وإهلاكهم وهو الكفر بالله كفر تحدٍ وعنادٍ، مع الإفساد في الأرض بالمعاصي الكبائر.

فقوم مدين: رفضوا دعوة نبيهم شعيب عليه السلام الذي قال لهم: الله تعالى واحد فاعبدوه، والحشر كائن فارجوه، والفساد بالكفر والظلم والمعصية محرم فلا تقربوه، فكذبوه فيما دعاهم إليه وأخبرهم به.

فعاقبهم الله كما ذكر هنا وفي الأعراف بالرجفة، وفي هود بالصيحة، والأمر واحد، فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة، أي زلزلة الأرض، إما بسبب صيحة جبريل، وإما بسبب رجفة الأفئدة التي ارتجفت منها، ولما كانت الصيحة عظيمة أحدثت الزلزلة في الأرض، فأصبحوا جاثمين ميتين في ديارهم.

وقبيلتا عاد وثمود: أهلكهما الله تعالى بظلمهم، أما عاد قوم هود عليه السلام فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥/٤١] ؟ فأنكروا وجود الله الإله الخالق القادر، وعتوا وبغوا وتعالوا على الناس، فدمر الله ديارهم بمن فيها ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦٩/٦-٧] . وأما ثمود قوم صالح فكذبوا رسولهم وأعلنوا كفرهم وهددوا نبيهم بالطرد والإخراج من بلدهم، وعقروا الناقة التي أرسلها الله إليهم معجزة لنبيهم صالح، وكان عقابهم كعقاب أهل مدين بالصيحة أو الزلزلة أو الطاغية، وبقيت آثار ثمود وعاد بالحِجْر والأحقاف شاهدة على ظلمهم، وآية بينة مؤثرة للمعتبرين المتعظين.

ورؤوس الطغيان والبغي في مصر: قارون وفرعون وهامان، استكبروا في الأرض، وظنوا أن الله غير قادر عليهم، فخسف الله بقارون وبداره الأرض، وأغرق فرعون وهامان وجنودهما في البحر.

ولم يكن العقاب بالهلاك ظلماً، فكل فئة أخذت بجريرة ذنبها العظيم، وما كان الله ليظلمهم؛ لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر، وإنما ظلموا أنفسهم.

تشبيه حال عبدة الأصنام بحال العنكبوت

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلۡبُيُوتِ﴾: قرئ:

١- (البُيُوت) وهي قراءة: ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (البِيُوت) وهي قراءة الباقين.

﴿يَدۡعُونَ﴾: قرئ:

١- (يدعون) وهي قراءة: أبي عمرو، وعاصم.

٢- (تدعون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ الكاف: في موضع رفع؛ لأنها خبر المبتدأ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ﴾ ﴿مَا﴾: إما بمعنى «الذي» في موضع نصب بـ ﴿يَعۡلَمُ﴾ وتقديره: إن الله يعلم الذين يدعون من دونه من شيء، فحذف العائد تخفيفاً. وإما أن تكون استفهامية في موضع نصب بـ ﴿يَدۡعُونَ﴾ وتقديره: أي شيء تدعون من دونه، وهو قول الخليل وسيبويه.

البلاغة:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ تشبيه تمثيلي، شبه الكفار في عبادتهم الأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيف النسج قابلاً للاختراق والزوال بنفخة هواء. والتشبيه التمثيلي: هو ما كان وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدد.

المفردات اللغوية:

﴿مَثَلُ﴾ المثل: الصفة التي تشبه المثل في الغرابة. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أصناماً يرجون نفعها. ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ حشرة معروفة. ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها تأوي إليه مما نسجته من شبكة واهنة ضعيفة. ﴿أَوْهَنَ﴾ أضعف البيوت، لا يدفع عنها حراً ولا برداً، كذلك الأصنام لا تنفع عابديها. ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ما عبدوها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ﴾ على إضمار القول، أي قل للكفرة: إن الله يعلم الذي يعبدون، والكلام تجهيل لهم وتأكيد للمثل. ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ غيره. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الغالب القوي في ملكه، الحكيم في صنعه، وهو تعليل لما سبق، فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعدّ شيئاً بمن هذا شأنه، فالجماد بالنسبة إلى القادر القاهر على كل شيء، البالغ النهاية في العلم وإتقان الفعل كالمعدوم .

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ﴾ يعني هذا المثل نظائره. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ نجعلها مثلاً تقريباً لأفهامهم. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ يفهمها. ﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ المتدبرون الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم: من عقل عن الله، فعمل بطاعته، واجتنب سخطه».

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أنه أهلك من أشرك بعاجل العقاب، وسيعذبه

بشديد العذاب، دون أن ينفعه معبوده في الدارين، شبَّه حال هذا المشرك الذي اتخذ معبوداً دون الله بحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً لا يحميها من الأذى، ولا يمنع عنها الحر أو البرد.

ثم أكد ذلك فأوضح أن ما يدعونه ليس بشيء، فكيف يعبد وتترك عبادة الله القادر القاهر الحكيم المتقن؟ ثم لفت النظر إلى فائدة ضرب الأمثال وهي التقريب للأفهام وإدراك العقلاء لمغزاها.

التفسير والبيان:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي صفة المشركين في اتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله، طمعاً في نصرهم ورزقهم ونفعهم، والتمسك بهم في الشدائد، كصفة العنكبوت في ضعفها اتخذت لنفسها بيتاً يقيها الأذى والحر والبرد، فلم يفدها شيئاً، وإذا هبت ريح يصير هباء منثوراً.

فكذلك هؤلاء المشركون لا تفيدهم أصنامهم، ولا تدفع عنهم سوءاً، ولا تجديهم شيئاً، وتصبح أعمالهم للأوثان مبددة ذاهبة الأثر، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣] .

ثم بيّن الله تعالى مدى ضعف هذا البيت، فقال:

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن أضعف البيوت بيت العنكبوت؛ لأنه يخرب بأدنى شيء، ولا يبقى منه أثر، فكذلك عملهم لا أثر له، فلو كانوا يعلمون علماً صحيحاً أن أصنامهم وعبادتهم لها لا تنفعهم شيئاً، ما فعلوا ذلك، إلا أنهم في الواقع في غاية الجهل، لا يعلمون شيئاً من عواقب الأمور، فتراهم يظنون بذلك النفع.

ثم أكد الله تعالى كون تلك المعبودات ليست بشيء، فقال متوعداً عابديها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ أي إن الله يعلم أن الذي يعبدونه من غيره من الأصنام والجن والإنس ليس بشيء، وهو القوي الغالب القادر على الانتقام ممن كَفَر به، وأشرك في عبادته معه غيره، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه، يعلم ما هو عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم، إنه حكيم عليم.

ثم أبان تعالى فائدة ضرب الأمثال، فقال:

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي هذا المثل وأشباهه في القرآن الكريم، يضربها للناس تقريباً لأفهامهم، وتوضيحاً لما التبس عليهم، وما يفهمها ويدركها ويتدبر حقيقتها إلا العلماء الأثبات، المتضلعون في العلم، المتأملون في القضايا والمسائل.

روى جابر أن النبي ﷺ تلا هذه الآية، فقال: «العالم من عقل عن الله تعالى، فعمل بطاعته، واجتنب سخطه» .

فقه الحياة والأحكام:

تدل الآيات على ما يأتي:

١- إن عبادة الأصنام والأوثان فارغة المحتوى، لا مضمون فيها، ولا هدف لها، وما مثلها في عدم النفع إلا كمثل بيت العنكبوت، قال الفراء: هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً.

٢- شبَّه الله تعالى حال عبدة الأوثان بحال العنكبوت التي تتخذ أضعف البيوت، ولو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأن هذا مثلهم أو صفتهم، لَمَا عبدوها، لا أنهم يعلمون أن بيت

العنكبوت ضعيف. أما قتل العنكبوت فروي عن سيدنا علي جوازه قائلاً: إن تركه في البيوت يورث الفقر، وهذا صحيح لأن العناكب من الحشرات السامة.

٣- إن الله يعلم ضعف كل ما يعبدون من دونه من ملائكة وكواكب وأصنام وجن وإنس، فرثى لحالهم، وعجب عن صنعهم، فنبههم على سطحية تفكيرهم، وسوء اعتقادهم، وأن جميع تلك المعبودات مثل بيت العنكبوت؛ لأن كل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله، فلا معبود بحق إلا الله، ولا إله سواه.

٤- إن ضرب الأمثال أي بيانها وعقد المقارنة بين المتشابهات أمر مفيد للناس، لمعرفة حقائق الأمور، ولكن لا يفهم تلك الأمثال إلا العالمون بالله تعالى.

قال أبو حيان: وكان جهلة قريش يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، وما علموا أن الأمثال والتشبيهات طرق إلى المعاني المحتجبة، فتبرزها وتصورها للفهم، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد[١].

٥- حقاً إن المشرك في غاية الجهل في الاعتقاد، ولذا كانت هذه الآيات تجهيلاً للمشركين، حيث عبدوا ما ليس بشيء، لأنه جماد، لا علم لديه، ولا قدرة أصلاً عنده، وتركوا عبادة القادر القاهر، الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا لحكمة.

أما المسلم المؤمن قلبه بالله فهو واع لما يفعل، مقدر ما يعبد، يبغي الخير في عبادته، ويحسن العمل في اتباع الشرع، لأن فيه نجاته وإنقاذه، ويصل إلى مبتغاه فعلاً بجلب النفع والخير، ودفع الضرر والشر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ١٥٣.

فائدة خلق السماوات والأرض وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ محقاً غير قاصد به باطلاً، وقصده بالذات من خلقهما إفاضة الخير، والدلالة على ذاته وصفاته، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ دلالة على قدرته تعالى. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المنتفعون بها في الإيمان، بخلاف الكافرين.

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ القرآن، تقرباً إلى الله بقراءته، واستكشافاً لمعانيه. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ بأن تكون سبباً للانتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها؛ لأنها تذكر بالله، وتورث النفس خشية، أي من شأنها ذلك. والمنكر: القبيح شرعاً وعقلاً. روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله ﷺ الصلوات، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوصف له، فقال: «إن صلاته تنهاه» فلم يلبث إلا أن تاب. ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي إن الصلاة أكبر من سائر الطاعات، وإنما عبر عنها بالذكر، لاشتمالها على الذكر الذي هو العمدة في تفضيلها على سائر الحسنات ونهيها عن السيئات. ويصح أن يكون المعنى: ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومن سائر الطاعات، فيجازيكم به أحسن المجازاة.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى الناس بالإيمان، وأبان ضعف دليل الكفار على عبادة معبوداتهم، لفت النظر إلى من تجب له العبادة وهو الذي لا يعجزه شيء، وخالق السماوات والأرض، والمرشد بكتابه إلى معالم الحق، والمبين طريق العبادة المرضية له وهو الصلاة. كما أن في الآيات إيناساً للنبي ﷺ وللمؤمنين عن إعراض الكفار واليأس منهم، وبالتأمل في خلق السماوات والأرض وتلاوة القرآن الدال على أن الرسل السابقين كنوح وإبراهيم ولوط بلغوا الرسالة، وأقاموا الأدلة على الإيمان بالله تعالى، ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة.

التفسير والبيان:

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي إن الله تعالى أوجد وأبدع السماوات والأرض للدلالة على قدرته العظيمة، وإفاضة الخير، ولِحِكَم وفوائد دينية ودنيوية، فقد خلقهما محقاً غير قاصد الباطل، ولم يخلقهما عبثاً ولهواً ولعباً، وفي ذلك دلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والألوهية، كما جاء في رواية عن الله عز وجل: «كنتُ كنزاً مخفياً، فأردتُ أن أُعرف، فخَلَقْتُ الخَلْق، فبي عرفوني» إلا أنه لم يصح حديثاً، ومعناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦] .

ولا ينتفع بتلك الدلالات ولا يفهم هذه الأسرار إلا المؤمنون المصدقون بالله ورسوله؛ لأنهم يستدلون بآثار الخلق على وجود المؤثر فيها.

ثم أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس للاستزادة من المعرفة الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته فقال:

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي اقرأ يا محمد ومثلك كل مسلم، وأدم تلاوة هذا القرآن وتبليغه للناس، فإنه إمام ونور، وهدى ورحمة، ودليل خير ونجاة، وعلاج ما استعصى من الأزمات والمحن، وتخطي مراحل اليأس والقنوط.

كذلك أمر تعالى بالصلاة قرة عين المؤمن فقال:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ أي وأدّ أيها النبي وكل مؤمن فريضة الصلاة ونافلتها تامة الأركان والشروط، مع الخشوع والخضوع لله، واستحضار خشية الله في جميع مراحلها، فهي تشتمل بمواظبتها على شيئين: ترك الفواحش والمنكرات، وهي عماد الدين، وصلة بين العبد وربه، ودليل الإيمان واليقين، وفرجة المكروب والمحزون، وسبب لتطهير العبد من آثار الذنوب والمعاصي. جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني وغيره من رواية عمران وابن عباس مرفوعاً: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بُعْداً» وروى أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «حُبِّب إلي من دنياكم النساء، والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة».

وكل ذلك مشروط بأدائها بخشوع وخضوع وإخلاص كما ذكر، حتى تكون ذات مدلول وروح، وذات إشعاع تملأ النفس استحضاراً لعظمة الله والخوف منه، وإلا كانت مجرد حركات وأفعال مادية فاقدة الأثر المقصود منها. ثم أكد تعالى رفعة شأن الصلاة فقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي إن الصلاة أكبر من سائر الطاعات، وذكر الله وتفقده الناس العابدين برحمته أكبر من ذكرهم إياه بطاعته، والله عليم بما يصنعون من خير أو شر، وعليم بذات الصدور، يعلم جميع أقوالكم وأفعالكم ونياتكم: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٢٠/٧] وفي ذلك وعد ووعيد، وحث على مراقبة الله في كل

الأحوال، فمن يعلم أن الله يسمعه ويراه، لزم الحياء، وخشي العذاب، وأحسن العبادة. ومن أتى بالذكر النافع وهو الحاصل عن علم وتأمل ووعي قلب وتفرغ نفس مما سوى الله، نال المراد، وحقق المبتغى، وأما ما كان مجرد لقلقة باللسان، دون استحضار لعظمة الله وخشوع معه، فلا خير فيه ولا نفع.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً- خلق الله السماوات والأرض على وجه الإحكام والإتقان والعدل والقسط، ولأهداف وغايات دينية ودنيوية، منها أن الإنسان يستدل بهما على وجود الخالق القادر الكامل الشامل العلم، الذي لا يعزُب عن علمه أجزاء الموجودات فيهما، ولا يعجزه شيء فيهما.

٢ً- إن المستفيد من خلق السماوات والأرض هو الإنسان، ولا ينتفع في دلالتهما على الاعتقاد بوجود الخالق الواحد إلا المصدقون بالله ورسوله.

٣ً- على المسلم مواظبة التلاوة لآي القرآن، وتبليغ أحكامها المستفادة منها، فإن القرآن كتاب هداية، ودستور حياة فاضلة.

٤ً- على المؤمن أيضاً استدامة إقامة الصلاة: وهو أداؤها في وقتها بقراءتها، وركوعها وسجودها، وقعودها، وتشهدها، وجميع شروطها.

٥ً- إن الصلوات الخمس لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة تنهى عن الفواحش والمنكرات، وتكّفر ما بينها من الذنوب إذا أديت بحقها وكانت مع استحضار عظمة الله وبأسه، أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أرأيتم لو أن نَهَراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلَّ يوم خمس مرات، هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شيء؟ قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء، قال: فذلك مَثَلُ الصلوات الخمسِ، يمحو الله بهن الخطايا».

وروى أنس بن مالك قال: كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي ﷺ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه، فذُكِر للنبي ﷺ، فقال: «إن الصلاة ستنهاه» فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقل لكم؟».

ويؤكده الحديث المتقدم الذي رواه الطبراني وغيره: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بُعْداً، ولم يزدد بها من الله إلا مقتاً».

قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله: القرآن يأمره وينهاه.

٦- دل قوله تعالى ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ على أن الصلاة أكبر من سائر الطاعات وأفضل من كل العبادات، وأن ذكر الله لعباده بالثواب والثناء عليهم ورحمته إياهم أكبر من ذكرهم له في عبادتهم وصلواتهم، وكذلك إن تلاوة القرآن وإقامة الصلاة ينبغي أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم؟

روي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال في قول الله عز وجل: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: «ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه». وفي حديث آخر: «من ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم»[1].

---

(١) روى الطبراني عن معاذ عن أنس حديثاً بلفظ: «لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الملأ الأعلى».

٧ً- الذكر النافع: هو الذي يكون مع العلم، وإقبال القلب، وتفرغه، إلا من الله، وأما ما لا يتجاوز اللسان فله رتبة أخرى.

وذكر الله تعالى للعبد: هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه، قال الله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٢] .

٨ً- إن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ نوع من الوعد والوعيد، وحث على مراقبة الله تعالى في السرّ والعلن.

آمنت بالله تعالى

انتهى الجزء العشرون

فهرس
المجلد العاشر

فهرس الجزء التاسع عشر

الموضوع	الصفحة
أدلة خمسة على وجود الله وتوحيده	٨٣
جهل المشركين في عبادة الأوثان وتوجيه النبي وسبب جعل العبادة للرحمن	٩٧
صفات عباد الرحمن	١٠٩
سورة الشعراء	١٢٩
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	١٢٩
مشتملاتها	١٣٠
فضلها	١٣١
تكذيب المشركين بالقرآن وإنذارهم وإثبات وحدانية الله	١٣٢
القصة الأولى - قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وقومه	١٣٨
١- امتنان فرعون على موسى بتربيته	١٣٨
٢- الجدل بين موسى وفرعون في إثبات وجود الله	١٤٨
٣- معجزة موسى عليه السلام ووصف فرعون لها بالسحر	١٥٦
٤- إيمان السحرة بالله في المبارزة الحاسمة في مشهد عظيم	١٦٠
٥- نجاة موسى وقومه وإغراق فرعون وجنده	١٦٩
مقدمة لخروج بني إسرائيل من مصر	١٧٣
القصة الثانية - قصة إبراهيم عليه السلام	١٧٩
١- التنديد بعبادة الأصنام وبيان صفات الرّب المستحق للعبادة	١٧٩
٢- دعاء إبراهيم عليه السلام دعاء المخلصين الأوّابين	١٨٧
٣- أوصاف يوم القيامة وثواب الله وعقابه وندم المشركين على ضلالهم	١٩٢
القصة الثالثة - قصة نوح عليه السلام مع قومه	١٩٩
القصة الرابعة - قصة هود عليه السلام مع قومه	٢٠٨

* * *

فهرس الجزء العشرين

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *